جامعة محمد الأول
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية
وجدة - رقم - 8 -
سلسلة : ندوات ومناظرات - رقم - 3 -

ندوة

الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية
إلى أواخر القرن التاسع عشر

kitabweb-2013.forumaroc.net

المملكة المغربية

جامعة محمد الأول

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية
وجدة - رقم - 8 -

سلسلة : ندوات ومناظرات - رقم - 3 -

المدير المسؤول،
محمد لعميري : قيدوم الكلية

رئيس التحرير،
عبد الإله بلمليح

المعالجة التقنية،
مهدي حمزاوي

هيئة التحرير،

عبد الرحمن الحرادجي	اسعادة الشيخ
سعيد منتاق	حسن الأمراني
محمد كمبوش	عمرو سلام
مولاي أحمد الكمون	محمد الكوش
محمد أمزيان	مصطفى بن حمزة
محمد حباني	حسين رحموني
هرو عزي	محمد علي الرباوي
الميلود زروقي	عبد العزيز فارح
محمد مسالي	محمد منفعة
مصطفى رمضاني	عبد السلام قشيقش

ندوة:

"الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية إلى أواخر القرن التاسع عشر"

تعبر الآراء الواردة في المقالات عن وجهة نظر أصحابها

عنوان المراسلة،
مصلحة النشر. كلية الآداب والعلوم الإنسانية
ص.ب. 457. وجدة 60001
الهاتف، 58 / 77 47 74 (6)
الفاكس، 41 47 74 (6)

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء
رقم الإيداع 1995/484
ردمك 9981-931-01-02

المحتويـــات

افتتاحية العدد

لعميري محمد قيدوم كلية الآداب والعلوم الإنسانية ... 7

الكلمة الإفتتاحية للسيد عميد جامعة محمد الأول 9

الكلمة الإفتتاحية للسيد قيدوم كلية الآداب والعلوم الإنسانية 12

الكلمة الإفتتاحية للجنة المنظمة 17

الجلسة الأولى:نماذج من المراكز العلمية في عصر الدولة العلوية.

ورقة حول شخصية السلطان المولى محمد الأول

مارية دادي 18

الحركة العلمية بتافيلالت خلال عهد الدولة العلوية (ق 18 – 19)

لحسن تاوشيخت ... 22

التعليم بمدينة فاس في عهد السلطان مولاي سليمان

محمد منفعة 55

علماء المهجر بمدينة وجدة في القرن 19

عبد الحميد إسماعيلي 73

الجلسة الثانية:صور من الحياة الأدبية في عصر الدولة العلوية

من سمات النهضة الأدبية في العصر العلوي الأول

عبد الجواد الستاط .. 84

الحركة الأدبية في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله

الصادقي العماري 96

كتاب زهر الأكم في الأمثال والحكم لأبي علـي الحسن اليوسـي نموذجـا للحركة العلمية في عصر الدولة العلوية.

مصطفى السلاوي 129

مفهوم الشعر لدى اليوسي من خلال كتابه: نيل الأماني في شرح التهاني
محمد الدناي 156
بعض الظواهر المسرحية عند المغاربة في عهد الدولة العلوية .
مصطفى الرمضاني 169

الجلسة الثالثة: *النشاط الفكري في العصر العلوي*
الواقع الفكري في فجر الدولة العلوية .
عبد الله بنصر العلوي 182
من قضايا الفكر لدى المؤلفين المغاربة زمان محمد الثالث وابنه سليمان
أحمد العراقي 203
ملاحظات حول مناهج الدراسة والتدريس في ق 18 من خلال كتاب: الإكليل والتاج.. لمحمد بن الطيب القادري.
مارية دادي 211
لكتابة التاريخية لدى محمد بن الطيب القادري: نشر المثاني نموذجا
محمد رزوق 223
التأليف التاريخي في العهد العلوي: أبو القاسم الزياني نموذجا
العربي الحمدي 233

الجلسة الرابعة: *العلماء والمجتمع*
وقفة على أحوال الثقافة والمثقفين على عهد المولى إسماعيل
محمد مرزاق 256
نماذج وصور من تصدي العلماء للفساد الإجتماعي والديني والصوفي خـــلال القرنين 11و12هـ.
علال معكول 264
قراءة في وثائق جديدة حول مكانة العلماء في الحياة اليومية (نماذج من عصرالدولة العلوية)
محمد البار 279

العالم والسلطة في المغرب خلال القرن 19
عبد اللطيف حسني 300

الجلسة الخامسة: التواصل الحضاري في عصر الدولة العلوية (ج1)
استرجاع الاراضي المغربية في الأدب الإسباني للقرن 17 (بالإسبانية)
ميجيل موريطا (بالإسبانية)
الكتاب في مفاوضات السلاطين العلويين مع القوى الأجنبية خلال القرنين 17 و 18 (بالفرنسية)
محمد سديد (بالفرنسية)

الجلسة السادسة: التواصل الحضاري في عصر الدولة العلوية (ج2)
تاريخ المغرب من خلال الرحلات في عصر الدولة العلوية
أحمد حدادي 314
موقف المغارب من الغرب في ق 19 من خلال الرحلات السفارية إلى أوربا
أحمد الدويري 354
مولاي إسماعيل وأوربا (بالفرنسية)
بابا صحبي (بالفرنسية)
السلطان سيدي محمد بن عبد الله: اتجاهاته المذهبية
أحمد علمي 369
الكلمة الختامية للسيد قيدوم كلية الآداب 377
الكلمة الختامية للجنة المنظمة 382

كلمة العدد

باسم الله الرحمان الرحيم

تضع كلية الآداب والعلوم الإنسانية بين يدي القارئ الكريم ثمرات أشغال ندوة: ***"الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية إلى نهاية القرن 19"***، التي احتضنتها رحابها أيام 09-10-11 نونبر 1993.

والكلية فخورة بتقديم هذا العمل الجاد المعبر عن تظافر جهود عديدة جعلت نصب أعينها المساهمة في التعريف بالحركة الثقافية والعلمية أيام الدولة العلوية الشريفة. ولعل ما تمخض عن هذا الملتقى العلمي كفيل بتبيان مدى الاهتمام الذي حظي به المثقفون والثقافة خلال هذه الفترة المشرقة من تاريخنا.

وبهذه المناسبة تتقدم الكلية بجزيل الشكر وعميق الإمتنان إلى ولاية وجدة وعلى رأسها السيد محمد أوفود على المساهمة المادية والمعنوية التي قدمها من أجل هذه الندوة ونشر أعمالها، كما تتوجه المؤسسة بخالص الشكر والإمتنان إلى كل من ساهم في أعمال هذه التظاهرة العلمية سواء منهم الذين شرفونا بحضورهم ومشاركتهم أو أولائك الذين سهروا على إعدادها وتنظيمها إلى جانب الذين تولوا الإشراف على إخراجها وطبعها.

كلية الآداب.

وجدة في 02 نونبر 1994

الكلمة الإفتتاحية للسيد عميد الجامعة

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

- سعادة العامل
- السادة رؤساء المؤسسات الجامعية
- زملائي الأساتذة
- ضيوفنا الأعزاء
- حضرات السيدات والسادة

يسعدني غاية السعادة، أن أتولى افتتاح أشغال ندوة "الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية إلى نهاية القرن 19 " التي تنظمها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الأول بوجدة، تحت الرعاية السامية لأمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله. فمرحبا بكم جميعا في رحاب هذه الجامعة، وشكرا للأساتذة المشاركين في هذا الملتقى العلمي الهام، وبخاصة أولئك الذين وفدوا على الجامعة من مختلف الجامعات الوطنية متجشمين عناء السفر، ومشقة الرحلة إلى هذه الحاضرة من شرق المملكة الشريفة، متمنيا لهم إقامة طيبة بين ظهرانينا، وعودة سالمة إن شاء الله إلى مقرات أعمالهم، راجيا لهذه الندوة اطراد التوفيق والنجاح.

حضرات السيدات والسادة، إن اختيار موضوع الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية الشريفة، ليكون مجالا للبحث والدرس في هذه الندوة العلمية المباركة، لهو اختيار صائب، ذلكم بأن عهد الدولة العلوية الشريفة، يمكن اعتباره عهد نهضة بالمعنى الكامل للكلمة، فقد شهد هذا العهد

مجموعة من التحولات الفكرية والإجتماعية والثقافية، أسست لما يسمى العصر الحديث بالمغرب، بكل مظاهره وتجلياته، فبالإضافة إلى ما امتاز به هذا العهد من حرص كبير على الإرتباط بالأصالة العربية والإسلامية في مجالات كثيرة، أضفى على بلادنا طابعا فريدا من نوعه، فإن الملوك العلويين الأشراف سعوا في كثير من الأحيان إلى جعل بلادنا تأخذ بنصيبها الوافر من وسائل التقدم والتحديث، فبعث بعضهم الوفود العلمية إلى أوربا للإستفادة مما وصلت إليه من تحضر ورقي، والإطلاع على ما قطعته من أشواط في مختلف المجالات والأنحاء، وهذا دليل على وعي الملوك العلويين الأشراف بأهمية انفتاح المغرب على التيارات الجديدة والمناهج الحديثة في ترقية وتحديث البلاد والأخذ بما يتماشى مع تقاليدنا المغربية الأصيلة، حتى تظل دائما النموذج المتفرد للبلدان ذات التاريخ العريق، والأمجاد المتألقة الشامخة.

حضرات السيدات والسادة، إن محاور موضوع هذه الندوة، بما تمتاز به من تنوع وغنى وما تحفل به من عناصر التكامل والإنسجام، لقمينة بأن تقدم الصورة الكاملة للتحولات المشار إليها، وتستجيب للغايات التي رسمت لهذا الملتقى العلمي الهام. وإذا كانت لجنة تنظيم الندوة قد اختارت نهاية القرن "19" كمجال لامتداد الموضوع وذلك فيما يبدو لسبب تاريخي صرف، فإن الحركة العلمية لم تتوقف بالمغرب، وأن التحولات الفكرية، التي سارت باتجاه العصر الحديث، جديرة بأن تخص بندوة أخرى تقدم فيها الصورة العلمية والفكرية والحضارية لبلادنا على عهد الملوك العلويين العظام الذين تعاقبوا على عرش المغرب، إلى الوقت الحاضر وفي طليعتهم واسطة عقدهم، جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله.

حضرات السيدات والسادة، إن جامعتنا، وهي تخطو خطواتها الموفقة على طريق البحث العلمي، وعلى درب الإشعاع الفكري والثقافي في هذه المنطقة العزيزة من أرض المملكة الشريفة، لجديرة بكل تنويه، ومن حقها أن تعتز بهذه النخبة الجادة من الأساتذة الباحثين الذين لا يألون جهدا في العمل من أجل إحلالها المكانة المرموقة بين جامعات المملكة، وإني لا أملك إلا أن نهنئ أنفسنا بما ينجز في مؤسساتنا المختلفة من منجزات علمية متضافرة، على الرغم من قلة الوسائل، ومن بعدها عن المكتبات والخزائن العامة في حواضر المدن الأخرى بالمملكة، ويكفي للتأكد من ذلك

استعراض الحصيلة المعرفية والعلمية التي استطاعت هذه الجامعة أن تخرج بها طيلة خمس عشرسنة من عمرها فكلنا يذكر الندوات والملتقيات العلمية والفكرية، وكذا الأيام الدراسية وغير ذلك من الأنشطة التي اكتسى بعضها طابعا دوليا والتي يتواصل انعقادها على أرض هذه الجامعة منذ سنوات. ولعل ما يثلج الصدر أن الأساتذة الباحثين بنختلف المؤسسات الجامعية لا يتوانون في الإستجابة لكل عمل غايته النهوض برسالة الجامعة التربوية والأكاديمية فشكرا لهم على مبادرتهم الخيرة. وهنيئا للجامعة بإقبال هؤلاء العاملين المخلصين.

حضرات السادة والسيدات قبل أن أختم كلمتي الموجزة هذه أعود فأجدد ترحابي بالأساتذة المشاركين في هذه الندوة. كما أشكر كل من ساهم من قريب أو بعيد من أجل أن ينعقد هذا اللقاء العلمي المثمر إن شاء الله، متمنيا لكم مرة أخرى التوفيق في أعمالكم.

وفقنا الله جميعا إلى ما فيه خدمة هذه الجامعة وروادها من طلاب العلم والمعرفة وأعاننا على الإضطلاع بمسؤولياتنا في كنف الرعاية السامية لراعي العلم والعلماء في هذا البلد الأمين، جلالة الملك الحسن الثاني دام عزه وعلاه، وأقر عينه بسمو ولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه المحبوب مولاي رشيد، وباقي أفراد أسرته الشريفة، إنه سميع مجيب. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الكلمة الافتتاحية للسيد قيدوم كلية الآداب والعلوم الإنسانية

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم وجدة
السيد الكاتب العام لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامي
ورئيس المجلس العلمي لإقليمي وجدة وفجيج
السيد عميد جامعة محمد الأول
السيد رئيس المجموعة الحضرية
السادة رؤساء المؤسسات الجامعية
ضيوفنا الأعزاء
زملائي الأساتذة
إخواني الطلبة
أيها الحضور الكريم

بسم الله وعونه وسديد توفيقه وتحت الرعاية السامية لمولانا أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين وراعي العلم والعلماء سليل الدوحة النبوية الشريفة والشجرة العلوية الطاهرة باني الجوامع والجامعات والمعاهد والكليات جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده، تتشرف اليوم كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتنظيم هذه الندوة المباركة تكريما للروح الطاهرة والنفس الزكية للسلطان المجاهد المولى محمد دفين سهل أنكاد بالمنطقة الشرقية، هاته الندوة التي تنظم بتعاون مع عمالة إقليم وجدة تحت عنوان: *الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية الشريفة إلى أواخر القرن 19*. وإننا إذ نقوم بتكريم هذا السلطان العظيم نخلد فيه المثل الأعلى للقائد المؤسس والملك المجاهد الذي بذل النفس

بالعزيمة القوية والسياسة الحكيمة، ولن نكون بعيدين عن الحقيقة إن قلنا أن ألوية السلام ونفحات الطمأنينة والهناء لم تسد المغرب وتهيمن عليه إلا بفضل هذا الرجل الذي لعب دورا أساسيا في ربط جنوب المغرب بشماله وشرقه بغربه.

وهكذا نجد أن الأمن والرخاء والسعادة لم ترفرف على هذا البلد إلا نتيجة لذلك الجهاد المتواصل والتضحيات الجسيمة الذي بذلها الملوك العلويون الأماجد. ثم إن الشعب المغربي كان مرتبطا أشد الإرتباط بسير ملوكه الأجلة يرى فيهم المثل الأعلى في الإستقامة والعمل المخلص والمقاصد الشريفة والنوايا الحسنة.

أيها السـادة

إن الكلية وهي تنظم ندوة الحركة العلمية في عهد الدولة العلوية لا تستلهم قوتها ومشروعية عملها بل ترى ضرورتهـا في أربعة أبعـاد:

أولا إن الكلية وهي تنظم هذه الندوة تقوم بالرسالة المنوطة والأمانة الملقاة على عاتقها والمتمثلة في التكوين والبحث العلمي فكما نظمت المؤسسة ندوات في السابق وستنظم ندوات في المستقبل فهي اليوم تنظم هذه الندوة تأدية لواجبها وللرسالة الملقاة على عاتقها والمساهمة في البحث العلمي الجامعي الأكاديمي المحض.

ثانيا إننا نعتبر أن موضوع هذه الندوة وخصوصياتها ليس فقط بحثا في التاريخ العلمي للمغرب بل هو وسيلة نتواصل بها لربط ماضينا بحاضرنا. فهو ليس فقط مشروع من الناحية الأكاديمية كالمواضيع المتعلقة باللغات والدراسات الأدبية والنقدية والجغرافية وغيرها من العلوم البحتة بل نرى له بعدا حضاريا متميزا لأنه يربط ماضينا بحاضرنا الذي هو أساس هويتنا الثقافية والحضارية تلك الهوية التي هي كنه الماهية الوطنية المغربية والتي ساهم الملوك العلويون في بلورتها عبر القرون.

إذن المسألة ليست مسألة موضوع اكاديمي بحت بقدر ماهي مسألة هوية. إن مغرب اليوم والمكانة

التي يحتلها والإحترام والتقدير الذي يحظى به هي تراكم تاريخي وحضاري وعلمي واجتماعي وسياسي مرتبط عضويا ولعدة قرون بالملوك العلويين الأفذاذ وانطلاقا من مؤسس الدولة المولى محمد إلى محرر البلاد المولى محمد الخامس إلى ذرة العقد وجوهرة التاج موحد البلاد صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله.

ثالثا إن موضوع ندوتنا ايها السادة له بعد ثالث يتمثل في ربط التاريخ المحلي اي تاريخ وجدة وسهول انكاد والمنطقة الشرقية كلها بالتاريخ الوطني وبناة هذا الوطن العزيز من السلاطين العلويين وهكذا نعطي لانفتاح الجامعة على محيطها الإقتصادي والإجتماعي بعد الإنفتاح على الواقع التاريخي كذلك.

رابعا أما البعد الرابع لندوتنا، فيمكن تلخيصه كالتالي :

إننا عندما نكرم الروح الزكية للمولى محمد الأول الذي تحمل جامعتنا اسمه إنما نسعى وراء ذلك الى الإعتراف بالجميل وبالأيادي البيضاء لملوك هذه الدولة على شعبنا المطمئن الموحد.

أيها السادة، إننا إذ نقوم بتكريم المولى محمد الأول الذي سميت به هذه الجامعة نقوم بعملية مركبة تتجلى في الإعتراف بجميل هذه الدولة العلوية الشريفة وفضلها على هذه الأمة المغربية عامة ثم تتجلى كذلك في القيام بالواجب نحو الوطن والإضطلاع بالرسالة الثقافية والعلمية المنوطة بها.

ومن هذا المنطلق كان منظور التعاون وتظافر الجهود بين الكلية والعمالة وبهذا يمكن القول أن الكلية لتفتخر بهذا التعاون ولتفخر بالرعاية السامية لهذه الندوة تلك الرعاية التي نعتبرها في الحقيقة رعاية للثقافة والعلم وتنويها بجهود الأساتذة والإداريين والطلبة في هذه الناحية الشرقية من بلادنا.

وبناء على ذلك لابد أن نتوجه بالشكر الجزيل والإمتنان لسعادة عامل صاحب الجلالة على إقليم وجدة الحاج محمد بوفوس الذي أبى كما عودنا على ذلك دائما إلا أن يكون بجانب الجامعة والجامعيين حيث لم يبخل علينا بتشجيعاته المتواصلة ماديا ومعنويا خدمة للعلم وخدمة لهذه المنطقة من ربوع وطننا العزيز فجزاه الله خير الجزاء ووفقه في خدمة الصالح العام ونغتنم هذه المناسبة

لنتوجه بجزيل شكرنا للسلطات المحلية التي لـم تدخر جهدا في مساعدتنا والمساهمة في إنجاح هذه التظاهرة العلمية وهنا لا بد أن أتوجه إلى السيد عميد جامعة محمد الأول لأجزي له الشكر بإسمي الشخصي ونيابة عن الأساتذة وطلبة كلية الآداب على الدعم المادي والمعنوي والمجهودات المتواصلة التي ما فتئ يحيط بها كليتنا عامة وهذه الندوة خاصة، شاكرين له هذه التشجيعات وراجين له السداد والتوفيق في ما يقوم به من أجل جامعتنا هاته.

كما أرحب بضيوفنا الأعزاء من علماء أجلاء وأساتذة باحثين الذين تحملوا مشقة السفر وخطوا مئات الكلمترات ليساهموا بأبحاثهم في إنجاح هذه الندوة فشكرا لهم ومرحبا بهم مع متمنياتي لهم بمقام سعيد بين ظهرانينا.

وأنتهز هذه الفرصة ايضا لأتقدم بالشكر الجزيل للسيد الكاتب العام لوزارة الأوقاف والشؤون الرسلامية ورئيس المجلس العلمي لإقليمي وجدة وفجيج السيد محمد أفزاز على تفضله بحضور هذا الإفتتاح ومساهمته المادية والمعنوية في سبيل إنجاحه فجزاه الله خيرا على حسن صنيعه.

كما أتقدم بالشكر والإمتنان لرئيس المجموعة الحضرية لمدينة وجدة الذي لم يدخر جهدا في مساعدتنا في إنجاح هذه الندوة العلمية ماديا ومعنويا راجين استمرارية وتواصل هذا التعاون لما فيه صالح مدينتنا ومنطقتنا الشرقية.

وأتوجـــه الآن إلـى زملائي الأساتذة أعضـاء اللجنة المنظمة وعلـى رأسهـم السيد عبد الإله بلمليح لأعبر له عن شكرنا الجزيل وعلى العمل الدؤوب والمتواصل لعدة شهور من إجل تنظيم هذه الندوة، ذلك العمل وتلك التضحيات التي أعلم حق العلم أنها كانت تنبعث من روح مشبعة بخدمة الكلية والبحث العلمي. فشكرا لهم بإسم المؤسسة على كل ما بذلوه وما سيبذلونه من جهد من أجل كليتنا العزيزة وأشكر كل أساتذة مؤسستنا الذين ساهموا من قريب أو من بعيد في إنجاح هذه التظاهرة العلمية.

ولا يفوتني إلا أن أنوه بوسائل الإعلام السمعية والبصرية والمكتوبة التي ما إن سمعت بندوتنا حتى سارعت إلى الإتصال بنا من أجل تغطية هذا الحدث العلمي الهام فشكرا لهم جميعا.

وحين أتوجه إلى أولئك الجنود المجهولين من إداريين وأعوان الذين تحملوا الكثير من أجل إنجاح ندوتنا والمساهمة في إعطائها الحلة القشيبة التي هي عليها، أقول أن مؤسستهم فخورة بهم وبما يقومون به من أجلها فهنيئا لهم جميعا .

وختاما أجدد تشكراتي الصادقة لكل الذين ساعدوا على إنجاح هذه التظاهرة العلمية، كما أشكر كافة السيدات والسادة الذين شرفونا بحضورهم في هذه الجلسة الافتتاحية.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الكلمة الافتتاحية لمنسق اللجنة المنظمة

ذ. عبد الإلـــه بلمليح
كليـــــة الآداب، وجـــدة

بسم الله الرحمان الرحيم

"سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم"

- صدق الله العظيم -

البقرة، الآية 32

أيها السادة والسيدات

يطيب لي باسم اللجنة المنظمة لندوة " الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية إلى أواخر القرن 19"، أن أرحب بكم جميعا في هذه المناسبة العظيمة التي تجمع بين ثلة من الباحثين المغاربة والأجانب حول موضوع قيم لا تخفى أهميته.

إن اختيار اللجنة المنظمة لهذا الموضوع إنما هو استجابة لرغبة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الأول بوجدة في تسليط الضوء على حقبة تاريخية قريبة من تاريخنا المعاصر، حقبة ألفنا اتخاذها مرجعا لما عرفه المغرب من تطورات متلاحقة ومتسارعة خلال القرن الموالي أي القرن العشرين.

إن البحث في هذه المرحلة من تاريخنا الحديث من زوايا متعددة: شعرية وأدبية ونقدية وفكرية ومسرحية ... إنما هو في حقيقة الأمر محاولة لاكتشاف ذواتنا وإصرار على إثبات هويتنا المغربية الأصيلة. وما تلبية مجموعة من مفكرينا وأدبائنا ومؤرخينا من مختلف جهات المملكة لدعوتنا للمشاركة في هذه الندوة العلمية، إلا دليل على وحدة أهدافنا وتوجهاتنا. ولنا اليقين أن هذا الملتقى العلمي سوف يثمر بحوثا جادة تكشف عن جوانب هامة من تاريخ المغرب الحديث.

فباسم اللجنة المنظمة أرحب مرة أخرى بضيوفنا الكرام راجيا لهم مقاما طيبا بين ظهرانينا، حتى نغرف من بحر علمهم ونير أفكارهم.

والســـــلام عليكم ورحمة اللـــه تعالـــى وبركاتـــه.

ورقة حول شخصية السلطان المولى محمد الأول

مارية دادي
كلية الآداب. وجـدة

ارتبط إسم هذه الجامعة الواعدة باسم السلطان العلوي المولى محمد الأول ولكن لم يكن حملها لهذا الإسم من قبيل الصدفة، ولكن كان ذلك اعتمادا على عدة معطيات أهمها ثلاثة أسباب وجيهة:

الأول: هو أن قبائل المغرب الشرقي عموما وسكان مدينة وجدة خصوصا كانوا هم أول من ناصر المولى محمد الأول بعد مبايعته في تافلالت ووقفوا بجانبه وعملوا معه على إرساء أركان دولته الناشئة.

الثاني: هو أن أبناء هذه المنطقة هم الذين كونوا النواة الأولى لجيش المولى محمد الذي استطاع بواسطته تمهيد المناطق الأولى التي دخلت تحت طاعته، وتطورت هذه النواة في عهد المولى الرشيد وأطلق عليها إسم جيش اشراكة وبقي هذا الجيش مدة طويلة يكون أهم فيالق جيش الدولة العلوية.

الثالث : أن جثمان المولى محمد الشريف قد توارى في هذه البقاع الشرقية قريبا من مدينة وجدة، وبموارات جثمانه فيها، ارتبطت هذه المناطق بالمولى محمد الأول ارتباطا وثيقا وأبديا.

المولى محمد الأول هو مؤسس الدولة العلوية الشريفة ازداد بين سنة 1610 و 1615 م بمنطقة تافلالت وهو من أبناء الأسرة العلوية .

ينتسب الشرفاء العلويون إلى الحسن بن علي بن أبى طالب وفاطمة الزهراء بنت الرسول "صلعم"، وكان أسلافهم قبل مجيئهم إلى المغرب يعيشون في الحجاز وبالضبط في مدينة ينبع النخل على ساحل البحر الأحمر.

وكان أول قادم منهم إلى المغرب هوالحسن بن القاسم (الملقب بالحسن الداخل) وذلك في أواسط القرن 7هـ/13م وبالضبط في عهد السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق (1258 م - 1286م) وكان قدوم الحسن الداخل إلى المغرب بطلب من جماعة من حجاج تافلالت استقدموه تبركا بالسلالة الشريفة وتيمنا بمعايشتهم واستدرارا للخير بفضلهم.

فاستقر الحسن الداخل هناك بتافلالت وأنجب أبناءه وأحفاده الذين سرعان ما داع صيتهم في الآفاق.

وتوفي الحسن الداخل في مطلع القرن 8/14م ودفن بوسط مدينة سجلماسة. ومن أعقابه مولاي علي الشريف (الأول) دفين سجلماسة الذي عاصر احتضار ملك بني الأحمر بغرناطة ودعوه الأندلسيون للجهاد، فتردد عليهم مرارا لأجل هذا الغرض، وعرضوا عليه بيعتهم فرفضها رفضا باتا، كما قام بغزو الوثنيين في بعض جهات السودان الغربي، ومن أحفاده مولاي علي الشريف دفين مراكش وهو جد ملوك الدولةالعلوية.

ترك مولاي علي الشريف هذا جماعة من الأولاد أحدهم مولاي الشريف (وهو اسمه) وقد أصبح رئيس الأسرة العلوية في تافلالت عند مطلع القرن 17 الميلادي نظرا لما كان يتمتع به من نفوذ معنوي واسع بسبب شرف نسبه ونبل أخلاقه.

وفي هذا الوقت الذي هو مطلع ق 17 وبالضبط بعد وفاة أحمد المنصور السعدي سنة 1603 م عرف المغرب أزمات سياسية حادة بسبب تنازع أبناء أحمد المنصور عن الحكم، الشئ الذي فسح المجال لظهور زعامات دينية متعددة في شمال المغرب وغربه ووسطه وجنوبه.

وكانت منطقة سجلماسة (تافلالت) في هذا الوقت تابعة لأبي حسون أمير سوس، وكان سكانها يعانون من القهر الضرائبي على يد ولاة أبي حسون مما جعلهم يحتمون بمولاي الشريف وبالتالي يلتفون حوله ويبايعونه.

ونظرا لكبر سنه فقد تصدى ابنه الأكبر مولاي محمد بشكل حازم لقوات أبي حسون داخل سجلماسة وما حولها، حتى سحق مقاومتهم بفضل مساعدة السكان واستبسالهم إلى جانبه.

وبذلك تمكن من طرد جميع أنصار أبي حسون من منطقة تافلالت وبدأ يمارس سلطته عليها مما دفع سكان تافلالت إلى مبايعته برضى والده وذلك سنة 1050/1640، قال اليفرني : (ووافق على بيعته أهل الحل والعقد يومئذ بسجلماسة).

في هذه الظروف كان المغرب يتطلع إلى من يوحده وينقذه من التمزق السياسي الذي يعيشه، ويخلص ثغوره من الإحتلال الأجنبي.

وقد كان المولى محمد يرى - ومعه كافة أهل المغرب - أنه هو المرشح المؤهل لذلك بحكم ما جتمع فيه من صفات الزعامة وشروط الإمامة، فقد كان شجاعا، مقداما، فارسا، وصفته المصادر بأنه كان لا يخطر بباله خوف الرجال، ونجده يقول في إحدى رسائله إلى الدلائيين (وأما الحروب الصعبة فقد نشأنا في غمراتها قبل البلوغ، لنا من قديم خلقت... وبأعناقنا عشقا علقت)[1] وقد وصف المولى محمد الأول أحد الشعراء بقوله:

صقر الصياصي على الأعادي صائل طورا يُغير وفي الملاحِم سيتل
أنيابه البيض الحداد صوارم وبكل ظفر منه أبتر مقصل[2]

بعد بيعة المولى محمد في تافلالت بدأ حركاته الأولى في اتجاه السملاليين في الجنوب والدلائيين في فاس، قصد بذلك إحداث خلل في صفوفهم، وقد كان يقود حملاته بنفسه، ويظهر شجاعة وإقداما لا مثيل لهما.

لكن نظرا لحسه التاريخي وبعد نظره السياسي، رأى أن يتجه إلى الشرق بمفهومه الجغرافي الواسع حتى يتمكن من توطيده واتخاذه درعا واقيا لباقي مناطق المغرب الداخلية.

وهكذا انحصرت عناية المولى محمد ابتداء من سنة 1650/1060 في مهمة إخضاع قبائل شرق المغرب وغرب الجزائر الحالي، وهكذا دخلت تحت رايته قبائل دخيسة ونوي منيع وآل الصباح والمعاضيد وأولاد غنام وحميان، ثم بفضل فرسانهم استطاع أن يتحكم في القبائل المستوطنة بسهل وجدة وبني سنوس، ثم دفع بأنصاره إلى حدود واحات لغواط وبلاد الجريد حتى نواحي قسنطينة، وأدت له حاضرة تلمسان، - التي كانت تحت الحكم العثماني - البيعة الشرعية، فانزعج لذلك باي الجزائر عصمان باشا وبعث لمولاي امحمد برسالة مع جماعة من الفقهاء يؤاخذه فيها على إيغاله في إيالة الجزائر (خرقت على الإيالة العصمانية جلباب صونها الجديد من وجدة الأبلق إلى حدود الجريد)[3] ويحمله مسؤولية ما ناله من جراء ثورة سكان تلمسان عليه (ولولاك ما ثار علينا أهل تلمسان وأنكروا ما لنا عليهم قديما من أسمى الحنانة والإحسان).[4]

1- الإستقصا، 105/6

2- نفسه

3- من رسالة الوالي التركي إلى مولاي محمد : الضعيف :22

4- نفسه

وحتى يوضع حد للحرب بين الطرفين عقد صلح بين الباي عصمان والمولى محمد وذلك سنة 1656م وقد اتخذ نهر تافنا كحد فاصل بين الإيالتين (وإني أعطيكم ذمة الله وذمة رسوله، لاقطعت وادي تافنا إلى ناحيتكم إلا فيما يرضي الله ويرضي رسوله)[1]. وكانت هذه أول معاهدة دولية في عهد الشرفاء العلويين.

وهكذا استمر مولاي محمد في توطيد دعائم دولته الناشئة خاصة بجنوب المغرب الشرقي وشماله، مع تردده كثيرا على مدينة وجدة التي كانت نقطة انطلاقه نحو تلك المناطق.

وهكذا شاءت الأقدار أن تكون وفاته في نواحي هذه المدينة السعيدة التي ساندته بجبالها وسهولها ورجالها، وذلك في لقاء له مع جيش أخيه المولى الرشيد في سهل أنكاد قرب سيدي بوهرية فتوفي السلطان مولاي محمد يوم الجمعة 08 محرم 01/1075 غشت 1664.

وقد تأسف المولى الرشيد على وفاة أخيه أسفا كبيرا وأظهر الحزن.[2]

ولوفاته رمز صاحب الدرالسني بقوله :

وإن الشريف بن الشريف محمدا لشهم الملوك الضاربين بأنصل

(شهم = 1075)

رحم الله المولى محمد الأول فقد عاش شهما ومات شهما.

1- من رسالة المولى محمد إلى الوالي التركي : الضعيف :27

2- النزهة، ص 302

الحركة العلمية والثقافية بتافيلالت خلال عهد الدولة العلوية [القرنين 18 - 19]

لحسن تاوشيخت
مدير مركز الدراسات والبحوث العلوية.
الريصاني

ملخص:

باعتبار منطقة تافيلالت احدى الركائز الاساسية في بناء الحضارة المغربية من جهة، باعتبارها كانت تمثل صلة وصل بين مختلف المراكز التجارية والعلمية الإسلامية شمالا وجنوبا شرقا وغربا من جهة ثانية وباعتبارها منطلق ومهد الدولة العلوية الشريفة، هذه الدولة التي اعادت لهذه البلاد امجادها ومفاخرها، فقد عرفت المنطقة نهضة علمية وثقافية واقتصادية وعمرانية يشهد على ذلك بشكل خاص وجود عدة خزانات ومكتبات غنية بالمخطوطات والوثائق النادرة، تركز أكثر من اثنى عشر زاوية ومدرسة القصبة السجلماسية التي بناها السلطان المولى اسماعيل في أواخر القرن 17م وتوفر نخبة من العلماء والفقهاء العظام الذين تخرجت على ايديهم افواج هائلة من المفسرين والمفكرين وألفوا عدة مخطوطات لازالت محفوظة في خزانات الزوايا أو في رفوف المكتبات الخاصة.

لهذه الاعتبارات كلها وغيرها سنركز في هذا العرض على النقط التالية :

1 - تمهيد عن جدور الحركة العلمية بتافيلالت.

2 - مكتبات وخزانات المخطوطات بتافيلالت

3 - التعريف بأشهر العلماء والمؤلفيـــــن.

4 - جرد للوثائق والمخطوطات الفيلالية خلال هذه الفترة.

5 خـــلاصـــــات

1- تمهيد عن جذور الحركة العلمية بتافيلالت خلال عهد الدولة العلوية.

لقد اعتبرت منطقة تافيلالت عبر تاريخها العميق من المراكز الحضارية المهمة والتي استقطبت العلماء ورجالات الفكر والآداب فضلا عن أرباب الصناعة والتجارة وساهمت بشكل فعال في النهضة المغربية العلمية والدينية عن طريق مفكريها العظام وشرفائها الامجاد الذين لم يدخروا جهدا في سبيل نشر الاسلام ومحاربة البدع الضالة وتنوير العقول وترشيد البحث العلمي. وما الثقل الحضاري الذي عرفته المنطقة الا نتاج أولا: لتفاعلات ساكنة مختلطة تعايش داخلها مزيج بشري اندلسي، امازيغي ، افريقي وعربي، ثانيا نتيجة تأثير المعطيات الطبيعية المتنوعة جبال، اودية واحات، كثبان رملية... ثالثا بفضل العمق التاريخي الذي شهدته المنطقة منذ عهد ما قبل التاريخ وخاصة عصور سجلماسة الزاهرة، واخيرا بفعل تفتح المنطقة على جميع التيارات الفكرية والمذهبية حيث كانت كعبة لتبادل الرأي ولحرية الاعتقاد والتسامح الديني مما أهلها أن تتمازج فيها جميع المعتقدات سواء الخارجية منها(نسبة الى الخوارج) أو السنية أو الشيعية أو الصوفية أو اليهودية، ولعل ما تزخر به المنطقة من كثرة المدارس والمكتبات الغنية بالمخطوطات، خير ما يعبر عن المستوى الثقافي الزاهر الذي شهدته تافيلالت خلال العهود الماضيـــــة.

فقد عرفت المنطقة الاستقرار البشري منذ ما قبل التاريخ ويدل على ذلك وجود عدة نقوش صخرية ومواقع اثرية تعود الى هذه الفترة الغابرة. وأصبحت تافيلالت بعد بناء عاصمتها سجلماسة سنة 140هـ/757م من طرف خوارج مكناسة الصفرية، قطب الرحى في تجارة القوافل الصحراوية وبالتالي مركز تجمع حيوي لساكنة متنوعة الاصول والعقائد والتي كانت بمثابة القاعدة البشرية النشيطة التي ساهمت فيما عرفته سجلماسةمن تطور اقتصادي ، اجتماعي سياسي وثقافي - عمراني. وإذا كانت سجلماسة المنطلق الفعلي لكل الامبراطوريات التي تعاقبت على حكم المغرب ابتداء من المرابطين سنة 1054م، فانها تحظى خاصة بشرف قدوم الشرفاء العلويين وانطلاق دولتهم الشريفة التي وحدت المغرب تحت راية واحدة بعد سلسلة من التمزق والتدهور. فمع بداية الدولة العلوية سنة 1631م استعادت تافيلالت مكانتها المتميزة بل وازدادت أهمية باعتبارها مهد هذه الدولة السعيدة، فكانت بالتالي محط عناية خاصة من لدن جميع الملوك العلويين، حيث قاموا باحياء امجادها فعرفت المنطقة حركة تجارية مزدهرة ونهضة عمرانية وثقافية كبيرة. وتتمثل سمات النهضة الثقافية بشكل خاص فيما شيده سلاطين الدولة العلوية من مدارس ومكتبات وفيما انجبته المنطقة من علماء ومفكرين عظام داع صيتهم في كل

ارجاء المغرب. فخلال زيارته لتافيلالت في نهاية القرن 17م، امر السلطان المولى اسماعيل ببناء القصبة السجلماسية أو القصبة الاسماعيلية على انقاض مدينة سجلماسة. وإذا كان من الممكن أن تكون هذه القصبة قد شيدت في قلب موقع سجلماسة الاثري، فقد تكون ايضا اعتمدت نفس مواد البناء، ان لم تكن نقلت عن المدينة الام نفس التخطيط المعماري ! يقول هنري داستوك: ان المولى اسماعيل قد بنى فعلا القصبة السجلماسية.. وبانه عين ابنه المأمون خليفة له على تافيلالت وبان هذه القصبة كانت تضم الحصن، المسجد الجامع والمدارس والقصور ...(1).

وقد لعبت هذه القصبة دورا اداريا وثقافيا وعسكريا مهما بالمنطقة ولعل وجود معظم المرافق الضرورية من مسجد جامع، مدرسة، الحصن... خير دليل على ذلك. من أهم هذه المرافق نذكر بالخصوص المسجد الجامع الذي يعتبر القلب النابض والذي كان يقوم بعدة وظائف: دينية، اجتماعية وثقافية فأما الجانب الثقافي والعلمي الذي يهمنا هنا فيدل عليه وجود آثار مدرسة وغرف لإيواء طلبة العلم بجوار المسجد من الناحية الشمالية، هذه المدرسة التي كانت تعطى فيها الدروس في الفقه واصول الدين والتفسير، وتقول بعض المصادر أن العلامة مولاي عبد الله الدقاق[دفين القصر الذي يحمل اسمه بتافيلالت] كان يلقي دروسا بهذه المدرسة خلال عهد السلطان المولى اسماعيل! والمدرسة السجلماسية عبارة عن قاعة مستطيلة الشكل يبلغ طولها 20 مترا، وعرضها حوالي 17 متار. المساحة الاجمالية 140م2، وهي مشيدة من التابوت المدكوك بينما رصفت ارضيتها بالجبس المختلط بالرمل والحجارة نفس الشيء يقال بالنسبة لغرف ايواء الطلبة حيث الاسوار العالية [6 أمتار] والمشيدة من التابوت فوق اساس من الحجارة، وهي عبارة عن قاعة كبيرة مستطيلة الشكل (طولها 20م عرضها 13م، المساحة الاجمالية 260م2) ومقسمة إلى غرف صغيرة مبلطة بالجبس [2×3م = 6م 2]. والى الغرب من المدرسة وجناح الايواء يوجد صحن مكشوف مشيد بنفس التقنية ومزين بشرافات من القرمود الاخضر وهو على شكل مربع 20م×20م=400م 2.

---

(1) Henri DASTUGE:"Quelques mots au sujet de Tafilalet et Sijilmassa" in Bulletin de la Societe de Geographie. Paris, Avril 1867. T XIII. p 370.

وقد تعرضت المدرسة ومعها باقي القصبة السجلماسية بعد وفاة السلطان المولى اسماعيل الى اضرار بليغة وتهدمت بعض مرافقها وهجرها سكانها. وقد دامت هذه الفترة الحرجة حوالي 30 سنة(من 1727 الى 1757) الى حين تولية السلطان سيدي محمد بن عبدالله الملك حيث أرجع المياه الى مجاريها الطبيعية، وكان لزيارة هذا السلطان الى تافيلالت سنة 1782 ثم سنة 1786 اثر كبير في عودة الحياة الى القصبة السجلماسية حيث امر باصلاح مدارسها ومنازلها وكل المرافق الاخرى. " قام السلطان سيدي محمد بن عبدالله عند تولية الحكم بفتح المدارس التي كان يدرس بها فضلا عن حفظ القرآن للاطفال، التعليم العالي لحوالي 500 تلميذ اعتمادا على نفقة الدولة وقام السلطان بإصلاح مرافق القصبة السجلماسية وبتغيير سقوف المباني والمسجد الجامع"[2].

وقد ظل مسجد القصبة السجلماسية فضلا عن المدرسة المجاورة له يؤديان دورهما الديني والثقافي منذ بنائهما على يد السلطان المولى اسماعيل وحتى بعد تخريب القصبة مع بداية القرن 19(1818) حيث كانت تؤدي في عين المكان صلاة الجمعة والعيديين وتقام به بعض الاذكار والامداح النبوية الى غاية بداية القرن 20.

2- خزانات المخطوطات بتافيلالت

تزخر منطقة تافيلالت، اعتبارا لثقلها الحضاري ولما ضيها التاريخي والثقافي الزاهر، بعدة خزانات ومكتبات للمخطوطات والوثائق. هذه الخزانات وإن كان معظمها قد نهب فان بعضها المتبقي لازال يحتوي على كنوز في جميع العلوم من تفسير للقرآن، الفقه واصول الدين، اللغة العربية وآدابها، التصوف، التاريخ السيرة.... وغيرها. هذه الخزانات يمكن تصنيفها الى نوعين: الاول يهم الخزانات الشخصية والتي غالبا ما يكون صاحبها من العلماء الكبار الذين يشتغلون بوظيفة العدل[قضاة أو عدول] حيث أن وضعيتهم الاجتماعية والوظيفية وظروف عملهم كانت تسمح لهم باقتناء المخطوطات والوثائق من جهة أو بنسخ بعضها الاخر من جهة ثانية وبالتالي الاحتفاظ بها في مكان متميز قصد الاطلاع عليها والرجوع اليها عند الحاجة وكلما سنح الوقت بذلك. من أقدم وأهم هذه الخزانات خزانة اسرة ابن طاهر السجلماسي الحسني التي يقول عنها الاستاذ محمد

2- Idem: p 370

حجي في كتابه الحركة الفكرية في عهد السعديين: " لقد تسلسل العلم في الشرفاء آل ابن طاهر الحسنيين أجيالا عديدة ولما انتقلوا في عصر السعديين من سجلماسة الى مدغرة جددوا بها مراسم العلم واسسوا مكتبة اشتملت بالخصوص على امهات كتب التفسير والحديث."[3]

وكان من أشهر علماء هذه الاسرة الطاهرية عبدالله بن علي بن طاهر المتوفى سنة 1045 هـ/ 1636 م وكان من المفسرين والمحدثين الكبار، ومن مؤلفاته نذكر خاصة كتابه" الدر الازهر المستخرج من بحر الاسم الاطهر" وقد جمع فيه حوالي اثنين وسبعين علما من علوم القرآن متبعا في ذلك منهجية السيوطي في الاتقان بل وزاد عليه. كما نظم في اصطلاح الحديث. نفس الشيء يقال عن ورثة علمه من ابنائه وحفدته والذين استمروا في العناية بمكتبة آل طـــاهر وزودوهـــا بمؤلفاتهم الخاصة فضلا عن ما ينسخونه أو يقتنونه من الكتب النادرة في مختلف العلوم .

من الخزانات الشخصية ايضا التي لازالت محتفظة بذخائرها النفيسة بالرغم من عوامل الزمن وتدخل الانسان نجد مكتبة آل الفضيلي والواقعة بقصبة مولاي عبد الكريم قرب ضريح مولاي علي الشريف الى الجهة الشمالية. هذه المكتبة الغنية تتألف من عدة مخطوطات وكتب مطبوعة المصنفة في مختلف العلوم. وقد تعاقب على اثراء وحفظ هذه الخزانة عدة فقهاء من اسرة الشرفاء الفضيليين وكان أخرهم الفقيه والعلامة والقاضي المشهور مولاي الغالي العلوي الفضيلي. وفي اطار الاهتمام الذي يوليه مركز الدراسات والبحوث العلوية بتوثيق المخطوطات والوثائق الفيلالية وذلك من اجل التعريف بها وتسهيل الاطلاع عليها والاستفادة منها فقد قمنا بفهرسة كتب هذه الخزانة، وقد استوجبت هذه العملية أولا ترتيب هذه المخطوطات وتنقيتها، ثانيا احصاءها وتسجيلها حسب المؤلف والموضوع وعدد الاجزاء وتاريخ التأليف أو النسخ وثالثا تصنيفها حسب مواضيعها: القرآن والتفسير، الفقه والحديث اللغة العربية وآدابها، التاريخ والتصوف... وسنورد ضمن المحور الرابع من هذا لعرض جردا لمحتويات هذه الخزانة.

إضافة إلى هاتين الخزانتين المهمتين هناك خزانات أخرى أقل أهمية مثل خزانة الشريف العلوي سلامي مولاي عبد السلام والواقعة بقصر أخنوس بالقرب من ضريح مولاي علي الشريف من ناحية الغرب هذه الخزانة التي لم يحتفظ بها كسابقتيها - مع الأسف - حيث تمزقت

---

3 - محمد حجي: الحركة الفكرية في عهد السعديين ج 1 ص 191.

معظم محتوياتها ومنها من نهب واندثر، ونسمع أيضا عن خزانات أخرى هنا وهناك في عدة قصور فيلالية إلا أنها لم يبق منها إلا الإسم فقط..

النوع الثاني من الخزانات: هي خزانات الزوايا باعتبار الدور العلمي والثقافي والروحي الذي كانت تلعبه مؤسسة الزاوية خلال القرنين 8 و9 1من حيث حلقات الذكر والامداح ومن حيث التأليف ونسخ المخطوطات ذات الطابع الصوفي أو غيره، فان معظم زوايا تافيلالت في هذه الفترة كانت تحتوي على خزانة خاصة للمخطوطات وفيما يلي بطاقة تعريفية لأهم هاته الزوايا :

1 - *الزاوية الغازية البوبكريـــــة :*

أسس هذه الزاوية العلامة والزاهد الفقيه أبو القاسم الهادي الملقب بسيدي الغازي الذي ازداد سنة 801 هـ وتوفي حوالي 878 هـ وهو من اصل سوسي ، كان طالبا متفقها في العلوم الدينية، ثاقب الدهن سريع البديهة حفاظا للقرآن، وقد انتقل من سوس الى تافيلالت في اواسط القرن 9هـ/7 1م واستقر بقصر تبوبكرت بمشيخة السفالات، وأسس بها مسجدا لاقامة الصلاة وتعليم اصول الدين والفقه ثم الخلوة فالزاوية الغازية. وتعتبر هذه الزاوية من أشهر وأغنى الزوايا بتافيلالت باعتبار الاملاك الكثيرة التي في حوزتها وأيضا العدد الكبير من المريدين والزوار الذين يأتون إليها من كل انحاء المغرب وخاصة من طرف قبائل بني مگيلد بالاطلس المتوسط ومن سكان درعة ومختلف قبائل تافيلالت. وتشتهر هذه الزاوية كذلك بطابعها الصوفي المتميز والمنبثق عن الطريقة الشادلية حيث أن شيوخها قاموا بنظم كتابات صوفية على شكل قصائد موزونة وذات رنة موسيقية تجدب النفس وتشرح الصدر إنها قصائد الملحون الصوفي. ويعود الفضل في شهرة وتقدم هذه الزاوية بشكل خاص الى الشيخ والعلامة سيدي الغازي بن العربي [القرن 19 م]والذي منحها نفسا جديدا وبوأها المكانة اللائقة بها. وتتوفر الزاوية على عدة مرافق هي: المسجد العتيق الذي لم يبق منه الا الصومعة، الخلوة، البقيع أو المقبرة، ضريحي سيدي الغازي ابو القاسم وسيدي الغازي بن العربي ، الدويرية التي كان يسكنها الولي ويستقبل فيها الضيوف وتتكون من قاعة الاستقبال ، الحريم الحمام، خزانة حائطية والبهو المخصص للنسخ والكتابة. من المرافق أيضا الدار الكبيرة حيث تقام الحضرة وينام الزراو.

فالخزانة التي تهمنا في هذا المجال كانت غنية بمجموعة من المخطوطات والوثائق ذات الطابع الصوفي، منها ما كتبه أشياخ هذه الزاوية وخاصة سيدي الغازي أبي القاسم وسيدي الغازي بن العربي ومنها ما نسخه هؤلاء أو اقتنوه من جهات أخرى وخاصة الزاوية الناصرية

بتمكروت الا أن معظم هذه الذخائر قد نهبت بشكل أو بأخر ولم يبق منها الا النزر اليسير [تجدون لائحة لهذه الباقية المتبقية في المحور الرابع]

2 – الزاوية الحفيانية :

تقع هذه الزاوية بوسط قصر كوغلان على بعد 3 كلم جنوب غرب مدينة الريصاني [في مشيخة السفالات]. وقد اسس هذه الزاوية الولي وعلامة عصره الشيخ محمد ابن علي الحفياني المتوفى في أواخر القرن 12هـ/18م. وتشتهر هذه الزاوية بكونها قامت بعملين جليلين: يتمثل أولهما في كون شيخ الزاوية كان يحمل إشارة الاعلان عن موعد الحج وبتوجه موكب الحجاج المغاربة انطلاقا من تافيلالت نحو الديار المقدسة، وكان الولي حينما يقترب هذا الموعد من كل سنة يقوم بضرب الطبل ايدانا للراغبين في الحج بالاستعداد للرحيل! ولازالت الزاوية تحتفظ بهذا الطبل فضلا عن الراية الخضراء" رمز السلام والتصوف" الى يومنا هذا .

العمل الثاني والاهم يتعلق بتوفر الزاوية على خزانة غنية بالمخطوطات النفيسة. هذه المخطوطات التي بالرغم من الاغراءات المختلفة، لم يكتب لها أن تنهب كغيرها في الزوايا الاخرى، ويرجع الفضل في ذلك الى شيوخ وأولياء هذه الزاوية الذين حبسوا هذه الذخائر وحرموا اخراجها من الزواية أو بيعها. وتوثيقا لهذه الخطوطات قصد تسهيل عملية الاطلاع عليها والاستفادة منها، فقد قمنا بفهرستها وتصنيفها وبالتالي إخراجها من رفوف النسيان والضياع إلى يد المهتمين، وسنورد جردا لهذه المخطوطات ضمن المحور الرابع من هذا العرض .

إن هذين العملين قد جعلا من الزاوية نواة ثقافية وروحية متميزة جلبت إليها اهتمام المختصين في الدراسات الوثائقية فضلا عن المريدين والزوار الذين يترددون على زيارة ضريح الشيخ سيدي محمد الحفيان أو الاطلاع على بعض المخطوطات النادرة.

3- زاوية الماطي:

تقع هذه الزاوية في أقصى الجنوب من واحة تافيلالت بمشيخة السفالات – قرب الزاوية الغازية – على بعد 14 كلم جنوب مدينة الريصاني. تأسست الزاوية من طرف العالم والفقيه الشيخ أبي العباس أحمد الحبيب بن محمد الصديقي الغماري السجلماسي المصري الأصل والذي يرجع نسبه إلى أبي بكر الصديق (رضي الله عنه). وكان هذا الولي علامة عصره وزاهدا كبيرا أخذ العلم والفقه والتصوف على يد عدة شيوخ مغاربة كبار، ومن تلامذته العالم أحمد بن عبد

العزيز الهلالي. وقد توفي الولي سيدي أحمد الحبيب في ثالث محرم من عام 1165هـ/1751م ودفن بضريحه الواقع داخل قصر الماطي، وترك بزاويته عدة مخطوطات ووثائق في جميع العلوم الدينية، إلا أن هذه الكنوزقد نهبت من طرف مؤرخين مغاربة وأجانب ولم يبق منها أي مخطوط يذكر.

التحفة الأثرية الوحيدة التي لازالت تحتفظ بها الزاوية هي شاهدة لقبر الولي مصنوعة من خشب الأرز المنقوش والمصبوغ والتي أهداها السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى الزاوية تكريما لصاحبها، وتتضمن هذه اللوحة: الشهادة، التصلية، الحمدلة، هذا ضريح العلامة الإمام الشيخ البركة الهمام... أبو العباس الشيخ أحمد الحبيب، ونسبه، وتاريخ وفاته.

الزاوية عرفت أوج ازدهارها في القرن 18م حيث كان الولي سيدي محمد أحمد الحبيب يعقد فيها جلسات العلم والذكر والتي كان يحضرها عدة رواد من مختلف المناطق. واستمرت الزاوية في هذه الوضعية إلى غاية دخول الإستعمار الفرنسي حيث جمد نشاطها وكان يخدم الزاوية طائفتان من المرابطين:فأولاد سيدي حمزة بلماحي يستقبلو ن الزوار ويتقبلون منهم الهدايا والزيارات بينما يعمل أولاد بلغزال بحراسة الزاوية وبحرث الحقول وبالتجارة.

4- زاوية سيدي علي بن بوزينة:

تقع هذه الزاوية بوادي المالح في الجنوب الغربي لتافيلالت على الضفة الشرقية لوادي غريس (7 كلم غرب الريصاني) أسسهاالولي سيدي علي بن بوزينة وكان صاحب علم وزهد وكرامات. وتشرف الزاوية على حقول زراعية بمشيختي الغرفة وواد إيفاي وكذلك على عدة أشجار من النخيل بمشيخة السفالات وتضم هذه الزاوية فضلا عن المسجد حيث تقام الصلاة وتدرس العلوم الشرعية، قبتين جنائزيتين: الأولى دفن بها العالم الفيلالي سيدي أحمد بن عبد العزيز الهلالي المتوفى سنة 1175هـ/1761م. أما القبة الثانية والواقعة نحو الشمال فقد دفن بها الولي سيدي أحمد بن أبي زينة وإبنه، وقد زينت القبة بنقوش جصية وجبسية متنوعة تتكون من تشبيكات زهرية ومعينات هندسية تتخللها أفاريز من الكتابات العربية التالية:" العز لله، الملك لله العافية الباقية". ويتميز قبر الولي بشكله المسنم حيث تعلوه لوحة رخامية بيضاء كتب عليها:

الوجه الأول: " الحمد لله توفي الولي الصالح أفاض الله عليه ببركاته سيدي علي بن أبي زينة، الاحد عند صلاة العشاء ودفن".

الوجه الثاني: "يوم الإثنين عند صلاة الظهر وذلك أول شعبان عام ستة عشرة ومائة وألف لا إله إلا الله محمد رسول الله".

وإذا كانت الزاوية خلال القرنين 18 و 19م تقوم بدورها الروحي والثقافي من حيث تدريس القرآن والفقه والحديث من حيث الأمداح والأذكار الصوفية ومن حيث توفرها على خزانة مهمة للمخطوطات وخاصة منها المؤلفات العديدة للعلامة أحمد بن عبد العزيز الهلالي لتفسير القرآن وكتاب في القراءات وغيرهما فإن هذه الزاوية قد توقفت أنشطتها وأصبحت عبارة عن اطلال منذ بداية القرن 20م.

5- *زاوية سيدي أبو بكر بن عمر اللمتوني الصنهاجي المرابطي:*

أبو بكر بن عمر اللمتوني هو الزعيم الثوري للمرابطين والذي قاد الحركة المرابطية بعد وفاة الزعيم الروحي عبد الله بن ياسين وذلك من أجل بسط السيطرة على طرق القوافل التجارية العابرة للصحراء الكبرى وبشكل خاص مراقبة المنفذ الرئيسي لهذه القوافل والمتمثل في مدينة سجلماسة، وقد توفي أبو بكر بن عمر في أحد غزواته في الصحراء ،نقل جثمانه إلى منطقة تافيلالت ودفن بقصر سيدي أبو بكر قرب قصر مزكيدة بمشيخة تنيجوت على بعد 5 كلم شمال شرق الريصاني، وتعتبر هذه الزاوية أقدم زاويةعرفتها المنطقة حيث تعود إلى القرن 5هـ /11م. وتتكون من قبة الولي ومن مسجد ومدرسة ومقبرة، وقد شيدت بالتابوت على أساس من الحجارة،وزينت الزاوية بنقوش جصية جميلة تتكون أساسا من أفاريز ذات تشبيكات زهرية ومعينات هندسية تتخللها كتابات عربية:"العز لله". المسجد يتكون من صحن مكشوف ومن أربعة أساكيب وستة بلاطات ومن صومعة مربعة الشكل.

يقوم بخدمة الزاوية بعض المرابطين من قصر سيدي أبو بكر والذين يتلقون الزيارات والهبات من طرف سكان النواحي وخاصة من قبائل أيت خباش، ويقومون بإحياء الموسم الديني الخاص بالوالي في صيف كل سنة.

6- *زاوية عمار:*

أسست هذه الزاوية من طرف الشريف الإدريسي المراكشي الأصل العلامة الزاهد الشيخ سيدي الساسي، ويوجد ضريح هذا الولي بداخل قصر عمار وبجانبه أضرحة أولاده وخاصة منهم سيدي أحمد منديل. وكانت زاوية سيدي الساسي تابعة للزاوية الدرقاوية بفاس ولزاوية أحمد

بن عبد الصادق [الصادقية] باوفوس. وكانت هذه الزاوية مشهورة جدا خلال القرن 19م حيث تعرف عدة زيارات وتستقبل عدة عطاءات من طرف مريديها وخاصة منهم دوي منيع، أولاد بلقيس، أولاد جريروأيت خباش، إلا أننا نجهل عنها كل ما يتعلق بدورها العلمي سواء في التلقين أو في تكوين خزانة للمخطوطات. إضافة إلى هذه الزوايا المهمة توجد هناك عدة زوايا أقل أهمية من الناحية الدينية والثقافية والاجتماعية منها:

* زاوية سيدي علي بن عبد الله بقصر إيرارة.
* الزاوية البوبكرية بالسيفة.
* زاوية سيدي أحمد بن المدني بمقطع الصفا.
* زاوية من لايخاف بالسفالات.
* زاوية مولاي عبد الله الدقاق.
* زاوية مولاي عبد المومن.
* زاوية سيدي ابراهيم أو هلال (الهيلالي).
* زاوية القاضي بواد ايفلي.
* زاوية سيدي قاســـــــم.

وإذا كانت الزوايا الكبرى قد تغلبت على جميع الصعاب الطبيعية والمادية منها بشكل أساسي واستطاعت بالتالي أن تصمد وتستمر في أنشطتها المختلفة إلى يومنا هذا كالزاوية الغازية بالخصوص، فإن معظم الزوايا الأخرى قد تعرض للإنكماش ممع بد اية القرن العشرين نتيجة السيطرة الإستعمارية فضلا عن عوامل طبيعية قاسية (الزوابع الرميلية والفيضانات المهولة) وعوامل اجتماعية واقتصادية (الإستقرار السكاني وظهور نمط الإنتاج العصري) وعوامل دينية (انتشار الكتب الدينية ونبد الطرقية) والأهم من كل هذا أن خزانات بعض الزوايا لازالت تحتفظ بعدة مخطوطات نفيسة ونادرة سنقوم بجرد لموضوعاتهاخلال المحور الرابع، كما أن بعض الزوايا لازالت تزخر بمعالم أثرية رائعة الجمال تشد أليها نفس الزائر وتعبر عن ماضيها الزاهر.

3 - *علماء من المنطقة خلال هذه الفتـرة:*

لقد أنجبت تافيلالت نخبة من العلماء والمفكرين العظام الذين داع صيتهم في كل أرجاء المغرب، فمنهم من استقر بالمنطقة وكون بها مدرسة لتلقين العلوم الشرعية واللغوية أمثال المولى علي الشريف، أحمد بن عبد العزيز الهلالي، أحمد الحبيب، سيدي الغازي، مولاي عبد الله

الدقاق... ومنهم من هاجر إلى المدن المغربية الكبرى حيث المستوى العلمي أكثر كثافة وتقدما وكلاالطرفين عبر عن طاقته الإبداعية في التأليف والتدريس بواسطة منحيين متكاملين: يتمثل أولهما في تأسيس نواة تعليمية يجتمع فيها الطلبة والرواد. وهذه النواة إما أن تكون عبارة عن مدرسة بالمعنى الكامل مثل مدرسة القصبة السجلماسية وإما أن تتخذ طابعا طرقيا أي الزاوية حيث الكتاب القرآني، دار الحضرة، الخزانة ومكان النسخ...

المنحنى الثاني يتسم بطابع فردي وينم عن مجهود شخصي لبعض العلماء الذين وهبهم الله ملكة الإطلاع وغزارةالعلم فقاموا بنسخ كل ما يسقط بين ايديهم من مؤلفات نفيسة ومخطوطات نادرة بل لم يتوانوا في إبراز عبقريتهم في التأليف حيث تركوا لنا عدة تآليف قيمة وفي جميع المواضيع، وتتميز هذه الفئة من العلماء بكونها أيضا كانت تحتفظ بما ألفته أو نسخته أو إقتنته من مخطوطات في خزانة خاصة يتم تحبيسها حتى لا تتعرض محتوياتها للنهب والضياع.

نورد فيما يلي بعض الشخصيات العلمية البارزة من القرنين 18 و 19 حسب التسلسل التاريخي:

*** مسعود بن محمد جموع الفاسي السجلماسي:**

(توفي عام 1119هـ 1707م) درس بتافيلالت واستقر بفاس له مؤلف بعنوان "مناهج رسم القرآن في شرح مورد الضمان" ويوجد بالمكتبة الملكية تحت رقم 1358.

*** إبراهيم بن عبد الرحمان الملاحفي:**

(توفي سنة 1130هـ/1717م) فقيه من تافيلالت وإليها ينسب أخذ العلم والفقه عن جماعة من كبار العلماء أمثال محمد بن عبد القادر الفاسي وأحمد بن الحاج والعربي بردكة ومحمد القسنطيني وكلهم أجازوه.

*** أحمد بن المبارك السجلماسي:**

(توفي عام 1156هـ/1743م) كان من العلماء الكبار الذين أخذ عنهم جيل من الفقهاء وقد اختص في القراءات وفيها ألف ثلاثة رسائل توجد بالخزانة الملكية تحت رقم 1052. وهي "أسئلة وأجوبة في ثواب قارئ القرآن". " الجواب الكافي والنصح الشافي عند قوله صلى الله

عليه وسلم: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف". "حكم قراءة سورة الإخلاص عند ختم القرآن".

***أحمد الحبيب بن محمد الصديقي السجلماسي اللمطي المصري الأصل:**

(توفي عام 1165هـ/1751م) وكان علامة عصره زاهد كثيرا، أخذ العلم والطريقة عن عدة شيوخ من المغرب والصحراء، ومن تلامذته العلامة أحمد بن عبد العزيز الهلالي، وأخذ عنه جمهور غفير من أهل سجلماسة وغيرها ولازال يحظى بالذكر من لدن السكان بتافيلالت حيث يوجد ضريحه وزاويته بقصر الماطي، وقد ترك عدة مؤلفات مخطوطة إلا أنها نهبت عن آخرها.

*** أحمد بن عبد العزيز الهلالي الفيلالي (أبو العباس)**

[توفي ليلة الثلثاء 21 ربيع الأول عام 1175هـ/1761م ودفن بزاوية سيدي علي بوزينة بتافيلالت] أخذ العلم عن عدة شيوخ مشهورين أمثال أحمد الحبيب صاحب زاوية الماطي، وكان فقيها مشاركا وأديبا ناثرا وكاتبا بلاغيا، وتولى خطبة الكتبية وله مشاركة في معرفة الانساب والتاريخ والأخبار ، والمغازي والسير وأيام الناس وفهم السياسة وطبائع الملوك، وألف عدة كتب منها: تفسير القرآن الكريم ويوجد بالمكتبة الملكية تحت رقم 1057، في تفسير مختصر خليل وفي اللغة ويشتهر خاصة في تافيلالت بقصيدته الشعرية "أسماء الله الحسنى " التي يقول مطلعها:

بدأت ببسم الله في أول السطر فأسماؤه حصن منيع من الضر

وصليت في الثاني على خير خلقه محمد المبعوث بالفتح والنصر

إلى أن يقول في آخرها:

وللناظم اغفر يا إلاهي وأهله وأحبابه واسترهم دائم الستر

وقارئها والمسلمين جميعهم ولله رب دائم الحمد والشكر

*** محمد بن محمد التافيلالتي:**

[توفي سنة 1191هـ/1777م] مفتي القدس، له كتاب "حسن التبيان في معنى مدلول القرآن" ويوجد بالمكتبة الخالدة بالقدس الشريف.

* محمد بن الطاهر العلوي المدغري:

[ولد بتافيلالت سنة 1185هـ/1777م وتوفي بمراكش ود فن بضريح مولاي علي الشريف بها في منتصف جمادى الأولى عام 1248هـ/1832م]. الغلامة المحدث الحافظ أخذ مبادئ العربية عن علماء تافيلالت ثم اننتقل إلى فاس واستوطنها وأخذ عن حمدون بن الحاج وطبقته وعن التاودي ابن سودة وغيرهم وله مشاركة فعالة في جميع العلوم والفنون من تفسير وحديث وأدب وأخد عنه عدة علماء منهم الطالب بن الحاج، مولاي الحبيب العلوي...

* الحبيب بن عبد الهادي العلوي:

(توفي سنة 1257هـ / 1841م ودفن بضريح مولاي علي الشريف بمراكش) الفقيه والعلامة، تولى الخلافة بفاس والخطابة بمسجد القرويين، صاهره السلطان المولى سلميان ببنته لالة أسماء ثم رجع إلى تافيلالت وتوفي بمراكش عن عمر يبلغ 86 سنة.

* التهامي بن أحمد المدغري المسعودي:

(توفي بفاس في 21 محمرم سنة 1273هـ/1856م ودفن بضريح سيدي أبي نافع) صاحب الأزجال الشهيرة ونظام قصائد الملحون. كان أديبا ماهرا فصيحا بليغا برع في فن الملحون الذي أخده عن العلامة والزاهد سيدي الغازي ابن العربي صاحب الزاوية الغازية، له قصائد شعرية كثيرة وفي مختلف البحور ويتميز شعره بالإشارة إلى القضايا المتنوعة بالتلميح والتصريح، وأزجاله لا تعد ولا تحصى ويتنافس في حفظها وغنائها شيوخ الملحون الذين يعتبرونه بحق استاذهم وشيخهم الأول.

* الصادق بن محمد الهاشمي الشريف السجلماسي:

(توفي عام 1279هـ/1862م) قاضي الجماعة بتافيلالت ونواحيها، وشيخ السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان وكان يحضر مجلسه في الحديث، له باع طويل في التفسير والحديث.

* الحسن الفيلالي المراكشي:

(توفي سنة 1280هـ/1863م) ولد بتافيلالت وفيها درس ثم انتقل إلى مراكش حيث كان شيخ الجماعةفي علم النحو بها. كان ينتسب إلى الزاوية الدرقاوية وله فيها عدة تآليف. كان فقيها

وعلامة مشاركا في عدة فنون أخذ عنه جماعة من علماء مراكش كالفقيه عبد الله بن وقاص والفقيه مبارك الجرني... شرح الحزب الكبير ومقدمة ابن اجروم والصلاة المشيشية (نسبه إلى مولاي عبد السلام بن مشيش).

* عبد الرحمان الفيلالي الدويري:

(توفي عام 1280هـ/1863م) الشريف العالم قرأ على ابن عبد الواحد الدويري وطبقته وبسببه استوطن مراكش وقصر عليه الأحكام وكان فاضلا جوادا، تزوج من للا مريم بنت السلطان المولى عبد الرحمان، ولم يترك مالا ولا ولدا.

* محمد الطيب السجلماسي المراكشي

: (توفي في المدينة المنورة سنة 1281هـ/1864م) كان فقيها صالحا صاحب جد، صواما قواما مجوادا لكتاب الله عز وجل قيما على التجهد به، حج بيت الله الحرام مرتين،قرأ القرآن بالروايات السبع على يد أستاذه المعطي بن أحمد السرغيني المراكشي.

* الشريف بن عبد الهادي بن أحمد بن محرز بن علي السجلماسي العلوي:

(توفي في أواسط القرن 13هـ/19م). كان كثير النسك والسلوك، لسانه لا يفتر عن ذكر الله، استوطن مراكش وكان مصاهرا للمامون بن هشام خليفة مراكش، وبقي فيها إلى أن توفي بها.

* هاشم بن الصديق بن قاسم المدغري:

(توفي بمدغرة في أواسط القرن 13هـ/18م) من درية مولاي محمد بن علي بن طاهر، كان عالما فاضلا كثير الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم دخل مراكش في أيام السلطان المولى عبد الرحمان وأجازه بدر الدين الحمومي والكومي وغيرهما. وكان من مقدمي الطائفة الصادقية.

* محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبد الجليل السجلماسي الفيلالي:

(توفي في 11 جمادى الأولى عام 1296هـ1878م ودفن بزاوية سيدي علي المصالي)، اشتهر بالعلم والاجتهاد، وكان زاهدا ناسكا قنوعا وكان ملازما لشيخه سيدي المعطي بن صالح

أحضره سيدي محمد بن عبد الله إلى الرباط ليدرس العلم بها أخذه عنه عدة علماء من الرباط أمثال أبي عبد الله محمد الضعيف والفقيه المكي بناني ودرس عليه السلطان المولى سليمان مختصر خليل (الزقاقية) وكتاب الفتوحات الإلهية لسيدي محمد بن عبد الله وكان أستاذا لأهل دلائل الخيرات يجتمعون عليه ويقرأون بين يديـــه.

* **محمد بن عبد الرحمان بن قاسم العلوي المدغري:**

(توفي يوم السبت 27 رمضان 1299هـ/1880م ودفن بزاوية الصقليين بذاخل باب الجيسة بفاس) من درية مولاي محمد بن علي بن طاهر، درس بقصر امسيفي في مشيخة الغرفة (تافيلالت)، أخذ العلم عن قاضي سجلماسة الصادق العلوي والقاضي عبد الهادي بن عبد الله العلوي ومحمد بن عبد الرحمان الحجرتي الفيلالي وغيرهم. ورد على السلطان المولى عبد الرحمان بمراكش حيث علم أولاده مبادئ العلوم ودرّس بجامع مولاي يوسف التفسير والحديث والفقه، وَلّي خطبة القضاء بفاس عام 1274هـ حج الديار المقدسة سنة 1282هـ وحضر بالقاهرة دروسا كثيرة في الفقه المالكي على يد شيخ المالكية بمصر الأستاذ محمد عليش. أخذ عنه عدة شيوخ منهم علي بن طاهر الوتري الحنفي وجعفر الكتاني ومحمد القادري.

* **محمد بن عبد الواحد الدويري السجلماسي:**

(توفي في 8 ربيع الأول عام 1302هـ/1884م ودفن بزاوية سيدي الملاحفي بفاس) الفقيه العلامة المدرس الفهامة قاضي مراكش، كان فقيها عالما مفتيا، أخذ العلم عن شيخ الجماعة محمد بن عبد الرحمان الفيلالي الحجرتي وعن القاضي عبد الهادي بن عبد الله العلوي وغيرهما أخذ عنه جماعة من العلماء منهم خاصة جعفر الكتاني، تولى قضاء مراكش على عهد السلطان المولى عبد الرحمان وابنه سيدي محمد بن عبد الرحمان، ثم تولى بعد سنة 1289هـ1872م القضاء بآسفي ثم عفي منه ورجع إلى فاس ومكث فيها إلى أن تغمده الله برحمته.

* **أحمد بن الحبيب بن علي بن عبد الواحد العلوي:**

(توفي عام 1305هـ/1887م) من درية أحمد بن علي بن طاهر العلوي، كان عالما فاضلا أخذ العلم عن القاضي مولاي محمد العلوي وطبقته وكان من أجود الأشراف وتولى نيابة القضاء بمدغرة، ورد مراكش ومنها توجه لقراءة العلم بفاس.

***الطاهر بن أحمد البلغيتي العلوي:**

(ولد عـام 1276هـ/1859م وتوفي بمراكش سنة 1317هـ/1899م ولم يتـجـاوز عـمـره 42 سنة من درية عبد المومن بن محمد بن أبي الغيث بن يوسف بن مولاي علي الشريف، الفقيه والأديب البارع النبيه الاريب، له عدة قصائد شعرية ذكر منها صاحب الأعلام بعض الأبيات في الجزء الثالث ص 265- 267.

*** محمد بن أحمد التنفراسي الشادلي:**

(توفي في بداية القرن 14هـ أواخر القرن 19م ودفن بدرب سبعة رجال بالموقف، مراكش) كان صوفيا عارفا محققا، أخذ عن الولي العارف الغازي بن العربي الشادلي دفين الزاوية الغازية. ورد مراكش، من تآليفه كتابه في أسرار النقطة وعلومها ومنها شرحه للفتوحات القدسية لقول ابن عربي الحاتمي من عرف استعداده، ومنها شرحه لقصيدة ملحونة للملياني، وكتب على الفتوحات المكية ووضح بعض مشكلاتها ومسائلها الغامضة.

*** عمر بن عبد الواحد السجلماسي الدويري:**

(توفي في بداية القرن 14هـ أواخر القرن 19م)، مفتي مراكش وصنو قاضيها ومدرسها بمسجد سيدي غانم بزاوية أبي العباس السبتي. وكان من المفتين في قضية امضاء الصفقة الواقعة عـــام1286هـ/1869.

*** أحمد بن العربي التنفراسي:**

(ولد عام 1250هـ/1834م وتوفي في رمضان عام 1319هـ/1901م ودفن بجوار محمد المعطي خارج باب الدباغ في مجاورة القبة بمراكش) من الشرفاء الأدارسة، فيلالي الأصل ومراكشي الدار والقرار، كان زاهدا ومتصوفا له معرفة بالشعر عارفا بالتوحيد، ورد فاس والتقى فيها بأحمد البدوي الزويتن وأخذ عنه الطريقة الدرقاوية ولازمه مدة طويلة.

*** الغازي بن العربي:**

(توفي في بداية القرن 14هـ أواخر القرن 19م، ودفن بضريحه الواقع غرب الزاوية المعروفة باسمه بقصر تبوبكرت، السفالات)، المؤسس الحقيقي للزاوية الغازية أخذ العلم عن شيوخ تافيلالت

وخاصة شيوخ الزاوية الناصرية بتمگروت. وأخذ عنه عدة علماء ومنهم التهامي المدغري الذي تعلم على يديه فن الملحون الصوفي، وله عدة مؤلفات أهمها والتي لازالت في خزانة الزاوية – دخيرة الكنوز الذهبية، المجموع، كتاب الرسائل والفوائد، شرح لمنظومة ابن عاشر.

خلاصة القول أن تافيلالت تعد بحق من الحواضر العلمية التي يعود لها الفضل في ظهور علماء وفقهاء كبار لم يبق عطاؤهم الفكري حبيس منطقتهم الأصيلة

بل شاع في كل ربوع المغرب فأحنوا وشاركوا وأعطوا كل ما في جعبتهم وقد سردنا فيما سبق بعض النماذج للمثال لا الحصر اعتمادا على عدة مؤلفات في أعلام المغرب والتاريخ المغربي من ذلك:

* الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام للعباس بن إبراهيم
* اعلام المغرب العربي لعبد الوهاب بن منصور.
* نشر المثاني لمحمدبن الطيب القادري.
* تاريخ الضعيف لأبي عبد الله محمد الضعيف.
* الاستقصا لأبي العباس خالد الناصري.
*الأنيس المطرب لعلي بن أبي زرع الفاسي.

VI نماذج من المخطوطات والوثائق الفيلالية الموجودة حاليا بالخزانات المحلية

1- خزانة مولاي الغالي الفضيلي (قصبة مولاي عبد الكريم

أ - القرآن والتفسيـــــــــــر

إسم المؤلف	الكتـــــــاب	عدد الأجزاء	التاريـــخ
مولاي مصطفى بن عبد الرحمن حفيظي	مصحف من سورة ياسين إلى آخر سورة الإنشقاق (مخطـــوط)	1	1269هـ
أحمد الطـاوي المالكـــــي	حاشية على تفسير الجلالين (مطبوع)	3 أجزاء	القاهرة المطبعة العامرة الشرقية عام 1318هـ
أحمـــد الديرنـــــي	فتح الملك المجيد المؤلف لنفع العبيد يشتمل على نوادر جليلة وخواص وأسرار للآيات القرآنية وغير ذلك ويهامشه كتاب مجريات الشيخ السنوسي (مخطوط)	1	مبتـــور

ب - الفقه الحديث والأصـــــول

إبراهيم بن مرعى عطية الشبرخيتي المالكي	الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين حديثا النووية ويهامشه كتاب المجالس السنة في الكلام الأربعين النووية لأحمد بن الشيخ حجازي الكشني.	1	القاهرة المطبعة الميمنية عام 1307
ابن الغـــــازي	شرح لمختصر خليل (مخطوط)	1	مبتـــــور
أبو الحسن علي بن عبد السلام التسولـــــي	البهجة في شرح التحفة على الأرجوزة المسماة بتحفة الحكم لأبي بكر محمد بن محمد بن عاصم الأندلسي الغرناطي ويهامشها شرح أبي عبد الله محمد التاودي المسمى بجلي المعاصم لينت فكر ابن عاصم وهو شرح على الأرجوزة المذكورة (مطبـــوع)	ج 1 ج 2	القاهرة مطبعة البهية محمد أفندي مصطفى 20 جمادى 1 عام 1304هـ
أبو العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي	اتحاف المقنع بالقليل في شرح مختصر الشيخ خليل مع حاشية الشيخ محمد بن محمد بن عبد السلام جنون على نظم الإمام محمد بن عبد القادر ابن علي بن يوسف الفاسي (طبعة حجرية)	1	رجب الفرد عـام 1303هـ

أبو القاسم بن زاكور الفاسي	التصريح بمضمون التوضيح (مخطـوط)	ج 1 ج 2	الإثنين 25 رجب الفرد عام 1124هـ
أبو القاسم سلموت بن علي سلموت الكماني	العقد المنظم للحكم فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام. (نسخة) (مخطوط)	1	أوائل شعبان عام 1019هـ تاريخ النسخة رمضان
أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري	صحيح البخاري (كتاب الإيمان) (مخطـوط)	ج1	1132هـ مجهـــول
أبو عبد الله محمد التاودي بن الطالب بن سودة المري	حاشية علي صحيح إمام أئمة الحديث وحامل رايته في القديم والحديث أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (مطبـوع)	ج 3	فاس المطبعة المولوية عام
أحمد بن عبد الرحمان السجلماسي الجرجيني	وثائق النكاح للتهامي المدغري (مخطـــوط).	1	1328هـ 15 شوال عام
أحمد بن محمد بن علي التواتـي	المحاضرات (نسخـــة) (مخطـــوط)	1	1232هـ 16 ذي القعدة
الحمـــــــزاوي	شرح المدد الفياض بنور الشفا للقاضي عياض (مخطوط)	1	عام 1230هـ 1276هـ
عبد الرحمان الصفـــوري الشافعـــي	نزهة المجالس ومنتخب النفائس وبهامشه كتاب طهارة االقلوب والخضوع العلام الغيوب لعبد العزيز الديريني (مطبـــوع)	ج 2	القاهرة مطبعة العامرة الشرقية عام 1303هـ
عبد الرحيم بن أحمد العبـاسي	شرح شواهد التلخيص المسمى معاهد التنصيص وبهامشه كتاب بدائع البداية للأديب علي بن ظافر الأزدي (مخطوط).	ج 1 ج 2	مجهـــول
عبد الملك بن أبي قاسم بن أحمد الفيلالي	اللوامح الفروسية في شرح الوظيفة الزروقية لعبد الرحمن بن محمد الفاسي (نسخة مخطوطـة)	1	18 رمضان عام 1248هـ
عبد الله العياشي	إرشاد المنتسب إلى فهم معونة المكتسب (مخطوط)	1	22 ربيع الثاني عام 1291هـ
عبد الواحد بن محمد بن التهامي العمروضرسي	تقييد ونظم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يعقوب السملالي وبهامشه تحرير المقال من غير اعتساف في الرد على من بسلم في الفرض تورعا للخروج من الخلاف للشيخ أحمد بن الغالب ابن سودة طبعة حجرية بيد أحمد بن المامون الحسني البلغيتـي	1	جمادى الثانية عام 1291هـ

عبد الوهاب الشعراوي	كتاب العهود (نسخة مخطوطة)	1	12 رجب الفرد عام 1030هـ
علي بن مبارك الروداني الإدريسي	حاشية فتح الصمد على شرح الفقيه محمد الأغظف ابن أحمد الولاتي الحوضي المنظومة مولانا عبد الحفيظ بن مولانا الحسن المسماة السبك العجيب لمعاني حروف مغنى اللبيب وبهامشه الشرح المذكور (مطبـــــوع)	ج 1 ج1	بولاق المطبعة الأميرية الكبرى عام 1325هـ
محمـــد الأميـــــــــر	شرح التحرير في مذهب الإمام مالك (مطبـــوع)	ج1	القاهرة مطبعة محمد شاهين الدمشقي 18 محرم 1128هـ
محمد التاودي بن ســـــودة	شرح على تحفة الحكام التي تسير عليها الوثائق وتبني عليها الأحكام للشيخ أبي بكر محمد بن عاصم الغرناطي (مخطـــــوط)	1	17 جمادى الأولى عـام 1284هـ
محمـــد الدسوقـــــــي	حاشية على شرح أحمد الدردير على المختصر (مطبـــوع)	4 أجزاء	القاهرة المطبعة الكستيلية العامرة عام 1286هـ
محمد بن قاسـم جســـوس	تعليق على عقيدة رسالة الشيخ أبي محمد عبد الله ابن زيد القيرواني (نسخة لعبد السلام بن المكي بن أحمد جسوس (مخطـــوط)	ج1	13 ربيع الأول عام 1125هـ
محمـــد ميـــــارة	الدر الثمين والمورد المعين في شرح المرشد المعين لابن عاشر وبهامشه الجزء الثاني من شرح الثنائي على نظم مقدمة ابن رشد. (مطـــبوع)	ج2	القاهرة المطبعة العامرة الشرقية رجب الفرد عام 1306هـ
مسعود بن حسن أبي بكر القناوي الشافعي	شرح لامية ابن الوردي نصيحة الإخوان (1285هـ) (مطبـــوع)	1	القاهرة مطبعة التقدم العلمية عام 1324هـ

ج - التصـــوف والزهـــــــــد

إبراهيم الباجوري	حاشية على متن البردة البوصيري (مطبـــوع)	1	القاهرة المطبعة الكستيلية أواخر ربيع الثاني عام 1291هـ
أبو الحسن الشادلـــي	حزب اللطف ومعه أوراد الأيام لمولاي عبد القادر الجيلالي (مخطـوط)	1	مراكش 25 محرم عام 1339هـ
أبو زكريا يحيى بن محمد الخطاب	مسائل الإلتزام وانتجز الفرض (نسخة لمحمد المرديني بن أحمد (مخطوط)	1	16 محرم عام 1228هـ
الجزولـــــــي	جزء من دلائل الخيرات (مخطوط)	الثلث الثاني	مبتـــــور
الحفنـــــــي	حاشية على الجامع الصغير من حديث البشير النذير (مطبوع)	1	طبع في رمضان عام 1290هـ
شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي	شرح على متن الهمزية في مدح خير البرية للشيخ شرف الدين أبي عبد الله محمد بن سعيد البوصيري وبهامشه حاشية محمد الحنفي (مطبـوع)	1	القاهرة مطبعة محمد أفندي مصطفى. أواخر رجب عام1309هـ
محمد بن عبد الواحد التطيفي	في مدح خير الخلق محمد صلى الله عليه وسلم تحميس لوتريات محمد بن راشد البغدادي(مطبوع)	1	طبع عام 1332هـ 1914م كان القلاع من
محمد بن قاسم جســـوس	االشرح المرسوم بالفوائد الجليلة البهية على الشمائل المحمدية وبهامشه لوامع أنواع الكواكب الدرية في شرح همزية الإمام البوصيري لمحمد بن أحمد بنيس (مطبوع)	ج1 ج2	كتابة بخط المؤلف يوم 19 ربيع 1 1142هـ طبع بالقاهرة مطبعة محمد أفندي أواخر شهر رجب 1296هـ
محمد حقي النازلي	خزينة الأسرار جليلة الأذكار وبهامشها كتاب الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين لشمس الدين محمد بن الجزري (مطبـوع)	1	القاهرةمطبعة محمد أفندى مصطفى ربيع 1 عام 1318هـ

د -السيـــــــرة والتراجـــــــم:

أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي	قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس وبهامشه مختصر روض الرياحين في مناقب الصالحين (مطبـــوع)	1	القاهرة المطبعة الميمنية جمادى الثانية عام1306هـ
أحمد بن أحمد المدعو بابا السوداني الصنهاجي	وجه الإبتهاج بالنيل على الدباج (مخطـــوط)	1	مراكش يوم الجمعة 7 جمادى الأولى 1005هـ
جســـــــــوس	باب ما جاء في خلق النبي صلى الله عليه وسلم للحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترميذي (نسخة مخطوطة)	1	23 رمضان عام 1122هـ
علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي	انساب العيون في سيرة الأمين والمأمون المعروفة بالسيرة الحلبية (مطبـــوع)	ثلاثة أجزاء	طبع في أوائل شعبان عام 1308هـ
مجهول (مبتور أول الكتاب)	سيرة هارون الرشيد (مطبـــوع)	1	مبتور آخر الكتاب
محمد الوفي بن ابراهيم بن طالب بن أحمد	تقييد في الشيخ محمد بن محمد الحراق بن مشيش (طبعة حجرية)	1	19 شعبان 1311هـ
مولاي عبد الحفيظ السلطان	نظم الشمائل المحمدية والسيرة المصطوفية (مطبـــوع)	1	فاس المطبعة المولوية 1328هـ
مومن الشبلنجي	نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار وبهامشه اسعاف الراغبين في سيرة المصطفى وآل بيت الضاهرين لمحمد الصبان (مطبوع)	1	القاهرة المطبعة العامرة الشرقية أوائل محرم عام 1320هـ

أبو محمد جمال الدين عبد الله بن هشام الأنصاري	شرح قصيدة "بانت سعادة" وبهامشه حاشية الشيخ إبراهيم الباجوري (مطبـــــوع)	1	القاهرة مطبعة محمد أفندي مصطفى أواسط رمضان 1302هـ
التفزانـــــــي	شرح التلخيص في البيان البديع وعلم المعاني (مخطوط)	1	13 شوال عام 1204هـ
حسن الكفراوي	شرح على متن الأجرومية وبهامشه حاشية الشيخ إسماعيل الحامدي (مطبوع)	1	مبتور آخر الكتاب
زين الدين أبوالوليد خالد بن عبد الله الأزهري	إعراب ألفية الإمام ابن مالك في النحو المسمى تمرين الطلاب في صناعة الأعراب وبهامشه شرح الشيخ خالد المسمى موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب لابن هشام الأنصاري (مطبوع)		طبع في شهر ذي القعدة عام1306هـ
عبد الله بن التادي بن عبد السلام بن غيث الشريف	متاع العربية على توضيح ألفاظ الجرومية نسخة مخطوطة بيد محمد الغلا بن محمد بن البشير	1	17 شوال عام 1292هـ
علي بن قاسم بن محمد التجيني	تعليق وجيز على لامية الزقاق (نسخة مخطوطة)	1	1170هـ
شهاب الدين أحمد الأبشيهي	المستظرف في كل فن مستظرف (مخطوط)	ج1	مجهول
مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي الشيرازي	القاموس المحيط والقاموس الوسيط (مطبوع)	4مجلدات 4 أجزاء	القارهرة المطبعة الكستيلية آخر رجب 1281هـ
مجهـــــــــول	حقيقة اللغة وهي ضبط المفردات وتبيين معانيها (مخطوط)	1	مبتور آخر الكتاب
محمد الحبيب بن أحمد بن محمد بن الطيب الرجاني السجلماسي	الدخيرة العلمية في بيان ألفاظ الجرومية وفيه شرح المنفع في علم أبي مقرع لمحمد بن سعيد بن يحيى السوسي المرغيني (مخـــــطوط)	1	13 شعبان عام 1216هـ
محمد الصبـــــــــان	حاشية على شرح العصام على السمرقندية في علم البيان وبهامشها مع الشرح حاشية علي بن صدر الدين بن عصام الدين (طبعة حجرية)	1	1107/07/18هـ

نصر الهوريني أبو الوفاء	فوائد شريفة وقواعد لطيفة في معرفة اصطلاحات القاموس (طبعة حجرية)	ج1	مجهـــــول

التاريـــــــخ

أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي المتوفى سنة 520هـ	سراج الملوك وبهامشه كتاب التبر المسبوك في نصائح الملوك (مطبـــوع)	1	القاهرة المطبعة الأزهرية عـــام 1319هـ
أبو عبد الله محمد بن اليفرني	نزهة الحادي بأخبار ملوك الحادي (طبعة حجرية)	1	عام 1037هـ
أحمد بن خالد الناصري السـلاوي	كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدولة العلوية) (طبعة قديمـــة)	ج 4	القاهرة مطبعة الأفندي أواخر رمضان عام 1312هـ
حسن العطار أبو علي	إنشاء العالم (طبعة حجرية)	1	أوائل الدولة المرينية
سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي	خريدة العجائب وفريدة الغرائب الجامع لما هو لطرف الدهر حور ولجيد الزمان عقد درر (كتاب وصف العالم وعجائبه وعلامات الساعة) (مطبـوع)	1	القاهرة مطبعة بحارة الفراحة أواخر جمادى 2 عام 1303هـ

كتب أخرى

ابن أبو الرجال الميسوري الأندلسي	أرجوزة على كلام الرعد في شهور العجمي. نسخة مخطوطة بيد عبد الواحد ابن الهاشمي بن المدني بن عبد الواحد الأنصاري الأوسي	1	متم صفر عام 1328هـ
جلال الدين السيوطي	الرحمة في الطب والحكمة (مطبـــوع)	1	القاهرة مطبعة محمد أفندي مصطفى شعبان عام 1314هـ

كمال الدين الأميري	حياة الحيوان الكبرى وبهامشه بقية كتاب عجائب المخلوقات والحيونات وغرائب الموجودات للشيخ زكريا محمد بن محمد بن محمود القزويني	ج 2	القاهرة المطبعة الميمنية ربيع الثاني عام 1305هـ

2- خزانة الزاوية الحفيانية:

أ - القرآن الكريـــم

إسم الكتـــاب	إســـم المؤلـــف	الأجزاء	التاريـــخ
جلال الدين السيوطي	الإتقان في علوم القرآن	ج2	الأربعاء الأول من رمضان عام 1063هـ
شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يوسف بن محمد بن مسعود بن إبراهيم النحوي الشافعي الحلبي (السمين).	اعراب القرآن العظيم أو الدر المصون في علم الكتاب المكنون	2-1 4-3	-
محمد بن بكر بن عبد القادر	المصنف حزب البحر (تفسير القرآن)	-	الخميس منسلخ ربيع الأول عام 1002هـ

ب -الفقه وأصـــول الديـــن

ابن الحاج يوسف بن موسى الكلبي	محكم وجيز مهذب في علم أصول الدين (فيه 4 آلاف بيت و99 بابا)	-	-
أبو الحسن علي بن سعيد بن علي الرجراجي	مناهج التحصيل ونتائج لطائف التأويل في شرح ما أشكل من مسائل الدين وتحصيل ما وقع في بعض الأبواب من الخلاف	-	-
أبو الحسن علي بن نصر بن أحمد بن مهدي الدارقطني الحافظ	المؤتلف والمختلف	27 جزء مجموعة في مجلدين	-

4- أبو الوليد محمد بن رشد	المقدمات والممهدات متضمنة رسوم المدونة من الشرعيات.	ج 3	-
5- جلال الدين السيوطي	الخصائص الكبرى	ج 1	
6- جمال الدين بن أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الحياني	تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد	-	الجمعة 12 ربيع الثاني عام 1081هـ
7- شهاب الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ شرف الدين الحنفي الشهير بابن الشلبي.	الفوائد السنية على شرح المقدمات الأزهرية	-	14 ربيع اثاني عام 1033هـ
8- شمس الدين محمد نجم الدين الغيطي الشافعي	مواهب الكريم المنان في الكلام على أوائل سورة الدخان وفضائل ليلة النصف من شعبان	-	الثلثاء 16 رمضان 1094هـ
9- مجهـــــــول	كتاب المساقاة باب في الشرب	-	-
10- مرعى بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر بن يوسف المقدسي الكرمي الحنبلي .	قلائد المرجان في الناسخ والمنسوخ في القرآن	-	-
11- محمد بن محمد ابن عرفة	تقييد عمن يخضع السادات دون سرسرة خضوع وجه الأرض دون سمائه للشيخ أبو العباس أحمد بن محمد أحمد البسيلي	-	16 ربيع الأول عام 1059هـ
12- محمد بن إبراهيم اللقاني المالكي	كتاب الحج نسخ سالم بن محمد بن عبد الله بن عمر ابن صلاح	-	الجمعة 11 رمضان 1044هـ

ج - الحـديث وعلومـــــه

1- ابن شـــــاوس	من الجواهـــــر	-	-
2- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري	كتاب صحيح البخاري أو الجامع الصحيح	ج 2 ج 24	مبتـــــور
3- أبو عبد الله محمد بن غازي	شفا الخليل في حل مفصل خليل نسخ محمد بن أحمد لن محمد الحضري (دي الحجة عام 1044هـ		الثلثاء أوائل ذي القعدة عام 1008هـ
4- أبو يحيى زكرياء الأنصاري الشافعي	تحفة الباري بشرح البخاري	ج 1 ج 3 ج 7 ج 9 ج 10	أوائل ربيع 1 عام 1079هـ بخط يحيى بن عبد الكريم الزعري
5- القسطلاني	فتح الباري بشرح صحيح البخاري	ج 1 ج 3 ج 4 ج 5 ج 6 ج 8	-
6- بهرام زين الدين	الشرح على مختصر خليل (الكبير والوسط) بخط محمد الحجازي بن كريم الدين محمد الحجازي	ج 1 ج 2 ج 3 ج 4 ج 5	الإثنين 13 جمادى 1 عام 1065هـ
7- خليل بن إسحاق بن موسى المالكي	المختصـــــر	-	مبتـــــور
8- سالم السنهودي	شرح على مختصر خليل	ج 3	عام 1079هـ
9- شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي الشافعي	الفتح المبين بشرح الأربعين	-	-

10- مجهـــــــول	مجموع ثلاث حاشيات على مختصر الشيخ خليل وشرح الميراث للقنصادي والتعريج والتبريج في ذكر أحكام المغارسة للشيخ عبد الرحمان بن عبد القادر	-	مبتـــــــود
11- مجهـــــــول	المنوي الكبير على شرح الجامع الصغير	ج 1	مبتـــــــود
12- مجهـــــــول	شرح ابن عقيل	-	مبتـــــــود
13- محي الدين أبي زكريا يحي النواوي	شرح صحيح مسلم	ج 1 ج 2 ج 3	3 شوال 830هـ
14- محي الدين يحيى بن الحاج شرف بن مرين بن حسن بن حسين	مناهج المحدثين في شرح صحيح الإمام أبي الحسن بن الحاج القشيري (كتاب البيوع).	ج 4	-
15- محمد أحمد عثمان ابن قماز الدمشقي	كتاب الكاشف عمن له رواية في الكتب الستة		مخطوط أصلي (بدون تاريخ)

د - اللغة وآدابهـــــــا

1- ابو عبد الله محمد ابن إسماعيل البخاري	كتاب الآداب (الجزء الرابع من الجامع الصحيح نسخ عبد الله محمد بن أحمد بن محمد العربي المدعو بابن الحاج	-	بـــــــدون
2- الشيخ خالد	شرح الجرومية وهو شرح قواعد ابن هشام		ذي الحجة عام 1039هـ
3-عبد الرحمان بن محمد العمري الشمسي	قسم الأقوال لجمع الجوامع مرتبا على الحروف المعجمية من الألف إلى الياء.	6 أجزاء	أوائل ذي الحجة عام 1063هـ

هـ - التصوف وعلم الكـــــلام

1- إبراهيم اللقاني المصري	عمدة المريد لجوهرة التوحيد	ج 1	
2- أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن رشد	البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل	3 - 1 8 - 5 12 - 11 14 - 13 ج 16	منتصف جمادى الأولى عام 690هـ
3- أبو عبد اله محمد بن يوسف بن عمر السنوسي الحسني	النظم المشتملة للطباع وتقرير الأدلة البرهانية للعقائد وفيه خطابات تصوفية	1	بـــــدون
4- أبو محمد عبد الجليل بن محمد عظوم	تنبيه الانام في بيان علوم مقام نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام	ج 3	1037هـ
5- حسام الدين الكافـــــي	كتاب في شرح مقدمة استاغوجي في علم المنطق	-	20 رجب عام 1079هـ
6- عبد الرحمان بن شمس الدين البردسي الحنفي	فضل الصلاة على النبي المصطفى وفضل محبته الشافية (باب من الأدب الكبير).	-	9 ذي القعدة عام 1078هـ
7- علي يوسف الكرمي الحنبلي	كتاب أرواح الأشباح في علم الكلام	-	مبتـور آخـــره
8- محمد بن صلاح الدين المالوجي	عوادي الزمان ومواهب المنان (متن مسلم)	ج 2 باب الخوف	مبتـــــــور
9- محمد بن محمد البلياني الصفاقسي الطرابلسي	من تنبيه الأنام في بيان علوم مقام نبينا محمد للحافظ أبي محمد عبد الجليل بن محمد عظوم	ج 1	11 جمادى الثانية عام 1034هـ
		ج 4	15 شوال عام 1034هـ

و - السيـــــرة والتراجـــــم

1- علي الحلبي الشافعي	سيرة الحلبي المعروفة ب أنساب العيون في سيرة الأمين والمأمون	ج 1 1078هـ ج 3

3- خزانة الزاوية الغازيـــــــة

إسم المخطوط	مؤلفـــــــه	موضوعـــــه
لباب الحكم ومطلع القمرين	سيدي الغازي أبو القاسم	يحتوي على حكم وسيرة ذاتية
ذخيرة الكنوز الذهبيـــة	سيدي الغازي بن العربي	تشتمل على حزب الأسرار وحزب الأنوار وقصيدة الهمزية كلها تتعلق بالمديح الديني مدح الرسول عليه الصلاة والسلام وتشتمل على: أرجوزة الأربعين حديثاأرجوزة التسول بأسماء الله الحسنى أرجوزة مراتب الأولياء أرجوزة في إكرام الضيف
المجمـــــــــوع	سيدي الغازي بن العربي	يجمع قصائد منظومة من كلام الملحون الصوفي في مدح الرسول عليه السلام وتضم وصايا وحكم متنوعة
كتاب الرسائل والفوائد	سيدي الغازي بن العربي	يجمع بين دفتيه فوائد لفقراء الزاوية الغازية
شرح منظومة ابن عاشر	سيدي الغازي بن العربي	تفصيل أحكام الشريعة الإسلامية انطلاقا من منظومة ابن عاشر على المذهب المالكي

إسم المخطوط	مؤلفـــــــه	موضوعـــــه
مصحف كريم	مخطـــوط	قرآن كريـــــــــــم
مصحف كريم من 21×5سم	مخطـــوط	قرآن كريـــــــــــم
ظهير شريف	جلالة المغفور له محمد الخامس	يعين بمقتضاء سيدي محمد بن أحمد الغازوي المعروف بسيدي حمو مقدما للزاوية الغازية.

خـــلاصـــــات:

إن معرفة دقيقة بتاريخ المغرب تبقى مرهونة بالدراسات والأبحاث الجهوية، ذلك أن البنية السوسيو-اقتصادية والفكرية تختلف حسب كل مجال بيئي وحسب الظروف المحيطة به. فالأحداث السياسية والإجتماعية وكذا المعطيات الثقافية والاقتصادية التي شهدتها منطقة تافيلالت ليست بالضرورة نفس المعطيات التي عرفتها جهات أخرى مثل فاس أو سوس أو المغرب.

إذا كانت الحواضر الكبرى تتميز برسوخ التقاليد العلمية والفكرية منذ أمد طويل وعرفت أوج عطائها خلال فترة الدولة العلوية الشريفة، فإن باقي المناطق المغربية لم تكن قطعا راكدة ومهمشة بل كانت أيضا مسرحا تمازجت فيه مختلف المذاهب والتيارات الفكرية و العلمية وطغى عليها بصفة خاصة الفكر الصوفي بشتى طرقه فضلا عن المذهب المالكي الذي عرف مساجلات ونقاشات متعددة عبرت عنها المؤلفات العديدة التي كتبت في هذا الشأن، وهذا ما يفند كل الإدعاءات والكتابات الأوربية وخاصة الفرنسية التي قسمت المغرب جزافا إلى بلاد المخزن وبلاد السيبة.

إن منطقة تافيلالت التي عرفت بناء ثاني مدينة إسلامية بالمغرب بعد مدينة نكور وأول دولة مغربية والمتمثلة في إمارة بني مدرار الخارجية الصفرية بسجلماسة، إضافة إلى كون هذه المنطقة تمثل محور التجارة الصحراوية وملتقى مختلف المعتقدات، فإن تافيلالت قد كانت بالفعل مركزا حيويا استقطب أجناسا متنوعة وبالتالي منبرا حرا لتبادل الرأي بين العلماء والمفكرين. وشهادة كل المؤرخين الذين زاروا المنطقة أو سمعوا عنها خير معبر عن الماضي الثقافي والعلمي الزاهر الذي شهدته المنطقة خلال عهود سجلماسة.

باعتبار منطقة تافيلالت حظيت بشرف احتضان الشرفاء العلويين وبشرف انطلاق دولتهم السعيدة، فإن ملوك وسلاطين هذه الدولة لم ينسوا أبدا جميل هذه المنطقة حيث قدموا لها كل عناية فأعادوا أمجادها، فازدهرت بذلك تجارة القوافل ونشطت الصنائع وبنيت المعالم وتقدمت الحركة العلمية والثقافية، فكم من البنايات التعليمية والقرآنية ومن المراكز الصوفية شيدت وكم من رجالات العلم والفكر تخرجوا منها وكم من مخطوطات ألفت أو نسخت. وما قدمناه في هذا العرض ما هو إلا نموذج متواضع ومبسط لما عرفته منطقة تافيلالت من نهضة علمية خلال القرنين 18 و 19م.

المصـادر والمراجـــع:

- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق وتعليق جعفر ومحمد الناصري. المجلد الثالث: الدولة العلوية الأجزاء 8،7 و 9. الدار البيضاء دار الكتاب. 1956.

- العباس بن إبراهيم: الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام (10 أجزاء) الرباط. المطبعة الملكية (1974-1983).

- عبد العزيز بنعبد الله: معجم المحدثين والمفسرين والقراء بالمغرب الأقصى. المحمدية. مطبعة فضالة 1972.

- عبد الوهاب بن منصور: أعلام المغرب العربي (4 أجزاء).
الرباط. المطبعة الملكية. 1979.

- لحسن تاوشيخت: دراسة أثنو- أثرية لخزف تافيلالت سجلماسة، رسالة لنيل الدكتورة الجامعية في علم الآثار. إكس أونبروفانس، 1989. جزءان.

- محمد بن عبد السلام بن أحمد بن محمد الرباطي الضعيف: تاريخ الضعيف أو تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد سليمان. 1043هـ/1633م. 1238هـ/ 1819م دراسة وتحقيق الأستاذ محمد البوزيدي الشيخي، الدار البيضاء. دار الثقافة. جزءان الطبعة الأولى 1988.

- محمد حجي: الحركة الفكرية بالمغرب على عهد السعديين منشوورات دار المغرب للتأليف واالترجمة والنشر. سلسلة التاريخ (2) المحمدية، مطبعة فضالة 1977.

- مولاي عبد الرحمان بن زيدان: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس. الدار البيضاء، مطابع إديال. المطبعة 2. 1990.

Henri DASTUGUE: "Quelques mots au sujet du Tafilalt Sijilmassa" in bulletin de la société de Geographie: Paris, avril 1867: TXIII: PP: 337-380.3 cartes. h.t.

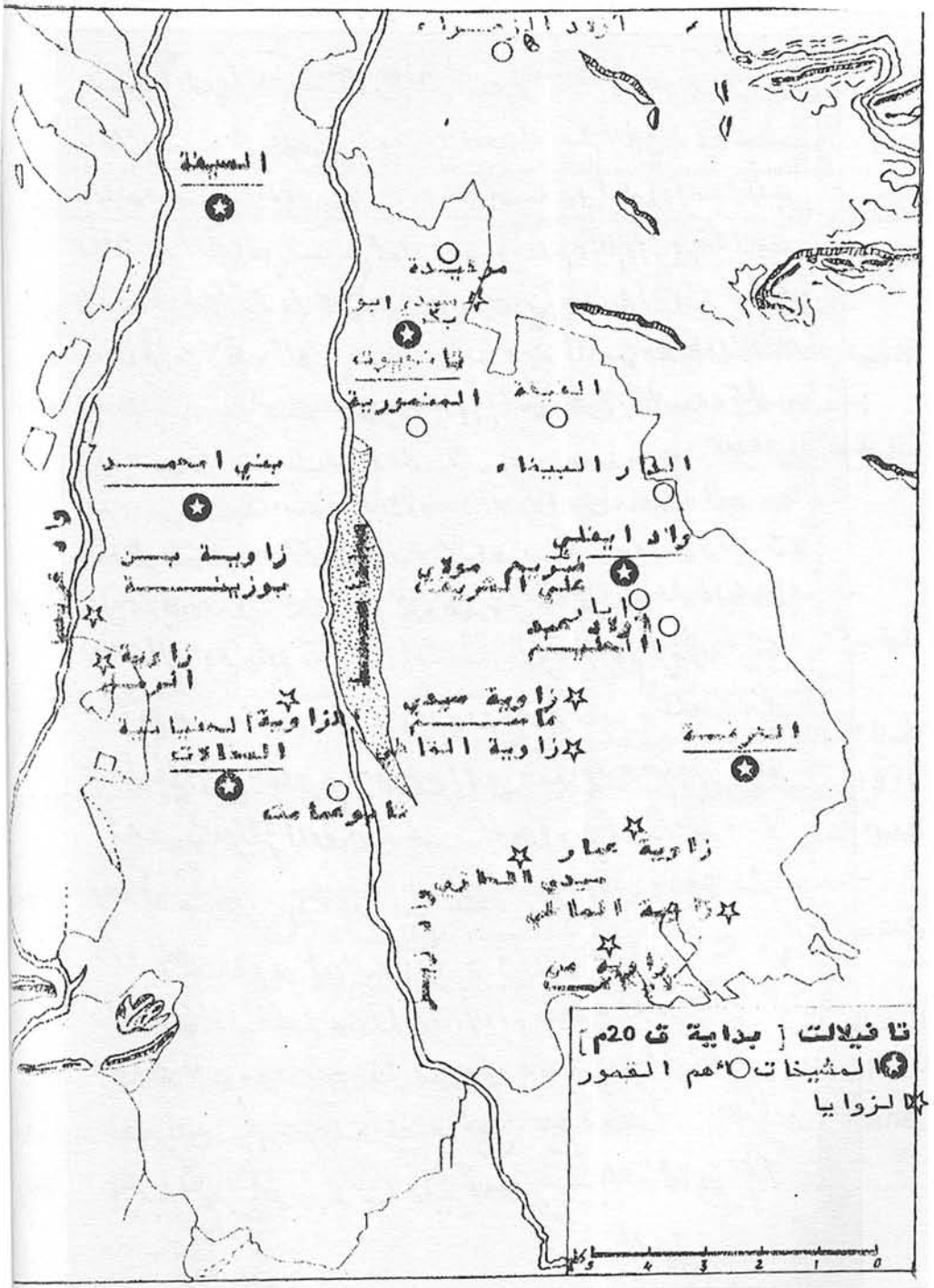
السبيعة
مليدة
سيدي ابو
الدباغين
العباية المنصورية
الدار البيضاء
بني احمد
زاوية بن بوزيتة
واد ابيض
مولاي علي الشريف
اولاد سعيد
زاوية سيدي
زاوية الغا
الزاوية الحنيانية
السلالات
الحرمة
زاوية عمار
سيدي الطاهر
تافيلالت [بداية ق 20م]
المشيخات
اهم القصور
الزوايا
0 1 2 3 4 5 كلم

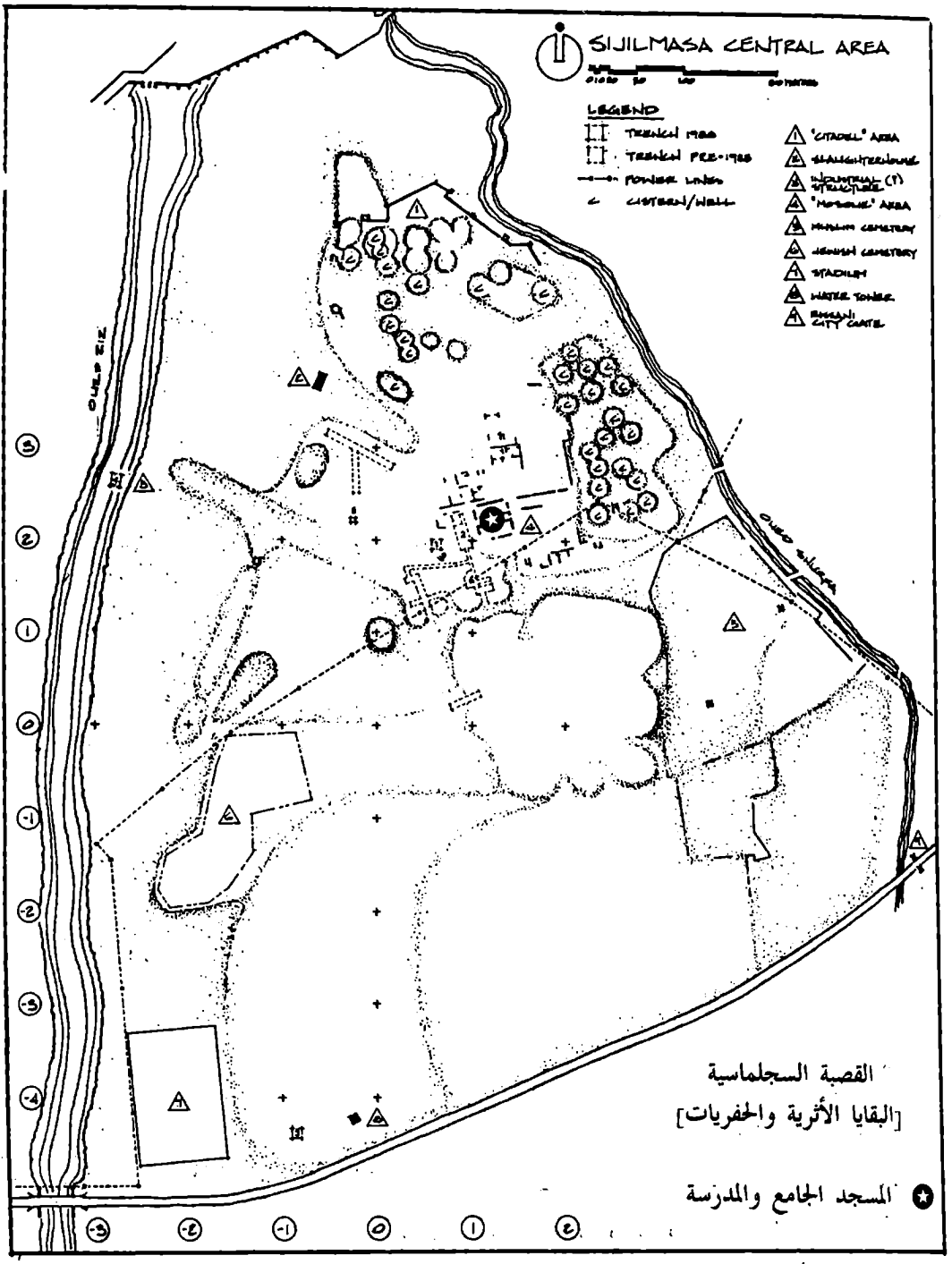

القصبة السجلماسية
[البقايا الأثرية والحفريات]

المسجد الجامع والمدرسة

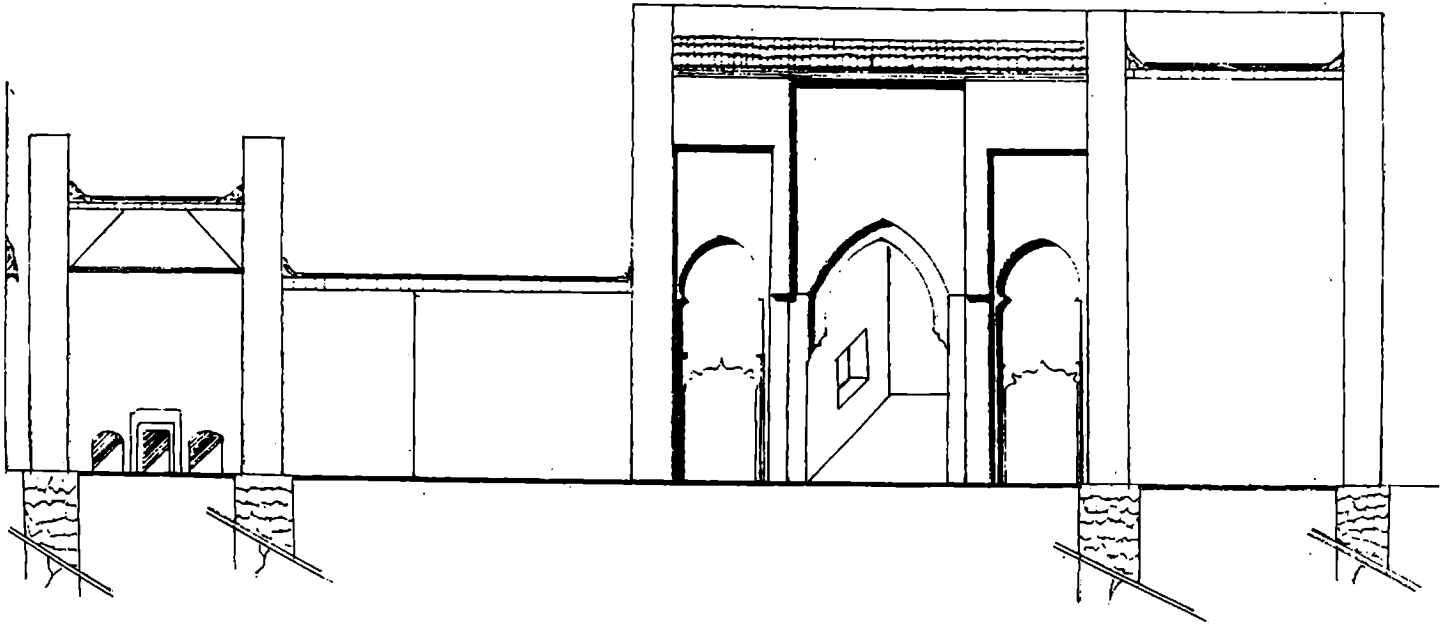

COUPE GG

مدخل الزاوية الغازية

الواجهة ج ج

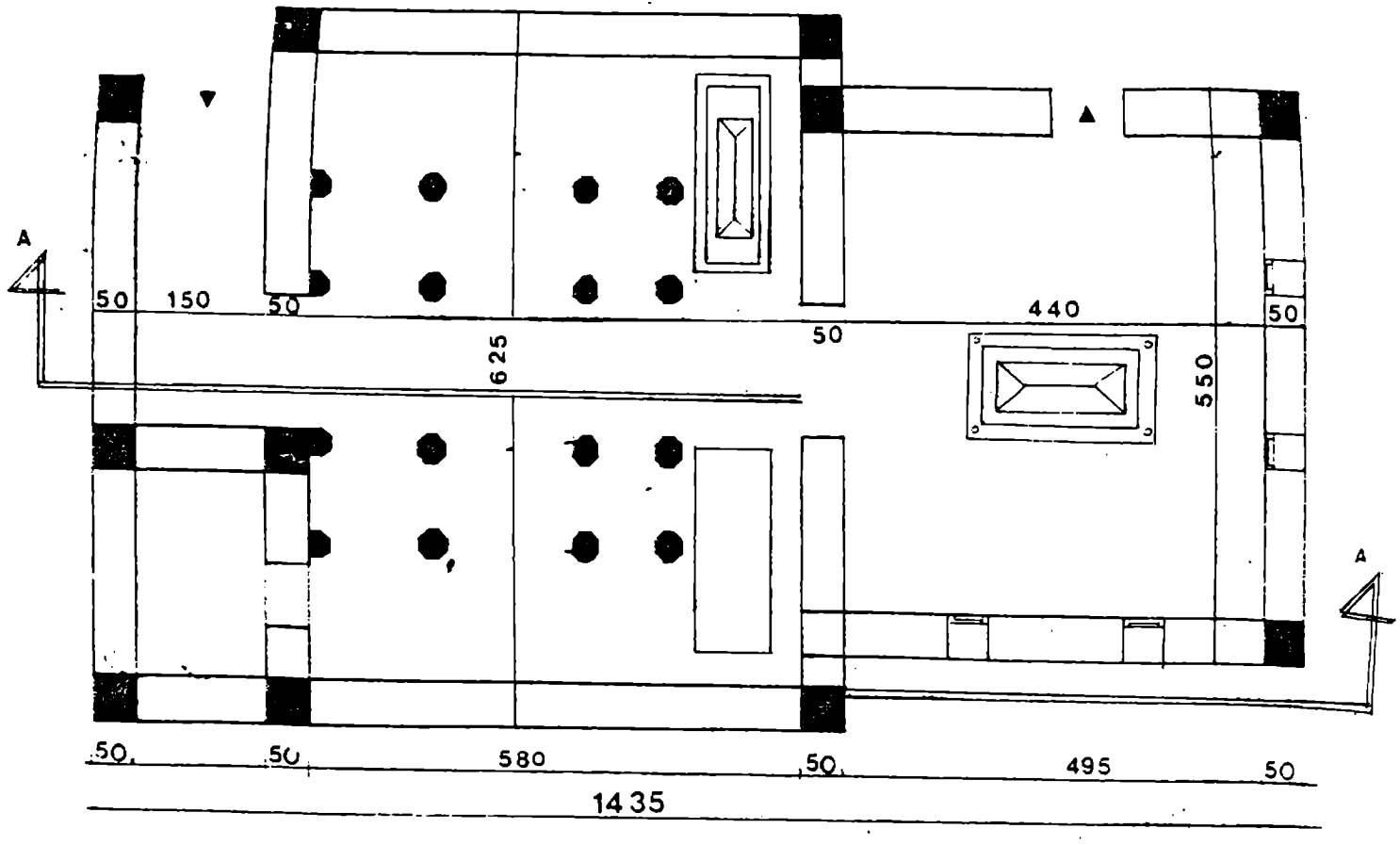

ضريح سيدي الغازي بن العربي

(التصميم)

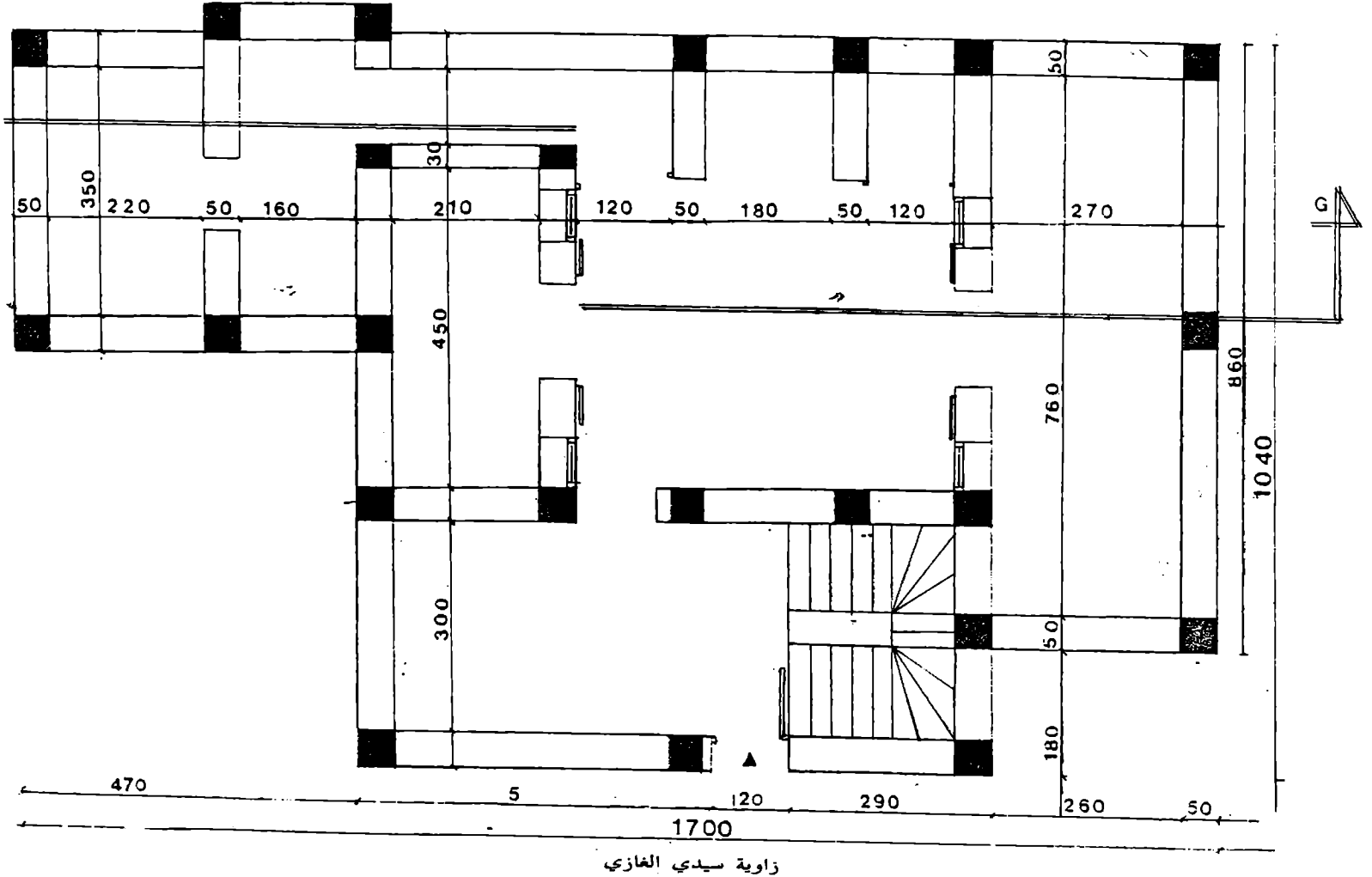

زاوية سيدي الغازي

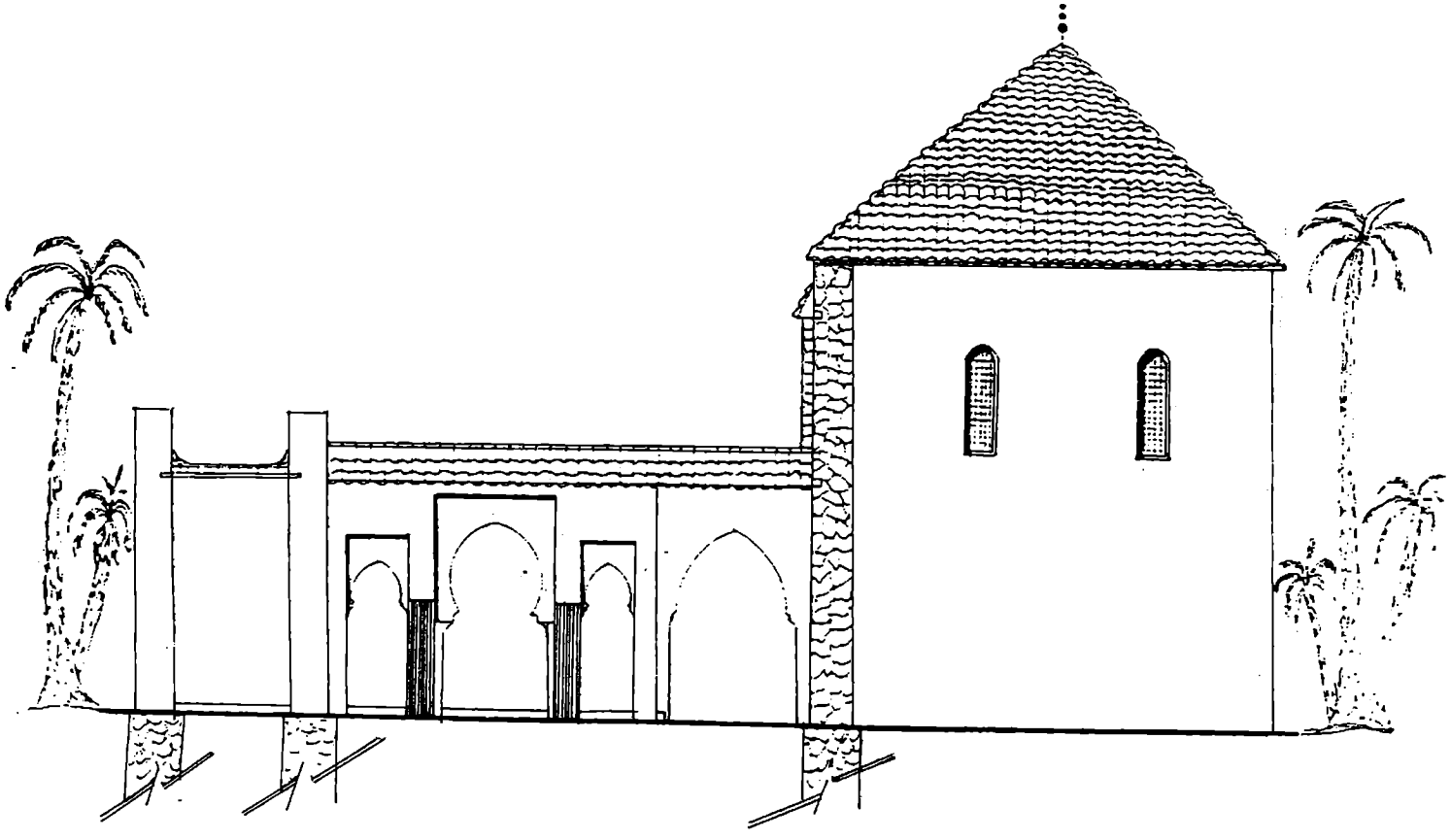

COUPE AA

ضريح الولي سيدي الغازي بن العربي

الواجهة أ أ

التعليم بمدينة فاس في عهد السلطان سليمان

محمد منفعـة
كلية الآداب. وجـدة

لقد سلطت بعض المصادر والمراجع الأضواء على التعليم بمدينة فاس وجامع القرويين خاصة. لكن ما يلاحظ على أغلبها، وصفها لما كان عليه الوضع العلمي بهذا الجامع دون إبداء أي تساؤل حول الأسباب التي كانت وراء اهتمام السلاطين به، وكذلك دون مراعاة الأسباب الداخلية والخارجية التي أدت إلى عدم نشاط التعليم بالمراكز العلمية الأخرى، هذا بالإضافة إلي عدم طرح التساؤل حول ما قيل بشأن ما قام به السلطان سليمان في الميدان التعليمي. لذا يتطلب البحث في هذا الموضوع طرح التساؤلات التالية : ما هو السبب الذي جعل السلطان سليمان (1792-1822) يهتم بمدينة فاس دون غيرها من المراكز العلمية؟ وهل أدى هذا الإهتمام إلى نشاط التعليم بهذه العاصمة العلمية؟ وكيف كان حال العلماء والطلبة؟
إن الجواب عن هذه التساؤلات يتطلب التطرق إلى كل سؤال على حدة.

1- *الاهتمام بمدينة فاس:*

إن أهمية مدينة فاس الحضارية جعلتها تنال عناية كبيرة من سلاطين الأسر التي حكمت المغرب منذ زمن طويل، لذا فلا غرابة أن يعتني بها السلطان سليمان. لكن ما يلاحظ على هذا السلطان هو تركيزه عليها وحدها دون غيرها من المراكز العلمية. وهذا ما لا نجده حتى في عهد أبيه الذي قام بمحاولة إصلاح التعليم بجامع القرويين. بحيث إنه كان يبعث بعض علمائها إلى المراكز العلمية الأخرى لنشر العلم بها. وهذا ما عبر عنه الزياني قائلا: "وجلب المحدثين من فاس ومكناس، نقلهم إلى مراكش."(1)
إذن فاهتمام السلاطين بمدينة فاس كان متفاوتا، وهذا يبين أن ما كان سببا رئيسا عند

1- الترجمانة الكبرى، ص: 63.

أحدهم لم يكن كذلك عند الآخر، لذا فوضع الأسباب حسب الأهمية يؤدي إلى معرفة حقيقة ذلك الاهتمام والأهداف منه. لكن لا نجد ذكرا لدى أغلب الباحثين عن السبب الرئيس الذي كان وراء اهتمام السلطان سليمان بالعاصمة العلمية، إلا ما ورد عند أحدهم حين تحدث عن اهتمام العلويين بصفة عامة بمدينة فاس حيث قال مايلي: "وهكذا فإن عناية العلويين بالثقافة تركزت في إحيائها بعاصمتهم الأولى (مدينة فاس) فاهتموا بالقرويين والدراسة بها اهتماما فائقا، نظرا لأن بعضهم اتخذ هذه المدينة عاصمة المملكة، ولأن جل الملوك كانوا يقرأون بها، ولاعتمادهم عليها في تكوين أطر البلاد.(2)

إن نظرة متأنية إلى هذه الأسباب المذكورة أعلاه، تدفع الباحث إلى طرح بعض التساؤلات مثل : لماذا لم يهتم السلطان محمد الثالث بمدينة مراكش التي كانت عاصمة ملكه؟ وكذلك لماذا لم يصلح التعليم بها لكن قام بإصلاحه بجامع القرويين؟ وألا يمكن تكوين الأطر بمراكش أو سلا أو الرباط أو غيرها من المراكز العلمية؟ وهل القراءة بها كافية للتركيز عليها وحدها دون غيرها؟

يظهر من خلال التمعن في هذه الأسئلة أن السبب الرئيس الذي كان وراء الإهتمام الفائق غير مذكور، لذا يتطلب الأمر البحث عنه وذلك بالرجوع إلى بعض الأسباب الأخرى لكن ماهي هذه الأسباب؟ وأيها السبب الرئيس؟

يتضح أن هناك قضية مهمة جعلت مدينة فاس ليست عاصمة علمية ودينية فحسب، وإنما أيضا عاصمة سياسية وهي اتخاذها مركزا لأهل الحل والعقد والعلماء الكبار والجند. لذا من حاز على بيعتها يفوز بالملك ويجد مساندة من علمائها سواء تعلق الأمر بفتاويهم في المسائل الاجتماعية والدينية أم في المسائل السياسية، وإذا علمنا الوضع السياسي المضطرب الذي عرفته السنوات الأولى من حكم السلطان سليمان يتأكد ما ذهبنا إليه.

إذن يظهر من هذا أن السبب يرجع إلى مكانتها السياسية وبعد ذلك يمكن القول بمكانتها العلمية والدينية وذلك بأنه أصبح لدى السلاطين الإهتمام بها كتقليد لمن كان قبلهم حتى يحافظوا على تلك المنارة العلمية التي كانت تضاهي منارات المشرق العربي مثل القاهرة، وبغداد، ودمشق وغيرها من المراكز الحضارية الإسلامية(3).

2- الحسن السائح، دفاعا عن الثقافة المغربية، ص:237

3- وربما كان يراد بهذا رد الإعتبار إلى الذات وإحياء المجد التليد.

قد يوضح هذا الاهتمام بفاس لمكانتها السياسية، أنه كان للتدخل السياسي أهميته في الدفع بالتعليم إلى الأمام أو إرجاعه إلى الوراء. وهذا سلبياته أكثر من إيجابيته بل ربما كان من الأسباب التي أدت إلى فقدان المغرب لمكانته العلمية، ومن ثم التأخر في العطاء العلمي. وذلك لأن العلماء بدأوا في أغلبهم يهتمون بما يرضى السلاطين وما يؤدي إلى الحصول على وظيفة من الوظائف، وتركوا الإنشغال بالمسائل العلمية والكتب العلمية المختلفة.

إن القول باهتمام السلاطين بالتعليم بمدينة فاس والسلطان سليمان خاصة يثير التساؤل التالي: هل نتج عن ذلك نشاط علمي أو لم يكن لذلك الإهتمام أية نتيجة ؟ إن الجواب عن هذا التساؤل يتطلب تسليط الأضواء على نشاط التعليم بالعاصمة العلمية.

2- *نشاط التعليم بمدينة فاس:*

لن نتحدث عن تطور التعليم بمدينة فاس ونشاطه بها منذ بناء جامع القرويين، وإنما سنركز على فترة السلطان سليمان الذي شهد له معاصروه بالعلم والعدل. لذا نتساءل: هل كان لحدبه على التعليم نتيجة؟ لقد قيل بأنه "أعز العلم وأهله"[4] فنتج عن ذلك أن "انتشر العلم أي انتشار".[5]

ولم يكن هذا قول المغاربة وحدهم، بل حتى الأجانب، ومن هؤلاء الجاسوس الإسباني على باي العباسي، الذي زار المغرب خلال المدة الزمنية (1803-1805)، فلاحظ النشاط العلمي بمدينة فاس، الأمر الذي جعله يشبهها بأثينا، حيث قال ما يلي: "تعتبر فاس – إذا سمح لي بهذه المقارنة – أثينا إفريقيا لما فيها من علماء ومدارس وطلبة".[6]

يمكن استنتاج ملاحظتين من خلال ما سبق ذكره، الأولى : انتشار التعليم. والثانية: كثرة العلماء والمدارس والطلبة، إلا أن الملاحظة الأولى تدفع إلى طرح التساؤل

4- الزياني، جمهرة التيجان وفهرست الياقوت واللؤلؤ والمرجان في ذكر الملوك وأشياخ مولانا سليمان، مخطوط بالخزانة الحسنية رقم 6778،ص، 56

5- المشرفي، الحلل البهية في ذكر ملوك الدولة العلوية، ص: 176

6- Viajes por Marruecos, Ed. Nacional, Madrid, I.H.A.C 1985, p:21

التالي: ماذا عني المؤرخ بانتشار العلم أي انتشار؟ لا ندري هل كان يقصد انتشار العلم بين الناس بفاس أو كان يرى أن العلم قد أصبح متداولا في المدن والقرى، بين الشباب والكهول والنساء والأطفال؟ وهذا الظن في شقه مقبول، وذلك بأن العلم قد انتشر بين الناس في فاس انتشارا كبيرا، أما الشق الثاني فهو مستبعد لأن المصادر لم تذكر انتشار العلم في القرى والمدن المغربية ذلك الانتشار الذي تحدث عنه المؤرخ. ويؤكد ما ذهبنا إليه ما قاله الزائر أو الجاسوس الإسباني الذي لاحظ كثرة المدارس والطلبة والعلماء بمدينة فاس، هذا مع العلم أن هذا الإسباني قد زار مجموعة من المدن المغربية ولم يذكر شيئا عن العلم والعلماء بها. غير أن هذا لا يعني أن المراكز العلمية الأخرى كتطوان، وسلا، والرباط، ومراكش، قد توقفت حركة التعليم بها.

قد يتساءل المرء: لماذا لم يسر السلطان سليمان على هدي والده في نقل العلماء من مدينة فاس إلى المراكز العلمية الأخرى؟

لا يظهر في المصادر والمراجع أية إشارة تبين السبب الذي كان وراء ذلك، إلا ماقاله الضعيف بشأن رفض العلماء الإنصياع لطلب السلطان بالذهاب إلى "بجعد" للإتيان بالشيخ العربي بن المعطي الذي لم يرد لقاء السلطان، لذا قال لهم السلطان ما يلي: "أنا بعثت روحي في صلاح المسلمين والضعفاء والمساكين والأرامل والأيتام، وحسبت أنكم كذلك تسعون في صلاح جمع كلمة المسلمين من هذا الخلاف الذي هو بينهم، وحتى الآن لا فائدة لكم، لأني اختبرتكم فوجدت همتكم في بطونكم".(7)

يمكن أن نستنتج من قول السلطان أن العلماء كانوا يحبذون البقاء بعيدين عن المشاكل السياسية، أي الحفاظ على وظيفتهم العلمية التي كانوا يقومون بها. ومن هنا يظهر أن الوضع السياسي المضطرب كانت له أهميته في انحصار النشاط العلمي بالعاصمة العلمية دون غيرها. وربما كان هذا الموقف من علماء فاس الرافض للتدخل في الحياة السياسية سببا في عدم نقلهم إلى المراكز العلمية الأخرى. هذا بالإضافة إلى أن التشجيع الذي وجدوه من السلطان بمدينة فاس ما كان بالإمكان إيجاد مثله بالمراكز الأخرى، بسبب صرف الأموال في تجهيز الجيش المخزني لمحاربة المنشقين والقضاء على الإضطرابات هنا وهناك.

إن الحديث عن نشاط التعليم بمدينة فاس يدفع إلى معرفة المواد المدرسة وطرق التدريس بها.

7- مصدر سابق، ص: 287

1- المواد المدرسة:

لقد تطرق بعض الباحثين إلى التعليم في هذه الفترة، وذكر أحدهم أن "السمة العامة للتعليم في هذا العصر لا تختلف في شيء عن السمة العامة التي لاحظها قديما ابن خلدون في تعليم عصره".(8)

لم يكن هذا الحكم بدون أدلة، وإنما يظهر أن الباحث قد رجع إلى الناصري ليبين أن السلطان سليمان قد تخلى عن إصلاح والده ، وبدأ "يحض الناس على التمسك بالمختصر، ويبذل على حفظه وتعاطيه الأموال الطائلة".(9)

إن القول بتخلي السلطان سليمان عن إصلاح والده يدفع إلى طرح التساؤل التالي : هل الحض على التمسك بالمختصر يعني التخلي عن الإصلاح برمته؟ إن هذا التساؤل يثير مسألتين أولاهما : الحض على المختصر. وثانيها : التخلي عن إصلاح والده.

إن هاتين المسألتين تتطلبان بعض التوضيح، لذا سنتطرق إلى كل مسألة على حدة.

- الحض على المختصر

نقل الناصري أن السلطان سليمان لما أفضي الأمر إليه "صار يحض الناس على التمسك بالمختصر ويبذل على حفظه وتعاطيه الأموال الطائلة"(10) وقد ترتب على هذا، ما توصل إليه أحد الباحثين أن السلطان "رجع ما كان إلى ماكان"،(11) وكذلك قال باحث آخر بأنه "أعاد توجيه العناية إلى المختصرات لاسيما مختصر خليل".(12) لكننا لا نجد أحد الباحثين حاول طرح التساؤل التالي : متى صار السلطان سليمان يحض الناس على التمسك بالمختصر؟ إنه بالرجوع إلى الضعيف.

8- عبد المجيد الصغير، إشكالية إصلاح الفكر الصوفي، ص. 99

9- الاستقصا، ج:8 ، ص: 67

10- الاستقصا، ج:8 ، ص: 67

11- عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ص: 288

12- ابراهيم حركات، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنيين ونصف قبل الحماية، ص:16

يتبين أن السلطان لم يحض على المختصر لما أفضي الأمر إليه عام 1206هـ وإنما أمر المحتسب الحاج محمد بن زاكور في متم صفر 1213هـ أن "يعين الطلبة حفاظ مختصر خليل سواء كانوا من الحضر أم من البدو"[13] أي بعد سبعة أعوام من توليه الحكم، وهذه المدة كافية ليتوصل فيها السلطان إلى معرفة توجه العلماء والطلبة. وقد توضح لديه أن بعض العلماء كانوا يدرسون مختصر خليل بعد موت السلطان محمد الثالث، وكذلك يدرسون بعض الكتب التي منعها أبوه، وكان الطلبة يرغبون في ذلك. ونورد في هذا الصدد على سبيل المثال ما ورد لدى الضعيف أن الطلبة طلبوا من الفقيه محمد بن أبي القاسم السجلماسي الذي انتقل من الرباط إلى بجعد في 19 شوال 1204، "إتمام الزقاقية، وقد كان قد قطعها خوفا من أمير المؤمنين سيدي محمد رحمه الله لأنه قطع قراءة خليل وغيره".[14]

هذا عن منظومة الزقاقية فماذا يمكن القول عن مختصر خليل الذي كان العلماء والطلبة يحفظونه عن ظهر قلب؟ يظهر إذن أن الرجوع إلى المختصر كان ضروريا لهؤلاء الذين شبوا على قراءته وحفظه وتدارسه. هذا بالإضافة إلى أن السلطان كان من العلماء الذين حفظوا مختصر خليل.

إذن يتضح مما سبق أن الرجوع إلى بعض الكتب والعلوم التي منعها السلطان محمد الثالث لم تكن بأمر السلطان، وإنما لما أفضي الأمر إليه وجد العلماء والطلبة يتدارسونها في مجالسهم العلمية. لذا هل يعني هذا أن السلطان قد أبطل العمل بظهير الإصلاح؟ إن الجواب عن هذا التساؤل يتطلب تسليط الأضواء على المسألة الثانية التي أثرناها أعلاه، وهي ماذا عن تخلي السلطان عن ظهير الإصلاح؟

- *مسألة تخلي السلطان عن إصلاح والده:*

قد لاحظنا أن قول الناصري أدى إلى الاعتقاد أن السلطان حض على المختصر منذ توليه الحكم. لكن بالرجوع إلى بعض المصادر اتضح أن الاشتغال بالعلوم والكتب التي منعت عام 1203هـ، قد بدأ الرجوع إليها عام 1204 هـ مباشرة بعد موت السلطان، لذا فالقول بأن

13- الدولة السعيدة، ص: 309

14- نفس المصدر، ص: 214

السلطان "أبطل العمل بالظهير السابق."[15] في حاجة إلى دليل يدعمه، وإلا فلا أساس له في الواقع.

لقد حاول الباحث أن يدلل على قوله بحجتين: أولا: المواد التي كانت تدرس في هذه الفترة. وثانيا: قول الناصري السالف الذكر. بالنسبة لقول الناصري، لا يظهر منه إلا أنه عاب على السلطان تشجيعه حفظ المختصر لأن "سبب نضوب ماء العلم في الإسلام ونقصان ملكة أهله فيه اكباب الناس على تعاطي المختصرات الصعبة الفهم وإعراضهم عن كتب الأقدمين المبسوطة المعاني، الواضحة الأدلة، التي تحصل لمطالعها الملكة في أقرب مدة."[16]

إن قول الناصري لا يدل إلا على أن السلطان شجع الطلبة على حفظ المختصر، ولم يشر إلى أنه تخلى عن ظهير والده. وهذا يمكن اعتباره دليلا على عدم إبطال العمل بالظهير، وإنما إضافة إلى مافي الظهير. وعلى هذا الأساس يكون السلطان قد قام بتعديل على إصلاح والده، إذ أراد أن يكون الإصلاح جامعا بين الأمهات والمختصرات، وذلك ليجد كل واحد ضالته في المنهج الذي يبتغيه، هذا بالإضافة إلى أن أحد الباحثين أورد أن السلطان كان يرى أن "الإشتغال ببعض الشروح والحواشي من شأنه أن يشحذ الفكر، وينمي طاقة المناقشة في الطلبة، وفيما يتعلق بمختصر الشيخ خليل نجد أنه بمقدار ما كان الوالد يرى في أسلوبه عائقا عن الفائدة، كان الولد يرى أنه على العكس من ذلك، أسلوب يساعد على اقتحام غوامض الأمور، بل إنه أضاف إليه العناية بمختصر ابن الحاجب."[17]

لم يكن هذا رأي السلطان فحسب، وإنما كان رأي مجموعة كبيرة من العلماء سواء كانوا في عهد السلطان أم في العهود التي تلت إلى يومنا هذا. غير أن هذا القول أو الاستنتاج يمكن قبوله إذا سارت الأمور على ما أراده السطان أي أن يكون التعليم جامعا بين الأمهات والمختصرات، لكن الإقتصار على المختصرات وحدها فهذا فيه خلل وهو الذي أدى بابن خلدون وغيره من العلماء إلى القول بأن "كثرة الإختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم."[18]

15- عبد المجيد الصغير، مرجع سابق، ص: 110

16- الاستقصا، ج:8، ص : 67

17- عبد الهادي التازي، جامع القرويين، المجلد الثالث، ص: 725

18- المقدمة، ص : 532

وقد كان هذا اللجوء إلى المختصرات وحدها سببا في محاولة السلطان عبد الرحمن بن هشام (1822-1859) القيام بتنظيم جديد للتعليم بالقرويين.

أما بالنسبة للمواد التي كانت تدرس في هذه الفترة فقد بين الباحث أن "الدراسة تعتمد أساسا على المتون" في مختلف المواد التي لم تكن تخرج عن التفسير وعلم القراءات وعلم الحديث والتوحيد (الأشعري) والمنطق والفقه والأصول وعلوم اللغة العربية".(19) وليؤكد ما ذهب إليه أورد ما لاحظه أحد الرحالة الجزائريين الذي زار تطوان في هذه الفترة ونقل انعدام علوم الحساب والطب والهندسة كما لاحظ قلة المتقنين لعلم الفلك(20)

إن ما استدل به هذا الباحث على إبطال السلطان العمل بالظهير السابق، يدفع إلى طرح التساؤل التالي: هل هذه العلوم التي أشار إليها الباحث بالإضافة إلى ما نقله الزائر الجزائري توضح بموضوعية ما كان يتدارسه الناس بفاس؟ لا يمكن الحكم على ما كان يدرس بفاس من خلال نظرة على ما كان بتطوان في هذه الفترة، وذلك بأن التعليم بتطوان لم يصل في هذه الفترة إلى الحالة النشيطة التي كان عليها التعليم بمدينة فاس لذا كان ينبغي الرجوع إلى ما كان يدرس بهذه العاصمة العلمية حتى يتمكن الباحث من الحكم بموضوعية على التعليم. وبإلقاء نظرة على لائحة المواد التي كانت تدرس بفاس يتضح أن الباحث لم يحكم بموضوعية على الواقع العلمي بفاس في هذه الفترة ومما ورد لدى ابن السنوسي ما يلي: "علم الفرائض والحساب والأسطرلابين وصناعتهما، والرياضيات والهندسة والهيئة والطبيعة والارثماطيقي، وأصول قواعد الموسيقى، والمساحة، والتعديل والتقويم، وعلم الأحكام، والينس، والوقف، والقواعد الجفرية، وأصول الزايرجية والبسط والتكسير والجبر والمقابلة، وغيرها".(21) هذا وقد عقب الباحث الذي نقل هذه اللائحة بقوله التالي: "وقد آثرت أن أذكر هذه الفنون كما وردت في النصوص وإن كان بعضها قد يندرج في بعض آخر حفظا لأمانة النقل. ولا بد أننا سنلاحظ أن النقل أغفل ذكر بعض الفنون والعلوم، مما عرف بالضرورة وجوده في القرويين على الدوام، كالتفسير والحديث والفقه بما فيه العمل الفاسي".(22)

19- الصغير، مرجع سابق، ص: 99

20- نفسه

21- عبد الهادي التازي، مرجع سابق، ج:3، ص : 726

22- نفسه

إن هذه اللائحة التي نقلها الباحث وما عقب به عليها يلاحظ النقص عليهما، إذ لم يرد فيهما بعض العلوم الأخرى مثل السيرة، والنحو، والبلاغة، والطب، والصيدلة، والتصوف، واللغة. وبهذا يتضح تنوع المواد التي كانت تدرس بالعاصمة العلمية، ومن ثم تبين الفرق الذي بين التعليم بتطوان والتعليم بفاس. هذا عن المواد العلمية، أما الكتب فقد وردت إشارات لدى الضعيف والزياني إلى بعض المؤلفات التي أمر السلطان محمد الثالث بتدريسها مثل صحيح البخاري، ومسند الإمام أحمد بن حنبل وغيرها من الكتب[23] التي وردت في ظهير إصلاح محمد الثالث.

وهكذا يظهر مما سبق أن السلطان لم يبطل العمل بظهير إصلاح والده كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين، وإنما أراد أن يكون الإصلاح شموليا وجامعا بين الأمهات والمختصرات. وقد ارتأى "محمد داود" أن ما قام به السلطان سليمان كان ضروريا، لأن طريقة شرح أمهات الكتب وتلخيصها تعد ناقصة، وكذلك حفظ المتون يعد ناقصا، لذا الجمع بين الطريقتين هو الصحيح.

إن الإشارة إلى طريقة التعليم تتطلب تسليط الأضواء عليها حتى نتمكن من الحكم بموضوعية على التعليم بمدينة فاس في فترة السلطان سليمان.

ب - *طـــرق التدريـــــس:*

لقد تحدث بعض الباحثين عن طرق التدريس بجامع القرويين، ومنهم محمد داود الذي وضح أن ما قام به السلطان سليمان كان إيجابيا لكن هذا الرأي لم يعجب أحدهم، لأنه كان يرى أن "العيب في طريقتي التربية في هذا العهد ليس هو كما ظنه الأستاذ "داود" في كون كل منهما ناقصا مقتصرا على جانب معين، وأن الكمال يكون في الجمع بين الطريقتين، طريقة الحفظ وطريقة الشروح الطويلة والتفريعات العديدة، كلا.... إن العيب مشترك بين الطريقتين، وأن هذا العيب نابع من الكتب المتداولة في التدريس: فمن حيث كونها "مختصرات" مركزة، كانت طرق التعليم تعتمد أساسا على "الحفظ" والتلقين قاصدة من ذلك إنشاء أدمغة مسجلة حافظة أكثر من حرصها على إعداد فكر التلميذ للبحث والابتكار والتجديد".[24]

23- أنظر الضعيف، مصدر سابق، ص:308 وما بعدها.

24- عبد المجيد الصغير، مرجع سابق، ص: 102- 103

يظهر أن الباحث ارتكز في دراسته للتعليم في هذه الفترة على ما ورد لدى الناصري، لذا ترتب على ذلك أحكام غير موضوعية، منها ما سبق ذكره، وثانيها الحكم على طرق التعليم بأن عيبها ليس فيها وإنما في الكتب المتداولة ويعني بذلك المختصرات. لكن قد تبين لنا أن التعليم كان يجمع بين المختصرات والأمهات، لذا كان عليه أن يرجع إلى المصادر ليتأكد من صحة الأحكام التي أطلقها، هذا بالإضافة إلى أن بعض المراجع بينت أن طرق التدريس كانت متنوعة وتختلف من مدرس إلى آخر فهذا العالم حمدون بن الحاج الذي كانت "عادته في إقراء التفسير التحري من نقص عما يحتاج إليه في إيضاح المعنى، أو زيادة لا تليق بالغرض، وكان يراعي المعنى الحقيقي والمجازي، والتأليف والغرض الذي سيق له الكلام، ويواخي بين المفردات، فيبتدئ بتحقيق الألفاظ المفردة، ويتكلم عليها من جهة اللغة، ثم التصريف، ثم الاشتقاق، ثم يتكلم عليها بحسب التركيب، فيبتدئ بالإعراب، ثم ما يتعلق بالمعاني ثم البيان ثم البديع، ثم يبين المعنى المراد، ثم أسباب النزول، ثم علم الحديث والأثر، ثم علم المناسبة، ثم الاستنباطات، ثم الإشارات، ثم لا يبقي ولا يدع من الاستدلال ضد أهل الأهواء والبدع".(25)

هذا وقيل بأن بعض المجالس كانت تروق الطلبة لأن طريقة العالم في التدريس يستفيدون منها، في حين لا تعجبهم مجالس أخرى. وقد أورد الزياني أنه كان يشمئز من أبحاث العالم محمد بن ابراهيم الدكالي(26) وذكر الضعيف أن الطالب محمد بن الطاهر المدغري ترك مجلس الفقيه سيدي عبد القادر بن شقرون وكان ملازما له ومن تلامذته، ومال لمجلس السيد الطيب بن كيران يسمع منه تفسير القرآن وسمح في مجلس (خليل).(27)

هذا بالإضافة إلى أنه كانت تقع مناظرات بين العلماء في بعض المجالس ومن ذالك ما ورد عن المناظرات التي وقعت بين الطيب بن كيران والعالم التونسي ابراهيم الرياحي. وقيل بأن هذا العالم اجتمع "خلال مقامه بفاس بكبار العلماء والأدباء كالشيخ الطيب بن كيران وتباحثوا في مسائل من العلم وساجلهم وساجلوه."(28)

25- عبد الهادي التازي، مرجع سابق، ج: 3، ص: 727

26- الترجمانة الكبرى، ص: 57

27- مصدر سابق، ص: 298

28- عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، ج: 1، ص: 166

إن ما سبق ذكره يوضح أن طرق التعليم بمدينة فاس في عهد السلطان سليمان كانت متنوعة، فمنها المحاضرة، والمناظرة، وشرح المتن، وحل المسائل أو المشاكل. وقد تحدث أحد المؤرخين عن طريقة السلطان التي كانت طريقة حل المسائل، وهذا يظهر في القول التالي : "كان يحضر مجلسه من الفقهاء لسرد كتب الحديث والتفسير والمذاكرة في حل مشكلها الخطير العسير، يكتسبون من وفره ويغترفون من بحره ويتناول راية السبق في فهم المشكلات وحل المعضلات التي يعجز عن فهمها وإدراكها جهابذة النقاد".(29)

وقبل الانتهاء من موضوع التعليم ونشاطه تجدر الإشارة إلى أن المرحلة التعليمية العليا كانت تنتهي بالإجازة.(30)

هذا عن التعليم ونشاطه فماذا عن العلماء والطلبة؟

3- العلماء والطلبة:

قد تبين لنا مما سبق كيف اعتنى السلطان بالتعليم، الأمر الذي ترتب عليه "تنافس الناس في أيامه في اقتناء العلوم وانتحال صناعتها".(31) وبذلك كثر عدد العلماء والطلبة حتى قيل بأن "لائحة الرجال والنساء.... من الذين عرفتهم المجالس العلمية على عهد المولى سليمان وحدها تعبر عن الترف الذي كان ينعم فيه الفكر بمدينة

29- المشرفي، الحلل البهية، ص: 176

30- أنظر إجازة العالم التاودي بن سودة للسلطان سليمان مثلا، عند الزياني، جمهرة التيجان ص: 79 ومما ورد فيها بعد الحمدلة والصلاة على رسول الله(ص) ما يلي: "قرأ علي صدد دلائل الخيرات قاصدا بذلك بركة الرواية واتصال السند بمؤلفه، فأجبته إلى ذلك وأجزته فيه، الشاب النجيب، الحيي الحسيب، ياقوتة الشرف الباذخ... أبو العلاء سليمان ... أثمر الله غرسه وجعل بالله ويطاعته أنسه. كما قرأ علي أول الكتب الستة: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، والموطأ، وسألني التبرك بالإجازة فيها فأسعفته راجيا من الله لي وله التوفيق، والهداية لأقوم طريق. وأوصي نفسي أولا وإياه ثانيا بتقوى الله الذي لا بد لنا من لقائه... "في جمادى الثانية 1204".

31- المشرفي، مرجع سابق، ص: 179

فـاس العاصمة. فلقد بلغوا خمس مئة عالم كانوا منارا يهتدى بهم في الحاضرة والبادية والسهل والجبل.[32]

إن هذا العدد الذي ذكره الباحث يثير التساؤل التالي: هل هذا العدد حقيقي؟ لا يمكن التأكد من ذلك إلا بالرجـوع إلى المصـادر والمراجع. ومما ورد في إحـدى الوثائق التي تحـدثت عن ترتيب السلطان للعلمـاء والطلبة في أربع طبقـات أن عدد الجميـع كان أربعا وسـبعين وأربع مـئة،[33] موزعون كالتالي:

الطبقة الأولى : 48

الطبقة الثانية : 42

الطبقة الثالثة : 339 طلبة المدينة

الطبقة الرابعة : 45

المجمـــــوع : 474

وقـد أورد البـاحث أسـمـاء علمـاء كل طبـقـة من الطبـقـات المذكورة أعلاه، إلا أنه لم يرد في اللوائح أي إسم لعالمة أو طالبة علم. وعلى هذا الأساس يكون عدد العالمات ستا وعشرين، غير أن من أورد ذكر العالمات لم يستشهد ببعض أسمائهن حتى يؤكد ما ذهب إليه.

لكن هذا العدد يعكس فعلا أهمـية الحـركة العلمـية في عـهد السلطان سليـمان ويتـجلى ذلك أكثر، إذا قورن بعدد العلماء والطلبة الذين كانوا في عـهد الدولة العزيزية بحيث إن عددهم حسب الطبقات كان كالتالي:

الطبقة الأولى : 22

الطبقة الثانية : 22

الطبقة الثالثة : 28

الطبقة الرابعة : 29

المجموع[34] : 101

32- التازي، مرجع سابق، ص: 727

33- عبد الرحمن بن زيدان، العزو والصولة في معالم نظم الدولة، ج: 2، ص: 168-175

34- العز والصولة، ج: 2، ص: 178

هذا بالإضافة إلى خمس وستين ومائة طالب لا ندري من أين استقى الباحث هذا العدد؟ (35) وذلك لأنه لم يذكر مصدره أو مرجعه في ذلك. لكن ما ذكره ابن زيدان هو ثلاث وتسعون فقيها لا يدرسون. (36)

وقد أوردت المصادر والمراجع أن السلطان كان "يعظم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ويرفع مناصبهم على سائر رجال دولته ويجري عليهم الأرزاق ويسكنهم الدور المعتبرة والضياع المغلة". (37)

وكان هؤلاء العلماء يحصلون على مساعدات مادية وأدبية من "خزينة الدولة تارة، ومن الأحباس أخرى، فمن ذلك ما هو مشاهرة، ومنه ما هو مسانهة، ومنه ما هو عند رأس كل ستة أشهر، فالمسانهة ثور وثلاث قلل زيتا عنها لترات ستون، ووسق من جيد القمح، وكسوة تحتوي على كساء وبرنس وقميص وقفطان ملفا وفرجية وعمامة، ونصف قيمة ما ذكر عند رأس كل ستة أشهر، ويكون تنفيذ السنوي من القمح والثورغالبا في إبان الحصاد، والكسوة في زمان الشتاء، فإن وقع تراخ في ذلك كلا أو بعضا يكتب العلماء للجلالة السلطانية بطلب المؤخر، ولا يكون جوابهم إلا بالتنفيذ المعجل". (38)

هذا وكان العلماء يحصلون على عادتهم كاملة، أما الفقهاء الذين لا يدرسون فيحصلون على نصف العادة. وقد أورد "المشرفي" عن إحسان السلطان سليمان إلى من دون العلماء أصحاب المراتب العالية ما يلي: "ويحسن مع ذلك إلى من دونهم في المرتبة من المدرسين وطلبة العلم ويؤثر المعتنين منهم وذوي الفهم بمزيد البر وتضعيف الجراية". (39)

---

35 - Abdallah Laroui, les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain(1830-1912), p: 100

36- العز والصولة، ج: 25 ص: 167

37- المشرفي، مرجع سابق، ص: 179

38- العز والصولة، ج: 2، ص: 163

39- الحلل البهية، ص: 179

وكان السلطان يعطي المال للعلماء والطلبة في بعض المناسبات والأعياد، ومن ذلك ما ذكره الضعيف حين "ختم السلطان (مسند الإمام أحمد بن حنبل) - رضي الله عنه - فأحضر العلماء وأطعمهم وأعطى لكل منهم ثلاثين ريالا".(40)

وقد كان هؤلاء العلماء يقومون إلى جانب وظيفتهم العلمية بوظائف أخرى في الدولة مثل : القضاء، والحسبة، والخطابة، والنساخة، والكتابة، وأمانة المال، والتوقيت، والإمامة في الصلوات الخمس إما بالقرويين وإما ببعض المساجد الأخرى، ونظارة الأحباس، والإفتاء، ونقابة الشرفاء.

أما عن المسائل التي كانت تشغلهم فكثيرة، إلا أن المسألة التي أثارت الشحناء والبغضاء بين مجموعة كبيرة منهم هي التعصب للنسب الشريف وادعاء الشرف. وقد كتبت عدة مؤلفات في هذا الشأن، ومن ذلك: قرة العيون في الشرفاء القاطنين بالعيون الذي تحدث فيه صاحبه(41) عن الشرفاء الدباغيين. ومما نقل عنه أنه قال : "وكان شيخنا القدوة أبو عبد الله بن سودة زمن كان أمر الشورى في عهده مقصورا عليه وحده أراد أن يسد هذه الثلمة الواقعة في الإسلام بتدارك ما بقي من مشاهير آل البيت الكرام، ثم أنه عم وما خص، فوقع لفساد الوقت في حيص بيص، وحاوله الملك بنفسه بعد نقض ما أبرم له فبغته الأجل المحتوم قبل أن يستكمله. وأما اليوم فقد عدم الباحث والمتصرف، واستوى الشريف والمتشرف، وقبلت الدعوى المجردة من أهلها، وزكت الفريضة في القسمة بعد عدلها، غير أن ماهية المقسوم انعدمت، وقاعدة بيت مال المسلمين انخرمت، لكن دوام الحال من المحال".(42)

يظهر مما سبق أن الأنساب قد اختلطت وكثر المدعون للنسب الشريف بفاس، والسبب في هذا الإدعاء كما قال صاحب *نظم الدر*(43) يرجع إلى أن "الغالب من كان يقتحم الدخول في النسبة الطاهرة إفكا وزورا إنما هو لأجل تحريره من العطاء والمغارم التي كان الشرفاء فيما سلف محررين من أدائها احتراما لشأنهم، وتمييزا لهم عن غيرهم. أما اليوم فمع استواء الشريف

40- مصدر سابق، ص: 308

41- هو سليمان الحوات 1160-1231

42- أنظر العز والصولة، ج: 2 ص: 90

43- لمحمد بن جعفر الكتاني (1274-1345)

والمشروف في العطاء والأداء، فما زال كثيرا من الأدعياء يتهافتون تهافت الذباب على الطعام على دعوى الشرف إفكا وزورا غير مبالين بما في ذلك من الوعيد الشديد المعلوم بالضرورة من ديننا الحنيف."(44)

وقد كتب في هذا الصدد المؤرخ الزياني كتابه : "*تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب*، ونقل ما كتبه في هذا المؤلف إلى كتابه الثاني *البستان الظريف*، حيث تحدث عن الشرفاء والمتشرفة والسبب في ادعاء الشرف، وبين أنه في عهد السلطان سليمان" وقع النزاع عليها (أي العطايا المترادفة التي يعطيها للأشراف) بين أهل الاراثة المنتسبين لها وبين ضعفاء الأشراف والمتشرفة صاروا نوعا واحدا. فصار كلما أخرج صلة للأشراف أخرج للضعفاء والمتشرفة تطييبا لأنفسهم، لكنها لم تطب لما يلحقهم من المعرة حيث يقال هذا للأشراف وهذا للمتشرفة والمحرومين الذين هم محققي النسب. وأخرجهم أهل العصبة والجاه، والأمور مستمرة على ذلك إلى أن يبلغ الكتاب أجله".(45)

هذا وقيل بأن السلطان كتب في هذا الصدد تأليفا سماه : *عناية أولي المجد بذكر آل الفاسي ابن الجد*، تحدث فيه عن نسب الفاسيين ومجدهم وعد أئمتهم وجملة فروعهم من أصل أفراعهم إلى منتهى جموعهم.(46) إلا أن هذا التأليف يدعو إلى طرح بعض الأسئلة التي تثير الشك في حقيقة تأليف السلطان لهذا المؤلف، ومنها : لماذا اختار السلطان آل الفاسي ابن الجد ليكتب عن نسبهم في هذه الفترة التي كثر فيها القيل والقال في الأنساب؟ ألم يكن لهؤلاء نقيب يتولى أمرهم ويكتب عنهم بدل السلطان؟ ألم تكن للسلطان عناية إلا بآل الفاسي ابن الجد؟

إن الوضع الاجتماعي المضطرب، ومسألة الإدعاءات هذه التي أشرنا إليها، والمشاكل السياسية المختلفة، ما كانت تسمح للسلطان أن يزيد في الطين بلة بكتابته عن فرقة دون أخرى، هذا بالإضافة إلى أن قضية الأنساب كانت تحال على النقباء من كل نسب. والسلطان لا ينتمي إلى آل الفاسي وحتى لو افترضنا أنه أراد الكتابة عنهم كان من الأولى أن يأمر أحد المنتسبين إليهم أو نقيبهم بالكتابة عنهم، كما أمر الزياني بالكتابة عن شيوخه الذين تلقى عنهم العلم. ومن هنا كان من الأولى

44- أنظر العز والصولة، ج2 ص 90

45- البستان الظريف، ص 230

46- المشرفي، الحلل البهية، ص: 178

أن يكتب السلطان عن شيوخه العلماء لمكانتهم العلمية بدل الكتابة عن آل الفاسي. ونتيجة لما سبق يظهر أن السلطان لم يكتب عن آل الفاسي.

هذه نظرة مختصرة على العلماء وحالتهم المادية وإحدى المسائل التي اهتموا بها وأثارت جدالا بينهم إلى جانب مسألة أخرى وهي التجارة بالخارج التي كتبت عنها رسائل وأفتى فيها بعض العلماء ومن الرسائل التي حررت في هذا الشأن: *الرسالة الوجيزة المحررة في أن التجارة إلى أرض الحرب وبعث المال إليها ليس من فعل البررة*[47] وهذه المسألة توضح التوجه العام الذي كان للسلطة والعلماء وهو سياسة الإحتراز التي اتبعها السلطان سليمان بدل سياسة التفتح التي كانت في عهد والده محمد الثالث. ولكل سياسة أسبابها والظروف الداخلية والخارجية التي أدت إليها.

وكما وقعت بعض المشاكل بين العلماء، تأثرت العلاقة بين السلطان والعلماء بحدث البيعة وتولية العهد، بحيث تخلى علماء فاس عن بيعتهم للسلطان في أواخر عهده، الأمر الذي جعله يغضب عليهم، وكذلك كانت مشاكل أخرى بين السلطان والعلماء لا يسمح هذا العرض بذكرها مثل ما سبقت الإشارة إليه فيما يتعلق بعدم قبولهم التدخل في الحياة السياسية المضطربة.

وقد كتبت في هذه الفترة مؤلفات ورسائل عديدة ومتنوعة تطرقت إلى جميع أنواع العلوم والفنون والقضايا التي شغلت العلماء والسلطان.

أما الطلبة فقد اعتنى السلطان بهم وبر "بهم غاية وجلب النفع لهم والإحسان إليهم فوق النهاية"[48] وبهذا اعتزوا "ونفذت حذاقتهم وفصاحتهم في الرسائل والأشعار."[49]

وكانوا من جميع المناطق المغربية، ولهم بيوت بالأماكن الخاصة للسكن التابعة للمدارس، إلا أن عددهم الكبير، جعل البيوت التي بالمجان يقدم تعويض رمزي للحصول عليها، مثل ما وقع للضعيف الذي قال في هذا الصدد ما يلي: "وفي تاسع عشر قعدة (عام 1209هـ) اشتريت بيتا بمدرسة مولاي رشيد."[50] (أي مدرسة الشراطين)".

47- لمحمد الرهوني، مخطوطة بالخزانة العامة قسم الوثائق رقم D.2438

48- المشرفي، مرجع سابق، ص: 176

49- نفسه

50- مصدر سابق، ص: 261

وكانت للطلبة رواتب من أوقاف المدارس والمساجد، هذا بالإضافة إلى بعض الإعانات التي تأتي من بعض المحسنين والسلطان في الأعياد والمناسبات.

وكان الطلبة يستريحون أسبوعيا بالخروج إلى ضواحي فاس للنزهة، وكذلك كانت لهم فرصة سنوية لتعيين سلطان لهم يطلق عليه سلطان الطلبة، ومما وقع لهم في هذا الشأن، افتراق كلمتهم سنة 1211هـ وانقسامهم إلى نصفين: طلبة المدن وطلبة البادية، وقد أورد الضعيف هذه الحادثة قائلا ما يلي: وفي هذا اليوم (السبت 24 شوال 1211هـ) تهيأ جميع الطلبة للخروج إلى النزهة على وادي فاس وكان بينهم نزاع في من يكون عليهم أميرا ثم افترقوا على نصفين فانضاف طلبة جبالة إلى طلبة المدن، وانضاف طلبة الشاوية ودكالة إلى غيرهم من طلبة البادية، وجعلوا على كل نصف أميرا، وكان النزاع بينهم بمدرسة الشراطين". (51)

هذا عن إحدى المشاكل التي وقعت للطلبة فيما بينهم، أما ما وقع لهم مع السلطة فهو تهديم جناح من أربعة عشر بيتا من بيوت سيدي مصباح بأمر من السلطان. وبعد إضراب الطلبة واجتماعهم بفاس الجديد واحتجاجهم على ما وقع بهم أمر السلطان ببناء بيوت لمن هدمت بيوتهم وبعوضوا عما ضاع لهم وأمر كذلك بتوزيع ألف ريال على الطلبة. ولم يكن هذا التوزيع عاما، وإنما اختير خمسة طلبة من كل مدرسة، وحصل كل واحد على ثلاث ريالات. (52) وعلى هذا الأساس لم يحصل على هذه الهبة السلطانية إلا 330 طالب، أما الآخرون فلم يحصلوا على شئ.

بعد هذه النظرة المختصرة على التعليم بمدينة فاس في عهد السلطان سليمان نستنتج ما يلي:

1 - لم تكن مدينة فاس عاصمة علمية ودينية فحسب، وإنما كانت أيضا عاصمة سياسية لها مكانتها المهمة التي جعلتها في فترة السلطان سليمان مصدر الفتاوي السياسية والاجتماعية والدينية وغيرها، هذه الفتاوي التي ساهمت في التوجه السياسي للمغرب.

2 - إن التركيز في المجال العلمي على مركز واحد وتشجيع العلماء والعلم به غير مجد لمن يريد أن يكون في مستوى التحدي، والنهوض بالتعليم نهوضا يرقي البلاد.

51- نفسه، ص: 248

52- أنظر الضعيف، مصدر سابق، ص: 296-297

3 – إن الدفع بالتعليم إلى مستوى عال يتطلب رصد إمكانات مادية مهمة مثل ما وقع بفاس حيث وجدت المدارس والمساجد بكثرة، وكذلك سكن الطلبة، والتشجيعات المالية، وإيجاد الأطر الكافية وذات الكفاءة العالية لتوجيه التعليم التوجيه الصحيح. هذا بالإضافة إلى تطور طرق التعليم والمواد المدروسة.

4 – كان بإمكان العلماء أن يساهموا في رقي البلاد، ويساعدوا في إيجاد الاستقرار السياسي والاجتماعي الضروريين لتقدم البلاد، لكنهم في هذه الفترة كانوا سلبيين في هذا الجانب بحيث لم يشاركوا إلا بفتاويهم وبتعليمهم في فاس.

5 – إن اهتمام العلماء بالجانب التعليمي فقط، ساهم بطريقة غير مباشرة في سياسة الإحتراز التي اتبعتها السلطة، بدل الإطلاع على ما لدى الأجنبي الذي طور أساليبه في التعامل ووسائله المادية وعلومه، ومحاولة التنافس معه لتطوير الوسائل المادية والعلوم والتقدم إلى الأمام.

علماء المهجر بمدينة وجدة في القرن 19

إسماعيلـي عبد الحميـد
جمعية البحث التاريخي. وجـدة

إن حاضرة وجدة، على غرار المدن التي تضرب جذورها في أعماق الوجود البشري، درج عليها أعلام في ميادين المعرفة والسياسة والفنون، إتخذوها دار هجرة ثم مثوى ومستقرا، وسنلم بالبعض منهم المرسومين بتربتها.

ا- آل سيدي الحبيب بن المصطفى:

هم من الشرفاء الأدارسة الذين كانوا بحوض أغريس، ناحية معسكر بغربي الجزائر، وما أن سمعوا بقعقعة جيش لجب الغازي من وراء البحار حتى ولوا وجوههم قبل ربوع بني يزناسن حيث كانت لهم حرمة وسابق مخالطة ومعاشرة مع أهلها، سواء في الحلقات الفقهية أو في مجال قرع النقود بمثلها، ثم جذبتهم الحاضرة الوجدية فاستطابوا بحبوحتها فأصبحوا من أعلامها باليراع والعمل ثم صاروا من آرامها تاركين خلفا نبيها وصالحا فيها.

وإن سيدهم الفقيه الحبيب بن المصطفى نظم قصيدة في العقيدة مطلعها:

الحمد لله الغني عن العبيد ثم صلاته على خير شهيد
وآله وصحبه أولي النهى ومن آثار ذلك المنهاج المنتهى
مخاض فكر ذي النهى في الفهم ونبعت عناصر بالعلم
وبعد فالقصد بذا النظام بث العقائد إلى الأنام.(1)

وإنه كان في تنافس مستمر مع ذوي الصدارة في الفقه والإفتاء والتربية حتى حظي بشهرة واسعة فنراه في طليعة الفقهاء الخمسة الذين توصلوا بصلة ملكية تشتمل على ملابس مختلفة في جمادى الأولى 1298 / أبريل 1881.(2)

وقد تكونت على يديه أعداد من نبغاء الطلبة، ومن جملتهم أولاده الثلاثة: سيدي محمد الملقب بالضرير أولكفيف، والقاضي الحاج العربي والفقيه الحاج أحمد.

1- *السيد محمد بن الحبيب:*

المتواتر لدى أحفاد هذه الأسرة المرموقة أن أجدادهم كانوا متخصصين في التوحيد والفرائض وأن لوالد المترجم أرجوزة في التوحيد فضلا عن بعض الفتاوي التي احتفظ بها القاضي السيد أمحمد بن العالم وكانت بخط والده.(3)

سيدي لكفيف كان يلقي بعض الدروس برحاب المسجد الكبير شارحا الأحاديث النبوية وواعظا بالتي هي أحسن، وإذا به يفاجئ جلسائه على إثر تلاوة الحزب عقب صلاة الصبح – ذات يوم جمعة -- يفاجئهم بتناوله مؤلفا لعالم لابلاص في علم الفلك، ودون التفوه بالعبارات المألوفة في مثل هذا المقام، مكتفيا بالبسملة والصلعمة، وقد بدأ درسه بدون انتظار" مشيرا إلى أحد الطلبة بسرد مطلع النص المترجم من الفرنسية إلى العربية بجمل مقتضبة وقاضبة، عن جمال الكون وروعته، فأخذ يشرح المفردات كما لو كان في حلم إذ لم ينتبه لتنحنحات الحاضرين إمتعاضا واستغرابا، وإذا بأحدهم يقاطعه صائحا: يا شرير، هذا علم الشيطان لا علم الرحمن!!! كيف كان موقف الفقيه المحترم الذي كان له خلق دمث ونزعة تصوفية لا تعطي معنى للأنانية والذاتية؟؟

لقد نهض بمهل ثم انصرف بدون تأفف ولا تثريب ولا تأنيب، وانسحب من التدريس بكيفية نهائية رغم أن السلطان مولاي عبد الحفيظ ثبته في منصبه وأثنى عليه في رسالة بقيت عند السيد بن عبد الله، ابن أخيه القاضي الحاج العربي.

فأين تعلم معارف فلكية غير معهودة لدى الناس يومئذ؟

للذاكرة المدهشة التي حباه الله بها سيدي لكفيف كان يتنافس مع علماء المدينة وإذا تحول أحد المجالس إلى مناظرة حامية الوتيرة فإنه كان يحوز فيها بقصب السبق، وقد شجعه أحد العلماء السوسيين جاء من تارودانت وبقي مشهورا هناك باسم الحاج لبراعته في المذاكرة وغزارة علمه، شجعه ونصحه بشئ من التعريض الشفاف أن يقصد مدينة فاس لمناظرة علماء القرويين، فصادفت النصيحة من نفسه قبولا وهوى وألقى بين عينيه عزمه وسافر إلى عاصمة المغرب أوائل هذا القرن.

"أقام قرب دار المكانة وتابع في القرويين دروس التوقيت التي كان يلقيها، وقد لاحظ هذا الأخير نجابة سيدي لكفيف فحباه بصداقته وقص عليه حكاية القاضي السرسوري الذي أخذه السلطان أبو عنان المريني عن استظهار درسه، ومن جملة ما قال له في مقارنة بين مزايا المخيلة ومزايا الذاكرة.

إن العقل هو خزان المعارف، والقلب عينها، حسب المرء أن يحرم من العين الباصرة، لكن عين العقل نور من أنوار الله التي تفيض علينا ... إن الذكاء يبصر بينما المخيلة تستسلم للإغواء أحيانا ..."(4)

ثم قام الشيخ إلى مكتبته للبحث عن كتاب مدفون بين الكتب ليقرأ عليه منه بعض المقاطع، سأله سيدي لكفيف مرتبكا عن إسم الكتاب فأجابه شيخه وأستاذه: هو بحث في علم الفلك ترجم إلى العربية في السنوات الأخيرة، وهو أنفس من أنفس شرح لبطليموس ... إن بعثة مغربية قد أرسلت لجمع هذا العلم بفرنسة ... وعسى أن يدرس يوما بدلا من الشروح التي ندرسها منذ قرون مبتعدين عن المصادر التي صدرت عنها ..."

ثم عاد سيدي لكفيف إلى وجدة أنكاد وأخذ يطلب في عناء من بعض مريديه أن يقرأ له الكتاب الجديد، لم يكن للوقت حساب فيما كان يستقرئه ويحاول فهمه، وأخيرا استوعب معاني الكلمات التي كانت تسمع لها نبرة غريبة، واستأنف دراسة الجبر والهندسة إذ لم يكن يتحرج من التماس مساعدة ذوي الأفكار النيرة، معتبرا ذلك طبيعيا تماما كقراءته بأعين الآخرين النصوص التي كان يحجبها عن عينيه حجاب لا فكاك منه، ولم يدرس الكتاب وحسب، بل تدبر منطقه ومقاصده .."(5)

وقد توفي سيدي لكفيف نحو عام 1915 ولم يعقب، وإنه كان يقول لأقربائه قبيل وفاته وهو شيخ طاعن في العمر: إنني أشعر بأن جذوة الحياة خفتت بين جناحي وإنني قاب قوسين أو أدنى من نبع زلال، فإذا مددت يدي لأغترف منه غاص ماؤه ... وإن هناك حجابا دونه نورانية مذهلة، وهذا الحجاب شبح، وهذا الشبح مرآة لا يرى فيها الناظر شيئا .."(6)

2- *الحاج أحمد بن الحبيب:*

هو أخ المترجم السابق، كانت له دروس بجامع عقبة كما كان له منبر الخطابة به، وكان نحيف الجسم من الكبر.

وقد اكتسب شهرة في تلقين المواد الأساسية من فقه الشيخ خليل والألفية والأجرومية .."(7)

وهذه رسالة ملكية لناظر أحباس وجدة في 17 شعبان 13/1312 فبراير 1895، مفادها: فقد طلب من علي جنابنا الطالب أحمد بن الحبيب الوجدي تنفيذ مشاهرة له على تدريسه العلم الشريف ثمة إعانة له على ذلك، وعليه نأمرك أن تنفذ له مشاهرة أمثاله إن قام به الوصف المذكور وواظب عليه، ورد له هذا الكتاب ليتمسك به .."(8)

وقد توصل بصلة قدرها 25 أوقية في جمادى الأولى 1317/ سبتنبر 1899.(9) وبالمقارنة

فإن منحة أخويه العربي ومحمد لكفيف والفقيه محمد بن عيسى بلغت 166 أوقية. وإنه توفي نحو عام 1938 وترك ولدا واحدا، السي سعيد الذي اندرج في سلك المعلمين، وكلاهما باللحد اللذي خصص لأفراد أسرتهما بوسط سيدي المختار، ولا أثر هناك لكتابة إسم أو حرف أو تاريخ، إنما هي قبور واطئة يحيط بها جدار علوه أقل من مترين .

3- *الحاج العربي بن الحبيب.*

مابقي بذاكرة الناس حول شخصية هذا الرجل أنه كان يتمتع ببسطة عريضة في العلم والجسم والجاه، وأن داره الكبيرة الأفنية، بحي أولاد عمران كانت بمثابة النادي لأصدقائه المقربين، ولكن يا أسف على ضياع ما كانت تحويه رفوف مكتبته وخزانته من مخطوطات وكتب ووثائق ذات قيمة لا تعوض؟

فقد افادني الأستاذ الكريم، السيد علال محمد السى ناصر بن ناصر بن الحاج العربي، وهو من أحفاده المرموقين، أفادني بنسخة من ورقة بخط جده بها نبذة من سيرة بعض العلماء، وهي ما بقي من مخطوط ضائع.(10)

مبتدى عمله في خطة القضاء كان قبل 26 يوليوز 1892/ فاتح محرم 1310 بقليل وقد عرف نفسه للخاص والعام بشيم لا شبهة فيها كالنزاهة والصدق وكالاستقامة والصراحة، زيادة على خفض الجناح لمن هو أهل له حنوا وتواضعا منه(11) وكانت له صلات وطيدة ومتينة مع أفذاذ العلماء بالحواضر الرائقة كفاس وتلمسان وتازة، فقد استضاف الشيخ شعيب الدكالي قبل عام 1930وقدم له جملة من فقهاء البلدة منهم محمد المرتضى البوتشيشي الذي رأى المناسبة مواتية لعرض ما كان يختزن بذاكرته من أحاديث نبوية – نحو المائة حسب الراوي للحكاية – على بساط التمحيص والتحقق، فأفاده الضيف المبجل بضعف العديد منها في الرواية والاستشهاد والسرد، فحز ذلك في نفسه وانقبضت مشاعره، فلما انفصل المجلس طفق يشتكي للحاج العربي موقف الشيخ الدكالي إزاءه، فجاءت الإجابة توحي بعدم الإعتداد بالبضاعة العلمية أو الفقهية وبضرورة الحذر من نوازع النفس الأمارة بالسوء والعجب:

أنا وقراني وأنت، نطوو أركابنا أو نقرو أعليه ... (12)

هذا وإن الحاج العربي كان مرجعا حيا وزاخرا في تدريس صحيح البخاري ومتن الألفية، وكان ظله الذي لا يفارقه في شخص الفقيه والخطيب الحاج عبد الرحمن بن القاضي محمد بن الهاشمي، وقد وقعت لهما مفاجأة ليست لها سابقة في حياة القوم وقتئذ وإن كانت وجدة بلدة الأخيار من

المجاذيب والمستملحات من العجائب: مهابة بادية عليهما بزيهما الأنيق وهما واقفان خارج باب سيدي عبد الوهاب، مما ألفت انتباه أحد الفرنسيين الذي كان مولوعا بفن التصوير، وقد أعجبته هيئة الرجلين الفاضلين فاستعد لالتقاط صورة تذكارية لهما وهما لا يشعران به وبما يفعل، ولحظة قليلة قبل أن يضغط على آلة التصوير وهو يقوس عينه اليسرى إذا برجل مجذوب إسمه بلفقيه في هيئة قابلة أيضا للرسم والتصوير، بعصاه على كتفيه وباسطا ذراعيه عليها كأنه يرعى الغنم، إذا به يمسك العصا بسرعة بيديه ويصوبها في اتجاه آلة التصوير كأنه صياد يريد أن يقرص رصاصة على هدف ما، وبدون أن يرمي عصاه أو أي شئ عليها طارت زجاجتها، فما كان على الأعجمي إلا أن يرجع بخفي حنين لسوء حظه أو لكرامة من رجل صالح.(13)

ولعل شابا مهذبا يتهيب من الوقوف أو المرور قرب مجلس به أمثال الحاج العربي؟ فهذا القاضي محمد بن الطيب بلحسين يطلب من ولده محمد أن يحمل أدوات وأمتعة إلى بستان من بساتينهم فيستثقل الشاب هذا التكليف ويتطاير مسبقا من المنظر الذ ي سيكون عليه وهو يمر بين يدي جماعة من الأعيان يتصدرها الحاج العربي، ولم يتمالك في كضم تقززه فيسمع والده بعض التأفف قائلا له: إن أخي الطاهر لهو أولى مني بتلك المهمة فهو أصلب عودا مني وأكبر مني سنا.

وإن المفاصلة والمفاضلة في هذا المقام كانت هكذا:

هل النسا غنو على الطاهر ولا اعلى حماد.(14)

ولقد تعرض المترجم لمؤامرة ووشاية بإيعاز من العامل أحمد بن كروم وعبد الرحمن بن عبد الصادق، رئيس الحامية العسكرية، وإذا بقرار ملكي يقصيه عن وظيفته في يناير 1906 بعد ما رجع من سفرة من مدينة فاس ومنعه جمع متحزب حول مزيان ولد كركور - شيخ حي أولاد القاضي - فهدده بالمسدسات والبنادق، وكادت تفضي المشادات إلى تمرد على السلطات المحلية يوم الجمعة 26 يناير الموافق 30 ذي القعدة 1323.(15)

رسالة حفيظية في 7 شوال 1327 / 22 أكتوبر 1909 تنوه به وبخصاله وإن كان توقفه سنتين كاملتين لم يمح من ذاكرته:

الفقيه الأرضى القاضي بوجدة السيد العرابي (هكذا) بن الحبيب وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد، وصل كتابك مهنئا بعيد الفطر السعيد العائد بكل فضل وخير مزيد، وصار بالبال، هناك الله برضاه وأعانك على القيام بشريعته، وسددك، والسلام..(16)

وإنه من المحقق أن القاضي الحاج العربي أبى إلا أن يتفرغ لشؤونه الخاصة أواخر عام 1328/1910 فيرعي أمواله وأرزاقه التي كانت في نماء مطرد إما في حائط مشيد وإما في

زرع بهيج[17] وكان ذا عيال كثير لتعدد زوجاته اللائي أنجبن له الإخوة الأشقاء بناصر والشريفة والسيدة، والشقيقين بومدين والطيب، والأشقاء بن عبد الله وسكينة وخدوجة ورقية وزبيدة، والشقيقتين حليمة وهيبة والشقيقتين راضية وحبيبة.[18]

ب - آل بن باصو أو أولاد أمباصو:

إنهم كانوا من الدفعة الأولى للمهاجرين التلمسانيين الذين استقروا بمدينة وجدة، منهم من أثل وجوده بامتلاك البساتين والمزدرعات ومنهم من انتظم في محافل الفقهاء وهواة التصوف.

ولعل أشهرهم كان الفقيه مصطفى بن محمد باص الذي ورد ذكره في عدة وثائق مخزنية:

رسالة ملكية إلى أمين المستفادات لينفذ له ستين أوقية في كل شهر من وفر المستفاد هناك، إعانة له على حاله، ذلك في 6 ربيع الثاني 1304/ ثاني يناير 1887.[19]

وإن هذا إلا مثل من الجرايات التي كان يتمتع بها العشرات من الشرفاء والأعيان ومن يدور في فلكهم، الغرباء في وطن مضياف ومكناف، حتى في فترات الضائقات والدواهي التي هزت المجتمع الوجدي في سنوات 1884، 1892، 1897، 1889.[20]

ففي إحدى القرائن السالفة ضع استفسار المولى الحسن الأول إزاء الحاج محمد بن هطال، أمين المستفاد، في 15 شوال 1304/ 7 يوليوز 1887.

"..... فقد أخبر المهاجر الطالب مصطفى بن محمد باص بعدم تنفيذك له الستين أوقية التي أمرناك بإعطائها له مشاهرة، فنفذها له أوبين السبب في عدم التنفيذ.[21]

وإنه بالمقارنة مع الفقيه آنف الذكر، فإن الطالب محمد المدجل كان يستفيد من 180 أوقية مشاهرة في شعبان 1305/ ماي 1888.[22]

بيد أن العناية المولوية كانت تظهر أيضا في المنح الإضافية في شكل صلة نقدية أو عينية إذ أن السيد مصطفى بن محمد باص استفاد في رجب 1316/ دسمبر 1896 من جراية قدرها 335 بسيطة وصلة قدرها 50 بسيطة.[23]

وإننا حققنا في تسمية امباصو فوجدناها لقبا عليه عاطفية منذ كانت إحدى الجدات تدلل أحد أطفالها وتداعبه وكلها أماني بأنه سيكون كأجمل الفراشات الطائرة بجناحي الجاه والوجاهة.

وقد توفي الفقيه مصطفى بن محمد باص في محرم 1340/ موافق سبتنبر 1921.[24]

الطبقة الثانية من العلماء:

إنها تلك التي اعتنى بها محمد العربي المشرفي في كتابه نزهة الأبصار الذي ألفه عام 1313هـ/1895م.

1- العلامة جلول بن رورو المستغانمي، كان عالما يخشى الله ويتقيه، ذا جد واجتهاد في تدريسه مادتي النحو ومختصر خليل، وفي كل عام يختمها من شدة حرصه وجده، وقد تفقه بمستغانم ثم درس بوهران ثم هاجر بأهله لمدينة وجدة فاشتهر بها وشدت إليه طلبة العلم الرحلة من قرى الريف البحري وجبالة، وتخرج عليه خلق كثير، ومات بالطاعون في مدينة وجدة.

2- الفقيه أحمد بن عيسى، هو ابن عم الأنف الذكر، كانت له حلقات متواصلة بالجامع الكبير.

3- الفقيه عبد الله الملقب السيد عب المعسكري، له اليد الطولى في علم العربية وحفظ المختصر، درس ومارس، واعتكف على المطالعة ومناظرة أقرانه وفاقهم بجده واجتهاده، وله ذهن وقاد وفهم ثاقب يغوص به على المعاني الدقيقة.

4- الفقيه البشير المشرفي المعسكري وهو والد الآنف الذكر، وقد صادف الفتح والتوفيق والتفوق الدارسين عليه شتى المعارف والفنون.(25)

وإنني أضيف لأولئك المربين الفقيه الشيخ سيدي عبد القادر بن علي المعروف بالعالم الوجدي لأنه أخذ العلوم عن أساتذة المعهد بوجدة ثم رجع إلى موطن صباه، مدينة معسكر، فدرس فيها وتولى الإمامة وخطبة الجمعة وإنه مات بها أواسط القرن الرابع عشر عن سن يناهز الثمانين بعد ما حفر قبره في حال صحته في مقبرة سيدي محمد الشريف فبات فيه ليلة وهو يتلو كتاب الله من أوله إلى آخره ثم دفن فيه.(26)

تلكم كانت إطلالة سريعة ووقعة للعبرة والتمعن في سيرة رجال كانوا من ذوي الفهم والفضيلة ومن أولي العزم والعزيمة وإنني أهدي لأرواحهم هذه القصيدة تحت عنوان "وجدة أنكاد المضيافة"

وجدة أنكاد تشد لها رحال البادي
من أي وجهة كانت، فماؤها زلال خصباء وأرباضها
ومن دهمته داهية وهاجر إليها بقلب
سليم، من حيث لا يحتسب جاءه الجزاء
وإن كان من أهل العلم والورع والتقى
زادته شرفا فيأتيه الإنعام والإستدعاء

ولا عجب إن احتضنته حومة أولاد عمران

فوسعـن لـــه الترحـــاب إذ لـــه همة قعســـاء

وكانت لهـم عدوة وروحة بزنقـــة ســـيدي

أحمد بـــن علـــى فالنســـب لـــه سبـق وسنـــاء

وإن الأيـــام دول بين الأنـام ولـــم ينهض

من كبوته إلا من استصغر الصعاب وسلوته الدعاء

ولم يتقاعس عن طلب حقه لدى أصحاب

القضـــاء والإفتـــاء فمنهـم الفضـــلاء والشفعـــاء

ولـــا زالت عنهم وصمـة الغربة ووطئت

لهـــم الأكنـــاف كـانـــوا هـــم الســـعداء

ومن سار في منـــاكب الأرض قد يؤثل

العقـــار فيفرج علـــى مـــن حظـه البرحـــاء

ويوم النفقـــة الكبـــرى تخرج من داره

قصعة السميـــد والقديد لا يحملهـا إلا الأقويـــاء

ذلك فضـــل مـــن فضائلهم وكل شيمة

نـــاقصة إن لـــم يحملهـــا حسن القصـــد والحياء

وسلام على من هذب صوته في المحراب

والمنبر وكـــان تلقينه ســـائغا فيقابلـــه الإصغاء

الهـــوامـــش

1- بلهاشمي بن بكار: كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب. مطبعة ابن خلدون -تلمسان- 1961.ص. 139

2- إسماعيلي مولاي عبد الحميد - كتاب تاريخ وجدة - ج.2 ص. 147

3- مذاكرة مع السيد علال السي ناصر + السيدة حبيبة بنت القاضي الحاج العربي

4- وثائق السيد علال السي ناصر الوزير الحالي للشؤون الثقافية

5- نفس المرجع

6- نفس المرجع

7- مذاكرة مع السيدة حبيبة بنت القاضي الحاج العربي + الحاج محمد بن الحاج أحمد البلاوي.

- بلهاشمي بن بكار . ص. 140

8- وثائق السيد علال السي ناصر

9- الخزانة الحسنية - الرباط. كناش رقم 440

10- أنظر صورتها بين يديك

11- تحقيق المؤلف

12- مذاكرة مع الفقيه السيد الطيب بن مودين الدرقاوي

13- مذاكرة مع الفقيه الحاج فاضل بن الحاج عبد الرحمن الميري

14- رواية الفقيه السيد الطيب بن مودين الدرقاوي

15- L. VOINOT. la Tension des rapports avec le Makhzen et l'occupation d'Oujda par les Français. (1906-1907)B.S.G.Oran. 1935. p. 178.
- Documents Diplomatiques. 1906. p. 32

16- وثائق السيد علال السي ناصر

17- Bulletin officiel du Protectorat. passim.

18- رواية السيدة حبيبة بنت القاضي الحاج العربي بن الحبيب

19- الخزانة الحسنية: كناش 382

20- مديرية الوثائق الملكية الرباط: ملف وجدة رقم 2

21- الخزانة الحسنية: كناش 382

22- الخزانة الحسنية: كناش 382

23 الخزانة الحسنية: كناش 440

24- وثائق عائلية

25- محمد العربي المشرفي -نزهة الأبصار- الخزانة العامة الرباط. مخطوط ك 579

- محمد المنوني: المصادر التاريخية للمغرب الشرقي في القرن 19. ندوة المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر وجدة. من 13 إلى 15 مارس 1986. ص. 407

26- بلهاشمي بن بكار ص. 141

من سمات النهضة الشعرية في أوائل العصر العلوي

عبد الجواد السقاط
كلية الآداب - المحمدية

عندما نود الحديث عن بعض سمات النهضة الشعرية في بداية العصر العلوي ، يستوقفنا مصطلح النهضة هذا ، ليدفعنا إلى التساؤل أولا عن مسوغات هذا المصطلح في هذه الفترة التي تمتد من عام 1075 هـ حيث بويع المولى رشيد على عرش المغرب إلى عام 1139 هـ سنة وفاة المولى إسماعيل.

فمعلوم أن الشعر المغربي ، بل الأدب بعامة، إذا كان قد مر بمحطات مزدهرة خلال مسيرته الطويلة، منذ انطلاقته إلى عصر المنصور السعدي فإنه قد مني بعد ذلك بنكسة هزت كيانه، وأضعفت بنيانه، شجع على إشعال فتيلها ما تعرض له المغرب من اضطراب سياسي لم يخمد إلا مع وصول المولى رشيد إلى الحكم، وسعيه الحثيث نحو توحيد المغرب، وتأمين استقراره وهدوئه.

ولعل هذه الاوضاع التي آل إليها الأدب إبان هذه النكسة، والتي نبه إليها أكثر من مؤرخ، بل شهد بها غير واحد من أدباء الفترة الموالية، قد كانت مؤشرا يدعو إلى قيام نهضة أدبية تعيد للانتاج الأدبي المغربي بهاءه ومجده، علاوة على أنها أوضاع تزامنت مع ما كان يلف الأدب العربي في المشرق وقتها من انحطاط وخمول ، الشيء الذي يمكن معه القول بأن النهضة الأدبية التي شهدها المغرب خلال الفترة المقصودة، قد جاءت نتيجة لوضعين اثنين أحدهما داخلي يتمثل في تلكم النكسة المشار إليها من قبل ، وثانيهما عربي ، يتمثل في الواقع المتردي الذي يعيشه الأدب العربي بالمشرق، والذي كان يتطلب ، إلى جانب الوضع الداخلي، إصلاحا ضروريا، ونهضة تقويمية، هي التي سنحاول، بشيء من الايجاز، تبيان مظاهرها في المغرب، وانعكاساتها على الشعر والشعراء فيه.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن مما ساعد على هذه النهضة عوامل ثلاثة يمكن التلميح

إليها كالتالي:

1- الاستقرار الذي أخذ المغرب ينعم بظلاله في فجر الدولة العلوية، بعدما تمكن المولى رشيد من توحيد البلاد وكسر شوكة الثورات التي قامت هنا وهناك في القرن الحادي عشر الهجري ، وبعدما تمكن المولى إسماعيل من استرجاع جملة من الثغور الغربية التي كانت محتلة من قبل؛

2- تشجيع هذين السلطانين للادب ورجاله، ذلكم التشجيع الذي تمثل في واجهات عدة، منها إقامتهما للمجالس العلمية والأدبية، وحضورها أحيانا ، ومنها إثابتهما للعلماء والأدباء واستحسانهما لما يبدعون وينتجون ، كما أثبت ذلك أكثر من مصدر؛

3- امتداد الاشعاع العلمي والأدبي الذي أفرزته الزوايا، خاصة منها الدلائية والفاسية والناصرية، هذه الزوايا التي أغنت الساحة العلمية والأدبية بما ساهم به رجالاتها ومريدوها في هذا الحقل[1] بل كانت ركنا حصينا أوت إليه الثقافة المغربية في فترة كادت تقضي فيها عليها الفتن والثورات والإضطرابات.

وإذا نحن بعد هذا نظرنا في واقع الشعر خلال الفترة المقصودة، وجدناه مجالا يتسم بالملاحظات أو السمات التالية:

1- *الخصوبة في الانتاج :*

فالملاحظ أن هذه الفترة قد تعددت أسماء الشعراء فيها، كما أفرزت نصوص شعرية ظهر بعضها في مجموع من الدواوين التي جمعها أصحابها، أو أقاربهم، أو تلامذتهم، ومنها نذكر على سبيل المثال :

* ديوان عبد الرحمن التمارتي السوسي (ت 1060 هـ)[2]
* ديوان محمد المرابط الدلائي (ت 1089 هـ)[3]

1- انظر في ذلك مقالين حول الزاوية المغربية في العصر السعدي لصاحب هذا البحث، مجلة دعوة الحق، عدد 264، شعبان، رمضان 1407 هـ،أبريل ، ماي 1987، م رمضان 1409 هـ أبريل 1989 م

2- مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط ، رقم 8841

3- مخطوط بالخزانة العامة بالرباط ، رقم د 4436، وقد حققه صاحب هذه المداخلة وأضاف إليه ما تفرق في بعض المصادر كمن شعر الشاعر، ولكنه ما يزال مخطوطا عند المحقق.

* ديوان عبد الرحمن الفاسي (ت 1096 هـ) [1]
* ديوان محمد بن محمد المرابط الدلائي (ت 1099 هـ)[2].
* ديوان الحسن بن مسعود اليوسي (ت 1102 هـ)[3]
* ديوان عبد السلام القادري (ت 1110 هـ)[4]
* ديوان الروض الاريض في بديع التوشيح ومنتقى القريض لابن زاكور الفاسي (ت 1120 هـ)[5].
* ديوان عرائس الافكار ورياض الازهار لاحمد بن عبد الحي الحلبي(ت 1120 هـ)[6]
* ديوان علي مصباحج الزرويلي (ت 1150 هـ)[7].

كما ظهر بعض هذه النصوص في مجموعة من كتب التاريخ والتراجم والرحلات التي يغص بها تراثنا الحافل ، سواء منها ما ألف من قبل أدباء الفترة نفسها مثل

" نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان " لابن زاكور الفاسي ، و" الانيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب" لابن الطيب العلمي ، أو ما ألف بعد الفترة مثل " البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية"لسليمان الحوات ، و "المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر مولاي إسماعيل بن الشريف" لعبد الرحمن بن زيدان ...

2- التنوع في الاغـــراض والانمـــاط :

ويبدو هذا الجانب بدوره ذا أهمية لافتة للنظر في هذه الفترة، إذ عالج الشعر خلالها كافة الاغراض الشعرية المعروفة من مدح وغزل ورثاء ووصف وهجاء وحكمة وغيرها . وإذا كان فن المديح بفروعه الأربعج من نبوي وولوي وسلطاني وإخواخي أكثر هذه الأغراض بروزا، فان

1- مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط رقم 3071

2- مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 3644، وقد حققه صاحب هذه المداخل كذلك، غير أنه ما يزال مخطوطا عند المحقق.

3- مخطوط بالخزانة العامة بالرباط في نسخ إحداها تحمل رقم ج 32.

4- ذكر صاحب دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، ص 338

5- حققه العربي الحمداوي ، ثم حققه محمد بن الصغير

6- حققه عبد الله بن عتو

7- جمعه وحققه محمي حسني .

ذلك مرتبط - فيما أحسب - بالتحولات السياسية والإجتماعية والثقافية التي شهدها المغرب آنذاك ، والتي وجهت الشعراء نحو المديح النبوي والولوي خاصة في العقود الاولى من الفترة ، بينما وجهتهم نحو المديح السياسي في العقود الموالية.

وكما كان التنوع في الاغراض بينا واضحا، كذلك كان التنوع في الانماط جليا ظاهرا، إذ توسل الشعراء بالنهج القديم المتمثل في القصيدة العمودية، كما توسلوا بالموشحات والاراجيز ، بل إن الموشحات ازدهرت خلال هذه الفترة ازدهارا ملحوظا ساهم فيه ثلة من الشعراء الوشاحين ، ولاسيما منهم ابن زاكور الذي أعطى لهذا الفن - كما يقول الدكتور عباس الجراري -" ما سثبت به كيانه بعد أن كان من قبل مجرد تقليد للوشـــاحين الأندلسيين"[1]

وتبدو النهضة الشعرية في الفترة المقصودة قائمة على ضرورة وضع المفاهيم المحددة للابداع الشعري، وضبط المكونات التي يتشكل منها هذا الابداع في محالولة لتصحيح الوضع وتطهير الشعر من الطفيليات التي تراكمت على الساحة الابداعية قبيل الفترة. ولابد في هذا المقام أن نستحضر نصا لليوسي يحدد فيه مفهوم الشعر فيقول:" وأما علم الشعر فالمراد به القدرة على صوغه، فإنه ليس كل من يعرف علم العروض يقول الشعر، فقول الشعر موقوف على ثلاثة أمور: أحدها معرفة العروض تعلما أو طبيعة، الثاني معرفة النحو كذلك، الثالث وجود سلقية فيه، وإلا فلا ينفعه العلم إلا تكلفـــا."[2] .

وانطلا قا من هذه المقولة، واستنادا إلى مقولات أخرى لبعض شعراء الفترة، نستطيع أن ننتهي إلى أن الشعر علم يتطلب أرضية خصبة ينطلق منها الشاعر، وتسعفه بالكثير من المعارف والادوات التي لا يجمل بالشاعر أن يجعلها أو أن تقـــل بضاعته فيها. ويرتبط بهذا المعنى إلحاح علي مصباح على أن الشعر علم في أصل الوضع اللغوي[3] كما يربط به إصرار ابن الطيب العلمي في بعض أبياته على أن :

1- موشحات مغربية ، ص 133

2- القانون ، ص 147

3- أنظر مقدمة أنس السمير، القسم الأول ورقة 91

الشعر عند ذوي البصائر والبصـــر علم يجل عن النظائر في النظـــــر [1]

ولعل هذا المفهوم يقتضي من الشاعر المبدع شيئا غير قليل من المهارة والاتقان ، ومن ثم كان مفهوم الشعر في الفترة صناعة لها أدواتها ومكوناتها، فكان بذلك إحياء وبعثا لما ذهب إليه بعض النقاد المشارقة الاوائل ، ولاسيما إذا نحن وجدنا علي مصباح يتبنى موقف هؤلاء النقاد، ويلح عليه إلحاحا فيقول: " الشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات..." [2] وهو موقف نقرأه لابن رشيق في عمدته، وقبله نقرأه لابن سلام في طبقاته. وفي هذا دليل آخر على الصحوة التصحيحية التي قادها أدباء الفترة، واتخاذ النموذج القديم مثلا يحتذى ، وهدفـا لا يستقيم حال الشعر إلا ببلوغه ومعانقتـــه.

ولم يكن الشعر في الفترة المقصودة، وفي هذا المنظور التصحيحي ، ليبقى في منأى عن الجانب الديني ، بل إن علاقته بهذا الجانب جعلت الشعراء ينقسمون إلى اتجاهين اثنين :

الاتجاه الاول تمثله تلكم الفئة من الشعراء التي ترى - وهي قليلة - أن الشعراء يشغل عن القرآن ويصرف عن الاهتمام بأمور الدين ، ومن ثم يكون الابتعاد عنه صوابا والتوقف عن قرضة فضيلة، ويشهد على كذا ما جاء في" ابتهاج القلوب" عن عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي حيث قال المؤلف: " وأما الشعر فقد تخلى عنه في أثناء أمره بعد إجادته وإحكامه، وشهادة أهله بالمشي منهم تحت راياته وأعلامه، والاشارة فيهم بأكمامه... وكان يحكي عن شيخه أبي محمد عبد الرحمن أنه كان يقول:" الشعر يشغل عن القرآن" [3].

أما الاتجاه الثاني فتمثله فئة أخرى من الشعراء الذين مارسوا الابداع الشعري ، ولكن من منطلق ديني يرغب في العودة بالشعر إلى الموقف الاسلامي الذي يبيح من الشعر ما كان غير متضارب مع التعاليم الاسلامية والاخلاق الفاضلة. ومرة أخرى نستحضر نصا للحسن بن مسعود اليوسي يحاول فيه تحديد مفهوم الشعر انطلاقا من الوجهة الدينية فيقول:" ... فقد بان بهذا فضل الشعر، وأن لا بأس به أصلا ، غير أنه ليس على إطلاقه ، وأن الشعر كله محمود ومرضي ، فإن هذا خطأ وغلط ، بل هو على تفصيل ، فما كان متضمنا للثناء على الله تعالى، أو لمدح النبي (ص) وأصحابه، أو الأنبياء والملائكة وكل من

1- وانظر مقدمة أنس السمير، القسم الاول ورقة 91

2- الانيس المطرب ، ص 293

3- مقدمة أنس السمير ، القسم الاول ، ورقة 177.

يجب تعظيمه وتوقيره والثناء عليه في الدنيا والترغيب في الآخرة فهو مندوب إليه مرغوب فيه. وما كان متضمنا للتنبيه والوعظ والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة ونحو هذا فكذلك أيضا. وما كان متضمنا للهجو وإيذاء كل من عرضه معصوم فهو حرام، ويتفاوت في القبح والشدة بحسب المؤذى ، حتى ينتهي إلى الكفر كما في حق الانبياء ،وما كان خاليا من هذيـــن الأمرين فهو من المباح في الجملة ، إلا أنه إن اشتمل على وصف القد والخد والمجون التي تحرك دواعي الشهوة والغواية، فهو قد يحرم وقد يكره وقد يباح بحسب حال القائـــــل- والمخاطب ، وتحقيق ذلك أن الشعر كلام كالنثر، فكل ما يستقبح في النثر يستقبح في الشعر.(1)

ولعلنا من خلال هذا النص، نستطيع أن نتبين التصنيف الديني الذي وضعه اليوسي، إذ جعل من الشعر حلالا وحراما ومستحبا ومكروها، وذلك بحسب المرامي التي يقصد إليها هذا الشعر، والاغراض التي يطرقها ويتناولها. بل إن اليوسي لا يكتفي بهذا التصنيف فقط ، وإنما يعمد إلى بعض أصول التشريع الاسلامي ليستقي منه ما يدعم موقفه ويزكي تصنيفه. ومن تم نجده يقول مثلا: " فقد روي عن النبي (ص) أنه قال: إنما الشعر كلام مؤلف ، فما وافق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق فلا خير فيه، وقال(ص): إنما الشعر كلام، فمن الكلام خبيث وطيب (2). هذا علاوة على إلحاح اليوسي على هذا التصنيف أكثر من مرة ، وأكثر من مناسبة.

وإذا كان لليوسي فضل تنظير هذا الاتجاه، وتحديد إطاره ومكوناته، فإن غيره من الشعراء قد مارسوا القول في حدوده، ولو لم ينظروه كاليوسي ، وخاصة منهم شعراء الزوايا الذين انساقوا في الغالب الاعم وراء المواضيع ذات الطابع الديني ، أو ما سماه اليوسي بالصنف الواجب .

ويدخل في إطار هذا التنظير أو هذه النهضة المحددة ما وضعه بعض شعراء الفترة ونقادها من مقاييس جعلوها حدا فاصلا بين الشعر والنثر. وقد حدد علي مصباح بعض هذه المقاييس في قـــوله:"وأمـــا مـــا ينبـــغي من الشـــعـــر فـــأربعـــة: اللفظ والمعنى والوزن والقـــافـــيـــة،

1- زهرة الاكم ، ج 1 ، ص 48

2- زهـرة الاكم ، ج 1 ، ص 48

وبتوفر هذه الأربعة في الكلام يخرج عن كونه نثرا إلى كونه شعراء وباخلال واحد منها يختل كونه شعرا"[1].

وكأني بعلي مصباح في هذا الطرح يدعم موقف بعض النقاد المشارقة القدامى ، وفي مقدمتهم قدامة بن جعفر القائل عن الشعر:" إنه قول موزون يقفى يدل على معنى"[2]. على أن علي مصباح - وإن ذكر العناصر الأربعة - فإنه يقصد العنصرين الأخيرين الوزن والقافية باعتبارهما المقياس الأساسي في التمييز بين الشعر والنثر، طالما أن اللفظ والمعنى عنصران مشتركان بين الشعر والنثر معا.

وبالعودة من جديد إلى اليوسي نجده يضيف عناصر أخرى للتمييز بين الشعر والنثر، بل يجعلها من خصائص الشعر التي لا تشترط في النثر، فهو يقول:" مع أن الشعر قد حسنت فيه أشياء لم تستحسن في النثر ، وذلك مما يفصله به الأدباء :

* منها الكذب الذي وقع الإجماع على حرمته، فإنه جائز في الشعر، إلا أن في المبالغة والإيغال تفصيلا مذكورا في علم الأدب ، وأفضل الأمور الصدق وما قرب منه؛

* ومنها تزكية الإنسان نفسه ومدحه إياها ومدح الإنسان بحضرته ومدح المحرمات من الخمر والنساء الأجانب ، ونحو ذلك ،

* ومنها خطاب الممدوح مثلا باسمه وبكاف الخطاب مما يكون في النثر استنقاصا، ونحو ذلك[3].

على أننا نسجل بعد هذا كله ، فارقا آخر بين الشعر والنثر، نفهمه من قول عبد الرحمن الفاسي

للشعر أسلوب كما للنثر ** أسلوب كل لا يرى للغير
فالمتنبي وكذا المعري ** لذا رأوا نظمه غير شعر[4]

ويتمثل هذا الفارق في اختلاف الأسلوب بين الإبداعين ، حيث من المفروض أن يكون الشعر إيحاء وعفوية وشفافية ، بينما يكون النثر دقة ومنطقا وصراحة، ومن ثم جعل المتنبي

1- مقدمة أنس السمير، القسم الأول، ورقة 117

2- نقد الشعر ، ص 64

3- زهرة الأكم ، ج 1 ص 49

4- الأقنوم ، ج 1 ، ورقة 56 ظهر

وأبا العلاء المعري ناظمين لا شاعرين لما يتميز به أسلوبهما الشعري من خصائص هي إلى النثر أقرب منها إلى الشعر، وكأنه يستلهم قولة المتنبي المشهورة:" أنا وأبو تمام حكيمان ، والشاعر البحتري".

وفي إطار هذه النهضة كذلك حظي الشعر في هذه الفترة بتحديد المكونات التي تبعث على خلق القصيدة ، وتوجه الشاعر في هذا الخلق.

ولعل أول ما يلفت الانتباه في هذا الشأن الألحاح على أن الموهبة أو السجية من أهم المكونات الشعرية التي يلزم توافرها لدى الشاعر، والتي بدونها يكون الإبداع الشعري متكلفا متمحلا ، يؤكد ذلك إلحاح علي مصباح على " أن الإنسان إن لم تكن له سجية أصلا ، ولم يكن في طبعه قابلية لذلك ، فلا كلام على هذا ولا فائدة في إرشاده الطريق إلى ذلك ، فإنه لا سبيل له إلى قوله ولو كان إماما في علوم الأدب" (1).

فالشعر موهبة في المقام الأول ومن ثم فهذه الموهبة هي المقياس الأساس للتمييز بين الشعراء المطبوعين والمتشاعرين المتكلفين ، وخاصة في المرحلة الأولى من الفترة المقصودة، وما تركته من بقايا ورواسب في المرحلة الثانية منها.

على أن من أبرز خصائص هذه الموهبة أو السجية عند شعراء الفترة ونقادها أنها تخلق مع الإنسان ، ولا تدرك بالممارسة والتعلم، ومن ثم فإنها هبة من الله تعالى يخص بها من أراد من عباده ، وليست هدفا يسعى الإنسان وراء تحقيقه وإثباته ، فإن" أصل السجية موهوب من الله لا تدرك بالتعلم، وإن كانت تزيد حسنا وجودة بزيادة التضلع بعلـــــوم الأدب "(2)

وانطلاقا من هذا المفهوم نستطيع أن نستثني الكثير من الأسماء التي أدرج أصحابها ضمن قائمة الشعراء ، بينما إنتاجهم الشعري يفيض تكلفا وتصنعا ، ويوحي بأن هناك تطفلا على ميدان الشعر، ومحاولة جاهدة للمساهمة الأدبية في مناسبات معينة ولو لم يسعف الطبع، ولم تواتِ السليقـــة.

1- مقدمة أنس السمير، القسم الأول ، ورقة 183

2- مقدمة أنس السمير، القسم الأول ، ورقة 183

ولعل هذا يسوقنا إلى أن الموهبة إن كانت أساسية في كل عمل إبداعي، فإنها لا تكتفي وحدها، بل إنها ترتبط ارتباطا جدليا بعنصر آخر لا يقل أهمية عنها، ويتمثل في تلكم الثقافة الأدبية المتنوعة، التي ينبغي أن يتسلح بها الشاعر حتى يكون للابداعه قيمة وقدر. ولعل هذه الثقافة الأدبية هي التي أشار اليوسي إلى بعضها عندما تحدث عن عناصر الشعر الثلاثة، وهي التي تدخل في مقاصد علم الأدب وفروعه [1]، والتي يعود علي مصباح لتأكيد تلازمها وارتباطها بعنصر الموهبة فيقول: "أما إن كانت لأحد سجية جيدة ومادة سالمة غير أنه جاهل بعلوم الشعر أو بعضها، فإن شعره ذلك لا عبرة به، لأنه قد يلحن فيه من جهة الاعراب، أو من جهة التصريف، أو يأتي بلغة غير مستعملة، أو يكسر الوزن ، أو يأتي بمثل في غير محله، أو نحو ذلك" [2].

وأعتقد أننا في غنى عن الإشارة إلى ما كان عليه شعراء الفترة من اطلاع على دواوين أسلافهم من شعراء المشرق والأندلس خاصة، وما كانوا يتوفرون عليه من مخزون شعري لعله كان البئر التي يمتحون منها بين الحين والحين .

وإذا كان عنصر الموهبة في العملية الشعرية من الضرورة بالقدر الذي حددناه، فإننا لا نغفل عنصرا آخر له أهميته في عملية الخلق الشعري هذه ، دلكم هو عنصر التجربة الذاتية التي أكد النقد الأدبي أهميتها، سواء في امتداده الزماني أو المكاني. ويبدو أن هذا العنصر، بماله من أهمية وقيمة في العملية الإبداعية عامة، قد انطلقت منه قصيدة الفترة مهما اختلفت موضوعاتها وتنوعت قضاياها، وسواء كانت التجربة ذاتية يعيشها الشاعر، ويعاني من ضغطها ما يعانيه، أو كانت غيرية يعايشها الشاعر،أو يستقيها من مرجعيته التاريخية أو الإجتماعية. ولعنا من هذا المنظور نرى أن قصيدة الفترة قد التزمت بعنصر التجربة الذاتية التزاما وثيقا تمكنت به من أن تحظى بغير قليل من المصداقية والمشروعيـــــة.

ولا بد أن نضيف إلى هذه العناصر الثلاثة المتقدمة عنصرا رابعا يرتبط بها ارتباطا متينا، وهو الذي أشار إليه ابن الطيب العلمي نقلا عن أحد معاصريه إذ قال:"

1- انظر مقدمة أنس السمير، القسم الأول، ورقة 30، نقلا عن اختصار اليوسي وتلخيصه لإرشاد القاصد الى سنن المقاصد لمحمد بن ابراهيم الأنصاري.

2- مقدمة أنس السمير، القسم الأول ، ورقة 92

قال لي بعض الحنفيين: الشعر مثل عين الماء، إن تركتها اندفنت، وإن استسقيتها هتنت، واستسقاؤها بالمذاكرة فإنها تقدح زناد الخاطر، وتفجر عيون المعاني، وتوقد إبصار الفطنة، والشعر في مسألة المذاكرة كغيره من العلوم.[1] . وهي إشارة تؤكد عنصر المذاكرة كما جاء في المقولة، أو عنصر الاحتكاك بالمعنى الواسع، ذلكم الاحتكاك الذي من شأنه أن ينمي هذه الموهبة من جهة ، ثم من جهة أخرى أن يغني تلكم الثقافة، ويغذيها بما يمدها به من معلومات ومعارف ، وما يطلعها عليه من تجارب الآخرين عليتبينها وتعدده. وغير خاف ما يكتسيه هذا العنصر من أهمية بالغة في عملية الإبداع الشعري ، انطلاقا من ضرورة تفاعل الشاعر المبدع مع بيئته ومحيطه ، واستشرافه على ما يموج فيها من معطيات وعناصر،لاشك أنها تثري موهبته وتجود إبداعه وفنه .

ويدخل في إطار هذه النهضة الشعرية كذلك ما تميز به شعر الفترة من معارضة لبعض نصوص الشعر العربي القديم، وخاصة منها النصوص المشرقية.

ولعل معارضة النصوص القديمة، والنسخ على منوالها، لايجمل أن نعزوه دائما إلى قصور الشاعر المعارض، ونضوب معينه الفكري أو الفني ، ولكنها ظاهرة – إلى جانب كونها انعكاسا واضحا لثقافة معينة – تكرس رغبة الشعراء المعارضين في الحفاظ للشعر العربي على متانته وحسن ديباجته كلما هبت عليه رياح الضعف والتعثر، وغيرتهم على هذا اللون من التعبير الذي عرف هزات بين الحين والحين في العالم العربي بجناحيه المشرقي والمغربي. ولعل المغرب في الفترة المقصودة، وخاصة في بدايتها، قد عرف فيه الأدب عامة والشعر بخاصة هزة أعرب عنها الكثيرون كما أسلفناه، وحنوا إلى ما شهده الأدب والشعر قبلها من ازدهار ومجد، ومن ثم راحوا يتمسكون بالنموذج الأمثل ، ويعارضون بأساليب المجيدين من الشعراء القدامى ، وكأنهم يحيون هذا الشعر من مرقد ويعيدون إليه الروح والحياة بعد فترة كاد يلفظ فيها أنفاسه الأخيرة.

وتبدو قصائد البوصيري أكثر حظا في هذا المجال ، إذ عارضها أكثر من واحد ، منهم اليوسي وابن زكري والحلبي وغيرهم، بالإضافة إلى معارضة شعراء آخرين كامرىء القيس ، والنابغة وأضرابهما.

1- الانيس المطرب ، ص 91

وانسجاما مع هذه المواقف والضوابط ، تميز شعر الفترة المقصودة بمحاولة وضع خطة ترسم المراحل التي ينبغي أن تمر منها القصيدة منذ أن تبدأ خيالا وإلهاما إلى أن تصبح نصا يتنازل عنه الشاعر المبدع إلى الجمهور المتلقي ، وهي مراحل تجعل القصيدة عندهم عملية مبينة لابد أن تتوافر لها عناصر التكوين الجيد والخلق المؤثر الجذاب ، في صورة تحضيرية يهيئها الشاعر في بداية الأمر، ثم ينسج قصيدته على منوالها. وقد أكد هذا ابن الطيب العلمي وهو يتبنى قول ابن ريسون:" والناس مختلفون في عمل الشعر وكيفية الوصول إليه، وأحق ما يعتني به الشاعر بعد اللفظ والمعنى تمكين القافية في محلها، وجعلها في مركزها، ولا ينبغي له أن ينظم بيتا لا يعرف قافيته، بل إذا أخذ في النظم كتب من القوافي ما يصلح لما هو مستعمل فيه، ثم أخذ مستعملها وشريفها وما وافق معناه منها، وطرح ما سوى ذلك. غير أنه لا بد له أن يجعلها في رقعة ليكرر فيها نظره حين العمل ، وهذا الذي عليه حذاق القوم، وبذلك تجيء القافية متمكنة في محلها، ويتعلق صدر البيت بعجزه، ويكون الكلام متناسق الألفاظ سالما من الحشو"[1].

واعتبار الشعر عملية مبيتة تحتاج إلى جهد وتركيز، موقف دعا إليه كذلك - وقبل ابن الطيب العلمي - العالم الشاعر عبد الرحمن الفاسي الذي ربط خلق القصيدة بمجموعة من المراحل التي على الساعر أن يسلكها حتى يستوي قريضه، ويجود إبداعه ، وتتمثل هذه المراحل في :

1 - وضع القوافي كمرحلة أولى ، وذلك باستحضارها وتجميعها لتكون طوع يد عبد الرحمن الشاعر وهو يصنع قصيدته، ولعل هذا العمل يتطلب منه تمكنا واسعا من اللغة، وإحاطة شاملة بشواردها وغريبها حتى يتسنى له وضع هذه القائمة التي يلح عليها عبد الرحمن الفاســـــي ؛

2 - اختيار الألفاظ المناسبة التي يمكن أن تتسع للمعني المقصود، وجعل هذه الألفاظ متلائمة مع الوزن ، ولعله بهذا الطرح يرفض استعمال الألفاظ التي تجعل الوزن مكسورا، أو تضطر الشاعر إلى ارتكاب لحن أو ضرورة شعرية قد تكون على حساب الألفاظ وسلامتها النحوية أو اللغوية؛

1- الأنيس المطرب ، ص 352

3 – وضع البحر الذي يريد الشاعر أن يركبه، مقطعا إلى تفعيلات تكون النموذج أو الهيكل الذي يلتزم به الشاعر، ولا يخرج عنه بحال من الأحوال؛

4 – وضع الألفاظ تحت هذه التفعيلات ، والملاءمة بين هاته وتلك ، أو بتعبير آخر الملاءمة بين البحر كتصميم واحد وهيكل ملزم، وبين العبارة الشعرية كتطعيم لهذا التصميم، ونسيج لذلك الهيكل [1].

ولعل من الطبيعي ، وقد حدد شعراء الفترة ونقادها مفهوم الشعر، وضبطوا مكوناته وعناصره، وحددوا مراحل خلقه وإنشائه، ان يحتل هذا الشعر لديهم المكانة السامية والدرجة العليا ، فيجعلوه لذلك مجلبة الفضائل والمحامد ، وصاحب الأدوار الأيجابية يلعبها في حق مبدعه، وهي الأدوار التي عبر عنها ابن القاضي عندما قال: " اعلم أن الشعر في الإنسان فضيلة عظيمة، يدل على عقل صاحبه، ورقة طبعه، وسلامة ذهنه ولطافته"[2] ، كما عبر عنها علي مصباح في قوله من قصيدة :

هو الشعر فلتخضع إليه العوالـــــــم
وتذعن لنجواه الملوك الأعاظـــــــم
لهكلمـــاتنافـــذاتكأنهـــــــــــا
سيوف بأيدي الفاتكيـــن صـــــــوارم
فكم نبهت من خامل الذكر فارتقـــــى
مراقي تحكيها النجـوم الرواجـــــــم
وكم وضعت من شامـــخ العز، إنهـــا
بذلـــك وذا بين الأنـــام حواكـــــــم [3]

وهكذا إذن أكون بهذه المداخلة الموجزة، قد حاولت إبراز بعض ملامح النهضة الشعرية في المرحلة المقصودة، وخاصة من زاوية التقعيد وإعادة هيكلة التنظير، بغية العودة بالشعر المغربي إلى عهود النضارة والإشراق ، بل الخروج بالشعر العربي عامة من مأزق الإنحلال والضعف ، وفي ذلك ما يدل على وجاهة هذه المرحلة في مسيرة الشعر العربي بالمغرب ، وبروزها كعلامة مشعة في فضائه الواسع الفسيح.

1- انظر أبيات الفاسي في الموضوع في الأقنوم، ج 1، ورقة 54 وجه.

2- المنتقى المقصور، ج 2 ، ص 619

3- ديوان علي مصباح ، القسم الثاني ، ورقة 65

الحركة الأدبية في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله
(1171هـ - 1204هـ)

الصادقي العماري
كلية الآداب. فاس

يعد السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله من أعظم ملوك المغرب. لما امتاز به من خصال. فقد كان: واسع المعرفة بعيد النظر، مرنا في تصريف أمور الدولة، عميق الإيمان، غيورا على الإسلام والمسلمين، محبا حبا مكينا لأمته وشعبه، وهذه الخصال الرفيعة - مجتمعة - هي التي جعلت كل الفئات والجماعات تتعلق به وتعتز، وينال على المستوى الدولي التقدير الفائق، لدى دول أروبا وأمريكا علاوة على الدول الإسلامية. فكان عهده من العهود الزاهرة في تاريخ المغرب، ولسنا في حاجة للتدليل على ذلك فهو أمر معروف سجله المؤرخون على اختلاف انتماءاتهم ودولهم، وتمكن الإشارة - في عجالة - لاكتشاف ذلك وإدراكه بيسر، بالنظر إلى سياسته الرصينة، ومواقفه المتسمة بالحذق وحسن التصرف، على عدة مستويات وأصعدة:

- على مستوى تحقيق الأمن والإستقرار وتثبيث الوحدة الوطنية
- على المستوى الإقتصادي (الفلاحة والصناعة والتجارة)
- على المستوى الإجتماعي والفكري والعمراني.
- على مستوى العلاقات الخارجية - الإسلامية والأجنبية.

ولم يكن العمل في هذه الواجهات محددا بفترة، بل ظل في تواصل وتنام طيلة عهده المبارك الزاهر.

ونظرا للتفاعل القائم بين مختلف مجالات الحياة، فإن مجال الأدب لابد أن يكون متأثرا ومؤثرا. ولعل من أقرب مجالات التأثير في الأدب بكيفية مباشرة مجال التعليم. هذا المرفق الحيوي الذي يقوم على عدة أسس: من توفير الأساتذة، وما يلزم من أبنية، وتحديد البرامج والكتب، وتوجيه طلاب المعرفة إلى ما يفيدهم في تكوينهم الروحي والفكري للمحافظة على شخصيتهم ومقوماتهم الأصيلة،

ويكون لهم نبراسا في حياتهم العلمية. نافعا لمجتمعهم، ولهذا كان اهتمام سيدي محمد بن عبد الله، بهذا الميدان اهتماما بالغا، ورعى شؤونه رعاية شاملة لكل ما يتعلق به، ومن ذلك:

- إصلاح برامج التعليم بما يكفل له متانة التكوين ويجنب الطلاب المسالك الوعرة، والجدال الذي لا طائل من ورائه ، والذي قد يتحول إلى مضيعة للوقت، فقد أراد السلطان بثاقب فكره وبصيرته النافذة. وبعد تتبع لسير التعليم ولقضاياه، أن يكون مفيدا للسمو بالإنسان معنويا، ومجديا يخدم الواقع ويتجاوب مع متطلباته الضرورية حينئذ، وعلى الطالب أن يصرف جهده لتحصيل الأسس أولا ثم الفروع وليس معنى هذا حصر مجال التعليم، ولكن هذا التصرف تنظيم محكم بحيث يتم تحصيل ما يعتبر بمثابة القاعدة، بكامل التركيز والعناية، ثم يأتي التوسع بالتلقين وبالقراءة الفردية الحرة، وهذا من بعض ما تنحوه المناهجة الحديثة إذ تترك فرصة للطلاب ليظهروا مواهبهم وقدراتهم بعد استيعاب الأسس لتكون دراستهم بعد ذلك مثمرة لأنها ستتم على قاعدة صلبة، ولا يخشى على الطلبة من الإفتتان والزيغ.

- ومصداق ذلك أن ما أمر السلطان بأن يكون قاعدة التدريس: القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والكتب الأصيلة في الفقه واللغة والأدب. فقد جاء في الأمر الموجه إلى القائمين على التعليم ما يأتي من مواد الدراسة والمراجع الواجب اعتمادها:

1- القرآن الكريم وتفسيره باعتباره المصدر الأول للتشريع والثقافة الإسلامية في مختلف مجالاتها الخلقية والسلوكية واللغوية...

2- الحديث النبوي باعتباره المصدر الثاني، والإعتماد في دراسته على البخاري ومسلم، والمسانيد. وقد كانت للسلطان رحمه الله مساهمة شخصية في الميدان، حيث وضع كتبا في الحديث، منها: الفتوحات الإلهية الكبرى والصغرى، والجامع الصحيح الأسانيد المستخرج من ستة مسانيد، وفتح الباري في اقتطاف أزهار المسانيد لتخريج أحاديث البخاري.

3- السيرة النبوية، ويعتمد في تدريسها على مصنف الكلاعي، وهو المعروف بالإكتفاء في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفاء، والمؤلف هو سليمان بن موسى المتوفى عام: 634هـ. وسيرة بن سيد الناس اليعمري. ومعلوم أن تقرير دراسة السيرة النبوية أمر يعين على معرفة مناسبات الأحكام ومقاصد الآيات والأحاديث وظروف وأحوال المجتمع في صدر الإسلام.

4- اللغة والأدب. لقد تفطن السلطان بحكم تضلعه في هذا المجال - على ما تشهد به الأخبار - إلى ما يمكن أن يعتبر سبيلا ميسرا لحصول ملكة في اللغة وإتقان قواعدها ومعرفة أسرار أساليبها، إذ لا سبيل لإدراك مقاصد القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والنفاذ إلى أسرار التراث، والقدرة على التأليف والتعبير في مختلف الميادين بغير إتقان اللغة، ولهذا أشار السلطان إلى أمثلة من الكتب في متن اللغة والنحو والصرف والبلاغة، والنصوص الأدبية، منها: القاموس المحيط للفيروز آبَادِي، "ولسان العرب" لابن منظور، "والتسهيل" "والألفية" لابن مالك "والإيضاح "للقزويني، " والمطول " للتفتازاني، " ودواوين الشعراء الستة الجاهليين" "ومقامات" الحريري.....

5- دراسة الفقه والعقيدة يعتمد فيها على دراسة "المدونة" وهي برواية العلامة سحنون عن عبد الرحمن بن القاسم المتوفى سنة 191هـ" البيان والتحصيل" لابن رشد الجد وهو شرح "للمستخرجة" المعروفة بالعتبية نسبة لأبي عبد الله محمد بن أحمد العتبي المتوفى سنة 255هـ وأيضا "المقدمات الممهدات" بمثابة مدخل للمدونة، والكتاب لابن رشد الجد، و"النوادر والرسالة والعقيدة" لأبي زيد القيرواني المتوفى سنة 386هـ وغيرها ممن كتب الفقه.

وهذا التعيين موجه للقائمين بالتدريس في القرويين وما يتبعها من المعاهد ومرافق التدريس، ويعتبر هذا التوجيه المنهجي أول عمل إصلاحي للتعليم، بعد أن لاحظ السلطان ما ران عليه من ركود.

وبالإضافة إلى ما سبق فقد وضع برنامجا تربويا غاية في الوضوح، استخلصه من سبره للواقع التعليمي، لا في مرحلته المتوسطة العليا، ولكن أيضا في مرحلته الأولية، وقدم لهذا الغرض توجيهات عملية مفيدة للمعلمين توافق في جوانب منها ما يعتبر اليوم من النظريات التربوية الحديثة، في كتاب وضعه، وهو: "مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان" ومما يستشف أن تراعى في التلقين العناية بالضروريات مع التدرج في مواد التدريس وتشجيع ذوي المواهب.[1]

ومما يتبع هذا الجانب ويتصل به صلة وثيقة إكثاره - رحمه الله - من بناء المدارس والمعاهد في مختلف الجهات، أو إ صلاحها وترميمها، ثم كثرة ما تم وقفه من كتب، وتكفي الإشارة إلى أنه وقف اثنتي عشر ألف كتاب من أمهات الكتب، كانت في خزانة جده المقدس مولاي إسماعيل، ومن جهة أخرى فقد حارب الفرق والزوايا الضالة التي ترسخ الخرافة وتتنكب عن الجادة، وتبث الفتنة، وتعكر صفاء العقيدة والفكر[2]

هذه صورة مجملة للأرضية التي هيأت لازدهار الحركة الفكرية ومنها الأدب واللغة، ويمكن إبراز عوامل الازهار الأدبي في العناصر الآتية:

- ما نعم به المغرب من أمن واستقرار وإنعاش اقتصادي
- الإهتمام بشؤون التعليم وتأسيس المدارس وترميمها.
- نسخ الكتب ووقفها على مختلف الخزانات بوفرة
- تشجيع السلطان لحملة العلم والمؤلفين وعنايته بالكُتّاب والشعراء، وتقديم الجوائز السنية والعطايا السخية. وعقده للمجالس العلمية، مما كان يشجع طلاب العلم للإنكباب على الدرس والتحصيل والإنتاج العلمي الرصين المفيد.

ومما أثر على السلطان أنه كان أكثر تعلقا بالأدب والاخبار، وخاصة منذ كان خليفة لوالده بمراكش، ومن الكتب الأثيرة لديه "مناهل الصفا" للفشتالي، "والأغاني" لأبي الفرج الإصبهاني ولهذا شهادة أبي القاسم الزياني الذي لاحظ عن قرب مدى تضلع السلطان في هذا الميدان حيث يقول:« .... ولع بسرد كتب التاريخ والأدب إلى أن تملى منها، وكاد أن يحفظ ما في كتاب الأغاني من كلام العرب وأشعارها ونوادرها، وأشعار المولدين، وشعراء الإسلام...»[3] ومن جهة أخرى فإن السلطان قد وضع كتابا جمع فيه من نصوص أدبية تدل دلالة واضحة على خبرته، وكمال ذوقه سماه «ترويح القلوب» وهو مازال مخطوطا. ومن الأدلة الثابتة على رسوخ قدمه في المجال الأدبي والمعرفة العميقة بأسرار الصناعة الشعرية ما ذكره كاتبه عبد القادر السلاوي، - وهو الذي كلفه السلطان بتلخيص وترتيب كتاب الأغاني - حيث يقول: «كان سيدي محمد شُغِفَ بهذا الكتاب شغف جميل ببثينة، وغيلان بمي، وكثير بعزة، فحاز من علومه الفاخرة أكمل حظ وأوفر نصيب فأحاط به علما، واستولى على جواهره الحسان حفظا وفهما، وأحرزها على التمام نثرا ونظما»[4] وهذه شهادة ناطقة لا يعوزها التوضيح، وتكليف كاتبه بهذه المهمة في حد ذاتها دليل قاطع على تعلقه بالأدب، وطول باعه فيه.

ومن مظاهر عنايته بالأدب وتعلقه به، أن حديثه في مجالسه كثيرا ما كان يصحبه بالأشعار والأمثال والأقوال المأثورة.من ذلك أنه إذا وجه أحدا في مأمورية، ينشد قول ابن دريد الأزدي:

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عنى

وقال أيضا مخاطبا بعض علماء فاس:

جسمي معي غير أن الروح عندكم ... ياعجا لافتراق الروح والبدن

فأجابه العلامة التودى ابن سودة:

نفسي وأهلي وماجمعت من نشب هي فداء لذاك القلب من شجن[5]

ولم يكن مجلسه يخلو من الأدباء والعلماء في كل الظروف. وهناك جانب آخر لافت للنظر يتعلق بتشجيعه لنسخ الكتب واستجلابها في أي مكان وجدت، ومن ذلك أنه استخلص كثيرا من الكتب التي وقعت بيد الإسبان، كما فك الأسرى. يقول الغزال في رحلته نتيجة الإجتهاد: "....بعد أن قدمنا الثلاثمائة إلا عشرة من الأسرى المسرحين على يد سيدنا الكريمة، رجالا ونساء، جعلنا على رأس كل واحد من الأسارى كتابا من كتب الإسلام التي انقدها الله من بلاد الكفار ببركة مولانا المنصوربالله،المتخلفة من عُمَّار العدوة من المسلمين فيما سلف..."[6].

وأمر بتأليف عدد من الكتب، منها كتب الأدب كرحلة الغزال - سالفة الذكر ورحلتي المكناسي "الأكسير في فكاك الأسير" و "إحراز المعلى والرقيب..." أما رحلته الثالثة فلم يذكر الأمر المولوي بوضعها وهي: "البدر السافر في افتكاك الأسارى.." . وسيأتي التعريف بها.[7] وكذلك أمره باختصار وترتيب كتاب الأغاني.

هذه بصورة إجمالية أهم المظاهر وكذلك العوامل التي افضت إلى قيام نهضة علمية وأدبية ذات شأن في تاريخ الأدب المغربي.

ويبدو أنه من اللازم تقديم صورة على شكل عناصر للواقع الأدبي في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، قبل إيراد التفاصيل.

* ***أولا*** هناك عدد وافر من الأدباء والعلماء الذين يعتبرون من حملة مشعل الأدب في عهده، وخصوصا إذا أدخلنا في الإعتبار الذين أدركوا ولو سنوات معدودة من عهده أو الذين عاشوا في ظله وامتد بهم العمر إلى ما بعد عهده، وهؤلاء غالبا - ما تم تكوينهم الثقافي في ظلال ذلك العهد، وفي إطار ما توفر فيه من وسائل وإمكانات، ومما يجب التنبيه إليه أن الأدب المغربي ظل موصولا عبر تاريخه، منذ رسوخ العربية بهذه الديار، واعتناق أهلها الإسلام، قد يصاب أحيانا بركود ولكن لا يفتأ أن يعود إلى مجراه وطريقه اللاحب. ويمتاز أدباء عهد سيدي محمد بن عبد الله - كما هو حال أدباء المغرب - بشمولية المعرفة وعمق المشاركة في مختلف العلوم والفنون، وإن ظهر الإهتمام أو العناية ببعض الميادين العلمية أكثر من غيرها. ومن أبرز العلماء الأدباء الذين لهم مساهمات في الإنتاج الفكري، بقيت إلى الآن. منها ماهو مطبوع، ومنها ما بقي مخطوطا، وقد تكشف الأيام عما بقي مجهولا أو يعتبر ضائعا. ومن هؤلاء:[8]

1- أبو العباس أحمد بن عبد العزيز السجلماسي (1113هـ - 1175هـ) أدرك عهد سيدي محمد بن عبد الله بدأ تعلمه بمسقط رأسه ثم انتقل إلى فاس لمواصلة الدراسة بجامعة القرويين حيث تلقى العلم على جلة علماء ذلك الوقت، ثم عاد إلى بلدته ليضطلع بمهمة التدريس حتى وافاه الأجل المحتوم. ويعتبر من أبرز العلماء، وسنتعرض لبعض انتاجه.

2- أبوعبد الله محمد بن أحمد الفاسي (1118هـ - 1179هـ)من العلماء المشاركين له بروز في كتابة التراجم.

3- أبو زيد عبد الرحمن بن إدريس المنجرة (1111هـ - 1179هـ) له مساهمات في مجال الأدب، شرح دالية محمد بن المبارك السجلماسي في القراءات، وله تعاليق على نظم ابن غازي والمرادي في النحو.

4- محمد المعطي بن محمد الصالح الشرقاوي (توفي 1180هـ) من الذين غلب عليهم التصوف الطرقي اشتهر بكتابه الضخم في السيرة النبوية "ذخيرة الغني والمحتاج في صاحب اللواء والتاج" ويمتاز هذا الكتاب بأسلوبه الأدبي.

5- أبو مدين بن أحمد الفاسي (1112هـ - 1181هـ) من الأدباء البارعين زيادة على تعمقه في العلوم الإسلامية، من أشهر آثاره الأدبية " المحكم في الأمثال والحكم"و "تحفة الأريب ونزهة اللبيب" و "مجموع الظرف، وجامع الطرف" وشرح رائية الشريشي ذات المنحنى الصوفي.

6- أبو العباس أحمد بن محمد - المعروف بابن الونان (توفي 1187هـ) وهو صاحب القصيدة الدائعة الصيت والمعروفة بالشمقمقية. يوصي بدراستها وحفظها لما اشتملت عليه من إشارات تاريخية وأمثال حكمية ومتن لغوي عميق، ومها مدح السلطان سيدي محمد بن عبد الله، تناولها الناصري صاحب الإستقصاء بشرح مسهب، وأخرجها العلامة عبد الله كنون مع تعاليق وشروح لغوية.

7- أبو عبد الله محمد بن الطيب القادري (1124هـ - 1187هـ) اشتهر بكتابيه التقاط الدرر ونشر المثاني - وهما في التراجم ومنها تراجم الأدباء مع إشارات تلقي الأضواء على الحياة الإجتماعيةوالأدبية.

8 - أبو حفص عمر بن عبد الله الفاسي (1125هـ - 1188هـ) من علماء الشريعة، اشتهر في المجال الأدبي بمقدرته اللغوية حيث شرح منظومات: إبن فرج الإشبيلي في المصطلح، وابن عاصم "تحفة الحكام " ولامية الزقاق، وله قصيدة ذائعة على غرار لامية العجم.

9- أبو العباس أحمد بن المهدي الغزّال (توفي 1191هـ) من رجال الدولة في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وكاتب فن الرحلات، بارع في فن الشعر، تولى مهام السفارة ،يمتاز بأسلوبه الأدبي الرائع، له رحلة " نتيجة الإجتهاد في المهادنة والجهاد" و "النور الشامل في مناقب فحل الرجال الكامل" ورسائل، ومدائح في السلطان.

10- أبو عبد الله محمد التاودي ابن سودة - المعروف بالتودي ابن سودة
(توفي 1203هـ) من العلماء الأجلاء له حضور في المجال الأدبي واللغوي من شروح كشرح منظومة الزقاق، وتحفة ابن عاصم، وبعض المقطوعات الشعرية.

11- محمد بن عثمان المكناسي (المتوفى 1213هـ - 1214هـ) من رجال الدولة إذ كان أحد سفراء السلطان، بعد أن شغل مدة منصب الكتابة، يعتبر من الأدباء البارعين نثرا وشعرا وضع ثلاث رحلات: "الأكسير في فكاك الأسير" و "البدر السافر.."و "احراز المُعَلَّى والرقيب" علاوة عن رسائل وأشعار، وأورد مقطوعات منها في ثنايا رحلاته.

12- أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الفاسي (1130هـ - 1214هـ) من العلماء المشاركين المتضلعين في ألوان المعرفة، له إسهام في مجال اللغة حيث ألف شرحا "للامية الأفعال" لابن مالك، ونظم فهرسته وشرح دالية ابن المبارك الوراق في القراءات.

13- أبو عبد الله محمد الطيب ابن كيران (1172هـ - 1227هـ) من الذين تيسر لهم التكوين الثقافي في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله وامتد به العمر إلى عهد السلطان مولاي سليمان وهو متنوع الثقافة كثير الإنتاج، إشتهر في الميدان اللغوي بمنظومته في الإستعارة والمجاز، وشرح ألفية العراقي في مصطلح الحديث، ورسالة في "لو" الشرطية.

14- أبو الفيض حمدون بن عبد الرحمن بلحاج (1174هـ - 1232هـ) من العلماء الذين أتيح لهم أن يتصلوا بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله وبالسلطان مولاي سليمان، وتمكن من التبحر في علوم شتى وكتب في النظم كثيرا إذ نظم السيرة النبوية، وشرحها وله غيرها.

هذه طائفة من أعلام الفكر والأدب، الذين يعتبرون من أبرز الشخصيات. إذ ليس القصد في هذا البحث استيفاد كل نوي الحضور الأدبي، وإنما الغاية المتوخاة تقديم معالم عامة. ومن نافلة القول أن نؤكد أن كل علم من هؤلاء قد يضيق بحث بكامله عن استيعاب كل جوانبه. ولعل ما يبعث على الإرتياح أن نرى طلبتنا الباحثين الجادين يتسنمون هذه الذروة مهما تجشموا من صعوبات. ويبذلون قصارى جهودهم لإحياء هذا التراث المجيد الذي يعتبر بحق إحدى مفاخر المغرب والحضارة الإسلامية عامة.

وسنذكر في ثنايا هذا البحث نتفا من إنتاج بعض الأعلام ممن لم يرد ذكرهم آنفا.

* **ثانيا**: في هذا القسم من البحث بيان لأهم الأنواع الأدبية السائدة، وتجب المبادرة إلى القول بأن لكل عصر أنواعه الأدبية التي تقتضيها ظروف ذلك العصر وتتجاوب مع متطلباته، وأوضاعه الثقافية والفكرية والذوقية، فظهور باب أو غرض من أغراض الشعر وبروزه إنما ذلك لعوامل خاصة ومتداخلة، وليس أمرا اعتباطيا وكذلك سيادة أنماط نثرية كالمقامة أو الرسالة وغيرهما، ووجود ميل لأساليب ذات طواويع فنية خاصة، إنما ذلك للأسباب نفسها، وخير ما يجلو لنا ذلك، إذا ما تساءلنا عن أسباب ظهور فهارس الشيوخ كنمط من أنماط الكتابة واختفاء هذا النمط الآن. ولماذا لم توجد الأنواع القصصية، على حال ما هي عليه اليوم؟ ولماذا لم توجد المسرحية؟ ولماذا تحول الشعر أسلوبا وبناء ومضمونا إلى ما صار عليه في وقتنا الحالي؟!

أوردنا كل هذه التساؤلات والتوضيحات حتى لا يأخذنا العجب إذا ما أدخلنا في إطار الأدب بعض الإنتاجات التي قد تبدو للبعض خارجة عنه، ولكنها في الواقع تعتبر منه لعدة أسباب، منها أن هذه الإنتاجات غالبا ما تكتب بأسلوب لا نتردد بأن نصفه بأنه أسلوب أدبي تتجلى فيه خصائص

:الأدبية" بما تتضمنه من إيحائية وتصوير بارع وتأنق في اختيار العبارة، كما أن مفهوم الأدب على نحو ما كان سائدا لدى علمائنا قديما، مفهوم واسع.

نخلص إلى القول: بأن الأدب في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وإن كان لا يخرج عن قسمية أو فرعية: الشعر والنثر، وما يتصل بهما من شروح وتفاسير وعلوم لغوية: إلا أنه ذو طوابع خاصة ومضامين معينة، مستمدة من قضايا الواقع ووليدة قدرات مبدعية، ومتجاوبة مع تطلعات وأنواق متلقية. ونورد فيما يأتي بعض التفاصيل والمقتطفات والإشارات، عن الشعر بألوانه وأبوابه، وعن النثر بأجناسه الفني والتأليفي، وما يتصل بالشعر والنثر من شروح، وقواعد وتراجم وسير وفهارس.

1- *الشعـــــــر*

هناك وشائج شتى تربط الإنسان بالشعر منذ أقدم العصور، لما له من وظائف جمالية ونفسية ونفعية في السلم والحرب، في الرخاء والشدة وفي الحزن والإنشراح، وفي الإعتزاز والندم، وفي الرجاء والخيبة، والتذكر والإستبطان واستشراق المستقبل، وغير هذا من المشاعر والأحاسيس والحالات النفسية.

وبناء على هذا فالشعر تكون له طوابع خاصة حسب حمولته التي يهيمن عليها الإحساس العاطفي أو التأملي العقلي، وبعد إمعان النظر في مجموعة من النصوص الشعرية في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله بدا لنا أن شعرذلك العهد يمكن أن يسلك ويصنف في نطاق هذا التقسيم:

- أ- ***الشعر الوجداني*** المعبر عن المشاعر الذاتية أوالجماعية، وله أبواب كالمديح النابع من صدق المشاعر والعزل ووصف الطبيعة، وما يمت لهذه الأبواب بصلة.

- ب - ***الشعر الموضوعي أو العقلي***، وأهم مقاصده الحِكَم وإصدار التوجيهات، وسبك النصائح، وواضح أنه يخاطب العقل بالدرجة الأولى، ويتوسل إلى ذلك بضروب من الإقناع ونقل الوقائع واستعراض العبر.....

- هـ - ***الشعر التعليمي*** أو بالأحرى النظم التعليمي وهو ليس له من مقومات الشعر غير الوزن. وقد شاع شيوعا واسعا لأنه اتخذ وسيلة لتسهيل حفظ القواعد والمصطلحات الخاصة بمختلف العلوم.

وفيما يأتي بعض الأمثلة لكل نوع من الأنواع السابقة متوخين الإيجاز والإقتصار على النصوص الدالة.

أ- *الشعر الوجداني*

من هذا الشعر نورد الأبيات الآتية المعبرة عن تلقائية المشاعر، وهي لأبي العباس أحمد بن الرضى ابن عثمان المكناسي المتوفى حوالي سنة 1208هـ، يستعرض ما علق بنفسه من ذكريات قضاها في كنف الطبيعة الوارفة الظلال، ذات الجمال الأخاذ ومعه رفقه يلذ بهم الأنس ويعذب المجلس يقول:

لهفي على تلك العشايا التي ... قضيتها تحت وريف الظلال

مابين أزهار زهت بالرذا ... ذِ أوبين أنهار جرت بالزلزال

والورق في الأوراق راقصة ... وجامات الراح براح العزال

قد أودعت في خده لونها ... وأثرت رقتها في الشمال

واكتسبت الحاظه فعلها ... وطعمها المرشف عند النوال

لازلت في سكر لواحظه ... فكيف أقوى سُكر بنت الدوال (9)

وفي الغرض نفسه نجد أبياتا لأحمد بن المهدي العزال صاحب الرحلة المشهورة "نتيجة الإجتهاد" وقد تقدم ذكره يقول:

سلا بانة الجرعاء هل جادها القطر

وهل أسرعت أجزاع ساحتها الغر

وهل نسجت أيدي الحيا بروضها

برودا لها من كف راقمها نشر

فيالك روضاً من بكاء غمامة

تبسم من أثغار أكمامه الزهر

كأن به الأدواح تهتز نضرة

عرائس تزهو فوقها حلل خضر

كأن بها ورق الحمائـــم سجعـــا

قيان لها في صـــوغ ألحانها جهـــر

كأن ثغور الأقحوان مباســـــم

تناسق فيها تحت قانئهـــــــا دُر (10)

هذه الأبيات - في الأصل - من مطلع قصيدة مدح بها الشاعر السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وعادة اتخاذ الطبيعة أو الغزل مفتتحا سنة دأب عليها الشعراء، والقصيدة - كما يبدو - متينة النسج رائقة اللفظ، رائعة الصور عذبة الإيقاع، مما يدل على رقة طبع وتلقائية المشاعر، ومن جهة أخرى نستشف مدى تضلع الشاعر ومعرفته بالموروث الشعري وحسن تمثله إياه.

ومن شعر المديح ما مدح به السلطان سيدي محمد بن عبد الله حيث أنه أثار إعجاب وإكبار شعراء عصره من المغرب وخارجه نظرا لما سبق ذكره من خصال وما اتصف به من شيم ومكارم ومفاخر في العلم والسياسة وعلو الهمة... وهذا الباب لا يأتي تتبعه في هذا البحث، نظرا لكونه بحرا زاخرا يحتاج إلى أبحاث خاصة.

ومن ذلك نجد قصيدة لأحمد المهدي الغزال - سالف الذكر، يقول:

إمَـامٌ لَـهُ فـي بـادخِ العزّ رُتْبَـــةٌ ... تَقاصر عنها الوَهْمُ والرصفُ والحَصر

تسامى على سامي السِّماكِ مكانُها ... وصار إلى عليائهـا يخضـــع الدهـر

تَذِلُّ لهـا الآسـادُ فـــي آجامهـــا ... وترتـــاع في أغمادها القضب البـــتر

تزلزل أهل الشرك منهـا وأدعنـــوا ... وعـم علـى آفـــاق أجناسهـم قهـــر

وصاروا عبيـدا مـن مهابـة بأسهـــا ... ولـم ينجهم فـي الأرض بـــر ولا بحـر

يـؤدون بـالإدلال والهـــون جـزيـة ... يقـــون بهـا الأنفاس فهـي لهـم عمـــر

ومـن لـــم يرم اعطاءهـــا متكبـــرا ... يحيق بـه فـــي الحـين من بأسه مكـر

كما حاق "بالمهدومة" الخبر جهـــرة ... وحل بها من سوء أفعالهـــا خســـر

تصدّى لها فخـر الملـــوك بغـــزوة ... تزعزع منها الجـو والبـر والبحـــــر

وصب عليهـا مـن بـوارق بطشـــه ... صواعـق حتـف لا يطـاق لها أســـــر

لقد كان الشاعر محقا حينما ذكر عجزه لاستيفاء فضائل السلطان، ولهذا اقتصر على بعضها، من رفعة مكانته بين ملوك عصره، وكيف يخشاه الأعداء ويخطبون وده، ويخضعون لمطالبه، وهذا أمر معروف تاريخيا لا مبالغة فيه، ثم خلص لعمله الجليل حيث تم تحرير مدينة الجديدة من احتلال البرتغال (وكانت تدعى بعد ذلك المهدومة، كما عرفت بالبريجة وأيضا كانت تعرف بما زغان)

وقد أسهب المؤرخون في ذكر ذلك الفتح موردين تفاصيله وخطة الحصار وما أتى به السلطان من عتاد، ويجدر التذكير هنا إن كان الأمر يحتاج إلى مزيد من الأدلة على وحدة المغرب الترابية من شماله إلى أعماق صحرائه، أن أعدادا من سكان الساقية الحمراء وواد الذهب – وكانوا حوالي خمسمائة – قد شاركوا في معارك تحرير الجديدة – كما أورد ذلك الضعيف في تاريخه.

ويواصل الشاعر محاولة تعداد بعض مزايا السلطان بقوله:

ومن ذا الذي يلاقي صولة هاشمية ... إذ انتهضت للأمر يسبقها النصر
فيالك من عز تكامل سعده ... ويالك من فتح به سمح الدهر
تقاصر عن إدراكه شأو سابق ... وحاول أن يلقاه فانعكس الأمر
فأخره الرحمن للعادل الرضي ... ليعظم في الأعماق منه له الأجر

إن الفتح يعتبر تاريخيا فتحا عظيما لم يستطع المحتلون له دفعا، وقد حاول الملوك قبل سيدي محمد، ذلك، ولكن الله قدر أن يكون على يده، وما ذلك إلا لما امتاز به من عزم وحزم وتدبير محكم.

كيف تدانيك الملوك سماحة ... وعزا وفخرا أو يكون لها خطر
ولم لا تفوق الناس مجدا وسؤددا ... وتعنو إلى أوصافك الأنجم الزهر
وأنت سليل المصطفى سيد الورى ... ومن نداه الجم يغترف البحر
ورثت نداه والسجايا وعدله ... وسيرته في الخلق فاكتمل الفخر
فأصبحت للإسلام طود حمايته ... وغيثا لأهل الأرض إن نالهم فقر

لقد أجمل الشاعر فأحسن وأجاد، فما اسبغه من أوصاف يشهد عليها التاريخ، فليس في عصرسيدي محمد بن عبد الله من يدانيه من ملوك المسلمين، وسيرته في تدبير شؤون الملك قبس من سيرة جده سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. ولا غرابة في ذلك، فهو فرع من أصل طيب أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيرا. وأعماله لصالح المسلمين أمرذائع سارت بذكره الركبان، فقد سعى دوما لفكاك الأسرى المسلمين على اختلاف بلدانهم، وقدم الهدايا للمجازين بالبيت الحرام وأعان حكام المسلمين، وناصر السنة والجماعة، وأحيا ما كاد يندثر من الفضائل، وصدق الشاعر إذ قال:

أدام الرحمن ملكك عزه ... وفخرا إلى الإسلام ما بعده فخر
وخلد رب العرش أمرك في الورى ... به تسعد الدنيا ويبتهج الدهر (11)

ولو تتبعنا هذا الباب من أبواب الشعر في عهد السلطان سيدي محمد لتبين لنا أن هذا الشعر غزير، وتصب معانيه عند مصب واحدمجمعه على ما لهذا العاهل العظيم من فضائل بعيدة الشأو فكان أن متع الله بوجوده البلاد والعباد وكان عهده المجيد جوهرة من جواهر عقد الدولة العلوية

الشريفة. ولو تتبعنا هذا الموضوع وحده لما استطعنا أن نوفيه حقه في هذا البحث الذي توخينا فيه الإيجاز والإشارة الدالة

وننتقل إلى صنف آخر من المديح، وهو ذلك الذي يكون من صديق لآخر أو من طالب لأستاذه، مما يمكن أن نعتبره من المدح الإخواني، ومن ذلك أن العلامة أبا العباس أحمد بن عبد الله الغربي الرباطي، جاء إلى مدينة "آسفي" مع تلميذه الفقيه الهاشمي سكلانط، وكان معهما أبو حفص عمر الفاسي وتلميذه محمد بن طاهر الهواري، فمدحهم محمد ابن عزور الأسفي موجها الخطاب - كما يبدو - إلى أبي العباس الغربي - المذكور - قائلا:

يامرحبابالمنصف	الماجد الخل الصفي
البارع المتصف	بالعلم والود الوفي
فكم وكم من نكت	أودعها في صحف
الناظم الناثر من	للعارفين يقتفي
كمثل شيخنا أبي	العباس خير الخلق
ياله من بدر سما	في أفق بيت الشرف (12)

إلى جانب هذا أورد الشاعر مدحا لمن كان مع أبي العباس من العلماء الاعلام المشارإليهم آنفا، ثم أجاب المادح، العلامة أبو حفص عمر الفاسي فقال:

لله دركم بني آسفي	فنزيلكم يشفى من الأسف
حان الترحل بعد ما ألفت	نفسي بوصلكم فيا أسفي
أخلاقكم كالعطر في نفس	ووجوهكم كالبدر في شرف

وقال أبو عبد الله محمد بن طاهر الهواري:

أهلا بأهل آسفي	من كل خل منصف
أكرم بهم من معشر	حازوا الجمال اليوسفي
سادوا الأنام كرما	فمثلهم لتعرف
إن جئتهم نلت المنى	من غير ما تعرف
أو انتجعت جودهم	فلك ما لم يوصف
بلدتهم طيبة	تقضي بنفي الأسف

وقال الهاشمي سكلانط:

أهـلا بأهـل أسفـــــي الناسخيـــن أسفـــــي
بخلقـــهـ وخلقـهـــم مـن صالـح ومنصـــف
ونوي وداد خـالـــص مـؤصـل مـن سلـــف

ويبدو من هذا الشعر أنه صادر عن طبع وسليقة، وأنه كان ارتجالا، ولهذا دلالته على ثقافة أدباء ذلك العهد، الذين تيسر لهم أن يكتسبوا ثقافة رصينة وقدرة على الإبداع وهذا مظهر جلي للإزدهار الفكري والأدبي.

ومما يدخل في نطاق المدح، المديح النبوي، وهو لون له شأن عظيم، أكثر منه شعراء المغرب لتعلقهم الفائق بالجناب النبوي الشريف، واعتزازهم بالعقيدة وأيمانهم العميق، ومن ذلك هذه الأبيات، لأبي العباس أحمد محمد التلمساني الرباطي المتوفى حوالي سنة 1180هـ.

مـابال قلبي يهيم وجـدا وقد جرى الدمع بانسجام
هل أومض البرق من حنين أم هب ريح من ذي سلام

إلى قوله:

مانعمى قصيدي ولاسليمى لارامـــة إنما المـــرام
من فاق كل الورى جمـــالا وقد محى نـوره الظـلام
مصباح جود وسحب جود وعين مجد فـلا يـــرام

* *

لا يمتري طرف مـن رآه في أنه المرسـل الإمـام
قد أشرق الكون من سناه وضاع طيبا مدى الـدوام
قد وسع العالمين علمـا وحلمـه عـم مـن يـلام
ماغير أخلاقـه نسيـم ولاسوى وصفـه احتشـام (13)

ومهما قيل في الجناب النبوي، فإن القول يقتصر دون مقامه الرفيع، ويضيق المحال للإلمام بمكارمه، والشاعر في ذكره لخصاله وما خصه الله به، استمده الشاعر مما هو ثابت وأجمع عليه كتاب سيرته العطرة، من كرم وحلم، وعلو شأن، وتفضيل الله له على سائر الخلق، وكونه خاتم الأنبياء والرسل، وخصه سبحانه بالشفاعة يوم الحشر وجعله ملجأ كل الناس يوم لا ينفع مال ولا بنون. وهذا الباب بحر زاخر لا سبيل لبلوغ الغاية فيه، فما من شاعر إلا وله فيه نصيب، ولا يقتصر المديح النبوي على الشعر الفصيح بل نجد الشعر الشعبي (الزجل) فيه الكثير بحيث اختلفت ألوانه

فهناك مثلا المولديات وقصائد التشوق إلى مقامه، ومنظومات سيرته، ومعجزاته وشمائله.....

ولعل أعم ما يمكن الخروج به من خلال تتبع الشعر الوجداني في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، أنه استوعب مختلف أبواب هذا الشعر من وصف الطبيعة والعزل والشوق والرثاء، والفخر والمديح النبوي والسلطاني والإخواني. وغير هذا مما يثير العواطف ويهز المشاعر والأحاسيس، كما يلاحظ من الناحية الفنية أنه شعر يمتازبصفة عامة بالبعد عن التصنع والتكلف، إلا ما يلاحظ عند بعض الشعراء من ميل لاعتماد الصور البلاغية بكثرة - أحيانا ومما قد تدعو إليه الصناعة الشعرية من صقل العبارة وأحادة السبك وتخير اللفظ الفصيح مع سهولته، وانتقاء القوافي والأوزان الملائمة للموضوع مما يدل على طول باع الشعراء وحسن درايتهم واستيعابهم للموروث الشعري. ونلاحظ بعض الترخص في اللغة مع العناية بجودة الإيقاع عند الوشاحين.

ب - ***الشعر العقلي أو الحكمي***: وهو النوع الثاني بناء على التقسيم السابق، ويلاحظ أن هذا الشعر ذو طابع موضوعي غالب، طافح بالتوجيهات والحكم والتأملات والدعوة إلى أعمال الفكر في قضايا الحياة، ومصير الإنسان، ولعل شعر الدعوة إلى الزهد والتصوف من الصنف الذي يتأرجح بين النزعة الوجدانية والطابع العقلي، حيث نلاحظ العاطفة المشوبة بصدق المشاعر إلى جانب التوجه العقلي، ونشير - مجرد إشارة - إلى بعض الأمثلة من هذا الشعر نستبين منها خصائصه. ومن ذلك: قول أبي العباس أحمد بن عبد العزيز السجلماسي:

أيها الإنسان هب من كراك ... واصح من السكر الذي اعتراك
إن الرحيل يا أخي قريب ... وكلنا مسافر غريب
والموت لا يفوته عريب ... فكيف لا يزود الأريب
فياله من سفر ما أطوله ... ويالـه من هائل ما أهوله
كفي الحمام واعظا لمن عقل ... فانظر فكم من قاطن قد انتقل (14)

يلاحظ على هذه الأبيات طابع النظم على نمط الأراجيز، وهي تتضمن كما هو واضح - دعوة إلى أن يتأمل الإنسان مصيره الذي لا محالة آيل إليه مهما طال المدى، ولهذا لا مندوحة له من أن يتزود بما يكفل له النجاة.

ونجد أيضا أبا حفص عمر بن عبد الله الفاسي يبدع قصيدة تعتبر من المطولات، ويبدو أنه متأثربلامية العجم للطغرائي من حيث الوزن والروي، ومن حيث الأفكار والمواعظ المتضمنة يقول:

لا تعتبن على دهر تساء به ... فما على الدهر من عتب ومن عذل
واستعن بالله لا يغنيك ما جمعت ... أيدي الأنام، وغير الله لا تسل
وكيف تسأل عبدا لا غناء له ... أن كيف تسأل ذا فقر وذا بخل
ما اعتضت عن بذل ماء الوجه من عوض ... يوما ولو نلت ما ترجوه من أمل
والمال يبذل في الاعراض تالده ... فلا تنله بعرض فيه ،بتذل

وهكذا يستمر عبر القصيدة في سرد الحكم والأمثال والمواعظ، ملتجئا ألى استعمال الغريب والإكثار من ألوان البديع - إلا لماما - مما يدل على وضوح القصد لديه وأتى على إبراز جملة من القيم والفضائل الأخلاقية والسلوكية، من الإباء والتضحية، والصبر، والتواضع والاعتماد على النفس بعد الله تعالى، والسعي الجاد، الإيثار وحب الخير والترفع عن الدنايا والقناعة والتسامح

والماجد الفخم لا ينفك معتقلا
رمح الإباية من سوء ومن خطل
يحمي الذمار ويصمي من يحاربه
ويستقل فلا يلوي على رجل
ملك القناعة لا تنفك إمرته
في ظل عز مديد غير منتقل
فنم به غير مزؤود ولا وجل
ففي القناعة منجاة من الغيل
وإن سئمت أو استوحشت منزلة
فعالج النفس بالترحال والنقل (15)

وهكذا تتوالى نصائح الشاعر على هذا النمط التوجيهي الخالي من التصنع، فما أجدر القصيدة أن تدرج ضمن ما يقدم للنشئ للحفظ والاستظهار والتأمل في مراميها حتى يتزود بهذا الزاد الوفير من الحكم والعبر، وزيادة على ما تمتاز به القصيدة من حسن السبك وجودة النظم مما جعلها جامعة بين الفائدة والمتعة.

ومن الأدباء العلماء العربي المساري المتوفى حوالي سنة 1240هـ ويبدو أنه من الذين تكونوا في عهد السلطان سيدي محمد، وامتد به العمر إلى ما بعد عهده، وله أرجوزة، تعتبر بمثابة سجل يضم توجيهات مختلفة لطلاب العلم في ذلك العصر، وما يجب أن يتحلو به ويسلكوه من نهج لبلوغ القصد، ولشهرتها وأهميتها فقد شرحها العلامة أحمد بن المامون البلغيتي المتوفى سنة 1348هـ

في كتابه "الإبتهاج بنور السراج" وهو مطبوع، وهذه الأرجوزة تم نظمها أيام السلطان سيدي محمد سنة 1185هـ، وعنوانها سراج طلاب العلوم في آداب طلب العلم والتعلم والتعليم، منها قوله:

إن كنت صاح طالبا للعلـــــم فاصبر كما صبر أولو العـزم
اصبر على الجوع وقر البـــرد في وقته إن لـــم تكن ذا بـــر
ولتطلب العلم ولـو بالصـــين بذا أتى الحديث عن يقـــين
وخيره ما كان في حال الصغـر فهو كما قيل كالنقش في الحجر
واعن بحفظ الأمهـات جملـــة ولتهجر المنام واصرم حبلـــه (16)

فهي أقرب إلى الحديث المباشر لولا ما اتخذته من حلة النظم، ولعل الناظم راعى فيها التيسير لتكون في متناول المتعلمين، دون ماحاجة ألى وسيط لتلقينها.

ومما يجب أن نلفت إليه النظر، أن هذا النوع من الشعر إما أن يكون موجها إلى غير معين، كما هو حال ما تقدم من نمادج، وإما أن يقصد به شخص بعينه، فهو بين العوم والخصوص وكمثال على معين مقصود، قول سليمان الحوات- الذي عاش شطرا من حياته في عهد السلطان سيدي محمد، وامتد به العمر إلى عهد مولاي سليمان، إذ توفي سنة 1231هـ - موجها الخطاب إلى أبي عبد الله محمد التاودي بن الطالب ابن سودة المتوفى سنة 1209هـ.

قولوا لشيخكم ابن سودة إنه قرب الرحيل فهل له من زاد
عاش القرون وفاز من أيامـــه بالمـــالوالأولادوالأحفـــاد
حتى إذا وفى الرياسة حقهـا أمسى الحمام لديه بالمرصاد (17)

فقال له ابن سودة: جزاك الله عنا خيرا ذكرتنا يا ابن رسول الله.

ح - ***الشعر التعليمي***: وهو وإن وضعناه من أنواع الشعر فلميزة الوزن التي تتوفر فيه، وهو كما سبق - وجد لنظم قواعد اللغة وكذا القواعد الخاصة بمختلف العلوم تسهيلا لتحصيل مصطلحاتها وقضاياها، كما تجاوز ذلك إلى نظم السير والتراجم والأنساب، وبناء على هذا فهو أضاف حسب الموضوعات، ونأتي على ذكر نمادج منه، مع الإشارة إلى ما يعتبر هاما:

- من منظومات الأنساب، منظومة لعبد الواحد الفاسي المتوفى سنة 1213هـ، وهي بعنوان "إغاثة اللهفان، وسلوة الهموم والأحزان بالقادريين عظام الشأن" يقول في مستهلها:

قال عبيد الواحد الفقيـــــــر فاسـي الدعـاء المذنب الحقيـــر
الحمد للإله شارح الصـــــدور بحب أهل البيت أعيان الصدور
سبحانه جعل أشراف الـــورى أمـام خلقـــه وغيرهـــــــم ورا
ثم الصـــلاة والسلام الفاخـــر على النبـي الحايز المفاخـــــر
والآل والصحب الكرام النجـبا وكل من حوى اليه سببـــــا (18)

ثم بعد هذا الإفتتاح الدال على ورع الناظم وحسن قصده، ذكر منهجه ومبتغاه من النظم، على نحو ما يذكر غالبا في مقدمات المصنفات وما تتضمنه من أبواب وفصول وموضوعات، وهذه المنظومة مطبوعةقرظها سليمان الحوات وغيره.

وللطيب ابن كيران المتوفى سنة 1227هـ، منظومة في الإستعارة والمجاز، شرحها محمد التهامي الفيلالي البوري، وهو من تلاميذ صاحب المنظومة – وقد طبع المتن مع الشرح – يقول في مستهلها:

حمدا لمن ألهمنـا بيانـا يبـين عن أغراضنا تبيانـــا
ثـم صلاته على محمـــد أسـاس كل نعمـة وسـؤدد
منه استعار كل ذي كمال وهـديه المجـاز للمعالـــــي
وآلـــه وصحبه الكـــرام ما استعمل المجاز في الكلام (19)

فقد بدأ الناظم بما هو مألوف في كل مكتوب ذي شأن وهو الحمد للمبدع الخالق سبحانه، ثم الصلاة على نبيه الكريم وآله وصحبه، ولايخفى ما ورد في هذا المطلع من (بيان) مما عرف عند علماء البلاغة ببراعة الإستهلال لما ذكر كلمتي "الإستعارة والمجاز" حيث استعمل فعل :استعار بمعناه اللغوي وكذلك المجاز، ثم استعمل المجاز بالمعنى الاصطلاحي، ولقيمه هذه المنظومة فقد ظلت تتداول في مجالس الدرس وتناولها الدارسون بالشرح بين من فصل أو أجمل وإذا قورنت بالمنظومات البلاغية الأخرى فإنها أفضل وأحسن من حيث سهولة عباراتها وجمعها للقواعد.

ولحمدون بلحاج مقصورة في علم العروض والقوافي (20)، تماثل القصيدة الخزرجية المعروفة أيضا بالقصيدة الرامزة وتماثل منظومة الصبان أيضا. لولا ما في الأخيرة من تعقيد وتصنع زائد ولابن الحاج أيضا نظم السيرة النبوية مع شرحها. (21)

2- النثـــــــــــر

بعد استيفائنا الحديث عن الشعر بأنواعه الثلاثة ننتقل إلى القسم الثاني من الأدب، وهو النثر - كما هو معروف - فإن أبرز خاصية في النثر هي: تحرره من الوزن الرتيب ومن القافية، وإن كان النثر - عموما والفني منه خصوصا - لا يخلو من الإيقاع الناجم عن انسجام أصوات الحروف، وتوازن المقاطع أو الجمل أو الكلمات، ثم إنه أداة للتعبير عن الأفكار بالدرجة الأولى، أما إذا ما اتخذ للإفضاء بالعواطف والمشاعر فهو حينئذ يلابس الشعر ، وهذا ما دعا البعض أن يطلق على هذا الصنف من النثر "النثر الشعري" والنثر لا ينضج إلا إذا أخذ مبدعوه بصبب وافر من الحضارة والرقي الفكري - كما هو معروف في تاريخ الأدب العربي وغيره من آداب الأمم.

ويمكن أن نقسم النثر في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، إلى الأقسام الآتية:

أ- النثر الفني، ويضم:

1- الرسائل السلطانية. 2- الرسائل الإخوانية

3- الرسائل العامة: التي ينشئها الكتاب في قضايا اجتماعية أودينية أوسياسية أو معرفية.

4- الخـــطـــابـــــــــــة.

5- المقامات وتقريظ الكتب.

6- الـــــرحـــــــــــلات.

ب- النثر التأليفي، ويضم:

1- كتابة التراجم والسير والفهارس

2- كتابة التعاليق والشروح (النقد)

3- التأليف في قواعد اللغة.

وقد توسعنا في نظرتنا إلى الأجناس النثرية التي يمكن إدراجها في نطاق الأدب لعدة اعتبارات - كما سبق بيانها-

- أغلب هذه الأجناس النثرية كتبت بأسلوب أدبي وروعيت فيه جودة التركيب وانتقاء المفردات، وقد تكثر فيه الصور البلاغية من تشبيهات واستعارات ومجازات وضروب المحسنات البديعية اللفظية والمعنوية.

– لا تخلو هذه الأجناس النثرية من وجود صلات بينها وبين الشعرأو الأمثال والحكم، أو ذكر للأدباء مع الإقتباس من إنتاجاتهم، وتناولها بالشرح أو التعليق.

ولما كان هذا النثر من الوفرة اللافتة للنظر، فلا مندوحة من توخي الإيجاز، والإكتفاء بالإشارة عن التفصيل، على أن نتناول ذلك في أبحاث أخرى، حيث يمكن أن يكرس كل بحث لجانب خاص.

أ- *النثر الفنـــــي (الإنشائي أو الإبداعي)*

1- *الرسائل السلطانية.*

لا يخفى أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان يوجه الرسائل إلى جهات شتى وفي أغراض مختلفة، فقد تكون هذه الرسائل موجهة إلى عماله أو إلى قواده أو قضاته أو غيرهم من رجال الدولة وموظفيها، وقد تكون موجهة إلى معشر من رعيته، وقد تكون إلى جهات خارجية، إما إلى بعض العلماء أو إلى حكام الدول الإسلامية أو الأجنبية، وهي – بحق – تعتبر وثائق هامة من الناحية التاريخية. ومن الناحية الأدبية. نظرا لقيمتها الفنية.

ومن أمثلة ذلك هذه الفقرة من رسالة لسيدي محمد بن عبد الله لتييد العثمانيين في حروبهم ضد أعدائهم، وهذه الرسالة تدل على مدى غيرة السلطان على الدولة وتضامنه مع قاداتها ومن جهة أخرى تدل أيضا على نمط الكتابة الرائج وقتذاك، وما فيه من خصائص فنية من اختيار التعابير وتناسب التراكيب، وبعد عن التكلف واعتماد على الشواهد المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. يقول السلطان في رسالته: " الحمد لله، كتابنا هذا أسماه الله يتعرف منه أننا ورد علينا كتاب من عند أخينا السلطان عبد الحميد خان نصره الله، وكبراء دولته، أخبرنا فيه أن ثلاثة أجناس من أجناس النصارى – دمرهم الله – اتفقوا على محاربة المسلمين – خيب الله سعيهم، وشتت شملهم، وجعل تدبيرهم بجاه المصطفى صلى الله عليه وسلم، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين – وأعلمونا بما هم عليه من التهيئ لمحاربتهم ومقاتلتهم، وطلبوا منا أن نمدهم بسلاح الأدعية، وسهام التوجه في نصرة المسلمين وإعانتهم، وتدمير الكفرة وكسرشوكتهم ونحن متوجهون إلى الله تعالى بالدعاء لهم في أهم الأوقات، ومواطن الإجابات، فنأمركم أن تكونوا أنتم كذلك مجتهدين في الدعوات معلنين بها في المساجد عقب الصلوات ليعلم ذلك جميع الناس فيبتهلوا إلى الله تعالى في نصرة المؤمنين (22) ....." إلى آخر ما ورد في هذه الرسالة السلطانية معززا بالإستشهـــاد بالقرآن الكريم وبالحديث النبوي الشريف، مؤكدا على أن التعـــاون بين المسلمين أمر

تفرضه الشريعة، وتدعو إليه ضرورة معاشهم، ولم يكتف السلطان بذلك بل أرسل أموالا طائلة إلى العثمانيين كما زودهم بالعتاد الحربي.

وفيما يلي مقطع من رسالة وجهها السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى ملك إسبانيا كارلوس الثالث، ومعروف أن العلاقات مع إسبانيا كانت تتوتر أحيانا ثم تعود إلى الإنفراج، مما جاء في الرسالة: "إلى عظيم إسبانيا. السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنكم تعلمون أننا نعيش في سلم وأمان معكم منذ أن وقعنا وإياكم معاهد الصلح لكن المسلمين من رعايانا ورعايا داي الجزائر اتفق رأيهم جميعا على أن يبلغوكم أنهم ضد الإحتلال الإسباني لسواحلهم من سبتة إلى وهران، وأنهم عقدوا العزم على استرجاع ثغورهم، وطلبوا مني أن أفكر جديا في الأمر (23) ....."

إلى آخر ما ورد في الرسالة التي تعتبر استخبارا لإرادة الحاكم الإسباني لمعرفة موقفه قبل اتخاذ أي إجراء من الحكومة المغربية نظرا لما تقتضيه المعاهد التي بين المغرب وإسبانيا. ويتبين من الرسالة أن أسلوبها معبر بوضوح عن القصد، دون تنسيق أسلوبي تجنبا لأي لبس أو تأويل، ومن الملاحظ أن الرسائل الموجهة إلى الدول الأجنبية يغلب عليها هذا الوصف وتنحو هذا المنحى.

2- *الرسائل الإخوانية*:

وهي الرسائل التي تتبادل بين طرفين في مختلف الأغراض إما لتهنئة أو مواساة، أو حمل بشرى، أو طلب إعارة كتاب أو إظهار إعجاب بإنجاز ما أو شكر على معروف أو سعي إلى مشورة في شأن من شؤون الحياة أو قضية من قضايا المعرفة، إلى غير هذا مما يجرى بين الناس.

ومن رسالة للعربي المساري، موجهة إلى العلامة عبد الواحد الفاسي قوله:

"إلى الهمام الذي احيا رسم الأدب بعد اندثاره ونظم عقد جواهره بعد انتثاره، البحر الزاخر، والذي أرانا سبق الأواخر، الجامع بين جزالة المبنى، ورشاقة الألفاظ والمعنى حتى حير العقول ببديع سحره، وأعجز الفحول ببباهر نظمه، ونثره، ونزه الألباب في الألفاظ المهذبة، والمعاني الدقيقة المستعذبة، الذي ببدائع وشي طرازه تتزخرف المفاحل، وبمديحه في الآفاق سارت الرفاق والقوافل، الذي جر ذيول النسيان، على كل ذي فصاحة وبيان (24) ....."

من خلال هذا المقطع يتضح مدى التنميق الأسلوبي الذي يأخذ به الكتاب، ويتجلى ذلك في استعمال الصور البلاغية من استعارات وتشبيهات، وسجع وترادف، وتتابع الأوصاف - كما هو الأمر هنا ولهذا المسلك دلالته، إذ يستشف منه تمكن الكاتب من اللغة وقدرته على صوغ التراكيب بكيفية بارعة. إذ بذلك كانت تقاس كفاءة الأديب في جانب من جوانبها، ولكل عصر مقاييسه الفنية.

ويبدو طول مطلع الرسالة قبل أن يخلص الكاتب إلى غرضه الذي لا بد من التمهيد له بهذه الديباجة المسهبة.

وفي ما يلي مقطع آخر من رسالة الأديب محمد الطيب سكيرج المتوفى سنة 1194هـ. بعث بالرسالة إلى ابن أخته أحمد بن العربي العراقي الفاسي، يقول: "أجل من تحلى بأكرم الأخلاق، وأكمل من شرفت منه الأوصاف والأعراق، الحال مني محل سويداء أماقي، أبو العباس أحمد ابن العراقي، لازالت في خفض عيش ناعم، مادام ثغر الرياض عن عرف أزهاره باسم، وعليك مني تحية يفوق شذا النسرين طيبها، مستوفى من عبير العنبر نصيبها، مشغوفا ببركات يملأ الخافقين نورها وتتوج محاسن الدهر سطورها.

هذا وقد طار الفؤاد للقياك، وطمحت نار التشوق لاستطلاع محياك، والإستمتاع برؤياك، إذ كنت مني محل الزند للساعد. كيف، وفيك الغنية عن الأقارب والأباعد، أبقاك الله محفوظ الجنان، متبعا سبيل من أناب (25) ....."

يتبين من النص أن الكاتب اتخذ السجع عمدة أسلوبه، ومزج معانيه بالطبيعة وبمشاعره الفياضة متخيرا اللفظ السهل مع صحة التأليف، كما أورد استعارات بديعة"ثغر الرياض باسم..." "..طار الفؤاد....وطمحت نار الشوق...." وكذلك التشبيه "كنت.....الزند للساعد...."

وهذا الطابع المعتمد على النثر المسجوع هو الغالب على الكتاب خصوصا في الموضوعات المعبرة عن التجارب الذاتية والمشاعر الخاصة، مما يقرب النثر من الشعر، ويصح أحيانا - أن ينعت بأنه "نثر شعري" ونجد علاوة على هذا -نمطا يغلب عليه اظهار الورع والتواضع مع العناية باختيار اللفظ السهل والمحافظة على رونق الأسلوب، ومن ذلك مثلا هذا المقطع من رسالة كتبها العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمدالرهوني المتوفى سنة 1230هـ، يطلب الإجازة من العلامة التاودي ابن سودة المتوفى سنة 1209هـ. يقول: بعد التحية: "...فليتفضل سيدنا وسندنا، ووسيلتنا إلى ربنا، الخبر الهام، ذو الثبات والرسوخ، شيخ الشيوخ، الجهابذة الأعلام، الذي ألقت اليه العلوم كل زمام، فالناس له تابعون وبه مؤتمون وهو الإمام، أبو عبد الله سيدي محمد التودي ابن سودة المري، لازال الكريم بنفائس المعارف إليه يقري، بالإجازة لهذا العبد الضعيف،الذي قطع عمره في البطالة والتسويف، محمد بن أحمد بن يوسف الحاج الرهوني، وهو وإن لم يكن لذلك أهلا - فاقبلوه منا منكم وفضلا، كي تهب عليه نفحاتكم العظمى، ويستوجب بذلك من الله مزيد الرحمى، ويرتفع بالإسناد إليكم قدر هذا الخسيس، وكيف لا - وأنتم القوم لا يشقى بكم الجليس، أجازكم الكريم

بأنفس ما أجاز به وفده المقربين، وأطال بكم النفع للخاصة والعامة من المسلمين، بجاه سيد الأولين والآخرين (26) ....."

ويبدو أن هذا النموذج وإن وافق ماسبق - من حيث الإعتماد على السجع، ولكن يخالفه من حيث توجهه وقصده لأن المعاني والأسلوب بحسب المقام ومقتضى الحال.

3- الخطب والرسائل العامة وتقريظ الكتب

وهذه الأنواع النثرية كانت رائجة في الأغراض التي كانت تستوجبها وتستدعيها المناسبات الطارئة، ولا يتسع المجال لإيراد نماذج لكل نوع، ونكتفي بالإشارة إلى بعض منها: رسائل لأحمد بن المهدي الغزال - متقدم الذكر وخطب لأبي مدين الفاسي المتوفى سنة 1181هـ. وقد وردت خطبه على هامش خطب الرهوني، في سفر مطبوع. ووقف وقفة قصيرة على مقتطف من تقريظ عبد القادر ابن شقرون لمنظومة عبد الواحد الفاسي "إغاثة اللهفان"، مؤرخ بأوائل ربيع النبوي سنة 1203هـ. يقول فيه:

"حمدا لمن رفع منار آل بيت الرسول وأنال القائم بحقهم - وأناله - غاية السول الصلاة والسلام على من به سادوا الناس، وفاقوا سائر الأنواع والأجناس، هذا - وإن الفاضل النبيل الذي تقادم له الشرف جيلا بعد جيل، المتحلي من المكارم بأعلاها والمنتقي منها أنفسها وأغلاها، والحائز فيها قصب السباق، من غير دفاع ولا شقاق المشارك في العلوم متقولا ومعقولا وأصولا، المحيط عن من أمه من الطلبة جلباب الافلاس، أبي المكارم سيدي عبد الواحد بن سيدي محمد بن أحمد نخبة بني الفاس،لا زال بحره فياظا، شافيا من أدواء الجهل قلوبا مراضا، أطلعني على نظم فائق عذب رائق، يستصبي الحليم، ويعترف بجلالته العليم، سلس العبارة لطيف الرمز والإشارة، ذلك فيه الشرود، وأدنى القاضي البعود (27) ....."

إلى آخر ما أورده الكاتب من مظاهر الإشادة والإكبار لهذه المنظومة. ويتبين لنا أن هذا الجنس من الكتابة لا يتأتى أن يسلك في نطاق النثر التأليفي، لأنه تعبير ذاتي، ومدى إعجاب الكاتب بصنع الناظم، فهو من أدب حسن اللياقة والمجاملة. وليس للتقويم والمواجهة. وفحص العمل الأدبي فحصا موضوعيا لاستجلاء ما يتسم به من خصائص فنية وقضايا معنوية، وما فيه من أجادة أو نقص، وهذه المزاولة من صميم النقد الأدبي.

ومن الناحية البنائية يتجلى لنا أن التقريظ يتكون من مطلع ترد فيه الحمدلة والتصلية، وغالبا ما يتضمن إشارة، كما الحال هنا - إلى موضوع الكتاب من باب براعة الاستهلال، ثم الإشادة

بصاحب العمل ثم العمل نفسه وماله من مزايا في نظر صاحب التقريظ متجنبا أية إساءة، وقد يتضمن أبياتا من الشعر له أو مقتبسة من غيره - مناسبة للمقام، وأخيرا يذكر الكاتب إسمه وتاريخ تحرير التقريظ، مع الدعاء، وقد يكون التقريظ شعرا.

وهذا النوع من الكتابة كان رائجا لأنه من مظاهر المودة والإخاءوتوطيد المحبة، ومن أجل التشجيع.

4- الرحـــــــلات: عرف الأدب المغربي قدرا وافرا من أدب الرحلات منذ العصر المريني - خاصة - ويمتاز فن الرحلة بكونه فنا أدبيا تتمازج وتعدد فيه الأنواع الأدبية فقد تضم الرحلة الرسائل والتراجم، والأشعار.... ولكن يعتبر النثر المعتمد على السرد والوصف هو صلبها والغالب عليها وقد تنوعت أصناف الرحلات بالنظر إلى موضوعها، والحافز لكتابتها، فقد تكون لأجل التجوال والسياحة أو طلب العلم أو الحج إلى بيت الله الحرام وقبر الرسول الكريم، وزيارة بيت المقدس، أو القيام بمهام السفارة بصفة رسمية، بمعنى أنها قد تكون لغرض أو لعدة أغراض. فأكثر الرحلات هي رحلات للسياحة تنتهي إلى أداء فريضة الحج. وأما رحلات القيام بالسفارة فهي أقل، فمن الرحلات الحجازية:

- رحلة أبي العباس أحمد بن محمد الفاسي المتوفى سنة 1213هـ أو سنة 1214هـ. وهي حافلة بتفاصيل عن أحوال البلدان التي زارها، وتدل على قوة ملاحظته، كما تمتاز بأسلوب واضح. والرحلة مازالت مخطوطة.(28)

- رحلتان لمحمد بن عبد السلام ابن ناصر المتوفى سنة 1239 إحداهما كبرى، وضعها في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله سنة 1196هـ وهي مخطوطة.(29) والثانية كتبت بعد الأولى، ومن جملة ماتتضمنه قصيدة نظمها أمير تونس حمودة باشا مدح بها السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وقصيدة أخرى للمرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس وهو شرح للقاموس المحيط، والقصيدة في رثاء السلطان سيدي محمد وهذا يدل على مدى التقدير والإكبار، وكان يحظى بهما السلطان لدى العلماء في البلدان الإسلامية وأمرائها. كيف لا وله من المواقف المشرفة ماسارت بذكره الركبان، ولا تبلى بتعاقب الملوان، ومن ذلك ما ذكره المؤرخ الناصري، فقد صافر السلطان الشريف سرور أمير مكة، فزوجه السلطان سيدي محمد بإحدى بناته، وأرسل مع ركبها جوائز وهدايا عظيمة القدر والمقدار إلى أمير طرابلس وأمير مصر والشام وإلى أهل الحرمين وإلى أشراف الحجاز واليمن وإلى العلماء(30)

ومن الرحلات السفارية: رحلة لأبي العباس أحمد ابن المهدي الغزال المتوفى سنة1191هـ وهي المعروفة باسم: "نتيجة الإجتهاد في المهادنة والجهاد" وقد سجلها الكاتب إثر المهمة السفارية التي قام بها إلى إسبانيا موفدا من قبل السلطان سيدي محمد بن عبد الله من أجل تبادل الأسرى وفيها تناول وصف مشاهداته وسرد تحركاته وذكر أحوال تواصله وترابط أجزائه، وطرائقه في التقديم والتأخير والالحاق والتسويف، مما نجد له نظيرا عند الكتاب المعاصرين من القصاصين والروائيين، ومن حيث الوصف نلاحظ شموليته وشدة تحريه لذكر دقائق الموصوف وأجزائه. ولهذا تعتبر هذه الرحلة أثرا أدبيا نفيسا، ووثيقة تاريخية بالغة الأهمية، وقد امتدت زمانيا ثمانية أشهر.

ولأهمية هذه الرحلة الرائعة فهي في حاجة إلى دراسة خاصة تستجلي براعتها ومضامينها وأسلوبها. وسبق مقطع منها (31).

- نجد أيضا ثلاث رحلات لأبي عبد الله محمد بن عبد الوهاب المعروف بمحمد ابن عثمان المكناسي، المتوفى سنة 1213هـ تولى مناصب مختلفة في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، فقد كان كاتبا للسلطان وحاكما لمدينة تطوان، وقام بمهام السفارة وقد أتاح له المنصب أن يكتب ثلاث رحلات: إحداهما بعنوان: "الإكسير في فكاك الأسير" تناول فيها مشاهداته، ونتائج سفارته من قبل السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى ملك إسبانيا كارلوس الثالث سنة 1193هـ وكان الغرض من السفارة إطلاق سراح الأسرى الجزائريين لدى إسبانيا.

وهذا يظهر مرة أخرى - بصورة واضحة مدى غيرة السلطان الدينية والإنسانية، ورعاية حرمة الجوار، ومن ناحية أخرى تجديد المعاهدة مع إسبانيا لإقرارالسلم ومنع الإعتداء، وتمتاز هذه الرحلة بسلاسة أسلوبها لبعدها عن التكلف ولاعتمادها على النثر المرسل غالبا مع الحرص على تتبع الموصوف وترابط السرد ودقة في إيراد المعلومات، دون استطراد، ويتضح ذلك من الفقرة الآتية، في وصف مدينة مدريد:

"هذه المدينة كبيرة غاية في الكبر وضخامة البناء، حاضرة الحواضر ببلاد أصبانية، وبنى على ربوة، وبابها وادي مانسنارس، زادها حسنا وبهاء، وبهجة وسناء، وغرسوا على جانب الوادي الذي من ناحية المدينة أشجارا كثيرة (32)..."

أما الرحلة الثانية للكاتب نفسه، فكان الباعث على القيام بها الإضطلاع بمهمة مماثلة للسابقة في مالطة وناپلي لإطلاق سراح الأسرى المسلمين دون تمييز، وكان ذلك سنة 1196هـ. وكتب ما يتعلق بها تحت عنوان:

"البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسرى من يد العدو الكافر" ويلاحظ أنه طرأ تغيير على أسلوب الكاتب نوعا ما إذ حلاها بألوان من الصنعة البديعية مع استعمال الفاظ دخيلة، وتمتاز أيضا بدقة الوصف وتتبع تفاصيل الموصوف، وهذه خاصية عامة، وفيما يأتي مقطع نستشف منه تلك الخصائص حيث يتحدث عن وصوله مع مرافقيه إلى مرسى بلرم وما حدث لهم في طريقهم:

:...فقصدنا مراسي صقلية يقال لها بلرم، سافرنا إليها يوما وليلة وأرسينا بها وحللنا في جنابها. فلما أرسينا بالمخاطف، وأمن الوجل الخائف، تهادينا بشرى السلامة، وعددنا النجاة من تلك الأهوال كرامة، فأتت إلينا الفلايك من المدينة تستفهم رئيس المركب - على العادة - فأخبرهم بأنه من الجنس الفلاني حاملا بشطور المسلمين، فرجعوا إلى كبير البلد في الحين، ثم أقبلوا إلينا في الحين مع جماعة من الأعيان فرحين، وقالوا: الحمد لله الذي أقدمك علينا وأتى بك إلينا، ثم ترادفت أعيان البلد للسلام علينا في المراكب يتزاحمون بالمناكب[33]....".

في هذا المقطع القصير تتبين لنا كيفية وصفه لمراسم الإستقبال والتقدير الذي ناله السفير وصحبه نظرا لما للسلطان سيدي محمد بن عبد الله من مكانة مرموقة لدى مختلف الدول المعاصرة له والهيبة التي يحظى بها.

أما الرحلة الثالثة للكاتب نفسه، فلها ميزةخاصة إذ تعتبر رحلة سفارية وحجازية، تناول فيها ما باشره من أعمال، وما وقع تحت بصره من مشاهد أثناء سفارته إلى القسطنطينية، لدى السلطان عبد الحميد الثالث، من أجل ما أحدثه الجنود الأتراك من اضطراب على الحدود المغربية الجزائرية، وبعد أن أدى مهمته على الوجه المقصود توجه إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج، والتبرك بقبر الرسول، وزيارة القدس والخليل، والرحلة بعنوان: "إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس والخليل والتبرك بقبر الحبيب[34]". وهي مخطوطة.

وهذه النماذج من الرحلات فضلا عن قيمتها الأدبية، لها قيمة تاريخية،لما تلقيه من أضواء كاشفة على ذلك العصر، وخصوصا ما يتعلق بالأقطار الأوربية والإسلامية والمعاهدات القائمة بين المغرب وغيره من الدول، مماقد لا نجد له نظيرا في مظان أخرى.

ب - النشر التاليفي.

1- كتابة التراجم والسير والفهارس

نكتفي هنا بما هو موجود فعلا، أما ما يعتبر مفقودا أو ضائعا مع ورود الإشارة إليه في المصادر المختلفة، فقد أغفلنا ذكره.

- فهرس لعبد الرحمن بن إدريس المنجرة المتوفى سنة 1179هـ.(35)

- فهرس لمحمد بن الطيب القادري، ويعتبر تلخيصا لما أورده في آخر كتابه التقاط الدرر، وهويسلك فيما يعرف بالتراجم الذاتية. وعلاوة على كتابة في التراجم الغيرية "التقاط الدرر" له في الموضوع نفسه "نشر المثاني" وله أيضا " الزهر الباسم في مناقب سيدي الشيخ قاسم(36) " وله أيضا: " الإكليل والتاج(37) " ويعتبر ذيلا "لكفاية المحتاج" وهذا الكتاب لأحمد بابا السوداني، وهو بدوره استدراك على كتاب ابن فرحون المعروف بالديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب (أي مذهب الإمام مالك بن أنس) ومن باب الإستطراد القول بأن أحد العلماء المشارقة من المتأخرين وهو محمد بشير بن ظافر المتوفى سنة 1909، وضع ذيلا لكتاب أحمد بابا أورد فيه تراجم العلماء إلى زمانه وسماه. "اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة"

- ولأبي القاسم بن سعيد المكناسي المعروف بالعميري فهرس يمتاز بما ورد فيه من نصوص وتسجيلات عن عصره(38).

- ومن كتب المناقب كتاب "النور الشامل في مناقب فحل الرجال الكامل" يتناول فيه خصائص الشيخ محمد بن عيسى السباعي الحسني، دفين مكناس، والكتاب من وضع أحمد بن المهدي العزال-متقدم الذكر - (الكتاب مطبوع).

- ولمحمد المعطي الشرقي المتوفى سنة 1180 سيرة نبوية موسعة تقع في ستين جزءا(39). وتدل دلالة واضحة على شمولية اطلاع الكاتب على كتب السيرة النبوية.

2- كتابة الشروح والتعاليق واختيار النصوص

- من الإنجازات التي تسلك في هذا النطاق كتابان لأبي مدين محمد بن أحمد الفاسي المتوفى سنة 1181هـ. أحدهما بعنوان: "تحفة الأريب ونزهة اللبيب"(40) استهله بمقدمة ثم أتى بمجموعة مختارة من الأمثال مرتبة ترتيبا معجميا مع بعض التعليقات التي بدت له ضرورية أو تيسير استجلاء المقصود، والآخر هو: "مجموع الظرف وجامع الطرف"(41). فقسمه إلى فصول، تناول

في كل فصل موضوعا يورد فيه ماينا سبه من نوادر، ومن ذلك - مثلا - فصل عن الشجاعة وآخر عن الكرم...

ومن المصنفات التي جمعت بين اختيار النصوص وتراجم الشعراء وغيرهم، كتاب: "الكوكب الثاقب في أخبار الشعراء وغيرهم من نوي المناقب"[42]. وهو لعبد القادر بن عبد الرحمن السلوي، ويعرف أيضا بالفاسي، وهو من الذين حققوا التواصل الثقافي بين المغرب وتونس، إذ انتقل إلى ذلك القطر ومكث فيه مدة كان خلالها على صلة بحكامه، ثم نجده يأوي إلى كنف السلطان سيدي محمد بن عبد الله، بين 1176هـ و 1180هـ. بين في مفتتح الكتاب مدى ارتباطه بالأدب وعكوفه على تحصيله، وأورد المصادر التي اعتمدها مثل الكامل للمبرد، والأغاني لأبي الفرج، وبهجة المجالس لأبي عبد البر الأندلسي، والصيب والجهام لابن الخطيب، وبهذا نراه قد جمع بين المصادر المشرقية والأندلسية، وقسم الكتاب إلى مقدمة وعشرة أبواب. بين في المقدمة أن الأدب منه ما هو غريزي، وما هو مكتسب بالدرس والممارسة، وفي الباب الأول خصصه لطبقات الشعراء، وما هو مأثور عن تعلم الشعر وتعليمه، وفي الثاني أورد مقتطفات من أشعارهم، وما قد تكون له صلة بتلك الأشعار وبالشاعر مما يلقي بعض الأضواء على مناسبات الاشعار، وفي الثالث إلى السابع أتى على ذكر ما يرتبط بالصفات المحمودة والمذمومة كالشجاعة والجبن والجود والبخل والسفه والحلم، وفي الثامن والتاسع اثبت جملة من اخبار الجاهلية وملوك بني أمية وبني العباس وختم بإرشادات ومواعظ.

وللكاتب نفسه مصنف نفيس سماه : إدراك الأماني من كتاب الأغاني[43]. وكان وضعه باشارة من السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وحدد للكاتب الخطة التي عليه أن يسير عليها، بحيث يعيد ترتيب التراجم مع إضافة نصوص شعرية للمحدثين، ومباشرة العمل ببصيرة وتثبت لتحقيق النصوص وتصحيحها، وقد أخرج الكاتب عمله في خمسة وعشرين جزءا. ومعلوم أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان على بينة عميقة، ومعرفة دقيقة بما في كتاب الأغاني لأبي الفرج، من مضامين، وما فيه من ثغرات، وما يعترض القارئ من صعوبات، والزياني يذكر مدى حذقه وسعة مداركه حيث يقول: "وكان رحمه الله نسابة اخباريا حافظا لأيام العرب ووقائعها، حافظا للسير والحديث، لايجارى ولا يبارى..."[44] إلى آخر القولة حيث أكد أنه كاد أن يحفظ ما في كتاب الأغاني.

3- شرح المنظومات التعليمية.

- لأبي مدين محمد بن أحمد الفاسي - متقدم الذكر - شرح لمنظومة مطولة للشريشي[45]، ويدل هذا الشرح على تمكن وعمق معرفة بدقائق اللغة وأسرار أساليبها والقصيدة ذات مرمى تعليمي عقلي، لما تختزنه من توجيهات وتأملات وعبر، وهي جديرة بالتداول والدراسة لمنحاها الصوفي.

- لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام الفاسي المتوفى سنة 1214هـ شرح على لامية الأفعال لابن مالك (ومعلوم أن لبدر الدين بن مالك شرحا عليها وهو مطبوع متداول)

وهناك شروح لمنظومات الفقه أو في القراءات القرآنية أو في مصطلح الحديث، ويمكن ذكر بعضها على سبيل المثال نظرا لما يمكن أن يلاحظ من صلتها بالأدب بالمعنى العام من الجانب اللغوي، ومنها:

- شرح عبد الرحمن بن إدريس المنجرة المتوفى سنة 1179هـ لدالية أبي عبد الله محمد بن مبارك السجلماسي[46] (في القراءات)

- لمحمد بن الطيب القادري، شرح لمنظومة ابن عاشر أسماه "المورد المعين في شرح المرشد المعين"[47].

- لأبي حفص عمر بن عبد الله الفاسي المتوفى سنة 1188هـ شرح لمنظومة ابن فرج الإشبيلي في مصطلح الحديث، وشرح لمنظومة ابن عاصم، وآخر للامية الزقاق[48].

4- التأليف في قواعد اللغة

لا يخفى أن التأليف في قواعد اللغة دلالة على العناية بها والإجتهاد فيما يقر بها ويُمَكِّن لها، وكل نهضة أدبية تقتضي ذلك لما بين الإبداع والتأليف وبين قواعد اللغة من ارتباط وثيق ولهذا فقد جاءت تآليف وتعاليق وشروح لقواعد اللغة سبقت الإشارة إلى بعض الإنجازات في إطار نظم القواعد وفي شروح بعض المنظومات في الموضوع، ونتناول بالإشارة هنا ما ألف نثرا ومن ذلك:

- دراسة لشواهد كتاب: التلخيص للخطيب القزويني وضعها محمد بن الطيب القادري - سالف الذكر، وسماها "مواهب التخصيص وفوائد التلخيص في شرح ما انبهم من شواهد التلخيص"[49].

- وضع رسالة في "لو" الشرطية[50] لأبي عبد الله محمد الطيب ابن كيران متقدم الذكر - وله أيضا تعليقات على شرح ألفية ابن مالك[51]

- ولأبي الفيض حمدون بن الحاج المتوفى سنة 1234هـ حاشية على مختصر التفتازاني، وهو شرح التلخيص المفتاح للقزويني في علوم البلاغة، ومعروف أن ابن الحاج من الذين داع صيتهم في عهد مولاي سليمان، ولكن عاش مدة تكوينه الثقافي وبداية عطائه في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وكان من بين علماء مجلسه المنيف.(52)

ومما يتصل أيضا بالتأليف اللغوي شرح خطبة القاموس للفيروز آبادي، والشرح لأبي العباس أحمد السجلماسي متقدم الذكر - وسماه " فتح القدوس في شرح خطبة القاموس وله أيضا أضاءة الأدموس ورياضة الشموس من اصطلاح صاحب القاموس".

تلك إشارات للإنتاج الأدبي الزاخر في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، بأنواعه الشعرية والنثرية وما يتصل بها من قواعد وشروح وتراجم، ويتضح مدى تنوع هذا الإنتاج وغزارته، مع أننا اكتفينا بنماذج وأمثلة منه فقط، وتوخينا الإيجاز لأن الغرض متصرف في هذا البحث لتقديم تصور وصفي عام، وليس موجها للإستقصاء والتتبع الدقيق، أوتحليل هذا الإنتاج وتقويمه، ويكفي أننا أدركنا وأثبتنا أنه إنتاج كثير ومتنوع فيه مظاهر الإتباع والإبتكار والتجاوب مع واقع العصر وظروفه العامة.

الهـــوامـــش

1- الملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله للحسن العبادي، مؤسسة بنشرة. الدارالبيضاء.دون تاريخ،ص: (220)

2 - الإستقصاء لأحمد الناصري دار الكتاب الدارالبيضاء دون تاريخ ج 8. ص:66-

3- الترجمانة الكبرى لأبي القاسم الزياني تحقيق عبد الكريم الفيلالي، نشر وزارة الأنباء المغرب 1967 ص63

4 - المرجع رقم 1 ص: 67

5- مجالس الإنبساط لمحمد بن علي دنية - مطبعة الإتقان الرباط - 1986 ص:124 قارن بالمرجع رقم 1 ص 67 ، 68

6- نتيجة الإجتهاد في المهادنة والجهاد لأحمد بن المهدي الغزال. تحقيق إسماعي العربي. دار الغرب الإسلامي - بيروت 1980. ص 229.

7- المرجع السابق ص:45. وكذلك الاكسير في فكاك الأسير لابن عثمان المكناسي.تحقيق محمد الفاسي نشر المركز الجامعي للبحث العلمي - الرباط. 1965

8- الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية. لمحمد الأخضر. دار الرشاد الحديثة - الدار البيضاء. ط. 1 . 1977 ص: 281 - 384.

9- الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى لمحمد بن تاويت دار الثقافة الدارالبيضاء ط. 1 ج 3 - ص: 868

10- المرجع السابق ص:866 . 867.

11- مجلة دعوة الحق العدد الثالث لسنة 1970تصدرها وزارة الأوقاف في المغرب ص:184 ، 186.

12- مجالس الإنبساط - مرجع سابق - ص:106 ، 107.

13- المرجع السابق. ص: 109 ، 110.

14- النبوغ المغربي في الأدب العربي لعبد االله :كنون. مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت ط 2 - 1961 ص: 820.

15- المرجع السابق. ص: 830.

16- المنتخبات العبقرية لمحمد السائح - المطبعة الرسمية الرباط -1920 ص: 80 والإبتهاج بنور السراج لأحمد بن المامون البلغيثي طبعة محمد أفندي مصطفى مصر - القاهرة - 1901. ج 1 - 2

17- فهرس الفهارس للكتاني ج 1 - ص 187

18- إغاثة اللهفان وسلوة الهموم والأحزان بالقادريين عظام الشان. لعبد الواحد الفاسي - مطبعة الشريف بتونس. ص: 3.

19- شرح العلامة البوري على منظومة الشيخ الطيب في الاستعارة والمجاز. مطبعة الحسيمة. ط 3 طنجة سنة 1980 ص: 7، 8

20- مخطوط الخزانة العامة (خ . ع) رقم 938د. ضمن مجموع.

21 - المرجع رقم: 8. ص:353 .

22- مجلة دعوة الحق. عدد مارس 1969. ص: 24

23- مجلة البحث العلمي. يصدرها المركز الجامعي للبحث العلمي. الرباط لعدد:39ص:22.

24- المرجع رقم 16. ص: 79.

25- المرجع رقم 9 ص:864.

26- اتحاف اعلام الناس بجمال حاضرة مكناس. لعبد الرحمن ابن زيدان. المطبعة الوطنية. الرباط. ج 4 ص: 185

27- المرجع رقم 18. ص:22، 23.

28- مخطوط خ.ع. رقم:88 ج أنظر دعوة الحق العددالرابع للسنة الثانية - 1959 ص:24 ، 25 ، وما يوجد مخطوطا لا يضم إلا بعض النصوص من الرحلة.

29- مخطوط الخزانة الحسنية رقم 5658.

30- المرجع رقم 2 ص: 34.

31- المرجع رقم 6- الملاحظ أن المحقق وقع في وهم أو خطأ في عدة مواطن من الكتاب المحقق. من ذلك أنه وضع إسم السلطان المنعم، مولاي عبد الله بن إسماعيل. في مكان اسم السلطان سيدي محمد بن عبد الله في ص: 7 وفي ص: 8 وص:10 وفي ص:11 وص:12 في موضعين. كما أن إسم مؤلف الكتاب أحمد بن المهدي العزال يتصرف فيه فمرة ابن العزال ومرة أحمد بن العزال ومرة أبا العباس العزال، ومرة محمد بن المهدي العزال. ص:8، 9، 11، 13، 14، 15، 16، 17.

32- الاكسير في فكاك الأسير. لمحمد ابن عثمان المكناسي. تحقيق محمد الفاسي المركز الجامعي للبحث العلمي - الرباط .1965 ص:83

33- مخطوط خ.ع. ح52 أنظر تحليلا لها، بمجلة المناهل تصدرها وزارة الشؤون الثقافية المغرب العدد 10.

34- مخطوط خ.ح رقم 5264.

35- مخطوط خ.ع. رقم:2244.ك

36- مخطوط خ.ع رقم: 1778. أنظر التقاط الدرر للقادري ط 1. - 1981ص: 168من مقدمة التحقيق.

37- مخطوط الخزانة الحسنية رقم 1897.

38- مخطوط خ.ع. نسخة رقم 1631ك.

39- مخطوط خ.ع. 2757ك، 2758ك، 2759 ك.

40- مخطوط خ.ع. رقم:590د.

41- مخطوط خ.ع . رقم 1717ك.

42- مخطوط خ.ح. رقم: 925.

43- مخطوط خ.ح. رقم: 2706. أنظر موضوع البحاثة محمد المنوني. بمجلة دعوة الحق عدد مارس 1973 ص: 84 وما بعدها.

44-المرجع رقم: 3 ص:63.

45- مخطوط خ.ع. رقم: 930ك ضمن مجموع.

46- مخطوط خ.ع. رقم :379د ضمن مجموع.

47- مخطوط. خ.ع. رقم 605. أنظر مقدمة تحقيق التقاط الدرر، لهاشم العلوي القاسمي ص:161.

48- الحياة الأدبية في المغرب المرجع رقم: 8 ص:307.

49- مخطوط الخزانة. ع. رقم: 1729.

50- مخطوط خ.ع. رقم: 938د.

51- مخطوط خ.ع. رقم: 1673.

52- المرجع رقم: 8 ص: 274.

كتاب "زهر الأكم في الأمثال والحكم" لأبي علي الحسن اليوسي (1040-1102) نموذجا للحركة العلمية على عهد الدولة العلوية

مصطفى السـلاوي
كليـة الآداب. وجـدة

مقدمـة:

لا يمكن الوقوف عند معالم الحياة العلمية على عهد الدولة العلوية دون الحديث عن واحد من أقطابها: بل هو العالم المبرز من رجالها: أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي (1040-1102هـ/1630-1692م)، خريج الدلائيين وشيخهم بدون منازع. ولم يكن اليوسي ليبلغ ما بلغه، هو وغيره من علماء المغرب، من الإستواء والتفوق لولا حرص ملوك الدولة العلوية الشريفة على تقريب العلماء والإحتفال بهم وعقد مجالس العلم التي تجمعهم. ولم يكن هذا قصرا على ملوك الدولة الأوائل كالمولى الرشيد والمولى إسماعيل، بقدر ما امتد ليشمل مختلف عصور الدولة حتى الوقت الحاضر.

وقد أجمع غير واحد من مؤرخي دولة الشرفاء العلويين، من القدامى ومن المحدثين، أنه لم تشهد بلاد المغرب من الإزدهار الفكري والعلمي والأدبي ما شهدته على عهد الدولة العلوية التي بذت السعديين فيما بلغوه في هذه المجالات؛ فصار سنة الحياة أن توسم دولة الشرفاء بدولة العلم والعلماء على امتداد أزمنتها.

وأبو علي الحسن اليوسي نموذج لجانب من جوانب هذا التفوق والإزدهار الذي ما خلا منه شبر من تراب بلاد المغرب: في الجنوب حيث مدارس سوس وندوات الأمير الشاعر محمد العالم[1] وابن سليمان الروداني،[2] وفي الشمال حيث رجال نافسوا بكتاباتهم وتآليفهم ما أنجزه المشارقة؛ منهم: محمد بن الطيب العلمي،[3] ومحمد بن زاكور الناقد،[4] ومحمد المسناوي الدلائي،[4] وصاحبنا أبو علي الحسن اليوسي.[6] بل إن من هذه الأسماء في تراجم الرجال وبرامج الشيوخ والفهارس والرحلات ما تضيق فسحة هذا العرض للإحاطة بها: كعبد الرحمن

بن القاضي، ومحمد بن الطيب الشرقي، وأحمد بن الحبيب اللمطي، والوزير الغساني، ومحمد الرهوني، وابن عزوز المراكشي، وأحمد الهلالي السجلماسي، وأبوالقاسم الزياني، وغيرهم.(7)

والكتاب الذي نقرأ في هذه العجالة قد يكون أقل بضاعة اليوسي الفكرية والأدبية؛ ذلك أن اليوسي من هؤلاء الذين نافسوا المشارقة في تحصيل المدونات وجمع النادر من المصنفات؛ أشبه بدأبه هذا جلال الدين السيوطي (ت. 911 هـ) وعبد القادر بن عمر البغدادي (ت. 1093 هـ) صاحب (خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب) من المشارقة، وابن عبد الملك المراكشي، والمقري، وعبد الواحد المراكشي من المغاربة. وكتاب (زهر الأكم في الأمثال والحكم) صورة للمكتبة الضخمة التي توافر عليها اليوسي.

1- ترجمة اليوسي:

أحصى كل من الأستاذين: محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال محققا كتاب (المحاضرات في الأدب واللغة) لأبي علي الحسن اليوسي واحدا وثلاثين من مصادر ترجمته؛ منها: الإستقصا للناصري، وإظهار الكمال في تتميم مناقب سبعة رجال للعباس بن ابراهيم التعارجي، والإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام له أيضا، والتقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار أعيان المائة الثانية والحادية عشر للقادري، وسلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس عمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس لمحمد بن جعفر الكتاني، وصفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر لمحمد الصغير الإفراني، والمنزع اللطيف في التلميح بمفاخر مولانا إسماعيل ابن الشريف لابن زيدان، واليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة لمحمد البشير الأزهري، ونشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني لمحمد بن الطيب القادري، ويتيمة العقود الوسطى في مناقب أبي عبد الله محمد المعطي.(8) كما وقف الأستاذ عباس الجراري(9) عند كثير من مصادر ترجمة الإمام ابي علي الحسن اليوسي.

وقد عرف اليوسي باسمه ونسبه في كتابه المحاضرات، فقال: "أنا الحسن ابن مسعود بن محمد بن علي بن يوسف بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن أحمد بن علي بن عمرو بن يحيى بن يوسف، وهذا هو أبو القبيلة ابن داوود بن يدراسن بن يلنتن ...".(10) أما سبب نسبته إلى اليوسي فقال يوضح ذلك: "وأما اليوسي، فأصله اليوسفي كما مر من أن يوسف أبو القبيلة، وهم يسقطون الفاء في لغتهم ...".(11) وكان أبو علي الحسن اليوسي نفورا من التعليم في صباه؛ حكى ذلك بالنص عن اليوسي صاحب (صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر)

محمد الصغير الفراني (ص.206-207)؛ قال اليوسي: "كنت في صغري نفورا عن التعليم، فكنت أتنكب المكتب وأكمن في طريق الصبية حتى إذا خرجوا من المكتب جئت معهم إلى أهلي كأني قد قرأت معهم. وسبب ذلك أني كنت شديد الحياء في صغري حتى كان الحياء يمنعني من ضروريات نفسي، لأنه ألقي في وهمي أن من دخل المكتب كيف يتأتى له أن يخرج في قضاء حاجة الإنسان وكيف يمكنه أن يذكر ذلك ويشاور عليه المؤدب؛ فلم يمكني إلا الهروب.فمكثت على ذلك مدة، ثم توفيت والدتي فتنكرت علي الأرض وأهلها:

فما الناس كالناس الذين عهدتهم ولا الدار كالدار التي كنت تعرف

وكان ذلك سبب الفتح، فألقى الله في قلبي قبول التعليم فدخلت أتعلم ...".[12] وليس هناك عالم، شيخ أوتلميذ، من الذين درسوا لليوسي أو تتلمذوا عليه أو عاصروه أوسمعوا عنه أو قرأوا له، لم يشد بتفوقه وسعة علمه وذكائه واستوائه على غيره من علماء عصره؛ قال فيه معاصره أبو سالم العياشي:[13]

من فاته الحسن البصري يصحبه فليصحب الحسن اليوسي يكفيه

وقد ألف اليوسي عددا مهما من المصنفات، ضاع أكثرها، ولم يصلنا من خزانته سوى بعض قليل منها؛ أحصى بعض ذلك كل من ليفي بروفنسال وكارل بروكلمان ومحمد حجي في كتابه عن الزاوية الدلائية. وتآليف اليوسي متنوعة جدا تشمل الفقه والحديث، والمنطق، والتصوف، والتوحيد، والأدب، واللغة. وذكر محققا (المحاضرات) أنه خلف نيفا وأربعين أثرا كتابيا ما بين كتاب ورسالة: أربعة وعشرون سؤالا في مصاحبة الشيخ وتأدية الأوراد (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم: 612 ج ضمن مجموع)، وتآليف في العكاكزة (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: 1224د ضمن مجموع)، ورسالة في نعيم أهل الجنة (توجد منه مخطوطة بمكتبة ابن غازي بمكناس)، وفهرس اليوسي (يوجد مخطوطا بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: 1234ك ضمن مجموع)، وموسوعته في القانون (يوجد مخطوطا بالخزانة العامة بالرباط وبالمكتبة الوطنية بباريس، وطبع على الحجر بفاس سنة 1310هـ وكذلك سنة 1315هـ)، والمحاضرات في الأدب واللغة، ونفائس الدرر على شرح المختصر للسنوسي؛ وهو مؤلف في المنطق، ونيل الأماني في شرح التهاني؛ وهو شرح على داليته في مدح الشيخ محمد بن ناصر. بالإضافة إلى ديوان شعر مهم.

ومعظم الذين عرفوا اليوسي أثنوا على علمه ونوهوا بنبوغه وعلو كعبه؛ قال عنه الشيخ محمد المرابط الدلائي في إجازته له: "... الصدر الرئيس، فارس الإملاء والتدريس، شيخ الجماعة

بالديار البكرية، والحضرة الدلائية، ذو التدقيق المعهود أبو الحسن بن مسعود، صاحب النباهة الشامخة، والنزاهة الباذخة، والجلالة العليا، والهمة التي نيطت بالثريا، المتمسك من الرواية بأسبابها، ومن النزاهة بأهدابها، من ألقت إليه المعارف زمامها، وجمعت السيادة ما وراءها من المجد وأمامها ..." (فهرسة اليوسي/ المخطوطة، ورقة: 6). وقال عنه الإفراني في الصفوة: "وكان أبو علي رحمه الله تضلع في العلوم العقلية وبرز فيها على أبناء وقته حتى قال في تأليفه المسمى "بالقول الفصل في الفرق بين الخاصة والفصل" إنه بلغ درجة الشيخ سعد الدين التفتازاني والسيد الجرجاني وأضرابهما، بحيث يقبل من كلام العلماء ويرد، وسأله يوما سائل بدرسه عن مسألة فقال له: إسمع ما لم تسمعه من إنسان، ولا تجده محررا في ديوان، ولا مسطرا ببنان، وإنما هو من مواهب الرحمن" (صفوة من انتشر، ص. 208). وقال عنه أيضا: "وكان شاعرا مفلقا، النظم عنده أسهل من التنفس، حتى كان يقول: لو شئت ألا أتكلم إلا بالشعر لفعلت" (صفوة من انتشر، ص. 210). وقال عنه أبو محمد عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي فيما أجازه به: "... الفقيه العلامة، المحقق الفهامة، الصدر الأوحد، والعلم المفرد، رئيس الإقراء، والمتهيئ للمناصب العلمية الشماء، الباذل في إيصال النفع لطالبيه غاية المجهود، أبو علي الحسن بن مسعود ..." (نشر المثاني، لابن الطيب القادري، 2/146-147). وذكره ابن زاكور في كتابه (نشر أزهار البستان)؛ قال: "... حبر الأحبار، وجهينة الأخبار، وزين القرى والامصار، العظيم النظير في سائر الأقطار، من أسعد بمطالع أنواره كواكب نحوسي، وأعراني من ملابس بوسي، وألحفني بمطارف المسرات عبوسي، مولاي أبو علي سيدي الحسن بن مسعود اليوسي ..." (نشر أزهار البستان، ص. 88). وقال عنه الكتاني في فهرس الفهارس: "... عالم المغرب ونادرته وصاعقته في سعة الملكة وفصاحة القلم واللسان مع الزعامة والإقدام والصدع بما يتراءى له وكثرة التضييق على طريق بعد العهد بمثله وهو الكلام المرسل الخالي من النقل إلا ما لابد منه..." (فهرس الفهارس، 2/ 464). وعدد الحجوي كثيرا من اهتماماته فقال عنه في مؤلفه (الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي): "... فقيه، أصولي، لغوي، أخباري، أديب، شاعر، نظار، مشارك، ماهر في الفنون، انتهت إليه الرياسة الكبرى في العلم في وقته، وله شهرة ذائعة في المغرب والمشرق ..." (الفكر السامي: 4/116). وقال عنه العباس بن ابراهيم في (الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام): "ومنهم عالم المغرب ونادرة الدنيا في وقته الحسن بن مسعود اليوسي رضي الله عنه؛ سمعت من يقول من وعاة التاريخ ببلدنا: لو كان له مذهب لاتبع" (الأعلام: 3/162).[14]

وتوفي رحمه الله تعالى عام اثنين ومائة وألف للهجرة؛ قال محمد بن الطيب القادري في خبر وفاته: "توفي رحمه الله ورضي عنه عقب قفوله من الحج يوم الإثنين خامس عشر ذي الحجة عام اثنين ومائة وألف ودفن بموضع يعرف بتمزيزت بقرب قرية صفرو على نصف مرحلة من فاس، ونقل من مدفنه بعد نحو عشرين سنة إلى موضع آخر هناك فوجد كما دفن رضي الله عنه على ما حكي؛ ومثل هذا معلوم لغير واحد من أولياء الله" (نشر المثاني: 2/151). وقال عنه الكتاني في (سلوة الأنفاس): "... وهو في قبة رفيعة أنيقة، عليه دربوز يزار به ..." (سلوة الأنفاس؛ ج. 3، ص. 81)(15)

2- أقسام الكتاب:

يقع كتاب (زهر الأكم في الأمثال والحكم) لأبي علي الحسن اليوسي في سبع وثمانين وألف صفحة (1087ص) موزعة على ثلاثة أجزاء على الشكل التالي:

- الجزء الأول (357 صفحة)
- الجزء الثاني (315 صفحة)
- الجزء الثالث (415 صفحة)

وقد اعتنى بتحقيقه كل من الأستاذين: محمد حجي ومحمد الأخضر وطبع في طبعة أنيقة (17×24) عن دار الثقافة بالدار البيضاء، عام 1401هـ/1981م، وهي طبعته الأولى. و(زهر الأكم في الأمثال والحكم) من الكتب الخالصة في صناعة الأدب الذي يعتبره اليوسي في خطبة هذا الكتاب "من أجل العلوم وأفخرها، وأحقها بالإعتناء وأجدرها، علم الأدب والتضلع من كلام العرب؛ إذ به تنحل عقلة اللسان، وتزاح روعةالجنان. وهو لسان نبينا نخبة العلم، وصفوة والد آدم، وكتابه الذي أخرس به مصاقع البيان، من بلغاء عدنان وقحطان، حتى عدلوا عن المجادلة إلى الطعان، وعن المعارضة إلى الإذعان ..."(16) ولعل السبب الرئيس الذي دعا اليوسي إلى ركوب هذا المركب من التأليف فراغ ساحة الأدب المعروفة لديه من مثل هذا الضرب من التأليف؛ قال رحمه الله في خطبة زهر الأكم: "وكانت نفس تشوقني إلى هذا الفن (الأدب) ومآثره، وتنازعني إلى تتبع دائره، فكنت أشتاق أن أرى في هذا موضوعا، واصادف كتابا مجموعا، مما عني به الأقدمون، واقتفى أثرهم فيه المتأخرون. فلم يسمح بذلك الدهر العقيم، ولم يظفر منه الجد السقيم. ولما لم أنق من ذلك لصاقا ولم يزدد القلب إلا اشتياقا، طفقت أجول في عرصات كتب الأدب، وكل ما له ماسة بكلام العرب. ولم أزل أتتبع ظلالها ..... فلما امتلأ بحمد الله من ذلك الوطاب، وعاد البلح إلى

الأرطاب، هممت أن أجمع ما علق في هذا الوقت بخاطري، مما ترقى إليه نظري وناظري، في كن يهويه ومجموع يحويه، حذارا من النسيان، عند تطاول الزمان. فألفت هذا المجموع في الأمثال، وأودعته كل دمية وتمثال. ثم رأيت أن أضم إليها من الحكم جملة مما انتهيت إليه، ووقفت عند تطوافي عليه ...".(17) ومع كل ما جمعه اليوسي في هذه الموسوعة الطريفة من الأمثال، وجدناه يعتذر على عادة كبار العلماء؛ قال رحمه الله: "ومع هذا فإني أعتذر لذوي النفوس الوقادة، والصيارفة النقادة، من تقصير فيه، وخلل لم يتفق تلا فيه؛ وكيف لا يعذر ذو بال متمسم، ووبال متكسم، وشخص لا يبين لمتوسم، مكلوم بفاغر من الخطوب متبسم، يرمق العيش برضا، ويقطع بسيط الحيرة طولا وعرضا ....".(18)

أما أقسام الكتاب، فيحدثنا عنها اليوسي في خاتمة خطبة الكتاب؛ قال: "ولما تم ما أردته بحمد ذي المن والفضل، وبرز من القوة إلى الفعل، سميته: زهر الأكم في الأمثال والحكم، وجعلته سمطين: السمط الأول في الأمثال وما يلتحق به، وفيه مقدمة، وخاتمة، وأربعة وثلاثون بابا، تسعة وعشرون منها في الأمثال العربية وما يلتحق بها على حروف المعجم، الباب الموفي ثلاثين في الأمثال التركيبية، الحادي والثلاثون في الأعيان، الثاني والثلاثون في الأمثال القرآنية، الثالث والثلاثون في الأمثال الحديثية، الرابع والثلاثون في التشبيهات الشعرية. السمط الثاني في الحكم وما يلتحق بها على حروف المعجم؛ الباب الموفى ثلاثين في حكم مجموعة، والحادي والثلاثون في النوادر، الثاني والثلاثون في الأوليات. فكان مجموع ذلك ستة وستين بابا ...".(19)

وإذا وقفنا عند هذا التقسيم الذكي الواعي وحده الذي وضعه اليوسي لمؤلفه، أخذنا فكرة عن تقدم التأليف عند الرجل من جهة وعلى عهد الدولة العلوية الشريفة التي أبان علماؤها عن صورة من العلمية والتفوق بذت إخوانهم في المشرق؛ فصار هذا الأخير يرحل لطلب إجازة علماء المغرب، بعد أن كان المغرب يشد الرحال طالبا إجازات علماء المشرق.

ومن خلال ما ذكره اليوسي في خطبة (زهر الأكم في الأمثال والحكم)، وجدنا أنفسنا أمام كتابين اثنين:

- الكتاب الذي وصلنا وهو موجود تحت أيدينا.
- الكتاب الذي لم يصلنا أبدا.

فأما الكتاب الذي وصلنا فهو الذي سنقف عند نماذجه من الأمثال التي جمعها ضمن أجزائه الثلاثة. ويتكون هذا الكتاب من مقدمة، وخاتمة، وأربعة وثلاثين بابا خالصة في ذكر الأمثال العربية الفصيحة منها والعامية؛ فهو السمط الأول الذي يذكره اليوسي في خطبته. أما الكتاب

الثاني الذي لم يصلنا ولا نعرف عنه سوى عدد أبوابه، فهو السمط الثاني الخالص في الحكم وما يتصل بها، ويتكون من اثنين وثلاثين بابا. من هنا سنقتصر في حديثنا عن السمط الأول دون الثاني، وهو كتاب (زهر الأكم في الأمثال والحكم) الموجود بين أيدينا. وقبل الوقوف عند مضامين هذه الأمثال وأقسامها وبنياتها وما لحقها من شروح وسياقات، نشير إلى أن اليوسي، بعد خطبة الكتاب، جاء بأربعة فصول قدم بها للسمط الأول؛ وفيما يلي بيان بأسمائها:

- الفصل الأول: في معنى المثل والحكمة.
- الفصل الثاني: في فائدة المثل والحكمة وفضلهما.
- الفصل الثالث: في فضل الشعر.
- الفصل الرابع: في الأمثال الشعرية.

ثم جاءت الخاتمة في اصطلاح الكتاب مباشرة قبل الشروع في عرض الأمثال وترتيبها. ولعمرك هذه طريقة بديعة في التأليف أشبه ما تكون بعمل التحقيق والتوثيق الحديثين، حيث يلجأ الباحث إلى تقديم النص المطروح للتحقيق والتوثيق، يعرضه ويقدم أقسامه وينقد مضامينه ثم يختم الحديث عنه، ليشرع بعد ذلك في مباشرة التصرف في المتن.

3- توزيع الأمثال في الكتاب:

يتشكل جسد كتاب (زهر الأكم في الأمثال والحكم) من ثلاثة أجزاء، توزعت عليها مجموع الأمثال التي وقف عليها أبو علي اليوسي. وقد جاءت هذه الأمثال موزعة على الشكل الآتي:

- الجزء الأول: (الألف - الباء - التاء).
- الجزء الثاني: (الثاء - الجيم - الحاء - الخاء - الدال).
- الجزء الثالث: (الذال - الراء - الزاي - السين - الشين - الصاد).

ثم تأتي فهارس الكتاب من وضع المحققين في ثمان وأربعين ومائة صفحة؛ وهي فهارس جامعة غنية متنوعة.

أما توزيع أمثال الكتاب بحسب أعدادها ونسبها، فجاءت على الشكل التالي:

- الجزء الأول: 345 أ + 34 ب + 32 ت = 411 مثلا.
- الجزء الثاني: 04 ث + 40 ج + 52 ح + 36 خ + 17د = 149 مثلا.
- الجزء الثالث: 15ذ + 47ر + 09 ز + 26س + 34 ش +13ص = 144

وعلى هذا الأساس يكون مجموع أمثال الكتاب المصنفة أربعة وسبعمائة (704) مثلا. أما الأمثال

غير المصنفة، فهي مجموع الأمثال التي استشهد بها اليوسي وهو بصدد الحديث عن الأمثال المصنفة. ومجموع هذه الأمثال غير المصنفة ثلاثة وخمسين مثلا، موزعة على الشكل التالي:

- العين: 05. - الميم: 13.
- الفاء: 01. - النون: 01.
- القاف: 02. - الهاء: 07.
- الكاف: 02. - الواو: 01.
- اللام: 07. - الياء: 04.

ثم هناك نوع ثالث من الأمثال، بعد الأمثال المصنفة والأمثال غير المصنفة، هي الأمثال النثرية العامة، ومجموعها خمسة وثلاثون مثلا، وجاءت على حروف: (الألف - الجيم - الحاء - الخاء - الراء - السين - الشين - الطاء - الفاء - القاف - الكاف - اللام - الميم - الياء). وعلى هذا الأساس يكون مجموع أمثال (زهر الأكم في الأمثال والحكم) اثنين وتسعون وسبعمائة (792) مثلا بين مصنف وغير مصنف وعامي. وإذا نحن أحصينا نسب توزيع الأمثال على الأجزاء الثلاثة، وجدنا أن الجزء الأول هو الذي يحتوي على أكبر نسبة منها؛ وهذا بيان بذلك:

- الجزء الأول: 58.38٪.
- الجزءالثاني: 21.16٪.
- الجزء الثالث: 20.45٪.

أما نسب توزيع الأمثال من حيث تصنيفها، فهي:

- الأمثال المصنفة: 70.96٪.
- الأمثال غير المصنفة: 05.34٪.

الأمثال العامية: 03.52٪.

هذه بعض من الإشارات التي يمكن الوقوف عندها بخصوص توزيع الأمثال داخل كتاب (زهر الأكم في الأمثال والحكم). ولو حاولنا الغوص داخل المتن لتتبع طريقة اليوسي في توزيع أمثاله والمقارنة بينها وبين مقروءاته، لما وسعنا المجال لعرض كل ذلك؛ فحسبنا منه ما نثرناه ههنا.

4- بنية المثل داخل الكتاب:

يمكن الحديث عن بنية المثل في كتاب (زهر الأكم في الأمثال والحكم) بطرق متعددة؛ لكن الذي تبنيناه في هذه الدراسة: الوقوف عند بنية المثل من جهة تركيب جملته على مستوى النحو

والبناء؛ أو ما يمكن أن ندعوه في اصطلاح اللسانيين المحدثين: (البنية المورفورنحوية)؛ وهي التي تلتحم فيها صيغة المثل النهائية بعناصر تركيبه النحوي. وحين استقرأت كتاب (زهر الأكم) من هذه الجهة، بلغني استقرائي إلى الوقوف على ثلاث عشرة صورة من صور بناء المثل في كتاب اليوسي. وهي عندنا موزعة على ثلاثة أقسام رئيسية:

- ما كان أوله صيغة من صيغ المبالغة.
- ما كان أوله إسما مصدرا.
- ما كان أوله فعلا أو إسم فعل.

وإذا كان القسم الأول يتضح من خلال تسميته، وهو واحد غير متعدد القسمة، فإن القسم الثاني الخاص بالأسماء، ميزنا فيه بين ست صور؛ هي:

1- إسم + إسم؛ مثل:
- الحديث شجون (102/2).
- الحرب سجال (106/2).
- الحرب خدعة (106/2).
- حرب عوان (107/2).
- الخرق شؤم (189/2) + (58/3).

2- إسم + فعل؛ مثل:
- الجواد يكبو (52/2).
- حر انتصر (112/2).
- الدم لا ينام (243/2).
- دجاجة وتركل (246/2).

3- إسم + إسم + فعل؛ مثل:
- حبل فلان يفتل (96/2)
- البغاث بأرضنا يستنسر (199/1).

4- إسم + إسم + إسم؛ مثل:
- تحفة المؤمن الموت (313/1).
- حنو النصل بالنصل (105/2).
- الرواية أحد الهاجين (69/3).

- شر الرأي الدبري (227/3).
- شر الرعاء الحطمة (227/3).
- شر السير القحقحة (228/3).

والقحقحة: السير المتعب ...

5- إسم + فعل + إسم؛ مثل:

- البطنة تذهب الفطنة (192/1).
- الثبات يكسر الوثبات (5/2).
- الحفائظ تحلل الأحقاد (125/2).
- الذئب يكنى اباجعدة (8/3).
- ذليل عاذ بقرملة (12/3).

- إسم + حرف جر + إسم؛ مثل:

- البركات في الحركات (213/1).
- جزاؤه على حماره (68/2).
- حور في محارة (144/2).
- الحية من الحيية (148/2).
- ذياب في ثياب (7/3).
- الرياح من السماح (44/3).

هذه هي الطبقة الأولى من أمثال اليوسي في (زهر الأكم)، وهي ما بتدأ في جملته باسم. وقد وقفنا بأمثال هذه الطبقة عند الجملة المكونة من ثلاث صيغ مستقلة بذاتها؛ أو بعبارة أصحاب المعجم؛ بثلاث (مورفيمات / كلمات)، لا حاجة بنا الآن للوقوف عند وظائفها وأحوالها التمييزية؛ فذلك بحث آخر مستقل بذاته. والأمثال التي تبدأ جملها باسم قليلة جدا في كتاب اليوسي بالمقارنة مع الأمثال التي ابتدأت جملها بفعل؛ وبعبارة أخرى الأمثال ذات أساس جملة أسمية أقل بكثير من الأمثال ذات أساس جملة فعلية. وقد بلغني الإستقراء إلى الوقوف عند أكثر من ثمانين بالمائة من أمثال الكتب جمل فعلية في مقابل الجمل الإسمية القليلة. ونحن نرجع ذلك إلى نشأة جملة المثل وسط السياق الواقعي؛ إذ هذه النشأة مرتبطة أساسا بالفعل أكثر من ارتباطها بالشخص الذي ينجز الفعل؛ فالحدث أسبق في لغة المثل من الفاعل الذي يتولى القيام بهذا الحدث. وليس اليوسي وحده الذي وجد عنده هذا الأمر؛ فقد وقفنا على مثله عند الميداني في أمثاله.

أما القسم الثالث المتعلق بالأمثال ذات الجمل الفعلية، فهو الغالب على أمثال الكتاب، وقد أحصيت منه ست صور أيضا، هي:

1- فعل + فعل + فعل؛ مثل:

- جاء يفري ويقد (60/2).

2- فعل + فعل + إسم؛ مثل:

- جاء يضرب اسدريه (60/2).

جاء ينفض مذوريه (62/2)

3- فعل + إسم؛ مثل:

- برح الخفاء (179/1).
- تتابعي بقر (309/1).
- حلبت صرام (128/2).
- حلم الأديم (1/2).
- حمي الوطيس (142/2)
- ركب رأسه (73/3).
- زدهم عنزا (149/3).
- شاهت الوجوه (242/3).
- شالت نعامته (240/3).
- شق العصا (235/3).
- صابت بقد (256/3).
- صرح حجيد (250/3).
- صفدت وطابه (253/3)
- يرقح الماء (59/3).

4- فعل + إسم + فعل + إسم؛ مثل:

- أساء سمعا فأساء إجابة (182/3).
- بال حمار فاستبال أحمرة (207/1).
- سمن كلبك يجوع أهله (179/3).
- يحمل شن ويفدى لكيز (139/2).

- يأكلك الأسد ولا يأكلك الكلب (1/77).
- يرتم وسطا ويربض حجرة (3/49).

5- فعل + إسم + إسم؛ مثل:

- يبلغ الخضم بالقضبم (1/201).
- شغلت شعابي جدواي (3/232).
- شغلهم الصفق بالأسواق (3/233).
- سال قضيب حديدا (3/183).
- سبق السيف العذل (3/159)
- ركب ذنب البعير (3/60).
- ركب ذنب الريح (3/60).
- ركب جناحي النعمة (3/59).
- تحللت عقد فلان (2/149).
- تحككت العقرب بالأفعى (2/126).
- باتت بليلة شيباء (1/208).
- باث عرار بكحل (1/207).

6- فعل + فعل؛ مثل:

- أحس وذق (2/123).
- خالف تعرف (2/226).
- يسدي ويلحم (3/162).
- شاوروهن وخالفوهن (3/240).
- حنت ولا تهنت (2/143).
- تربع وتدسع (3/72).
- سبني واصدق (3/159).
- يشوب ويروب (3/239).

فهذه نماذج قليلة من نماذج كثيرة على صيغة الجملة الفعلية في أمثال أبي علي الحسن اليوسي، وهذه الصور الستة التي وقفنا عندها، بالإضافة إلى الصور الستة الخاصة بصيغة الجملة الإسمية تكون لدينا أصول البناء لجملة المثل عند أبي علي الحسن اليوسي. وتأتي بعد ذلك الأمثال

التي تركبت من مورفيمات أكثر من الثلاثة التي وقفنا عندها. فبالإضافة إلى ما سبق الوقوف عنده بخصوص:

- صيغة المبالغة.
- صيغة الجملة الإسمية.
- صيغة الجملة الفعلية.

هناك صيغ أخرى هي ملحقة بالأصول التي ذكرنا. وهذه الصيغ الملحقة هي:

1- صيغة الإبتداء بالضمير (المتكلم أو الغائب).

2- صيغة الشرط؛ بـ (إن) و(إذ).

3- صيغة التوكيد بـ (إن) مدعمة باسمها وخبرها.

4- صيغة التفضيل بـ (خير) و(أحسن).

5- الصيغة المفتتحة بـ (رب).

6- الصيغة المركبة من الأصول الإثنا عشر الأولى.

وهذه نماذج موضحة لهذه الصيغ الملحقة؛ ، وهي كثيرة جدا في أمثال أبي علي الحسن اليوسي.

1- صيغة الإبتداء بالضمير؛ مثل:

- أنا عربيد وأنت رعديد وبيننا بون بعيد (1/143).
- أنا أبو النجم وشعري شعري (1/146).
- أنت صاحبة النعامة (1/92).
- أنت شولة الناصحة
- هو بين سمع الأرض وبعدها (1/212).
- هو يخبأ وأبوه يكنز (2/214).

والذي يمكن ملاحظته بخصوص هذا الضرب، ندرة الأمثال التي يتصدر جملتها إسم موصول؛ فهذا مجاله الأمثال العامية حيث يتم تحويل (الذي) وأخواتها إلى (اللي)؛ مثل:

- اللي شاف وذاق ما يتسمى مشتاق.
- اللي دارها بيديه يفكها بسنيه.
- اللي ضرباتو يدو ما يبكي.
- اللي مات لو اباه يوسد الركبة، واللي ماتت ليه امو يوسد العتبة.

ويمكن أن نتحدث هنا عن الأمثال التي تفتتح باسم من أسماء الإشارة؛ وهي أيضا قليلة؛ وهي أقل عند اليوسي.

2- صيغة الشرط؛ مثل:

- إن جررجر العود فزده وقرا (1/96).
- إن كنت ريحا فقد لقيت إعصارا (1/99).
- إن ذهب عير فعير في الرهط (1/96).
- إذا لم تغلب فاخلب (1/76).
- إذا نزل بك الشر فاقعد (1/75).
- إذا نزل القضاء عمي البصر (1/75).
- إذا امتلأت القدر ترشحت (1/143).
- إذا عز أخوك فهن (1/73).

وهذا الضرب من الأمثال يعتمد التقابل على مستوى الصيغ الداخلية، كما يعتمد (التوازي النحوي) الذي شرح (رومان ياكبسون/R.Jakobson) بعض ملاحمه في كتابه: (Questions de Poétiques). وجملة الشرط وجملة الجواب هي الإطار المبين لمثل هذا التوازي والتقابل.

3- صيغة التوكيد بـ (إن)؛ مثل:

- إن السم مشروب (1/148).
- إن الحسان مطنة للحسد (1/146).
- إن الحذر لا يغني من القدر (1/107).
- إن الكريم إذا خادعته انخدع (1/149).
- إن لله جنودا منها العسل (1/129).
- إن مع اليوم غدا (1/134)
- إن الجواد عينه فراره (1/106).

وتعتمد هذه الصيغة، كسابقتها، عنصر التقابل والتوازي في تشكيل بنيتها الداخلية؛ ولكن بنسبة أقل من التي سبقت؛ وهي كثيرة الورود في كتاب اليوسي.

4- صيغة التفضيل؛ مثل:

- تمرة خير من جرادة (1/324).

- خير الأمور أوساطها (202/2).
- خير العشاء سوافره (203/2).
- خير العلم ما حوضر به (204/2).
- خير الغداء بواكره (204/2).
- خير الغنى القنوع وشر الفقر الخضوع (205/2).
- شر الرعاء الحطمة (227/3).
- شر المال ما لا يزكى ولا يذكى (229/3).

وأكثر صيغ هذا الضرب يكون فيها إسم التفضيل هو المقدم في جملة المثل، وقليلا ما وجدناه يتوسط الجملة. وهذه الصيغة كثيرة التداول في أمثال العامة.

5- الصيغة المفتتحة ب(رب)؛ مثل:

- رب أخ لم تلده أمك (36/3).
- رب رمية من غير رام (38/3).
- رب عجلة تهب ريثا (43/3).
- رب لحظ أتم من لفظ (48/2).
- رب ساع لقاعد (39/3).

6- الصيغة المركبة؛ وهي الغالبة؛ مثل:

- بيض القطا يحضنه الأجدل (211/1).
- جمع بين الأروى والنعام (48/2).
- الجواب ماترى لا ما تسمع (66/2).
- حدث عن البحر ولا حرج (103/2).
- حدث حديثين المرأة، فإن أبت فعشرة (99/2).
- الحق أبلح والباطل لجلج (125/2).
- الحمية إحدى الموتتين (212/2).
- الخيل تجري على مساويها (209/2).
- ذهب دمه خضرا مضرا (21/3).
- ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها (21/3).
- الرأي مع الجماعة (35/3).

- رداءة الخط زمانة الأدب (214/2).
- رماه الله بأقعى حارية (61/3).
- زاحم بعود أو دع (137/3).
- صاحب الدابة أولى بمقدمها (248/3).
- المسألة آخر كسب المرء (155/3).
- يأتيك كل غد بما فيه (63/1).

والحق أن هذه الأمثال المركبة كثيرة سواء عند اليوسي أو عند غيره من الذين ألفوا في هذا المجال؛ وهي جنس من الأمثال الإسمية والفعلية ... والغالب أن كل هذه الأمثال إما جمل إسمية، وإما جمل فعلية؛ والتنويع الذي وقفنا عنده هو من قبيل إظهار بنيات هذه الجمل والجدير بالملاحظة أن جملة المثل تعتمد بالأساس على كلمة الإفتتاح فيها؛ فهذه الكلمة هي التي تشكل أس المثل، وأحيانا نجد هذه الكلمة في وسط الجملة ... وقبل أن ننهي هذا المبحث المتعلق ببنية المثل عند اليوسي، لا بد من كلمة عن الأمثال العامية في (زهر الأكم)؛ ومنها:

- أترك صاحب الغاسول يسكت (329/1).
- بلغ السكين العظم (202/1).
- إمش بالنعلين حتى تجد السباط (202/1).
- جاء يعينه في قبر أمه فهرب له بالفأس (68/2).
- الحمار حماري وأنا أركب من وراء (151/2).
- حل عبستك ما أردت خبزتك (151/2).
- جزاؤه على حماره (68/2).
- في دار البقر تعيب التبن (158/3).
- كل خنفس عند أمه غزال (151/3).
- قياس البيض على البادنجال (11/3).
- المهل يبلغ (202/1).
- جوع كابك يتبعك (55/2).
- كما تشتري تبيع (73/1).
- إذا أراد الله إهلاك النملة جعل لها أجنحة تطير بها (143/1).
- الراحة تنزل شيئا فشيئا (202/1).

- الطرية للهاتي والقسية لإخواتي (221/1).
- يبرا الجرح السوء، ولا يبرا الكلام السوء (178/1).
- من رأى الجمل الأبيض ظنه كله شحما (7/3).

والملاحظ على اليوسي أنه يورد ضمن الأمثال الفصيحة بعض الأمثال العامية ولا يصنفها على أنها عامية. وهذا يعود بالدرجة الأولى إلى التداخل الكبير الحاصل في عالم الأمثال بين الفصيح والعامي. فمن الأمثال ما أصله عامي، فأجري على الفصيح، ومنها ما هو فصيح وأجرته العامة على ألسنتها.

ثم إننا لم ندخل في حسباننا الأمثال الشعرية، وهي كثيرة جدا في (زهر الأكم) بحيث يضيق المجال للحديث عنها. وقد سبق لي ونبهت على أن هذه القراءة تحبل بالموضوعات الرائقة التي تغري الباحث بالدراسة والإستكشاف. ويبقى لنا أن نتحدث عن الصيغة الأولى من صيغ جملة المثل؛ وهي صيغة المبالغة. وقد تركت الحديث عن هذه الصيغة إلى اخر المبحث لأهميتها وكثرة ورودها في كتاب اليوسي. ويمكن القول أن صيغة المبالغة هي الأصل السليم الفصيح الموجز لجملة المثل. ذلك أن المثل المصنوع يظهر في كثرة كلماته وطول جملته، والمثل الأصل ما كان موجزا إيجاز اللمحة الخاطفة التي تعبر بأقل ما يمكن من الكلمات. ومن نماذج هذه الصيغة:

- أبصر من عقاب /من غراب (185/1-186).
- أتبع من الظل (311/1).
- أثقل من الفيل (52/2).
- أجود من لافظة (52/2).
- أحيى من ضب (186/2).
- أحمق من رخمة (135/2).
- أحرص من نملة(113/2).
- أخلف من صقر (195/2).
- أخف من يراعة (193/2).
- أدهى من ثعلب (242/2).
- أذل من حمار (14/3).
- أذل من بيضة البلد (11/3).
- أذكى من إياس (11/3).

- أزهى من ديك (3/146).
- أسرى من قنفد (3/167).
- أسأل من قرشع (3/159).
- أسلح من دجاج (3/173).
- أسمع من قراد (3/175).
- أسير من المثل (3/183).
- أشأم من سراب (3/209).
- أشد من الفرس (3/219).
- أشرد من نعامة / من ورل (3/226).
- أشكر من كلب (3/234).
- أصبر من حمار (3/247).
- أعمر من قراد (3/176).
- أصدق من القطا (3/251).

والملاحظ على هذه الصيغة من صيغ جملة المثل عند اليوسي خاصة وعند جميع من ألف في هذا المنزع بصفة عامة، أنها أكثر التصاقا بعالم الحيوانات. وهذا يدل على شدة اتصال الإنسان العربي القديم ببيئته المحيطة به؛ فهو يعبر من خلال ما يتحرك فيها وما هو جامد بداخلها. والغالب أن القرد والحمار هما الأكثر استهدافا من غيرهما من الحيوانات الأخرى؛ وليس هذا بالغريب أبدا.

كما التصقت هذه الصيغة بأسماء الرجال؛ وذلك كثير عند اليوسي وعند غيره؛ ومن أمثلته:

- أجول من قطرب (2/57).
- أخف من دينار يحيى (2/224).

وليس معنى هذا أننا قلنا كل شئ بخصوص بنية جملة المثل عند اليوسي، فما زال هناك الكثير مما هو جدير بالبحث والدراسة؛ فكل واحدة من هذه البنى بالإضافة إلى دلالتها التي تعرب عنها مفرداتها المكونة لها؛ فهي دالة أيضا من خلال الإطار العام الذي تفرغ فيه كلماتها.

5- طريقة اليوسي في عرض المثل:

لليوسي طريقة خاصة تكاد تكون متواترة في جميع الكتاب في سرد أمثاله والوقوف عندها. وهو لم ينبه على عناصر هذه الطريقة / الخطة / المنهج في خطبة مؤلفه: إلا أن الإستقراء والوصف الشامل لأمثال الكتاب مكننا من الوقوف على طريقته التي لا تتخلف إلا لماما. وتتكون

هذه الخطة (المنهج) في ستة عناصر، هي:

1- ذكر جملة المثل.

2- شرح غريب المثل (الشواهد الشعرية).

3- ذكر قصة المثل (السياق العام للمثل).

4- المعنى المقصود من المثل.

5- التوسع في التمثل بالشعر.

6- شرح الأشعار المتمثل بها.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن اليوسي يقف عند كل باب وقفتين:

الأولى: خاصة بالأمثال النثرية.

الثانية: خاصة بالأمثال الشعرية ولعل من أهم عناصر الحديث عن المثل وقوف اليوسي عند قصته واستحضار إطاره الإجتماعي والتاريخي. ومن هذه الأمثلة الدالة على التوسع في شرح ظروف نشأة المثل وقصته التي تؤطره، ما تقرأه عند اليوسي ضمن:

- الجزء الأول / الصفحة: 184.

- الجزء الأول / الصفحة: 185.

- الجزء الأول / الصفحة: 144.

-الجزء الثاني / الصفحة: 199.

كما أنه يقف عند إسم الشخص الذي اعتبر أول من نطق بالمثل، وفي هذا توثيق للمثل.

ومن أهم ما يمكن الإشارة إليه أن اليوسي، وهو الشاعر الناقد المتأدب، لا يكتفي بالوقوف عند الأمثال وشرحها وذكر قصصها، بل يجاوز ذلك إلى استحسان الشعر ونقده وتمييز جيده من رديئه؛ فالكتاب ملئ بالنظرات النقدية الطريفة والنكات الأدبية المليحة. كما أن وقوفه عند الشعر يمنحه فرصة الإشارة إلى سرقات الشعراء من بعضهم البعض؛ فينبه على ما جاء من ذلك في باب توارد المعاني، وما جاء في باب الأخذ والسرقة. كما وجدته يقف وقفات العالم الراوية المدقق في تحقيق نسبة الأبيات، وذكر تعدد رواياتها؛ ومثل هذا الوقوف كان يمنحه فرصة تصحيح بعض الأبيات مما داخلها من التصحيف والتحريف والتشويه والوهم والتلفيق والقلب والوضع وغير ذلك من الأمور والمصطلحات المتعلقة بتوثيق النص الشعري. ويبقى الشعر مجالا واسعا في كتاب (زهر الأكم)، جمع كثيرا من الفوائد والمسائل التي قلما تظفر بها في كتب النقد التي وضعها أصحابها من أجل النقد؛ وصدق من قال: (يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر).

6- التمثل بالشعر في الكتاب:

وثمة منزع آخر بديع في كتاب (زهر الأكم)؛ ذلك هو الشعر المتمثل به بجانب كل واحد من الأمثال التي كان اليوسي يسوقها. وقد بلغ مجموع الأشعار التي تمثل بها اليوسي في كتابه اثنين وعشرين ومائتين وسبعة آلاف (7222) بيتا موزعة ما بين أبيات مفردة يتيمة، ونتف، ومقطعات، وقصائد من قلائد الشعر العربي القديم. ورقم السبعة آلاف بيتا رقم قياسي بالنسبة لكتاب في حجم (زهر الأكم)؛ خاصة وأنها مجرد أبيات للتمثل والإستشهاد. فهي مختارات شعرية رائعة وقف عندها اليوسي وقفة الناقد المتذوق؛ والإختيار ضرب من النقد لم يصرح فيه بمنطوق الحكم. أما عدد القوافي التي أحصينا في كتاب اليوسي فست عشرة ومائة وثلاثة آلاف (3116) قافية موزعة على جميع حروف المعجم.

وفيما يلي بيان إحصائي شامل بأنواع هذه القوافي وأعدادها ونسب ورودها مضمونة الروي ومفتوحته ومكسورته وما ورد منها ساكنا مقيدا؛ ونبدأ بالتوزيع العام لهذه القوافي تبعا لحرف الروي:

	م. القوافي	م. الأبيات	النسبة1	النسبة 2	المضمومة	المفتوحة	المكسورة
الألف	13	32	0.41	0.44	-	-	-
الهمزة	92	189	2.95	2.61	47	08	37
الباء	515	1167	16.52	16.15	208	60	225
التاء	124	312	3.92	4.32	28	08	75
الثاء	09	39	0.28	0.52	00	05	03
الجيم	55	146	1.76	2.02	20	13	20
الحاء	139	359	4.46	4.97	49	24	53
الخاء	06	17	0.19	0.23	03	02	00
الدال	484	1207	15.53	16.71	142	87	243
الذال	11	54	0.35	0.74	02	06	03
الراء	610	1523	19.57	21.08	237	111	229
الزاي	14	46	0.44	0.63	04	01	07
السين	115	282	3.69	3.90	24	18	72
الشين	11	59	0.35	0.81	02	03	06
الصاد	09	14	0.28	0.19	04	02	03
الضاد	21	0.67	48	0.66	03	15	14
الطاء	06	13	0.19	0.18	00	02	04

	م. القوافي	م. الأبيات	النسبة 1	النسبة 2	المضمومة	المفتوحة	المكسورة
الظـــاء	03	07	0.09	0.09	01	02	00
العيـــن	75	135	2.40	1.86	30	22	21
الغيـــن	02	05	0.06	0.06	01	00	01
الفـــاء	38	75	1.21	1.03	16	08	12
القـــاف	74	145	2.37	2.00	34	12	24
الكـــاف	19	44	0.60	0.60	01	09	07
الـــلام	285	563	9.14	7.79	82	64	129
الميـــم	190	352	6.09	4.87	52	34	90
النـــون	166	329	5.32	4.55	34	37	90
الهـــاء	09	20	0.28	0.27	03	01	05
الـــواو	03	04	0.09	0.05	01	02	00
اليـــاء	18	37	0.57	0.51	02	14	02
المجموع	3116	7222	-	-	1026	570	1375

هذا يخص القوافي المطلقة التي وردت في الكتاب، وقد أظهر الإحصاء السابق أن نسب التمثل بالقوافي غير متفاوتة تفاوتا حادا؛ ماعدا ما نلاحظه في قافية كل من الباء والدال والراء؛ فهي الأكثر ورودا سواء على مستوى عدد القصائد والمقطعات أم على مستوى مجموع الأبيات المتمثل بها. أما أقل القوافي حظا في كتاب (زهر الأكم) – وهي القوافي الأوابد الموحشة في فهم شيخ المعرة –؛ فالطاء والظاء والثاء والخاء؛ وأقلها حظا: الغين.

أما القوافي المقيدة فأقل بكثير مـن القوافي المطلقة: خمس وأربعون ومائة قافية مقيدة مقـابل واحد وسبعين وتسعمائة وألفي قافية مطلقة. وفيما يلي بيان إحصائي لهذه القوافي نتم به الجدول الأول:

القـافية	العدد	النسبة
الهمـزة	00	-
التـاء	13	9.21
الجيـم	02	1.41
الخـاء	01	0.70
الـذال	00	-
الـزاي	02	1.41
الشيـن	00	-
الضـاد	02	1.41
الظـاء	00	-
الغيـن	00	-
القـاف	04	2.83
الـلام	10	7.09
النـون	05	3.54

القـافية	العدد	النسبة
البـاء	22	15.60
الثـاء	01	0.70
الحـاء	13	9.21
الـدال	12	8.51
الـراء	33	23.40
السيـن	01	0.70
الصـاد	00	-
الطـاء	00	-
العيـن	02	1.41
الفـاء	02	1.41
الكـاف	02	1.41
الميـم	14	9.92
الهـاء	00	-

فأكثر القوافي التي وردت مقيدة: الراء والباء، بالإضافة إلى الميم والحاء والتاء. وهناك قواف لم ترد أبدا مقيدة، هي الهمزة، والذال، والصاد، والطاء، والظاء، والغين، والهاء، بالإضافة إلى حرفي العلة: الواو والياء؛ وذلك أصل فيهما.

وتوزعت قوافي اليوسي في (زهر الأكم) على جملة من الشعراء: المشهورين منهم والمغمورين، المكثرين والمقلين، منهم الجاهليون والمخضرمون والإسلاميون والمولدون، وكذا الذين عاصروهم. فشعراؤه مشارقة خاصة، وقلة منهم مغاربة. واحتوى المؤلف على كثير من شعر اليوسي نفسه. والحق أن تخريج شعر (زهر الأكم في الأمثال والحكم) موضوع يغري بالدراسة والبحث لمن يطول صبره ولا يضيق دون ذلك صبره ... وبالإضافة إلى ما جمعه الكتاب من الشعر العربي القديم والمعاصر لعصر اليوسي، فإنه اشتمل على تسعمائة علم؛ منهم: خمسة وستون ومائة إسمهم: (ابن)، وتسعة وستون ممن إسمهم (أبو)، وستة وستون وستمائة مقتسمة بين بقية ابتداءات الأسماء. كما احتوى الكتاب على ذكر ثمانية وأربعين مؤلفا، أكثرها في اللغة والأدب والمختارات الشعرية، والنوادر، والمسائل، وغيرها.

7- المقاصد الأخرى لإلقاء المثل:

والمقصود بهذا العنوان الإجابة على سؤال في غاية الأهمية: لماذا اختار اليوسي الأمثال بالذات يؤلف فيها لملأ الفراغ الذي لاحظه في سوق الأدب؟ ألم يجد شيئا آخر غير التأليف في الأمثال يتجاوز به هذا الفراغ والركود المشار إليهما في خطبة الكتاب؟ ليس منا أحد يجهل الأبعاد والمقاصد البعيدة لدلالة المثل والظروف الموجبة لإلقائه والتعامل به والتواصل من خلال خاصية التلميح التي ينطوي عليها. وإذا علمنا أن اليوسي هو أحد العلماء والشعراء الذين أكثروا من الشكوى من تقلبات الدهر، وغدر الصديق، وقلة المروءة، وطغيان الحسد والأنانية، وخنوع الناس؛ شأنه في ذلك شأن بعض شعراء المشرق كأبي الطيب المتنبي ومهيار الديلمي؛ فإننا لا محالة سنجد السبيل السليمة التي توصلنا إلى التأويل السليم الذي نضعه بهامش تأليف هذا الكتاب في الأمثال. فاليوسي في المحاضرات يعبر بواسطة شعره (وهو ضرب من الإستعارة). وهو هنا يعبر من خلال جملة المثل على ما طال زمنه من هذه الخلال الفاسدة والأخلاق الوضيعة. وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، فالحديث في الأسباب الحقيقية التي دعت إلى مثل هذا التأليف موضوع آخر مترامي الأطراف لا يمكن لهذه القراءة أن تحيط به؛ فحسبنا من ذلك لمحة المثل. فهذه ثروة كبيرة من الأمثال يمكن للدارس (خاصة في علم الإجتماع الأدبي) أن يقدم من خلالها صورة للمجتمع

والأخلاق والناس والحياة بصفة عامة على عهد الدولة العلوية الشريفة زمن اليوسي الذي كان منه هذا التأليف.

خـــاتمة:

ويبقى كتاب (زهر الأكم في الأمثال والحكم) لأبي علي الحسن اليوسي صورة للحياة الأدبية والفكرية والعلمية على عهد الدولة العلوية الشريفة خلال القرنيين الحادي عشر والثاني عشر. كما أنه يقدم صورة أخرى للحياة والناس والمجتمع والمعاملات التي دفعت اليوسي إلى اختيار مثل هذا الضرب من التأليف. والكتاب بالإضافة إلى كل هذا غني بالمسائل اللغوية والنحوية، يعرض فيه صاحبه لآراء العلماء والخلاف بين المدارس. كما أنه مرتع للنظرات النقدية سواء ما تعلق منها بالشعر أم ما اختص بالنثر؛ وجميع هذه الأمور يضاف إليها ما يمكن أن يظفر به المحلل الإجتماعي الذي يجد في أمثال الأفراد ضالته لدراسة حياة الشعوب وطرقهم في التفكير؛ فالمثل سبيل من سبل تحقيق الأنثروبولوجية الأدبية.

الهوامـــــــش

1- الحياة الأدبية في المغرب، ص. 147.

2- المرجع نفسه، ص. 106.

3- نفسه، ص. 1.

4- نفسه، ص. 161.

5- نفسه، ص. 196.

6- نفسه، ص. 122.

7- جميع تراجم هؤلاء أوردها الأستاذ محمد الأخضر في مؤلفه: (الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية).

8 - مقدمة المحاضرات لليوسي، مقدمة التحقيق، ص.ل.

9- في كتابه:

10- مقدمة المحاضرات، ج.1 / ص.1.

11- المصدر نفسه.

12- المصدر نفسه، ص. (ب).

13- الحياة الأدبية في المغرب، ص. 122.

14- مقدمة المحاضرات للمحققين، ص. (ز).

15- المصدر نفسه، ص. (ح).

16- زهر الأكم في الأمثال والحكم، خطبة المؤلف، 13/1.

17- المصدر نفسه، 13/1- 14.

18- نفسه، 15/1.

19- نفسه، 16/1-17.

المصادر والمراجع

- زهر الأكم في الأمثال والحكمك الحسن اليوسي، تح. محمد حجي ومحمد الأخضر، ط. دار الثقافة، الدار البيضاء: 1401هـ / 1981م.
- المحاضرات في الأدب واللغة: الحسن اليوسي، تح. محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1402هـ / 1982م (الجزء الأول).
- الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العوية: محمد الأخضر، ط. دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء: ط. 1/1977م.

مفهوم الشعر لدى اليوسي من خلال كتاب: "نيل الأماني في شرح التهاني"

محمد الدنـــــاي
كليـــة الآداب فـــاس

الكتاب الذي سنحاول أن نتمثل من خلاله ما يمكن أن يعتبر تصورا أو مفهوما تقريبيا للشعر، لدى أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي هو في حقيقته شرح على قصيدته الدالية التي نظمها، مادحا شيخه الغوث أبا عبد الله محمد بن ناصر الدرعي، ومهنئا إياه بمقدمه من الحج وأن يتضمن هذا الشرح مايمكن عده مفهوما للشعر ليس غريبا فالظاهرة قديمة في الأدب العربي إلا أن الحديث عن الشروح الشعرية وغيرها، باعتبارها مخزنا لبعض الإشارات النقدية لا يعفيها من لفت النظر إلى بعض الخصوصيات التي ترفع شرحا ما يقارب درجة التنظير النقدي أو شبهه، ويأتي تمييز هذه الخصوصيات من خلال حصر عدة مظاهر لتفاعل النص الأدبي والشرح. فالرجوع إلى الموروث الثقافي العربي يضعنا أمام الأنماط الآتية:

1- نصوص إبداعية لا شرح لها ولا تقديم
2- نصوص إبداعية شرحها وقدم لها متأدبون غير الذين أبدعوها.
3- نصوص إبداعية شرحها وقدم لها مبدعوها أنفسهم
4- نصوص إبداعية شرحها مبدعوها كما شرحها متأدبون آخرون

وتظل الشروح والمقدمات التي يضعها المبدعون أنفسهم النموذج الأهم لتحول المبدع فيها إلى متلق الإبداع الذي أبدعه بعد أن كان منتجا له، ولعل أبا العلاء المعري كان سابقا إلى هذا النوع من التأليف كما يتضح من شروحه لسقط الزند واللزوميات (من التأليف) والفصول والغايات ورسالة الصاهل والشاحج.... ومن المقدمات التي وضعها لسقط الزند واللؤوميات. إلا أن ما يجدر التنبيه عليه هنا، أن الشروح في هذا المنحنى من التأليف لا ترد بالضرورة مقترنة بالمقدمات، فقد يكتفي المبدع بالتقديم لديوانه مثلا بمقدمة نقدية كما فعل، ابن خفاجة، وقد يجعل الشرح مستقلا عن المقدمة التي تصاحب النص المبدع، كما فعل أبو العلاء الذي وضع مقدمة ديوانه سقط الزند

بعد انتهائه من تأليفه ثم شرحه بكتابه ضوء السقط، في أواخر حياته لا وقد يفضل الشارح المبدع أن يجعل المقدمة النقدية والشرح كتابا واحدا وهو النموذج الذي نجده لدى أبي علي اليوسي، والعالم الشاعر، الذي جعل كتابه "نيل الأماني" شرحا لقصيدته الدالية. مقدما لهذا الشرح نفسه بمقدمة مقتضبة يمكن الإعتماد عليها، رغم اقتضابها - وعلى ما ورد متفرقا في ثنايا الشرح لحضر بعض التصورات النقدية التي يمكن أن تكون عند تجميعها، صورة تقريبية لمفهوم الشعر لدى اليوسي ولتسهيل ذلك سأحاول مقاربة هذا المفهوم، من خلال المحاور الآتية:

1- المذهب الشعري:

2- البناء الشعري:

3- المكونات الدلالية:

4- روافد الشعر:

5-الإنحرافات:

6- الشعر والحقيقة:

7- الشاعر وإبداعه:

8- الشاعر وإبداع غيره:

1- ***المذهب الشعري***: من خلال حديثه عن المسلك الذي سلكه في افتتاح قصيدته، يكشف اليوسي عن تمثل واضح لمذاهب الشعر عند القدماء وعن تمييز صريح بين المذهب البدوي والمذهب الحضري، وهما المذهبان اللذان تشخصت من خلالهما جل الأشعار العربية القديمة، واستقرت عناصرها الفنية النظرية في المصنفات النقدية المدرسية، بعد أن رسخ الشعراء أنفسهم أصول كل واحد منهما من خلال القصائد كتابة وتنظيرا إلا أن ما ورد في كتاب اليوسي من الإشارات إلى مذهب أهل البادية ومذهب أهل الحاضرة لا يكشف عن تصور نظري صريح لأصول هذين المذهبين ولعل ذلك يعود إلى تمثله لهما باعتبارهما طريقة في الكتابة الشعرية أي باعتبارهما مجموعة من الخصائص المتميزة، يقول اليوسي متحدثا عن نفسه وشعره بصيغة الغائب.

"واعلم أنه افتتح القصيدة أولا عربية غير مولدة عن تفش أهل البدو وليست العباء وحرشة الرابيع ومضغة القيصوم"[1] وهم أولى بالأسجال وأحق بالقبول والإقبال لأنهم فرسان البراعة وقادة الناس

1- ظهر هذا بوضوح في قصائد أبي نواس وأبي تمام، وأبي الطيب ومهيار الديلمي، وأبي العلاء المعـــري

في هذه الصناعة، غير أن ألفاظهم اليوم عادة مستودعة ومذاهبهم أصبحت منكرة، وذلك لغلبة العجمة على أهل الزمن فاقتصروا على ألفاظ محلولة وتراكيب مصنوعة يتداولونها بينهم فيعدون ما سواها غريبا وحشيا، ولم يعلموا أن الغريب إنما يعرف بعد المعرفة المستعملة من لغة العرب بالتبحر فيها والإطلاع على معظمها وإلا فالجهول المجتني يسقط الريح جميعها عند الغريب فلذلك أراد أن يسكن من ذلك النفس في هذه الأبيات شيئا ما، تنفيسا عن الطالبين واحماضا للمتعاطل ونحو منح أهل الحضر لبسة لسندس وقطفة النرجس مع التزام الفصيح المستحسن والتحرز عن المبتذل المستهجن."

إن اليوسي بهذا الإحتراز يكاد يصرح بأن الشعر البدوي بناء فني متميز ومستقل عن الشعر الحضري بل ويكاد يصرح بأن في الجمع بينهما إفسادا للبناء الشعري لا يستطيع تفاديه الاحذاق الشعراء أمثاله ورغم ذلك يضل هاجس الهجنة الشعرية المتولدة من تعارض الفن بين المذهب البدوي، والمذهب الحضري، "وقد سرح بأنهما اجتمعا في قصيدة"[1] يلاحقه لذلك نجده في آخر صفحات الكتاب يعود إلى طمأنة القارئ. مصرحا بأن الجمع بين هذين المذهبين في القصيدة الواحدة، ليس مستنكرا يقول شارحا الأبيات التي افتخر فيها بقصيدته: (...وأراد بذلك وصف القصيدة وأنها لم تخل من رقة ألفاظ الحاضرة..... ولم تخل أيضا من صياغة ألفاظ أهل البادية...واجتماع النوعين في القصيدة الواحدة لا يستنكر ولا سيما إذا روعي في ذلك مناسبة اللفظ للمعنى).[2]

إن المنطوق النقدي لهذه العبارة يفيد أن الجمع بين الطريقتين البدوية والحضرية في نفس القصيدة، لا يستنكر، لكن مفهوم نفس العبارة يوحي بأن اليوسي كان يعتبر الجمع بينهما من المستنكرات التي لا تليق بالشاعر الحريص على جودة أشعاره.

II- ***البناء الشعري***: نميز في حديثنا عن تصور اليوسي للبناء الشعري، بين أربعة مستويات من البناء.

أ) البناء الدقيق: ب) الهيكلة - ج) الحركة الشعرية - د) الأطناب

1- أما البناء الدقيق، فالمقصود به المستوى اللغوي الذي يبني فيه الشاعر الجملة الشعرية

1- نيل الأماني ص: 9

2- نيل الأماني ص: 147

وما ارتبط بها من عناصر شعرية فرعية، ويبدوا أن اليوسي كا يعتبر هذا البناء - نقديا - مرتبطا بالمذهب الشعري الذي يتبناه الشاعر أو الطريقة الشعرية التي يختارها، لكن الملاحظ أنه يجعل المعاني الشعرية التي يختارها، لكن الملاحظ أنه يجعل المعاني الشعرية وسيطا بين هذا البناء والمذهب الشعري، وكأنه يرى أن المذهب الشعري حضريا كان أو بدويا، يتشخص من خلال معانيه وموضوعاته قبل أن تشخص من خلال صياغته. وإذا كان هذا ما قصد إليه اليوسي فإنه سيكون ترجمة لقوله قبل ذلك وهو يتحدث عن جواز الجمع بين الطريقة البدوية والطريقة الحضرية: (ولا سيما إذا روعي في ذلك مناسبة اللفظ للمعنى)[1]. ويجعل اليوسي من الجزالة مقياسا لتمييز أنماط الأبنية الشعرية الدقيقة أو يتنهي إلى حصر نمطين اثنين متعارضين يتوسط بينهما نمط ثالث يمثل مرحلة الإنتقال والتحول: (والأنسب في هذا القصيد أن ما كان منه سرى الليل وسير المطايا وقطع المفاوز ونحو ذلك، مما هو شأن العرب، أن يجلى من منصة كلامهم بالألفاظ الجزلة، وما كان منه في ذكر الأزهار والأنهار والرياض والحياض ونحو ذلك مما يولع به أهل الحضر، أن ينظم في سلك كلامهم رقة ولطافة وما كان منه في المديح والوصايا والحكم والأحكام، ونحو ذلك مما هو قدر مشترك، وأن يتوسط فيه.)

ويرتبط (الغريب) من الألفاظ لديه بطريقة أهل البادية إلا أن مفهوم الغريب لديه، يكتسي طابعا تاريخيا لا طابعا استعماليا فالغريب عند اليوسي ليس ماعجز معاصروه من القراء عن فهم معانيه وإنما هو ما اعتبره العلماء في العصور الأدبية الأولى غريبا يقول متحدثا عن العرب القدامى من أهل الفصاحة، (... غير أن ألفاظهم اليوم عادت مستودعة ومذاهبهم أصبحت منكرة وذلك لغلبة العجمة على أهل الزمان، فاقتصروا على ألفاظ محمولة، وتراكيب مصنوعة يتداولونها بينهم، ويعدون ما سواها غريبا وحشيا، ولم يعلموا أن الغريب إنما يعرف بعد معرفة المستعمل من لغة العرب بالتبحر فيها والإطلاع على معظمها وإلا فالمجهول المجتني يسقط الريح، جميعها عنده غريب)[2] والطريف أن اليوسي في شرحه للفظ الغريب يأتي بما هو أغرب.

ب - الهيكلة:

والمقصود بها البناء العام المتمثل في توزيع الأغراض الشعرية داخل هيكل القصيدة، ويبدو أن الشاعر كان مدركا لطريقة القدماء في توزيع الأغراض الشعرية داخل القصيدة، فالنسيب عنده،

1- نفسه ص 147

2- نيل الأماني ص 147

عرض تفتتح به القصائد[1] والإستعطاف، عرض يأتي في آخر القصائد: (ولما فرغ من التهنئة وما وطئ لها، أخذ في الإسعطاف على ما هو شأن الشعراء في آخر القصائد). لكن تتبع النظام الذي وزع من خلاله موضوعاته الشعرية داخل القصيدة يوحي بأنه لم يكن يعير اهتماما كبيرا لهيكلة القصيدة فقصيدته هذه من حيث هي نظام محتمل، بالقياس إلـــى النماذج القديمة، تبدو مراكمة لمجموعة من الأغراض الشعرية بطريقة لم يراع فيها جنس التخلص مـن غرض إلـــى غرض[2] ولعل في طول القصيدة وارتباطها بتنوع معارفه، ما يفسر تراكم الأغراض فيها فاليوسي نفسه يصرح بأن قصيدته هذه مزيج من المعارف والعلوم المتنوعة (فإن القصيدة بحمد الله.... قـد اشتـملت من العلم على أنواع..... فـمن فنون العرب ثمانية: النسيب والأمثال والحكم والوصايا والوقائع ،المديح والإستعطاف والتهنئة وفيها غير ذلك كالأوصاف والإفتخار وسير المطايا ونحو ذلك، ومن فنون التصوف أربعة:
الوعظ، وشرح المملكة الإنسانية، وآداب السلوك، ومنازل السالكين إلى ما يتبع ذلك كنسب الطريقة وصفة القدوة ونحو ذلك..)[3]

والواضح أنه لا ينظر إلى هذه الفنون والأغراض باعتبارها مكونات لنظام مبين وإنما ينظر إليها باعتبارها مكونات مستقبلية لمجموع تتجاوز عناصره دون أن تخضع لأي نسق بنائي يتحكم في تجاورها ولا يغلي هذا الإستنتاج إحسانه التخلص وإشارته إلى النسيب يأتي في مفتتح القصائد وأن الإستعطاف يأتي في الخواتيم، فعرض المعارف لديه هو الغاية لا البناء ولا يعد هذا غريبا في البيئة الشعرية المغربية التي كانت الشخصية العلمية فيها تنافس الشخصية الشعرية لدى نفس المتأدب.

ج - الحركة الشعرية: والمقصود بها الطريقة التي ينتقل بها الشاعر عبر أقسام القصيدة، ولا يختلف تصور اليوسي لهذه الحركة عن تصورات جمهور النقاد، فالقصيدة عنده مطلع وتخلص وانتهاء، هذا إلى ما احتوت عليه من براعة المطلع وحسن التخلص والإنتهاء[4]

1- نفسه ص 20

2- يرجع إلى القصيدة لتتبع الطريقة التي وزعت بها الأغراض.

3- نيل الأماني ص 3

4- نيل الأماني ص 3

ورغم كون هذا النص لا يفرق تقريبا (يقاصر) صريحا بين براعة المطلع وحسن الإبتداء يتضح من شرحه الأول بيت في القصيدة، إنه يقصد ببراعة المطلع ما أسماه القدماء ببراعة الإستهلال: (وفي البيت براعة المطلع لاعتبار الهضاب بهضاب العلم والدين الواردين من غير الحقيقة وبحر الشريعة كالشيخ الممدوح رضي الله تعالى عنه)[1]

والمقصود بالبراعة هنا البراعة في ربط معنى النسيب بالغرض الرئيسي الذي صيغت من أجله القصيدة[2] أي جعل النسيب ينبئ بما سيرد في وسط المطلع تختلف عن حسن الإفتتاح الذي يقصد به جعل أول أبيات القصيدة يستعذب في الاذن أو في العقل، ويهيئ الملتقي لسماع باقي الأبيات وينجم عن هذا التمييز بين براعة الإستهلال وحسن الإفتتاح، إن الشاعر قد يكون بارعا في الإستهلال مسيئا الإفتتاح، أو محسنا للإفتتاح غير بارع في الإستهلال، أو جامعا بين براعة الإستهلال وحسن الإفتتاح، وإذا كنا قد ربطنا مصطلح براعة المطلع لدى اليوسي، بمصطلح براعة الإستهلال لدى القدماء، فإننا في الحقيقة نربطه ببعض التصورات النقدية التي انفرد بها بعض المتنوقين من النقاد، فالذين فرقوا من القدماء، بين براعة الإستهلال وحسن الإفتتاح قليلون، ولذا نعتبر تمسك اليوسي بهذا التفريق، شاهدا على تمثله المتنوق لبعض النكت النقدية التي غابت عن كثير ممن سبقوه.

أما تصوره للتخلص أو الخروج فلا يختلف كما يتضح من كلامه السابق عن تصور غيره من النقاد فالتخلص لديه خروج غير عنيف من غرض إلى غرض آخر: (وهذا الكلام تخلص إلى فن آخر من الكلام وهو الرعظ أو التذكير وخروج من النسيب والتشبيب)[3]

د – الأطناب: اختلف النقاد في المفاضلة بين الايجاز والأطناب في الشعر وذهب كثير منهم إلى اعتبار الأطناب شاهدا على مقدرة الشاعر وكفائته لأن المطنب في ر أيهم قادر على الإنجاز إذا شاء، خلافا للموجز ولا يخالف اليوسي هؤلاء النقاد في اعتباره الأطناب والإطالة في الشعر مظهرا من مظاهر الشاعرية القوية، لكنه يقيد هذه الإطالة بتجنب العيوب التي تنجم عنها، ويتضح ذلك في قوله متحدثا عن قصيدته: (وحسبك منها أنها قد طالت إلى نحو خمسمائة بيت

---

1 – نيل الأماني ص: 4

2 – كالمدح – مثلا أو العتاتب

3 – نيل الأماني ص: 20

وأربعين بيتا، ولا يوجد فيها روي مكرر ولا ضرورة تستكبر وإذا تأمل ذلك كله وغير ذلك من محاسنها اللبيب المنصف عدها كرامة من كرامات الشيخ الممدوح بها)[1] إن اليوسي وهو يبيح للشاعر الأطناب والإطالة في قصيدته، إذا أنس من نفسه القدرة على مجانبة العيوب التي يوقعان فيها، يكاد يرسخ ما قاله أبو العلاء المعري قبله من أن الشاعر المطيل كحطاب ليل يجمع الرديء والجيد، وفي هذا التقارب بين الرأيين ما يمكن أن يجعل افتخار اليوسي بأطنابه المجانب للعيوب تنظيرا ضمنيا للشعراء من هذا الأطناب الذي يعتبر مزلة قلما يسلم الشعراء من عواقبها.

III- ***المكونات الدلائية:*** ونقصد بها المعاني الشعرية الكبرى أو ما اصطلح على تسميته بالأغراض أو الفنون الشعرية، وإذا استثنينا النسيب فإننا لا نجد أية إشارة صريحة تكشف عما يمكن أن يعد تصورا نقديا خاصا لهذه الأغراض، لكن يبدو من خلال الإستعمال أن تصوره لها لا يختلف عن التصور المشهور[2] ويستشف ذلك من خلال إشارته إلى أن الإفتخار والتظاهر بمحاسن الأخلاق والأفعال شيء مستباح في الشعر[3] وإشارته إلى علاقة المدح بالمبالغة[4] أما النسيب فقد عرفه تعريفا صريحا حين تحدث عن خروجه إلى غرض آخر: (وهذا الكلام تخلص إلى فن آخر من كلام وهو الوعظ والتذكير، وخروج من النسيب والتشبيب، واعلم أن التشبيب عندهم في الأصل هو ذكر الكلام أيام الشباب واللهو والغزل، ويكون ذلك ابتداء قصائد الشعر)[5] والذي يبدو متميزا في تعريفه للنسيب أنه يقرنه بمقدمات القصائد، فما تبتدأ به القصائد يعده اليوسي تشبيبا إن لم يكن في ذكر أيام الشباب واللهو والغزل. وهذا الفهم يعتبر من التصورات النقدية التي ليست شائعة في الكتابات النقدية.

IV - ***روافد الشعر:*** من القضايا النقدية التي خاض فيها النقاد القدماء تداخل الشعر والعلم وأثر ذلك في القيمة الفنية للكتابة الشعرية وقد اقتنع الشعراء والعلماء قديما بأن غاية الشاعر ليست هي غاية الحكيم وبأن سعة المعارف لا تجعل من العالم شاعرا، ولعل تداخل

1- نيل الأماني ص: 3

2- أنظر ص: 3 حيث الفنون الإشارة إلى الفنون التي تضمنتها قصيدته

3- نيل الأماني ص: 56

4- نفسه ص: 141

5- نفسه ص: 20

الشخصية العلمية والشعرية في كتابة أبي تمام الشاعر، كان من أهم ما جعل النقاد يهاجمونه معتبرين شعره خروجا عن طريقة العرب، لكن هذا الإشكال النقدي لم يكن واردا بالنسبة للشعراء المغاربة ففي البيئة المغربية التي كانت الثقافة الشعرية فيها عنصرا مكملا للمعارف المخملة يتسم المتأدب بكونه عالما قبل أن يكون شاعرا، لذا لا نستغرب من اليوسي أن يفتخر بالمعارف المتنوعةالتي تضمنتها قصيدته فالمعارف عنده رافد هام من روافد الشعر.

وإذا كان الشاعر قد كلف نفسه شرح قصيدته، فإن ذلك الشرح لم يقف إلا عندما شكل،[1] من الألفاظ، أما شرح مضامينها العلمية فيتسع ويطول وإذا كان تراكم هذه [2] المعارف الصوفية، منسجما مع كون الممدوح عارفا من العارفين فإن تراكم المعارف اللغوية ينسجم مع النزعة التعليمية لدى الشاعر وهي النزعة التي تحيل الملتقي تلميذا محصلا عوض اعتباره سامعا متذوقا:(وفيها مع ذلك جملة وافرة من اللغة ينتفع بها حفاظها)[3] وإذا نحن أدركنا طبيعة هذه النزعة المتمثلة في تحويل النص الشعري إلى متن لغوي علمي، أدركنا الأهمية التي تكتسيها المعارف المحصلة باعتبارها – في البيئة المغربية – رافدا هاما من روافد الكتابة الشعرية.

٧- *الإنحرافات الشعرية*:

ونقصد بها ما يسمى اصطلاحا بعيوب الشعر ورغم كون الشعراء القدامى في عصور التنظير الشعري، قد خالفوا النقاد العلماء في اعتبار بعض هذه الإنحرافات عيوبا، ظل كثير من الشعراء الخاضعين لتأثير النزعة العلمية المدرسية ينظرون إلى هذه الإنحرافات باعتبارها عيوبا يحسن بالشاعر تلافيها.

ولا يختلف اليوسي العالم/ الشاعر عن هذا الإتجاه الأخير، فهو يفتخر بأن قصيدته رغم طولها، خالية من القوافي المكررة والضروريات المستنكرة: (وحسبك منها أنها قد طالت إلى نحو خمسمائة بيت وأربعين بيتا، ولا يوجد فيها روي مكرر، ولا ضرورة تستنكر[4] والتكرار الذي يشير إليه

اليوسي هو ما يسميه العلماء بالإيطاء، والعلماء مختلفون في تعريفه من حيث اعتبار التباعد بين

---

1 و 2 – أنظر نيل الأماني ص: 2 – 3 حيث يشير إلى أن قصيدته تجمع بين فنون العرب والمعارف الصوفية، ويعتذر عن عدم شرحها، لأن شرحها يتسع ويطول.

3- نيل الأماني ص: 3

4- نيل الأماني ص: 3

الأبيات التي يقع فيها تكرار القافية أو اختلاف المعنى مع تشابه اللفظ، ويبدو أن اليوسي كان ينظر إلى هذا العيب نفس النظرة فهو يعتذر عن تكرار لفظة (مولد) في القصيدة بأن المعنى ليس واحد:

(... فالمولد هنا مصدر كما رأيت وهي في قول أول القصيد: عن والدين ومولد، مكان فلم يتكرر اللفظ في القافية لاختلاف المعنى)[1] وأذا كانت الضرورات الشعرية والإنحرافات التي لا يستطيع الشعراء تلافيها فإن ورودها في قصيدة اليوسي يعتبر أمرا غير مستغرب، وقد وصف هو نفسه الضرائر التي ارتكبها بأنها غير مستنكرة [2] لكننا نجده يحاول التهوين من شأن إحدى هذه الضرائر متعللا بأنها تستند على قاعدة لغوية نسيها، وموجها إياها توجيها صوفيا مقبولا: (وكدت الأرض كدا وكدودا، أبطأ نبتها وقد وقع الفعل في البيت مكسورا ولم يحضرني الآن نصه في اللغة فإن كان كذلك وإلا فليقرأ بلا كدى مصدرا أي بلا بطء، ويجوز أن يكون قولك كدي الرجل إذا بخل، ذكره ابن القطاع[3] والذي نستشفه من هذا الإعتذار أن وجود الضرورة في قصيدته فاجأه.

وهو يشرحها وإذا كان وجودها يثبت أن اليوسي لم يستطع أن يلتزم بموقفه النقدي من الضرائر المستنكرة فإن ذلك لا يعتبر مخلا بتصوره النقدي للشعر، فاليوسي الناقد يعتبر هذه الضرائر إخلالا بالجودة الشعرية، رغم كون اليوسي الشاعر قد ركب هذه الضروريات على مستوى الإنجاز الشعري.

VI- *الشعر والحقيقة*:

من القضايا التي واجهت نقاد الشعر، قضية الصدق والكذب، وكان رأي أغلبية النقاد أن الشعر لغو أو تخييل[4] لا يحاسب فيه الشاعر على الكذب بل أن بعضهم ذهب إلى أن أعذب الشعر أكذبه. وذهب قلة من النقاد إلى أن الكذب رذيلة سواء كان كذبا شعريا أو كذبا في غير الشعر. وغالبا ما كانت هذه النظرة الصارمة تنجم عن تأثر بعض هؤلاء النقاد بثقافتهم الفقهية أو الدينية المذهبية والطريف أن اليوسي كان ينظر إلى الكذب والصدق في الشعر نظرة وظيفية،

1- نفسه ص: 140

2- نفسه ص: 3

3- نيل الأماني ص: 101

4- في رأي الفلاسفة

فعوض أن يعتبر الكذب في الشعر رذيلة صريحة، يجعل من الإعتراف بالكذب فيه شاهدا على تمسكه بورعه وتقواه. ويتضح ذلك في تنبيهه المتلقي إلى خصوصية نسيبه وفخره. ففي إشارته إلى هذا الفن الذي جعله تشوقا إلى ديار شيخه الغوث، يصرح اليوسي بأن نسيبه حقيقي كما هو الأمر في إشعار غيره: "ومن محاسنها أن نسيبها جار على أسلوب معظم القدماء من بكاء منازل الأحباب والاثر، على (أسلوب معلم القدماء) التحقيق لا على مجرد الفرض، كما هو حال معظم المحدثين، والله الموفق"[1] إن الشعراء تعودوا أن يجعلوا موضوع نسيبهم كذبا، لأنه عشق للمرأة، ومثل هذا العشق يحمل على الكذب ليجنب الشاعر تهمة الفسق والفجور، أما موضوع عشق اليوسي فهو شيخه الغوث أبو عبد الله محمد بن ناصر الدرعي، ومثل هذا العشق وإن ورد في النسيب، فضيلة تغني الشاعر عن الإعتذار عن هذا النسيب بكونه كذبا لكن شاعرنا عندما يحسن بأن ما يفتخر به في شعره قد يحمل على الغلو والكذب، يعتذر عن هذا الفخر وما فيه من مبالغة بأنها مبالغة في تصور محاسن الأخلاق ومثل هذا وإن كان نوعا من الكذب شيء مستباح في الشعر: (واعلم أن ما وقع في هذه الأبيات وما يقع بعدها من شبه الإفتخار والتظاهر بمحاسن الأخلاق والأفعال هو شيء مستباح في الشعر لا يعاب فيه أحد ومجازه مجاز النسيب أصلا وتمره وفيه لفظ ليس هذا محل بسط)[2] والملاحظ أن جمعه بين الفخر والنسيب في سياق الإعتذار، يفيد ضمنيا أنه يعتبر النسيب كذبا شعريا مباحا لا يعاب على الشاعر، وفي ذلك ما يلحقه – رغم كونه فقيها – بالنقاد الذين اعتبروا الكذب في الشعر عنصرا فنيا مباحا. لكنه عندما يتعرض للمبالغة في المدح، يفرق ضمنيا بين نوعين من المبالغة، مبالغة في مدح أولياء الله. ومبالغة في مدح أهل الدنيا وإذا كان الشاعر مضطرا إلى بناء مديحه إلى المبالغة فليكن ذلك فيمن يستحق ذلك أي في أولياء الله أمثال شيخه الغوث (... وهذا المعنى قد تعاطاه الشعراء مبالغة وتمليحا، وإذا كانوا يركبون ذلك في الملوك أبناء الدنيا، ففي أولياء الله أهل التصوف في الوجود أولى)[3] جعل المبالغة في مدح أهل الدنيا، فمبالغته في فخره قبول ضمني للمبالغة في المدح، ويعني هذا أن المبالغة في الشعر عند اليوسي كذب فني مقبول.

1- نيل الأماني ص: 3

2- نيل الأماني ص: 56

3- نيل الأماني ص: 141

/ / ٧ - ***الشاعر وإبداعه:*** من بين ما تدعو إليه بعض المدارس النقدية الجديدة معاملة النص الأدبي باعتباره بناء مستقلا كل الإستقلال عن صاحبه والطريف أننا نجد لدى اليوسي دعوة غير مباشرة وغير صريحة إلى ما يشبه هذا الإتجاه، ونقصد بذلك تسليمه بأن المعنى الشعري في قصيدة معنى متجدد.

غير قابل للتناهي. ويبدو مثل هذا الحكم مقبولا، عندما يصدر هذا عن شراح متعددين لنفس النص، لكن أن يكون - الشارح هو الشاعر نفسه وأن يعترف الشارح / الشاعر، الذي نفترض فيه أنه تصور المعنى ذهنيا قبل أن يترجمه إلى لغة، بأنه عاجز عن حصر معاني اشعاره أثناء شرحه لها، هو ما يبدو رؤيا نقدية طريفة - فاليوسي ينبه المتلقي أن ما يشرح به شعره ليس إلا وجها تاويليا من عدة أوجه محتملة غير متناهية: (واعلم أنه ما مر لفظ في هذه الأبيات إلا هو قابل لغير ما فسرنا به، ومحتمل لا يزيد من ذلك وأكثر، مما يتسع به مجال الناظر البصير...)[1] وقد يفسر هذا بأن اليوسي الشاعر المتشبع بالثقافة الصوفية، كان يقصد إلى شرح ظاهر شعره، تاركا للعارفين الكشف عن باطنه، لكن ذلك لا ينفي أن اليوسي الناقد كان مقتنعا بأن دلالة النص الشعري دلالة غير متناهية تتجدد بتجدد القراءات، وتتمرد على كل من يحاول تحديدها وحصرها، ولو كان الشاعر نفسه. فالإبداع الشعري في رأي اليوسي - إبداع يصدر عن الشاعر ليصبح غريبا عنه أو متمردا عليه، وحديثه عن نفسه بصيغة الغائب[2] وهو يشرح قصيدته تأكيد لهذا الإغتراب وهذا التمرد. وإذا كان شاعرنا قد أقر مفهوم القراءة المتجدد لنفس النص، فإنه أقر أيضا، مفهوم الكتابة المتجددة لنفس النص، ويبدو ذلك جليا في اعترافه ضمنيا بأنه بنى شرحه لقصيدته الدالية على نسختين في وقت واحد، وذلك في شرحه لقوله لا يستريح إلي الدعاة ولا يرى.. نحب الفتى اليومي بقضية الغد. يقول: (والنحب الحاجة والنذر أيضا، والغد في البيت أصله الغدي بياء النسب.... وفي نسخة الأمسي بقضية الغد... والتعبير بالأيام في البيت توسع، والنسختان بمعنى...)[3] وقد يفسر هذا بأن الشاعر كان ينقح شعره ويتراجع عن بعض ما صاغه كما كان معروفا عن بعض الشعراء كأبي الطيب المتنبي، لكن ما يميز عمل اليوسي أنه يعتبر

1- نيل الأماني ص: 34

2- كقوله، (والمعنى أن الشاعر جرد نفسه مخاطبا فأمره....) نيل الأماني ص: 4 وقوله: (ولما فرغ من التهنئة....) ص: 146

3- نيل الأماني ص: 108

الصورة الجديدة للنص كتابة لا تلغي الصورة الأولى، ومفهوم هذا أن الصورة الثانية لا تنفي وجود صورة ثالثة استقبالا، فكان اليوسي الناقد يدعو الشاعر إلى أن يجدد كتابة أشعاره، دون أن يعتبر ذلك التجديد تنكرا للكتابة الأولى وحديثه وهو يشرح داليته عن نسختيها [1] تصريح غير مباشر بأن الإبداع يتجدد على مستوى الكتابة كما يتجدد على مستوى القراءة.

١١٧- ***الشاعر وإبداع الآخرين:*** شكلت قضية التقليد والإختراع موضوعا من الموضوعات التي شغلت النقاد القدامى، وكان الخوض النقدي في هذه القضية يقود في الغالب إلى طرق مسدودة وذلك نتيجة لازدواجية الأحكام المتعلقة بكل من التقليد والإختراع، فتقليد الشعراء السابقين كان يعتبر نظرا إلى الجودة المتمثلة في أشعارهم وفي ذلك ما يدعو إلى الإفتخار بتكرار تجارب فحول الشعراء وحداقتهم يصبح في نفس الحين تشكيكا في قدرة الشاعر المقلد على الإختراع والتجديد والإختراع سمة اتسم بها ذوو الإستعداد الشعري والموهبة وكون الأشعار مخترعة لم يسبق إليها كان أيضا مدعاة إلى الفخر، لكن افتقار المعاني المخترعة إلى الأصول الفنية المقلدة يصبح شائبة تشكك في جدوى هذا الإختراع إذا كان هذاشعرا فكلام العرب باطل [2] هذه الإزدواجية التي لابست نزعتي التقليد والإختراع جعلت، الشعراء يسلمون بأن التوسط وحده وهو القادر على إقرار صورة الشاعر المجيد لدى المتلقي، فالشاعر المجيد هو الشاعر المقلد/ المخترع. ويبدو أن اليوسي كان يدرك دلالة هذا التوسط، فهو يصرح بأن قصيدته تجمع بين التقليد والإختراع، ولكنه يميل إلى أن الشعر الجيد هو ما يرجع فيه الإختراع على التقليد: (ولما فرغ من التهنئة ... أخذ في الإستعطاف.. فقال مخاطبا الممدوح.... وافتك أي جاءتك مني بكر، أي قصيدة بكر لم تستعمل ولم تعرف قبل، فشبهها بالبكر من النساء التي تهدى عروسا، وهذا المعنى مستعمل عند الشعراء في المعاني المخترعة، وهذه القصيدة منها ما هو كذلك، ومنها ما هو مأخوذ، ، ولكنها بجملتها كذلك وهو المراد) [3]

نخلص في هذه المقاربة لمفهوم الشعر لدى اليوسي، إلى أن الشعر بناء لغوي تتفاعل فيه الأصول الفنية البدوية والعناصر الحضرية المخترعة، يكتب فلا يمتنع تجديد كتابته، ويقرأ فلا يمتنع

1- (وفي نسخة... والنسختان بمعنى...) نيل الأماني ص: 108

2- من العبارات التي قلل بها النقاد من شأن الإختراع في شعر أبي تمام

3- نيل الأماني ص: 146.

تجديد قراءته. وقد يجوز لنا أن نتساءل عن مدى التزام اليوسي في كتابته الشعرية بهذا التصور النقدي النظري كما يجوز أن تكون الإجابة أنه لم يلتزم بهذا التصور، لكن هذا يظل مجالا للبحث لأن الشاعر الناقد وهو يؤسس، لا يكون مطالبا بأن يكون في إنجازه مطابقا لتصوراته النقدية للشعر منظومة مستقلة قائمة بذاتها.

بعض الظواهر المسرحية عند المغاربة في عهد الدولة العلوية

مصطفى رمضاني
كلية الآداب. وجـــدة

يتفق الباحثون على أن المغرب الأقصى يعد من الأقطار العربية التي لم تتعرف المسرح إلا مؤخرا مع بداية القرن الحالي، إذا ما قورن ببقية تلك الأقطار. ولهذا الغياب أسباب متعددة – لا داعي لذكرها الآن –، وربما كان بعد المغرب عن الحواضر المسرحية العربية آنذاك كلبنان وسوريا ومصر من أهمها.

بيد أن هذا لا يعني إطلاقا أن المغاربة لم يعرفوا ظاهرة التمسرح كما توحي بذلك بعض الأبحاث التي تحدثت عن القاعدة والاستثناء في المسرح العربي تحت غطاء العلمية التاريخية. فالقاعدة في نظر هؤلاء الباحثين هي أن العرب لا يملكون حسا دراميا، وهو ما يبرر غياب فن المسرح من ثقافتهم وطقوسهم الفنية.

أما الاستثناء، فيتمثل في التعازي الشيعية كما يؤكد ذلك الدكتور محمد عزيزة في كتابه "الإسلام والمسرح" حيث يقول: "الاستثناء الوحيد لقاعدة الغياب المسرحي هذا هو التعازي الشيعية التي أعطت الإسلام اعتبارا من القرن السابع الشكل الدرامي الوحيد الذي يعرفه[1]، ذلك بأن "العرب الذين لم يفهموا الفكر المسرحي لم يروا في هذه المآسي اليونانية إلا نصوصا بسيطة موزونة وأشعارا حوارية غريبة".[2]

وكما هو واضح، فهذا الرأي لا يخلو من نزعة استشراقية، وهو يتفق في مضمونه مع كثير من الآراء التي تسعى جاهدة لتأكيد ضيق أفق العقلية العربية وعجزها عن التجريد، أو إبداع النصوص الأدبية ذات الطابع الموضوعي كالملحمة والمسرح والقصة وما إلى ذلك من الخطابات.

1- د. محمد عزيـزة – الإسـلام والمسرح – ترجمة رفيق الصبان – منشورات عيـون– الدار البيضاء – ط 2 1988، ص.38.

2- نفسه ص.31.

السردية والدرامية، باستثناء الخطاب الغنائي. وكان هذا التعليل من بين التعليلات التي يوردها بعض الباحثين عربا ومستشرقين لإقرار غياب الظاهرة المسرحية عند العرب.

وبغض النظر عن كل ما يمكن أن يقال في هذا المجال -الذي ليس هو موضوعنا الآن-، يمكننا أن نؤكد مبدئيا أن ظاهرة التمسرح صفة مشتركة بين كافة الأمم. والمغاربة كغيرهم من الأمم مارسوا مجموعة من هذه الظواهر في مختلف المناسبات، باعتبارها أشكالا تعبيرية جمالية مع سبق الإصرار -كما يقول رجال القانون-، أي أن ممارسيها كانوا واعين بأنهم يقدمون أعمالا فنية تتوافر لها خصوصية المسرحة.

وتفيد بعض المصادر أن أهم هذه الظواهر المسرحية قد نظمت وقننت لتكون إبداعات لها ضوابطها الفنية والأدبية والتقنية منذ تولية مولاي الرشيد على العرش بعد وفاة أخيه امحمد، نظرا إلى ولعه بالفن والعلم والرياضة.

وتذهب بعض هذه المصادر إلى أن المولى الرشيد ساهم بشكل مباشر في تأسيس ظاهرة "سلطان الطلبة" التي ستتفرع عنها كثير من الظواهر الأخرى التي تتوافر لها خصوصية المسرحة. بل يرى بعض الدارسين أن المولى الرشيد قد انخرط في الفعل المسرحي حينما التحم بطلبة القرويين بفاس وشاركهم طقوس الاحتفال بسلطان الطلبة، ثم أرسى دعائم هذا التقليد الفني، وشجع التنافس من أجل استمراره، ومهد لمن سيأتي بعده من الملوك العلويين سبل تطوير الظاهرة المسرحية عند المغاربة كما هو الحال مع بعض الظواهر الأخرى "كالبساط" و "سيدي الكتفي" و"بوجلود" و"عبيدات الرما" وغيرها ... وقد استمرت بعض هذه الظواهر المسرحية الشعبية طوال الحكم العلوي حتى بداية الاستقلال على نحو ما سنرى مع ظاهرة سلطان الطلبة مثلا أو البساط..

ويورد الأستاذ إدريس الكتاني روايات عن ظهور "سلطان الطلبة" واقترانها بالمولى الرشيد، ومنها أن هذا الأمير قصد جامعة القرويين بفاس للدراسة والتحصيل، وبينما هو منهمك في ذلك كان زاهد من زهاد هذه الجامعة المختصين بخدمة طلبة العلم يطيل النظر إليه باستمرار، الشئ الذي جعل الطلبة يرتابون في أمره، ثم مالبث أن قطع شكوكهم بأن أسر إليهم بأنه يتوسم في الفتى المولى الرشيد كل علامات الإمارة. ولما كان لابد لهذا الخبر من أن يقع في نفوس الطلبة موقع الإستغراب والإستنكار، بادر المولى الرشيد إلى وعدهم قائلا: "إن صدق الشيخ في

دعـــواه، فسأبتني لكـــم مدرسة تفـــوق هـــذه[3] روعة وجمالا، وسأغمركم بهبات وعطايا لا ينضب معينـها، وسأجعـل لكـم فـوق ذلـك سلطنـة منكـم تقـوم دعائمها على كواهلكم في ربيع كل عام ..[4]

أما الرواية الأخرى، فتقول بأن المولى الرشيد استعان بطلبة القرويين بفاس للقضاء على اليهودي ابن مشعل الذي كان يتحكم في جزء من إقليم تازة ويفرض على سكان فاس ونواحيها ضرائب مادية وبشرية، لعل من أغربها كما يؤكد ذلك الأستاذ إدريس الكتاني أن تقدم إليه سنويا أجمل فتاة فاسية لتكون من بين محظياته عربونا على خضوعهم لسلطانه ونفوذه.

ولما كان المولى الرشيد فارسا وعالما أبيا، فقد رفض هذا الوضع الذي لا يليق بالمغاربة، فاستعان بالطلبة ليكونوا له عونا على قتل ابن مشعل. وبالفعل تم له ما أراد، ومن ثم بايعه أهل تازة وفاس ليكون ملكم الشرعي. وحتى يكافئ الطلبة الذين ساعدوه في تلك المهمة النبيلة، "أقام لهم سلطنة هزلية مؤقتة، وجعلها إرثا مشاعا بين جميع طلاب الجامعة القروية -عدا الفاسيين- يتبوأون عرشها أسبوعا واحدا في ربيع كل عام"[5]

ويبدو أن تأثير هذا النشاط المسرحي امتد إلى الحرفيين والصناع فيما بعد، لاسيما وأن الملوك العلويين عملوا على تنظيم بعض الحرف والمهن. وكان من الطبيعي أن يمتد تأثير سلطان الطلبة إلى عامة المثقفين، وإلى بعض الحرفيين الذين كانوا يحتفلون ببعض مواسمهم الحرفية، شأنهم في ذلك شأن اليونانيين الذين كانوا يحتفلون سنويا بموسم جني العنب، فيقدمون الطقوس للإله ديونيزوس، وكانت تلك الاحتفالات بطقوسها الوثنية بمثابة الإرهاصات الأساسية لما سيسمى فيما بعد مسرحا.

وبالفعل فقد استفاد بعض الصناع من أسلوب سلطان الطلبة الذي كان خاصا بالطلبة الغرباء عن مدينة فاس، فأسسوا أشكالا تعبيرية أخرى في مختلف المدن المغربية، ولا سيما في مراكش وفاس والرباط. وقد تطور الاهتمام بهذه المظاهر الشعبية ذات الطابع الدرامي تمشيا مع سياسة

3- يورد الشارح إشارة إلى أن المولى الرشيد كان يقصد المدرسة التي كانوا يدرسون بها، وكا موضعها بمكان البنك المخزني المغربي بشارع القطانين. انظر إدريس الكتاني -سلطان الطلبة- آفاق (اتحاد كتاب المغرب العربي، المغربية) ع1و2 س19663، ص122.

4- إدريس الكتاني - نفسه - ص. 121-122

5- نفسه. ص128.

تنظيم الحرف التي كان ينهجها الملوك العلويون، كما أن بعضا من هذه المظاهر قد انحدر من أجواء بعض الزوايا وما كان يرافقها من طقوس طرقية، كما هو الشأن مع ظاهرة سيد الكتفي مثلا، وإن كانت شديدة الصلة بظاهرة البساط كما سنرى.

وقد استمرت هذه الأشكال التعبيرية على حالها طوال الحكم العلوي إلى فترة قبيل الاستقلال، بل إن بعضها مازال يمارس في مناسبات خاصة.. ولاشك في أن ارتباط هذه الأشكال بالقصر كان السبب الرئيسي في هذا الاستمرار. وتفيد المصادر أن بعض السلاطين العلويين كانوا يقدمون هدايا مهمة لهؤلاء المبسطين ويستجيبون لمطالبهم الاجتماعية.

ومن المؤكد أن هذه المظاهر تمثل الإرهاصات الحقيقية للمسرح في المغرب بالطريقة المعروفة حاليا، الشئ الذي يبرر تسميتها بالأشكال الماقبل مسرحية، وإن كان بعض المبدعين والنقاد المسرحيين يرفضون هذه التسمية، نظرا إلى ما تحمله من دلالات التحقير والدونية. وقد روج لها الغرب باسم عالمية الشكل المسرحي الأوروبي، لأن الشكل المسرحي الحقيقي في نظره هو ما يمارسه الغرب باعتباره مركز الإنتاج والإبداع، وماعداه باطل أو "ما قبل الإنتاج"، كيفما كان نوع هذا الإنتاج مسرحا أم فلسفة أم تشكيلا أم غيره ...

ولكن في مقابل ذلك يلح أصحاب الإتجاه التأصيلي من المسرحيين العرب على اعتباره هذه الأشكال المسرحية الشعبية أحسن ما يمثل قدم المسرح العربي.

وعلى هذا الأساس اعتبروا "سلطان الطلبة" و"البساط" و"سيدي الكتفي" و"عبيدات الرما" و"بوجلود" وغيرها ... وجها أصيلا لقدم المسرح المغربي، ومن ثم اعتبروا السلطان المولى الرشيد أول من أرسى دعائم المسرح الشعبي بالمغرب بتأسيسه لمسرح سلطان الطلبة ودعمه للظواهر المسرحية الأخرى.

وقد نهج غيره من الملوك العلويين ممن جاؤوا بعده نفس النهج، حتى صار بإمكاننا الحديث عن كل مكونات العرض المسرحي ضمن تلك الظواهر من نص وإخراج وأزياء وديكور وأكسسوارات وإضاءة وموسيقى وتعبير جسدي وغيره مما يتطلبه العمل المسرحي المفتوح.

ونحن إذ نؤكد هذا الأمر، نعتبر أن الحكم على فنية إبداع ما مرهون بحبكة مكوناته الداخلية ومدى تناغمها وانسجامها ضمن سياقها الخاص، طبعا إلى جانب النية المسبقة على ممارسة فعل فني معين. ومما لا شك فيه أن المبدع الشعبي المغربي في عهد الدولة العلوية كان يملك النية مع سبق الإصرار في أنه يمارس ظواهر مسرحية، خص كل واحدة منها بمصطلح صارت تعرف به.

ومن هذه الظواهر كما رأينا "سلطان الطلبة" و"البساط" و"سيدي الكتفي" إلى جانب "لمسيح" و"عبيدات الرما" و"عارفة" و"بوجلود أوسونا" و"الرابلة" و"اشريكةجات" وغيرها ...

وسنركز على الظواهر الثلاث الأولى باعتبارها أقدم من غيرها، وأكثر تمثلا للقواعد المسرحية المتعارف عليها عالميا، ولأنها أحسن ما يمثل قدم المسرح المغربي في عهد الدولة العلوية على وجه الخصوص.

1- ظاهرة سلطان الطلبة:

ويعود تاريخ تأسيسها كما ذكرنا إلى عهد المولى الرشيد بن الشريف بن علي مؤسس الدولة العلوية. وقد انطلقت أول الأمر من مدينة فاس ومن جامعة القرويين على وجه الخصوص، لأن طلبتها هم أبطالها الحقيقيون، ثم مالبثت أن انتقلت إلى مراكش. وهي تظاهرة ظلت الحكومة المغربية ترعاها إلى بداية الإستقلال.

وقد بينا كيف تعهد المولى الرشيد بتأسيس هذا الاحتفال تكريما لطلبة القرويين، وتأكيدا للانفتاح الثقافي والاجتماعي الذي يعكس مظاهر الديموقراطية. وكأن المولى الرشيد بذلك كان يقدم نموذجا عمليا عن برنامجه السياسي في المجال الاجتماعي والثقافي.

ومن هنا حدد أسبوعا كاملا من ربيع كل سنة ليكون أسبوع الطلبة المتميز. ذلك بأنه في ربيع كل عام يعيش طلبة جامعة القرويين بفاس احتفالا كرنڤاليا يجسدون فيه كل مظاهر السلطنة وما يتبعها من تقاليد وأعراف وطقوس.

فبعدما يحصل الطلبة على رخصة من السلطان الشرعي، يشرعون في التهيئ للاحتفال بولاية العرش التي ستدوم أسبوعا كاملا. وبعد ذلك يباع العرش بالمزاد العلني للطلبة الغرباء عن مدينة فاس طوال ثلاثة أيام. وعند صلاة عصر الجمعة يختار صاحب أعلى ثمن ليكون سلطانا للطلبة، ويتوج بكل مظاهر الأبهة والجلال اللذين يليقان بمقام سلطان حقيقي. وكان التنافس في شراء العرش شديدا بين الطلبة، لأن من سيعتليه سيحظى بمقابلة الملك الحقيقي، وسيكون بإمكانه التماس أي شئ منه، لذلك كان ذوو الحاجات والمصالح أشد تنافسا على السلطنة، وإن كان الأثرياء أكثر حظا من غيرهم.

للحصول على العرش، مادام الجانب المادي هو الذي كان يتحكم في حالة المزاد العلني بشكل عام. وفي هذا الصدد يؤكد الأستاذ محمد العلمي أنه نظرا إلى هذه الإعتبارات، فقد وصل ثمن عرش الطلبة إلى ثلاثة عشر ألف درهم سنة 1868.(6)

وبعدما يعتلي الطالب السلطان عرشه، يحاط بكل الرعاية والتقدير كما لوكان ملكا حقيقيا. ويكون حكومته، ويعين حاشيته وبطانته ممن شاء من الطلبة، ثم يأمر أعوانه بالتوجه إلى ضفاف وادي فاس للنزهة وتفقد مكان إقامته هناك، لأن جنبات وادي فاس غالبا ما تكون الفضاء الأساسي الذي يحتضن كل مشاهد تمثيلية سلطان الطلبة. وبالفعل يتجه في موكب سلطاني طلابي للنزهة، وهو يقلد في تصرفاته وطقوس موكبه تصرفات الملك الشرعي وطقوس موكبه، بعد أن تهيئ له السلطات المحلية كل اللوازم المادية والظروف المعنوية لإنجاح مهمته. وحتى يظهر السلطان الطالب في هيئة تليق بالشخصية التي يحاكيها، يبعث له الملك زيا سلطانيا يليق بمقامه ويساهم في تأكيد فعل الاندماج المسرحي، مادام الزي المسرحي علامة مسرحية تتحقق دلالته الوظيفية ضمن السياق الخاص الذي يبلور حدود السنن المسرحي.

وفي أول جمعة تلي تعيينه سلطانا، يتجه الملك المؤقت في موكبه السلطاني لأداء صلاة الجمعة، ثم بعد ذلك يقوم بزيارة بعض الأماكن الأثرية قبل أن يخرج إلى ضواحي المدينة. وأثناء ذلك، يستغل زملاؤه من الطلبة فرصة خروج الناس لمشاهدة الموكب الملكي، كي يبيعوا لهم التمر أو بعض الفواكه...

أما في اليوم الموالي، فينطلق الموكب السلطاني من جديدنحو ضفاف وادي فاس -مكان الحفل- وتنصب الخيمة الملكية بعد أن يميزها الطلبة بما يليق بها من مظاهر الأبهة، ثم يحيطون بها خيام بطانته وحكومته وبعض أعيان المدينة الذين يحلون ضيوفا على الملك الطالب.

وهكذا يستغرق هذا الاحتفال المسرحي أسبوعا كاملا، يلجأ فيه الطلبة إلى تقديم مختلف المشاهد التي يحاكون فيها أفعال الحكومة، في حين يقلد سلطان الطلبة بكل تقمص واندماج شخصية الملك الحقيقي، ويتلقى الاستجابة الكلية من لدن رعيته الطلابية؛ حتى إذا كان اليوم الأخير من أيام حكمه المؤقت، أمر حكومته بالاستعداد لاستقبال السلطان الشرعي. وتتم مراسيم الاستقبال في جو من الإحترام والتقدير، لأنها أهم لحظة ينتظرها الجميع للاستمتاع بمشهد لقاء سلطانين أولا، وللتأكد من شخصية سلطانهم المؤقت ثانيا. غير أن لحظة الوقار والاحترام هذه لا تمنع من خلق جو فكاهي مرح، كأن يخطب وزير الطلبة أو المحتسب أمام

6- من المأثورات الشعبية في المغرب -التراث الشعبي(العراقية) ع 1 س9. 1978، ص.37

السلطان الشرعي بكلام مسجوع يقلد فيه بعض خطباء الجمعة التقليديين مثلا. وبعدها يتقدم سلطان الطلبة للسلام على الملك ثم يقدم له ملتمساته وطلباته. وبعد انتهاء اليوم السابع من الحكم المؤقت، يترك سلطان الطلبة مملكته فارا، وإلا تعرض لسخرية زملائه وضربهم له، ماداموا ينتظرون هذه الفرصة حتى ينتقموا منه بشكل كاريكاتوري.

إن هذا المظهر التعبيري يتوفر على كل مكونات الخطاب المسرحي المفتوح. ويلتقي في كثير من جوانبه مع المسرح الشعبي الذي أسسه جان ڤيلار وتلامذته. كما يلتقي مع مسرح التروبادور والمسرح الارتجالي والكوميديا دي لارتي وغير ذلك مما يسمى بالمسرح خارج الجدران. فهو مسرح يعتمد على الارتجال والتلقائية وتحين الفرص، تماما كما كان الحال مع عروض المسرح اليوناني في بداية نشأته. غير أن هذه الخصوصية لا تحول دون توافره على كل صفات التمسرح، لذلك قلنا إنه يمثل قدم المسرح المغربي بكل أصالة.

ولعل هذه الخصوصية هي التي خولت لبعض الدراميين العرب – والمغاربة منهم بخاصة – إمكانية استغلاله استغلالا جماليا ، كما هو الشأن مع المبدع الطيب الصديقي في مسرحيته التي تحمل اسم "سلطان الطلبة"، وكذا مع محمد مسكين في مسرحيته "عاشور". وجاء هذا التوظيف الجمالي استجابة للمد التأصيلي في المسرح العربي، وهو مد يركز على ضرورة العودة إلى الأشكال التعبيرية الشعبية لتحقيق الصيغة المسرحية القومية المتميزة والأصيلة، بعيدا عن الاحتذاء والتبعية الصارمة للأشكال المسرحية المستوردة، لاسيما إذا كانت لا تلائم ذوق المتلقي العربي المسلم.

2- *البساط*:

وهذا المصطلح مشتق من معنى الانبساط، وهو الانشراح والمرح. وهو المعنى الذي ذهب إليه بعض الباحثين كالدكتور حسن المنيعي.[7] وقد عرف هذا المظهر التعبيري أول الأمر في عهد السلطان مولاي محمد بن عبد الله (1757-1790) وإن كنا لا نعرف تاريخ بدايته الحق. بيد أنه عرف بارتباطه بقصور الملوك والأمراء ورجال الدولة، لأن هؤلاء كانوا يستعينون بالمبسطين لإضفاء أجواء المرح والفكاهة على مناسباتهم العامة والخاصة. لذلك فقد كانت وظيفتهم داخل القصور، قريبة جدا من وظائف المهرجين في مختلف البلاطات.

7- أبحاث في المسرح المغربي – ط. صوت مكناس – 1974 – ص.17

غير أنه إلى جانب ارتباطهم بالقصور كان هؤلاء الفنانون الشعبيون يقدمون فرجاتهم في الشوارع وفي بعض الساحات العمومية، حيث يلجؤون إلى تقديم مشاهد اجتماعية نقدية يتناولون فيها موضوعا من الموضوعات التي تشغل بال عامة الناس. وبذلك يصعب الحديث عن نص جاهز عندهم، لأن مستجدات الواقع هي التي تفرض نوعية النص وطبيعة المعالجة وحدودها. وهذا ما يجعلنا نميل إلى أن هذا النوع من المسرح الشعبي ذي الطبيعة الاحتفالية لم يكن يمثل ما يسمى اليوم بالفن أو الأدب الرسمي، بقدر ما كان ظاهرة فنية شعبية، جاءت لتعبر عن طموح بعض الفئات الشعبية وهمومها، ولا سيما فئة الخرازين. ولما كانت الدولة تشجعها ماديا ومعنويا، فقد كانت تقابل دعمها ذاك بكثير من التقدير والوفاء.

ونظرا إلى الشعبية التي حظيت بها فرحات المبسطين، لجأ هؤلاء إلى تكوين فرق متعددة في كل من فاس ومراكش والرباط، وتنافست هذه الفرق في تطوير أساليب إبداعاتها رغبة منها في كسب جمهور أكبر، وفي إبعاد الملل عنه لتحقيق أكبر قدر من المتعة والمنفعة والجرأة في فضح بعض العيوب الاجتماعية. غير أن ماكان يوحد هذه الفرق كلها هو طابع المرح والسخرية.

وقد كان الملوك العلويون يستعينون بهم لإحياء بعض الحفلات الخاصة، إلى جانب الأعياد والمواسم الدينية والوطنية. وقد كان هؤلاء المبسطون يهيئون لهذه المناسبات الرسمية ما يناسبها من تمثيليات واسكيتشات، وإن كان الطابع النقدي والنزعة الكاريكاتورية والمرح والفكاهة وغير ذلك هو الطابع المميز لإبداعاتهم الشعبية.

وتشير بعض المصادر التي أرخت لهذا اللون من التعبير الدرامي إلى أنه يتوفر على كل ما يؤهله ليكون مسرحا شاملا، من نص وإخراج وديكور ورقص وغناء وتعبير جسدي وغيره، طبعا إلى جانب النية المسبقة التي يملكها هؤلاء المبدعون في أنهم بالفعل يقومون بعمل فني له ضوابطه الأدبية والجمالية.

ولأجل ذلك خلقوا مصطلحات خاصة بهم وحددوا على أساسها أدوارهم. ومن هذه المصطلحات، مصطلح البوهو، وهو الممثل المبسط العادي. أما الممثل الرئيسي فيسمى رئيسا أو مقدما، وهو الذي يتصرف في توزيع الأدوار والحوارات وتحديد بعض الأمور الأساسية في سيرورة المشاهد التي يقدمونها، لأن الارتجال لم يكن مطلقا، وإن كان الجمهور يتدخل من حين لآخر في بعض المشاهد أو الحوارات بشكل تلقائي. وهناك أيضا مصطلح "الشاط" وهو الساط أي الممثل الذي يرمز للشر والقوة، وهناك اليهودي الجشع، وحديدان الشديد الذكاء والنبيل، وكانوا يضيفون شخصيات أخرى كالغولة والمهرج إلخ...

ويتميز المقدم بجرأته وسرعة خاطرته وبداهته وحدة ذكائه حتى يكون حاضرا وقادرا على الرد على تدخلات الجمهور، أو إنقاذ بعض المواقف الحرجة أو الطارئة، لاسيما أمام السلطان أو من يمثل السلطة عموما. ويعرف هذا الرئيس بزيه المتميز، إذ يضع طبقا من الدوم أو الحلفاء على وجهه حتى يتحرر من الخجل أو الحياء، ويرتدي جلد حيوان، ويعلق في عنقه سبحة من التين الجاف ويسبح بأخرى بشكل كاريكاتوري، ومن حين لآخر يقضم تينة أو يضرب بها طفلا يستفزه حتى يثير ضحك المتفرجين، كما يضع لحية طويلة مصطنعة من مخلاة حمار أو جلد تيس أو غيره، وهكذا حتى يبدو مظهره مثيرا ومضحكا.

ومن المعروف أن فرقة المبسطين تجوب الشوارع وهي تقدم فرجاتها قبل أن تصل قصر السلطان، ويرافقها عازفون يختصون بالضرب على التعريجات وآلات أكوال والدفوف. وحين يصلون إلى القصر يشتد حماسهم فيشترك الجمهور في الرقص، والبوهوات يندمجون في أدوارهم رغبة منهم في إثارة إعجاب السلطان وبطانته حتى يحصلوا على هداياهم...

ويرى عبد الله شقرون أن هذا الكرنـــڤال الشعبي "يذكرنا تماما بما عرفته بلاد اليونان في أزهى عصور حضارتها يوم كانت -أثينا - تشاهد أعياد - ديونيسات - حيث تطوف الفرقة الكبرى على المدينة قبل وصولها إلى - الثيميلي -، أي مكان التشخيص. إنها حقيقة حفلة من حفلات - ديونيسوس - . وما ذاك - البوهو - المغربي سوى شخص - الكوريفي - أي كبير المجموعة المقدم. وإذا كان المبسطون المغاربة يترنمون بإنشادهم في ذلك الموكب، فما هذا إلا صورة من إنشاد - ديثرامب - اليوناني. وكان الإنشاد هنا وهناك يتوقف ليؤدي الممثل الرئيسي كلاما مناسبا للموقف إن جدا وإن هزلا. كما أن الرقص كان هنا وهناك ضروريا وشديدا. وإذا كان ذلك النوع من التمثيل يسمى عـــنداليونان - كوموس - أي صنيعة المتطوعين من الشعب، فإن - البساط - أيضا صنيعة المتطوعين من عامة الشعب". (8)

وبما أن الملوك العلويين كانوا يشجعون هؤلاء المبسطين ويفتحون لهم أبواب قصورهم، فإن هؤلاء الفنانين الشعبيين كانوا يعتمدون تلك الفرص لبث شكواهم وتقديم الولاء، إلى جانب تحقيق بعض الأغراض الخاصة طبعا. وكانت تقع بعض الأحداث الغريبة أحيانا أثناء التقائهم بالسلطان، على

8- تطور المسرح المغربي قبل الاستقلال وبعده - محاضرات في الموسم الثقافي لسنة 1967 - كتابة الدولة في الشبيبة والرياضة - ط: فضالة- المحمدية (المغرب). 1967 ص. 146.

نحو ما وقع للقبيلة التي جاءت للتقدم هدية للملك مولاي الحسن الأول عربونا عن إخلاصها، فوجدت أن الهدية قد غيرت بأخرى مزيفة.[9] غير أن السلطان كان يتقبل أخطاءهم بالعفو، مما يشجعهم على الاستمرار في طابعهم النقدي الجريئ، وفي معالجة بعض الظواهر الاجتماعية الطارئة على المجتمع المغربي، أو التي تسيئ إلى الآداب العامة والأعراف. وهذه الميزة تشفع له بأن يكون في بعض جوانبه ذا بعد إصلاحي، بل يذهب أستاذنا الدكتور حسن المنيعي إلي اعتباره "يحمل إرهاصات الالتزام العميق كمسرح تقليدي عرف عصره الذهبي طيلة حكم المولى عبد العزيز، (1895-1904)، وقام بدور فعال في نطاق الحركة الوطنية".[10]

ويضيف الدكتور حسن المنيعي أنه لما تخلى بعض المبسطين عن دورهم الإصلاحي ووجهوا فنهم نحو السفاهة والإسفاف، توجهت جماعة من مبسطي فاس إلى محمد الخامس لتشكو له ما آل إليه فنهم، وتطلب منه أن يمنع استمرار تقديم مثل تلك العروض ذات الطابع التهريجي.[11]

ويؤكد الدكتور المنيعي مرة أخرى أن البساط يتوفر على عناصر درامية مغربية أصيلة، وأنه يتضمن أشكالا متنوعة من الحفلات الجماعية القائمة على الرقص واللعب والموسيقى. ويرتب هذه الأشكال الشعبية الدرامية على النحو التالي:

- رقصات وأناشيد الطوائف الطرقية والدينية.
- الرقصات الشعبية التي تؤديها مجموعات القبائل المغربية.[12]
- أغاني ورقصات خاصة تؤديها الشيخات واليهوديات.
- مسرح السفهاء.
- مسرح الصناع والحرفيين.
- مسرح النساء.[13]

9- أنظر د. حسن المنيعي، أبحاث في المسرح المغربي، ص.18.

10- نفسه، ص. 22

11- نفسه، ص. 22

12- أنظر بعض تعريفات هذه الرقصات في مجلة الفنون (المغربية) ع6 و7 س1.

13-أبحاث في المسرح المغربي، ص.19.

وقد استمر مسسرح "البساط" إلى عهد الحماية ثم اندثر كما اندثر كثير من التراث المسرحي التقليدي عند المغاربة. ولكن بعض المبدعين المولعين بالتعامل مع التراث أبوا إلا أن يوظفوه باعتباره شكلا جماليا قمينا بأن يستجيب لخصوصية الشكل المسرحي العربي المستقبلي. وفي هذا الصدد وظف عبد الكريم برشيد شخصية "البوهو" في مسرحية "عطيل والخيل والبارود" ليكون لسان حال عامة الناس كما يظهره هذا الحوار:

البوهو: من أنا؟ أنا من استعار أثواب المهرج. أنا من حملني الناس إليك شكواهم يا مولاي فجئتك في زي المهرج، جئت أحمل عذاب الفقراء وجوع الجوعى، جئتك بأشياء تحدث في حضورك الغائب ...(14)

3- سيدي الكتفي:

وهو لون مسرحي شعبي عرف في عهد المولى يوسف. وقد تولد عن فن البساط كما تؤكد ذلك بعض المصادر. واشتهر به صناع وحرفيو مدينة الرباط، لاسيما وأن السلطان مولاي يوسف قد شجع الحرفيين على تنظيم مهنهم. وكان من نتائج ذلك التنظيم أن فكروا في خلق تظاهرات فنية خاصة بهم، ومن ثم عملوا على تقليد المبسطين. وحتى يكونوا مستقلين عنهم، أطلقوا على أنفسهم اسم فرق "سيدي الكتفي" تشبها بالطوائف الدينية أو تيمنا بها.

ويرى الأستاذ عبد الله شقرون أن احتفالات سيدي الكتفي - أو الكرنڤال كما يحلو أن يسميها - نشأت في أحضان الحرفيين الخرازة. أما الفرقة فتتكون عادة من اثني عشر عضوا يرأسهم مقدم، وينوب عنه خليفته أثناء غيابه. أما المكان الذي يقدمون فيه حفلاتهم، فغالبا ما يكون هو بيت أحد أعضاء الفرقة أو بيت من يستضيفهم، شأنهم في ذلك شأن بعض الجماعات الطرقية.

أما إخراج هذا اللون من المسرح الشعبي فيتم على الشكل الآتي:

يتقدم المقدم - أو نائبه في حالة غيابه - المجموعة، وينتصب وسط الدار ثم يتبعه الأعضاء الآخرون واحدا واحدا بانتظام ليسلموا عليه، فيضرب بكفه على رؤوسهم بالتناوب، ويقبل يديه ثم يدعو لكل واحد منهم باستهزاء ماكر قائلا: "الله يقلب شطايرك، الله يزيدك فيها رطلين".(15)

14-عبد الكريم برشيد، عطيل والخيل والبارود، سلسلة الثقافة الجديدة، ط. الأندلس، الدار البيضاء، ط، ص31.

15- عبد الله شقرون - تطور المسرح المغربي قبل الإستقلال وبعده- ص.148

وعندما ينتهي هذا المشهد التقديمي الكوميدي، يجتمع كل الأعضاء ليعطيهم المقدم تعليمات تخص الفرجة التي سيقدمونها وطبيعتها، ويحثهم على حسن تقمصهم أدوارهم بدون هزل أو تراخ، وينذرهم بالعقاب في حالة الخروج عما اتفقوا عليه. ويبدو أن هذه التعليمات كانت ضرورية لأن الفرقة لم تكن تؤدي فرجات نمطية جاهزة باستمرار، وإنما كانت تستجيب في ذلك لظروف المكان الذي يجتمعون فيه، ولطبيعة الشخص الذي استضافهم ومزاجه.

وبعد هذه التعليمات، يبدأ المقدم بقراءة الفاتحة والدعاء لصاحب البيت، والأعضاء يرددون آمين. وأثناء ذلك يغير مجرى الدعاء بما يثير الضحك والمرح وهكذا.

أما المرحلة الثانية في هذا المسرح الشعبي، فتمثل بحق عرضا كوميديا تاما، إذ يقوم أعضاء الفرقة بتشخيص بعض المشاهد التمثيلية يحدد موضوعها المقدم. وغالبا ما يكون هذا الموضوع معروفا لدى الجميع أو معدا سلفا، من ذلك مثلا التشهير بأحد الأشخاص المعروفين ببعض الطبائع المرفوضة من لدن المجتمع، أو بأحد أعضاء الفرقة المطرودين، إلى غير ذلك مما يشكل موضوع الساعة. وغالبا ما يتم الحوار بطريقة كوميدية وبلغة مسجوعة، مما يجعلها قابلة للتمسرح والغناء وملائمة لأن ترفق بالرقص.

وعند نهاية هذه التمثيلية الكوميدية، يشتد حماس المقدم ليصاحبه حماس الأعضاء، وينهض الجميع للحضرة والرقص والصياح على نحو ما يفعل الطرقيون حتى يتطاير البصاق، وتتبعثر الأفرشة والوسائد وغيرها مما بالبيت.

ومن بين المشاهد الدرامية التي مثل بها عبد الله شقرون في هذا الشأن، المشهد الذي يجعل من عائلة أولاد الشيخ الهواري موضوعا لفرجة سيدي الكتفي.(16) ويؤكد من جهة أخرى أن هذا اللون من المسرح المغربي التقليدي لا يختلف كثيرا عن طوائف التمثيل الديني، ولا سيما طائفة منحة المسيح التي عرفتها فرنسا ابتداء من القرن الثاني عشر إلى حدود القرن الرابع عشر الميلادي، وهذا النوع من المسرح الديني في نظره هو الذي كان وراء ظهور المسرح العامي الهزلي(17)

16- نفسه ص149

17- نفسه ص 147

أما فيما يخص المغرب، فإن هذه الظواهر التعبيرية كانت - بدون شك - بمثابة الإرهاصاتالمباشرة لفن المسرح بالشكل المتعارف عليه حاليا، وهو الشكل الذي لم يمارسه المغاربة إلا مع بداية العشرين من هذا القرن. ولكن مع ذلك، فإن تلك الأشكال المسماة ما قبل مسرحية تتوفر على كل العناصر الدرامية، الشيء الذي يخول لنا الحديث عن قدم المسرح المغرب من خلالها.

الواقع الفكري في فجر الدولة العلوية

عبدالله بنصر العلوي
كليـــة الآداب. ظ.م. فـاس

إن الفكر – وهو مجال حيوي هام في المجتمع – لا يقوم بوظيفته الاجتماعية – أي الترابط العضوي بين الفكر والواقع– إلا بتحديد منطلقات تعبر عن إشكاليته في مدى تعبيره عن العصر، وتعميق علاقات الأفراد وتوظيف معطيات المجتمع، بحيث يتمثل هذا الفكر واقعه، ويوجهه نحو تحقيق وعي في سبيل فهم ذاته وإدراك تطلعاته .

وإذا كان الفكر المغربي قد ارتبط عبر مراحله التاريخية والإبداعية بدعامتين اساسيتين هما الكتاب والسنة، فان ذلك أظهر بوضوح العقلية المغربية التي تلائم الواقع الاجتماعي وتستجيب لمعطياته الفكرية. ومن ثم كانت الرؤية سنية امتزج فيها الفكر بالواقع، والواقع بالنمط الأفضل للسلوك. ولعل هذه الرؤية اكتملت معالمها مع المذهب المالكي الذي انتشر في المغرب ووجد فيه المغاربة الأرضية لسن واقع يحل اشكالياته اليومية في إطار تفاعل يتخذ من الأسس الثلاثة التالية عقيدة تبعده عن كل شذوذ في العبادات او استغلال في المعاملات او تلكؤ في العلاقات. وقد جمع هذه الأسس عبد الواحد بن عاشر [1] في منظومته" المرشد المعين على الضروري من علوم الدين"فقال:

في عقد الاشعري وفقه مالـــك * وفي طريقة الجنيد الســـالك [2]

1– (990–1090) فقيه متصوف ،اتسمت حياته بكثير من التواضع وطلب الحلال، انفرد بعلم الرسم واشتهر بمنظومته في فقه المالكية. راجع صفوة من انتشر ص59 – النشر 140/1 – الالتقاط ص 21 وهامش 6 – الاعلام للزركلي 4/(175– الموسوعة المغربية للاعلام الشرية والحضارية لعبد العزيز بنعبد الله 35/2

2– مختصر الدر الثمين والورد المعين احمد الفاسي مبارة على منظومة المرشد المعين على الضروري من علوم الدين لابن عاشر ص 13

وقد علق محمد الطالب الحاج[1] قائلا: " ان هذه الاسس او الفنون متعلقة بأقسام الدين الثلاثة: الإيمان والإسلام والإحسان ."[2]

وتوضيحا لذلك لابد من قراءة اجتماعية لعقيدة الاشعري ولفقه مالك ولطريقة الجنيد، لما تمثله هذه القراءة من وحدة الفكر المغربي وما يطبعها من وحدة الرؤية ووحدة المنهج.

فبعد الفتح الاسلامي للمغرب تسربت اليه مبادىء الشيعة والخوارج وفقه ابي حنيفة[3]، وقد تعرض المغرب مع بداية تأسيس الدولة الإدريسية لصراع بين الشيعة والخارجية والسنية، كما تعرض لصراع آخر بين الحنفية والمالكية. وانتهى الأمر بانتصار السنية والمالكية. ولم يتم هذا الا في عهد المرابطين. ولم تكن دعوة ابن تومرت لمذهب جديد - هو مزيج من الأشعرية ومبادىء الشيعة وهي من الخارجية[4] - إلا فترة استيعاب في واقع المذهب المالكي ، لينطلق على دعامة متينة ايام بني مرين ويحاول فيها التوفيق بين النظرية الشرعية من جهة وبين الواقع وتطوره من جهة أخرى، لتحقيق سلوك منهج جديد يعتمد على التصرف والاجتهاد[5].

لقد كان مذهب مالك[6] عقد المغاربة" اصلح المذاهب الفقهية لاقامة نظام قانوني وقضائي شامل، ملائم للعقلية المغربية الواقعية، والمزاج المغربي المتزن ، نظام متوازن ومتكامل ، يضمن الحقوق ، ويبسط رواق العدل ، ويعين على حفظ الأمن والاستقرار ، نظام يحمي الامة والدولة من الهزات والانحرافات، بما وضعه من قاعدة " سد الذرائع " ويفتح الباب في وجههاللتطور والتقدم باستمرار بما دعا إليه من اعتبار" المصالح المرسلة ". ويحفظ على المجتمع تماسك وانسجامه بما

1- (1973) من انتهاء المالكية بالمغرب، تولى القضاء بمراكش وفاس ، له مشاركة في اكثر العلوم الاسلامية راجع الاعلام للمراكشي ص303/6 - بالاعلام للزركلي 171/6.

2- انظر حاشيته على شرح مباره لمنظومة ابن عاشر ص 15/1.

3- ترتيب المدارك ... للقاضي عياض ص 64/1-67-

4- استقصا ص 140/1

5- الامير الشاعر ابو الربيع سليمان الموحدي عصره حياته وشعره للدكتور عباس الجـــراري ص 48 .

6- (93-172) مالك بن انس امام دار الهجرة واحد الائمة الأربعة المشهورين راجع مالك بن انس لابي زهرة - الإعلام للزركلي ص 258/5 - تاريخ التراث العربي لسبزكين ص 130/2 وحول فقه المذهب المالكي انظر مصادره وأصوله: سحنون مشكاة نور وعلم وحق لسعدي ابي جيبس:33 فذكر اصول المذهب المالكي من الكتب التالية: - مدونة سحنون - الأسدية - الواضحة - المتبية او المستخرجة - الموازية.

اقره من" العوائد والأعراف" دون تزمت ولا إجحاف"[1]. وبذلك تكون طبيعة المذهب المالكي الواقعية والقائمة على اعتماد عمل اهل المدينة - باعتباره نوعا من الإجماع - لا تعتمد المنطق والقياس بقدر ما تعتمد على النص والنقل ، وهذا ما يجعله يتفق والمزاج الفكري للمغاربة الذي ينفر من الفلسفة والغموض ،ويتجنب التعقيد والتأويل ، ويميل إلى البساطة والوضوح، ويتمسك بالأثر والرواية، وينزح إلى الاستقلال عن كل سلطة أجنبية [2].

اما عقيدة الأشعري [3] فقد ساندت اهل السنة بالأخذ النقلي أولا ثم الدليل العقلي ثانيا، فكانت بذلك وسطا بين تيار عقلي جارف نهجه المعتزلة وبين حياد مطلق التزمه السنيون. وبذلك اعتبرت الأشعرية البديل عن الاعتزال والسنة، ولمراعاتها الواقع ومواجهاتها لاشكالياته بعقلية تنهج روح الجماعة .كما رفضت أن تكون الأفعال من خلق الإنسان كما يقول المعتزلة واقرت بقدرة الإنسان على كسب هذه الأفعال. وقد اتبع أغلب المسلمين مذهب الأشعرية حتى سموا باهل السنة والجماعة. كما اعتبروه خير منهج ووضعوه في منزلة تلي منزلة القرآن الكريم والسنة الشريفة .

كما اعتمدت طريقة ابي القاسم الجنيد [4] على الكتاب والسنة ، ولذلك فهي خالية من البدع. وقد لقيت هذه الطريقة قبولا حسنا من المسلمين، فأحبوا الجنيد وعظموه.

وبذلك انصهرت هذه الأسس في بوتقة الفكر المغربي ، فشكلت واقعا اعتمد المذهب المالكي. فكان التوازن بين الجبر والاختيار في العقيدة الأشعرية، وبين التصوف والتعبد في طريقة الجنيد، مجالا يربط بين السنة والاشعرية في العقيدة والتوحيد ، وبين السنة والتصوف في اللتعبد. بذلك حققت هذه الأسس كما قال ابن الحاج الإيمان ، والإسلام والإحسان.

1- ندوة الامام مالك، محاضرة ، للمكي الناصري ص 1/83.

2- راجع د.عباس الجراري ابو الربيع الموحدي ص2/ ندوة الإمام مالك، محاضرة ص 1/160 وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ.

3- (360 -324) ابو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري مؤسس مذهب الأشاعرة، فقيه متكلم،له عدة مصنفات راجع الإعلام للزركلي ص 4/262 - تاريخ التراث العربي لسيزكين ص2/373 وحول الأشعرية راجع ظهر الإسلام لأحمد امين ص:65-ج 4 - دائرة المعارف الإسلامية الطبعة العربية.

4- (297) فقيه ومفت ومتصوف له طريقة تتجه اتجاهه وتسمع برأيه انظر: طبقات الصوفية للسلمي ص 48 و 100- وفيات الإعيان لابن خلكان ص 1/146- الاعلام للزركلي ص 2/141 - تاريخ التراث العربي ص 2/404 .

ومن خلال واقعية الفكر المغربي المذهبية، يستطيع هذا البحث ان يحلل بعض ملامح الواقع الصوفي والعلمي والأدبي وما اثارته من اهتمامات تعكس واقع هذه المرحلة من تاريخ المغرب التي يحاول ، هذا البحث الحديث عن بعض معالمها.

الواقـــــع الصوفـــــي:

إن أثر الجنيد في التصوف المغربي ، وما اشاع فيه من خصائص سنية، جعله يتمثل - بفضل المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية - الوحدة بين روحية التصوف وعقلية الفقه. لان:! من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف. فقد تفسق ومن جمع بينهما فقد تحقق[1]. وقد تم هذا الاتجاه عن واقعية في التفكير وابتعاد عن كل تطرف ، لان الكتاب والسنة عمدتا كل من الفقه والتصوف ، لما يجعل العمل الفكري يكرس للدفاع على العقائد السنية. وبذلك بتعمق هذا الإتجاه فيصبح التصوف المغربي كما يقول عبد العزيز بن عبد الله:" قطعة من التصوف الإسلامي العربي لما تركته نظريات الصوفية المغربية من آثار عميقة في الفكرة الصوفية الشرقية[2]. ويعود انتشار هذا الإتجاه في المغرب واشعاعه في المشرق الى القطب عبد السلام بن مشيش[3] الذي اثر بسلوكه في ابي الحسن علي الشاذلي[4] الذي اذن له شيخه ابن مشيش بالدعوة الى الله وارشاد السالكين والمريدين إلى طريق الحق . وإليه تنسب الطريق الشاذلية التي تقوم على خمسة اصول :

أ - " تقوى الله في السر والعلانيـة.

ب - " اتباع السنة في الأقوال والأفعال

ج - " الأعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار

د - " الرضا عن الله تعالى في القليل والكثير.

1- حاشية ابن الحاج على شرح مبارة لمنظومة بن عاشر ص 115/2

2- تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث ص: 5 - 1

3-(622هـ) صوفي مغربي اشتهر بالصلاة المشيشية. وقد شرحها كثير من العلماء انظر الإعلام للزركلي ص 9/4- الموسوعة المغربية ص 115/2.

4- (593 - 656) متصوف مغربي اشتهر باذكاره التي جمعها في احزاب انظر ابو الحسن الشاذلي لعلي سالم عمار - الإعلام للزركلي 305/4

هـ - الرجوع الى الله في السراء والضراء ."(1)

والمنحى الصوفي في هذه الأصول واضح جلي ، لاعتبار الطريقة الشاذلية المتصلة بابي القاسم الجنيد من أسلم الطرق الصوفية وأقربها الى السنة. وقد انتشرت هذه الطريقة في المشرق بفضل تلاميذ الشاذلي ومريديه. وتجاوب معها المجتمع الإسلامي واصبح لذلك سند دقيق لاتباعه المتأثرين به وبعد الشيخ محمد بن سليمان الجزولي (2) والشيخ احمد زروق (3) العمدتين في ذيوع هذه الطريقةفي التصوف المغربي. فساهمت الطريقة الجزولية - بفضل انتشار كتابها دلائل الخيرات - في تعدد الزوايا في مجموع جهات المغرب ، وفي احضانها نبتت فكرة الجهاد ضد الصليبية حيث عملت على بث الحمية الوطنية في النفوس (4) .

اما الزروقية فقد كانت أكبر تأثيرا في الوسط المغربي لشخصية صاحبها فقد كان رجلاً يتملى بالعلم ويتقوى في الدين ، فلم ينكص على عقبيه في علم ولا عمل" (5) ، ولثراته الذي كان محل عناية وتقدير ألهم عديدا من العلماء تحليله وشرحه ونظمه طيلة العصور التالية. وقد استوثق التواصل بين المشرق والمغرب - بفضل شيوع الزروقية - لتأثيرها على المجتمع الإسلامي في مختلف أقطار الإسلام، رغم ما عرفته في بداية أمرها من عدم تجاوز تعاليمها الدائرة الضيقة للشيخ ومريديه ، ولعل مرجع ذلك الى مستوى هذه التعاليم لمالها من نقاء وصفاء ، ولما لصاحبها من علم وعمل. لذلك كانت فروعها امتدادا صوفيا لرسالة التصوف الحقيقية التي نبتت رؤاها في ظل الكتاب والسنة (6) .

1-راجع - الأنوار القسية في تنزيل طرق القوم الحلية لمحمد ظافر المدني ص 36 - احمدزروق والزروقية لعلي فهمي خشيم ص 181 - د.م.ا-13/57.

2- (- 870) من اكبر المتصرفين المغاربة، وهو من اتباع الشاذلي ،له دلائل الخيرات وحزب الفلاح راجع الأعلام المراكشي ص: 5/40-106/ الاعلام للزوكلي 6/151/د.م.ا.ص: 6/447وانظر سنده في الشاذلية الاعلام للمراكشي ص5/46.

3- (- 899) من اشهر المتوفين المغاربة، عاش طويلا في المشرق له القواعد في التصوف ،مؤلفات أخرى، راجع سيرته وثراثه ومصادره في كتاب احمد زروق والزروقية لعلي بهمي ص: 21-131

4- مقدمة تحقيق التقاط الدرر ص 100

5- زروق لعبدالله كنون ص 12

6- أحمد زروق والزروقية ص: 160

وبتعدد الطرق الصوفية شاب التصوف كثير من البدع والانحراف - رغم صفاء المنبع - فتسربت فرق ضالة تنتحل الزوايا والرباطات لأغراضها الخاصة. ولم يخل عصر من العصور من معاناة امرها وقد اشتدت وطأتها في المغرب بعد القرن الثامن الهجري حيث اصبح التصوف في متناول العوام [1] ، متأثرا في ذلك بما نهجه الشرق في التصوف فكانت المستحدثات الشاذة والبدع المنتحلة قد جردت التصوف من كل مقومات الخير والحق والجمال. ومن ثمة كانت الطريقة الشاذلية بفرعيها الجزولي والزروقي في المغرب والمشرق قد رصدت طاقات صوفية جديدة ركزت دعائم الطرقية السليمة، وحاسبت الطرقيين المنحرفيـــن .

في المغرب حيث لعبت الزوايا في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين دورا هاما في نشر الوعي الديني والصوفي ، كانت الأحداث السياسية قد زرعت القلق في النفوس ، وبذرت الرعب في القلوب مما أدى الى الخوف ، فعم ادعياء العارقية وكثرت الرباطات، وساد التصوف في صورته الإجتماعية كثير من مظاهر الانصراف عن الحياة الدنيا لحقارتها، وهذا ما يجعل الإحساس بتقوى في أوقات القهر، وبتزايد في زمن الأزمات. فالشعور بالإرهاق النفسي والضياع الإجتماعي يخضع الفرد لواقع متردد. ومن ثمة كان القرن الحادي عشر - خاصة - يستجيب لمعطيات الخريطة الصوفية. فعمدت الزوايا حسب امكانيات تطورها ومناطق نفوذها - الى تقويم نفسية الفرد وفق منظورها. ولما استطاعت الزوايا أن تلعب دور الوسيط بين الرعية والسلطان زمن نضجها الصوفي لانها تمكنت - بعد غياب السلطة المركزية - من كسب ثقة الناس والدفاع عن مصالحها. ومع ذلك فإن الفرد اصبح يعاني من أزمتين : أزمة الذات وأزمة السلطة. وقد حاولت الزوايا ان تنهج سبيلا لحل أزمة الذات ، وذلك بتعميق الشعور الديني ومحاربة التشاؤم والقلق اللذين حولا افرادا من المجتمع الى مجاذيب وبها ليل يعيشون في هذيان ويتشبثون بالترهات. كما حاولت الزوايا ان تساهم في انقاذ المغرب مهازمة السلطة بتجاوبها معه الأحداث .

لذلك كان الأخذ في منظور هذه الزوايا الى الواقع - رغم وحدة طريقتها الصوفية - شاهدا على ما راج في المغرب من أحداث وفتن خلال هذه المرحلة فالزاويتان الدلائية والسملالية قد قامتا بدور هام ، رعاية لمصالحهما وحفاظا على انتمائهما القبلي فساهمتا في إبراز نمط فكري صوفي - سياسي . اما الزوايا الأخرى الفاسية والناصرية والسياسية فقد حافظت على دورها العلمي - الصوفي وهذه الزوايا وان كان نمطها الفكري صوفيا فحسب فقد كانت تؤثر تؤثيرا فـــي تعميق

1- تطور الفكر واللغة ص 112 - 114.

الرؤية الصوفية المغربية في إطار الطريقة الشاذلية. كما عبرت عن موقفها من ادعياء العصر وما ساد طرقهم من ضلال .

وقد راجت أفكار أخرى لها ارتباط وثيق بنمط الفكر المغربي الذي يطبعه طابع التصوف السني. فمكن جهاد العياشي ضد الصليبيين من المحافظة على الثغور الإسلامية من جهة وللدفاع عن الدين الإسلامي من جهة أخرى .

اما بالنسبة للعلويين فقد كانت فكرة الشرق بالانتماء الى النسب النبوي وفكرة الرئاسة لضمان الوحدة الوظيفية من المؤهلات التي تميز بها نمطهم الفكري ، بسبب ما نالوه من الحظوة والتقدير لدى العامة والخاصة ، لما للشرق من اهمية بالغة في المجتمع المغربي ، ومن ثمة فإن فكرة الشرف عند العلويين في سجلماسة كانت البديل عن الزاوية، باعتبارها مؤسسة دينية لها بعض السلطة - فحقق العلويون بذلك تطورا في رؤية الأحداث ومكنهم من القضاء على كل منافسة ، كما عملوا على توحيد المغرب تحت إمرتهم. ولئن اعتمد النمط الفكري عند العلويين على فكرة العرض ، فإنه اتبعد عن كل تشيع ، نظرا لأصالة سنية الفكر المغربي.

إن سنية الفكر المغربي قد بلورت تلك الاتجاهات التي ساهمت بتقارب نمطها الفكري في تحقيق حلول لأزمة الفرد وأزمة السلطة. غير أن تلك الاتجاهات وقفت صامدة أمام بعض الفرق الصوفية التي استغلت فتن العصر وسذاجة أهل البادية وتهاون العامة، فتطرفت في آرائها باسم الدين لزرع الأفكار الهدامة واستتباب الكراسات والغرافات وحشو الذهن بالترهات. وقد حمل اليوسي حملة شعواء على هؤلاء الأدعياء فرسم صورة لما اصاب التصوف المغربي من انحراف قائلا:" كم تظاهر بالخير من لا خير فيه من مجنون أو معتوه أو موسوس او ملبس ، فيقع الإغترار بالجهلة الأغمار ... وقد يشايعه من هو على شاكلته من الحمقى ومن الفجار" [1] ومن اخطر النحل التي سادت هذا العصر العكاكزة [2] التي استحلت الحرام واقتحمت الناكر وتوهت تعاليم الدين وابدعت بدعا ضالة. وقد عانى منها العصر الأمرين ، فحاربها ملوك وادحض تعاليمهاعلماؤه .

1- المحاضرات ص: 105.

2- انظر رسالة اليوسي عن هذه الطائفة في رسائل اليوسي ص 1/274-299 راجع دراسة عبد الله نجمي عن هذه الطائفة في مقال بمجلة كلية الآداب بالرباط 5 - 6/1989 ص 59 - 94 .

- الحركة الفكرية ص 1/237

- الموسوعة المغربية... معلمة المدن والقبائل ص: 2/316.

إذا كان الفكر المغربي قد قام على دعامتي الكتاب والسنة فان مفهوم - باعتباره تحصيلا لسن قواعد اجتماعية والماما بمعارف ثقافية، وإبداعا لرؤى ذاتية - يقترن بالدين. فيتجدد للعلم مجاله النظري قصد تحقيق علاقات تجمع بين المعرفة والسلوك وبين الفكرة والعمل. ومن ثمة يكون مثل هذا العلم يسعى الى تحقيق - مادة الإنسان عن طريق الهداية إلى الصراط المستقيم .

ان مفهوم العلم في الفكر الإسلامي يهدم العقيدة، فيثبت اركانها ويعمق الإيمان بها ويجلو اشكالاتها. وترتكز اسس هذه العقيدة على المجهود الروحي والأخلاقي الذي يبذله الإنسان في دخيلة نفسه، ليحقق مجالا ارحب يحمله على إدراك الحق والنور ، والعلم بهذا المفهوم أكسب الفكر المغربي حضورا - وهو يعاني أزمات هذه المرحلة ، فنحا منحى دينيا، عبر من خلاله على خصوصياته التي تلون أفكاره وطبيعة واقعه. ومع ذلك فإن تحصيل هذا المفهوم يبقى أملا يتطلع إليه الإنسان ليكون من السعداء الراسخين في إيمانهم وإحسانهم. كما أكسب العلم- بنفس المفهوم-الفكر المغربي غيابا، - وهو يعاني تأخرا في المدلول الحضاري للكلمة التي تعني روح المنطق والتجربة-[1] فنحا نحو القوالب الفكرية الجاهزة. ولم يستطع المجال النظري لتحقيق تلك العلاقات الاجتماعية ان يتقدم خطوات تبعا لقانون الجدل والتطور. ومعنى ذلك ان مفهوم العلم بنظرتي الحضور والغياب كان أرضية في الفكر المغربي فهم الواقع. بحيث كان الحضور في أساليب التحصيل العلمي والإلمام بالمعارف في ظل قصور التعبير الإبداعي عن الروى الذاتية. وكان الغياب لوحدة العلوم الإسلامية وتكاملها.

ومن خلال هذا الحضور، كان اهتمام الفكر المغربي بالسنة والتصوف، وخاصيته في نزوع رؤيته إلى الفقه - في نفس المرحلة التي يدرسها هذا البحث مركزا على الزوايا حيث قامت بحركة علمية حققت نشاطا تفاوتت فعاليته ، فحفظ تراث الأمة الروحي من الاندثار. ولم يكن عملها يقتصر على الذكر والأوراد ، بل تجاوز ذلك الى التعمق العلمي في أكثر الفنون كما كانت الزوايا مؤسسات تعليمية اطلعت بدور محاربة الجهل في شتى صوره، ونشر الوعي الفكري في مختلف نزوعاته.

---

1 - ان العلوم فقدت منذ اوائل القرن الحادي عشر الهجري سمتها العلمية فامست مجرد حرف تقنية. انظر الفكر العلمي ومنهجية البحث عنده لما المغرب مقال بمجلة المناهل العدد 11 ص:158 لعبد العزيز بن عبدالله.

ولعل الزاوية الدلائية تأتي في مقدمة الزوايا التي حققت نهضة علمية، فاعتنت بالعلم وتكوين العلماء وتنوير افراد المجتمع اعتناء بالغا فكانت – كما يقول عبد الحي الكتاني [1] –" اعظم زاوية كانت في المغرب، انتشر منها العلم وانتعش ، بعد ان اضمحل أو كاد [2]. وقد تكاثر فيها عدد المشتغلين بالتدريس لما كان بها من معاطاة العلوم والدؤوب على درسهاواقرائها ليلا ونهارا ما تخرج به جماعة من صدور العلماء واعيانهم حتى كانت الرحلة اليها في المغرب لا يعدوها الطالب ولا يأمل سواها الراغب [3]. وكانت خزانتها عظيمة حتى شبهها بعضهم بخزانة الحكم المستنصربالأندلس [4] فبنت بهذه المكانة العلمية – في مرحلة التطاحن السياسي ، فأما وفاقتها وقد حاول المولى رشيد بعد خرابه لزالوية ان يشجع الدراسة في فاس لمحاولة القضاء على نفوذ الزاوية العلمية .

ولا تضارع الزاوية الدلائية في مكانتها العلمية الا الزاوية الناصرية التي احتفظت باشعاعها في الجنوب، حققت آثارا ناصعة في العلوم الإسلامية عمت المغرب حتى تمبوكتو ولازالت خزانتها من أعظم الخزائن العلمية بالمغرب [5].

كما عرفت الزاوية السملالية بعض الازدهار العلمي ، فقد التف عدد من الكتاب والفقهاء حول اميرها، وتحفظ لها كتب التاريخ والتراجم بالعديد من آثارهم [6].

وساهمت ايضا في هذا الدور العلمي الزاوية الفاسية [7] والزاوية العياشية [8].

1- (– 1962) احد علماء المغرب الكبار له مشاركة في كتب من الفنون وخزانته الموجودة جزء منها بالخزانة العامة قسم الوثائق) من ابرز الخزانات المغربية.

2- فهرس الفارس والإثبات ومعجم الرشيد بعد خرابه للزاوية ان يشجع الدراسة في فاس لمحاولة القضاء على نفوذ الزاويةالعلمية.

3- نزهة الحادي ص 279 – الإستقصا ص 6/97

4- قوامها عشرة الآف سفر. انظر الزاوية الدلائية ص 71

5- راجع – الدرر المرصعة في اخبار اعيان درعة لمحمد المكي الدرعي مخط وطبع 365 ك – حضارة وادي درعة من خلال النصوص والآثار لمحمد المنوني مقال مجلة دعوة الحق العدد الثاني والثالث السنة 19 .

6- راجع ايليغ – المعسول

7- راجع – مرآة المحاسن فياخبار الشيخ ابي المحاسن لمحمد الفاسي – امنتهاج العلوب لعبد الرحمان الفاسي

8- الأحياء والإنتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش لعبد الله ابن عمد العياشي مخداوا مصور خ .ع 1433 د.

الواقـــــع الأدبـــي:

إذا كان الفكر المغربي قد سادته النزعة الفقهية، فان هذه النزعة قد انعكست على ثقافته وحضارته، فبروز المغاربة في مجال الفقه، وعنايتهم بالإتجاه السني في التصوف ، ودفاعهم المستميت عن الإسلام، وانصرافهم عن الذات ... تلك عوامل جعلت شخصية الأديب منزوية خلف شخصية الفقيه الذي يهتم بالعلم قبل الفن وبالحقيقة قبل المجال[1] غير ان ذاك الفن وهذا الجمال ليسا منقطعين عنه ، فقد لونتها الإهتمامات الفكرية بالواقع. ومن ثم كان" الأديب لا ينال خطوة إلا إذا كان له مع أدبه إلمام بالفقه"[2]. فيتخذ الأدب – بحديه المضمون والشكل – مفهوما يعطبغ بالصبغة الدينية. وإذ ذاك يتم الالتزام بالواقع وبالفن.

وإن للأدب المغربي – بهذا المفهوم – حضورا في الفكر المغربي ، وتنوعا في الثقافة المغربية ، وتميزا في الإنتاج الفكري. لكن غياب التعبير الأدبي او استقلال الإبداع جعل الأدب المغربي بتطور ببطء عبر عصوره ، لغلبة النمطية في التفكير وسيادة التبعية في الرؤى. مما لون هذا الحضور بثقافة اسلامية تفسر عمق صوره وتحدد مدى خياله. فوفرة قصائد المولديات والرسائل الديوانية والاخوانية والرحلات العلمية تعكس اهتماما ادبيا واضحا مع الاهتمامات الفكرية الأخرى. لأن الطابع الموسوعي للثقافة المغربية وكذا للثقافة الإسلامية يتميز بمدى الالتزام بالواقع وبالتعبير عن مجالاته قصد تحقيق مستوى لمسؤوليات المفكر، كي يفهم واقعه ويطوره.

وهذه الملابسات هي التي جعلت مدلول كلمة الأدب يتميز بطابع العصر ، ويتحدد مفهومه بموسوعية بعيدة عن تحديد ضيق أو تقصير في الرؤية. والأدب بهذا المعنى يعكس الثقافة والحضارة في مجال تأثرها بالمقومات العامة للشخصية المغربية التي تعتمد في تكوينها الثقافي على العلوم الشرعية والعلوم الأدبية، فتنمحي الحدود بينهما. ويعبر تداخلها عن التمازج الثقافي في الفكر المغربي ، غير ان هذا التمازج حين تتغلب فيه النزعات الذاتية يكون اقرب الى الإبداع ، وحين تتغلب النزعات الموضوعية يكون أقرب الى التأليف.

لكن ، رغم تلك العوامل التي حددت المفهوم العام للفكر المغربي بصفة عامة، وللأدب المغربي بصفة خاصة، وينزع الأدب المغربي الى التعبير عن الذات وهمومها، والعصر ومشاكله ، ويقوى هذا الإتجاه خلال القرن الحادي عشر الهجري نظرا لتأثير الأحداث وتنافر الزعامات .

1- الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية لمحمد الأخرص 5

2- تصدير لمحمد الفاسي لكتاب ابي المعارف عميرة المخزومي للدكتور محمد بنشريفة ص 3

وقد لعبت الزوايا المغربية دورا هاما في الحركة الأدبية. وبلغت الزاوية الدلائية شأوا عظيما، فالثقافة الأدبية واللغوية المتينة التي كانت تدرس فيها هي التـــي احيت دمـــاء الأدب في المغرب بعد عدم [1]. كما نشطت الحركة الأدبية في الزاوية السملالية التي طفحت فيها واليها امواج أدبية احتفظت لنا المصادر بالعديد من الأشعار والرسائل [2]. وقد اسهمت الزوايا الأخرى بحركة ادبية تمثلت في الرسائل الإخوانية والقصائد المديحية.

إن طبيعة واقعية الفكر المغربي لم يتفق عند رؤيتها لفنون التصوف والعلم والأدب ، بل تجاوزت الى تجسيد هذه الرؤيا في منهج التأليف والتدريس وما يحمله من اهتمامات فكرية وسيحاول هذا البحث ان يقف عند بعض الجوانب المتعلق بالموضوع.

طريقة التأليف والتدريـــــس:

إن حركة الحياة الفكرية في المغرب خلال القرن الحادي عشر الهجري فقدت بعض الفعالية ، لأنها انطلقت من قاعدة محددة المناهج في التأليف والتدريس ، فطبعت نمطية تفكيرها بمحدودية في الرؤية الفكرية ، بسبب احداث العصر التي صرفت الهمم عن الإبداع والاجتهاد فكانت ذات نهج اتباعي. وهذا ما جعل منهج التدريس يعتمد على طريقة الإقراء والتلقين التي قامت على أساس المختصرات. وتحظى هذه الطريقة باقبال العلماء والمتعلمين ، لضيق افق العلماء أمام روح الإجتهاد ، ولقصور المتعلمين وانصرافهم عن دراسة الأصول [3]. وقد كان لهذه المختصرات اثر سلبي على الحركة الفكرية ، لما فيها من فساد في التعليم واخلال بالتحصيل [4]. وقد كان مجال العلوم ينقسم الى علوم شرعية وأخرى ادبية [5] فالعلوم الشرعية جعلها بعضهم اثنى عشر علما نظمها ابو بكر بن يوسف السكتاني. [6]

1- خل ويقل لعبد الله كنون ص 275. النبوغ المغربي في الأدب العربي لعبد الله كنون ص 1/274.

2- راجع الفوائد الجمة للتمنارتي - مناقب الحيكي - ايليغ ص 83 - المعسول الأجزاء 5/7/1/8 اعلام المغرب العربي لعبد الوهاب منصور ص: 1/391.

3- الحركة الفكرية ص 1/83

4- المقدمة لابن خلدون ص 532

5- الأعلام للمراكشي ص: 1/134 - 146

6- ابو بكر يوسف السكتاني :(-ت 106) من علماء المغرب رحل كثيرا الى المشرق وتصدر التدريس في مراكش راجع الحركة الفكرية ص: 2/391/ راجع هـ 6 ص 88 من هذا البحث

تفقه بتفسير الحديث مؤرخـــا * بوقت بيان الإرث أصل المحبـــة
ولا تغفلن نحوا بضمن لغاتـــه * تصوف فللسر من علوم الشريعـة
تنابه مرقى من مراقـي افاضـل * وتحفـا بنيل المجد ابلـغ منيتـــي (1)

اما علوم الأدب فجعلها بعضهم اثني عشر علما - ايضا- جمعها احدهم في قولـه :

صرف بيان معان النحو قافيـــة * شعر عروض اشتقاق لها انشـاء
محاضرات وثاني عشرها لغـــة * تلك العلوم لها الأدب اسمـــــاء (2)

والاهتمامات الفكرية بقضايا هذه العلوم لم تستوعب آفاقهامما جعل طابع التأليف يقوم على ظاهرة اتباع اصول وتكرار آراء السابقين ، ويعمه تكثيف المعاني في النظم وتعميق في الأسلوب تعقيد في الفكرة. وكان المؤلف في ذلك يوغل في البحث اللفظي ويحقق الروايات ويتسثكر من الإستطرادات ويفترض الإشكالات، معتمدا على تفريعات المسائل واستظهار النصوص (3). ومن ذلك كانت الشروح والذيول والحواشي تمثل بعض الإبداع والاجتهاد والنقد. كما لم تكن المناظرات والمنافسات تخلو من اثر ذلك ، من اجل تطوير الفكرة وتعميق معانيها وبيان غوامضها وكشف اسرارها.

لذلك كان التأليف في هذا العصر يعتمد على منهج الرواية اكثر من منهج الدراية. والرواية والدراية منهجان انبنت عليها المعرفة العلمية في تاريخ الفكر الإسلامي. وهما يمثلان مرحلتين متمايزتين ، فعندما يعاني جانب الدراية يتم نقد العلوم وتمحيصها ودرجتها ونتائجها ، ويتمثل تلك في عصور التفوق العلمي والازدهار الحضاري. وعندما يطغى جانب الرواية يقتصر الأمر على مجرد نقل العلوم والاهتمام بصحة متنها وقوة سندها، ويتمثل ذلك في عصور التأخر العلمي والانحطاط الحضاري (4).

ومن خلال هذا المنهج اعتمد التدريس على العناية بالسند ،- وهو ركيزة اساسية في علم الرواية - للمحافظة على متن العلوم. وقد كانت له مكانة كبيرة ، فلو لاه لا ختلفت النصوص وتباينت ، ولحرف الكلم عن مواضعه، لان السند اساس في الدين" فمثل الذي يطلب امر دينه بلا سند كمن يرتقي الى سطح بغير سلم". لأنه" سلاح المؤمن" وأساس في استمرار العلم " فما ذهاب

1- الأعلام للمراكشي ص 1/ 143.

2- ن . م 1/1

3- تطور اللغة والفكر في المغرب الحديث لعبد العزيز بنعبدالله ص 65

4- مقدمة تحقيق كتاب التقاط الدرر ص 199 .

العلم إلا ذهاب الإسناد" و" الأسانيد انساب الكتب" [1] ومن ثمة كانت مؤلفات العصر تقوم على الاهتمام برجال السند وهذا المنهج قديم في مؤلفات المسلمين ... ويرجع الفضل الى عبد الرحمان بن علي سقين [2] في ازدهار الإسناد بجامعة القرويين ، كما عمل عبد القادر الفاسي [3] على احياء العلم بالمغرب [4] وكان شيوخ العلم لا يحصلون بالتفسير الا بشرف الرواية، ولا ينالون مكانتهم العلمية الا بتوظيف علومهم بسند عال يصل الطالب بالمدرس بالمؤلف . وقد ترك هذا المنهج في هذا العصر جمودا في الفكر المغربي حيث تقلصت ابعاده وتحجرت عقول الفقهاء، واجتروا علوما محددة، بعيدا عن اي تفكير او اعمال نظر [5].

وتعد الفهارس من اكثر كتابات هذا العصر لانها اعتمدت منهج الرواية في ذكر العلوم واصحابها بمختلف الطرق التي سلكها طلاب التحصيل [6]. ومثل هذا الاهتمام بالفهارس تظهره الإجازات العلمية التي هي بمثابة التصريح بالأهلية للمهنة العلمية تدريسا او فتيا او قضاء [7]. وقد حرص العلماء المغاربة على نيل الإجازة في مختلف العلوم من كبار العلماء في المشرق والمغرب تزكية

1- راجع مقدمة المحقق محمد بن عبد الكريم الكتاب الغنية للقاضي عياض ص: 32-33.

2- عبد الرحمان بن علي سقين :

(873 - 9569 فقيه محدث رحالة، اهتم بالأسانيد ورحل الى المشرق ودرس بفاس انظر درة الحجال ص 3/96. شجرة النور الزكية ص: 275/الحركة الفكريةص349 وهامش17.

3- راجع ترجمته في صفحة 87 هامش 3 من هذا البحث .

4- جامع القرويين للدكتور عبد الهادي التازي ص 2/477.

5- عبقرية اليوسي للدكتور عباس الجراري ص 55

6- هي طرق تمانية: السماع والقراءة والمناولة والإجازة والمكاتبة والأعلام والوصية الوجادة" راجع - الالماع الى معرفة اصول الرواية وتقييد السماع للقاضي عياض/- الكفاية في علم الرواية للطيب البغدادي/ مقدمة الغنية ص 67-62/- المنهج النقلي عند علماء المسلمين للكتورة عائشة عبد الرحمان مقال بمجلة الباحث المجلد الثالث 1974 ص 5/21.

7- جامع القرويين للكتور عبد الهادي التازي ص 1/125.

لعلمهم وتركيزا لمكانتهم. غير انه في هذا العصر بدأ مدلول الإجازة يتسع ليصبح شاملا كل من في البلد ، أدرك المجيز او لم يدركه ، تلقى علمه أو يسيرا منه، مرويا او مسموعا ، وبذلك فقدت الإجازة قيمتها العلمية، لانها اصبحت مظهرا للمفاخرة والمباهاة [1].

الاهتمامات الفكرية

من خلال هذه الحركة الفكرية وملابساتها برزت جملة من القضايا عبرت عن مدى الإهتمامات في الفكر المغربي. فمسائل التوحيد وتغيير المنكر والنقد ، لقيت عناية عند العلماء الذين انكبوا على دراستها ومناقشتها سواء في مناظراتهم أو في مؤلفاتهم. وعرفت هذه القضايا اختلافا بين العامة والخاصة، ودار نقاش حول البدع بين العلماء - باعتبارهم علماء الشريعة الإسلامية - وبين المتصوفة- باعتبارهم شيوخا للزوايا والطرقية - كما ظهرت آراء حول العرض والفتوى ...هذه جوانب فتمثل صراعا قويا كما في قضية خلق الأفعال. وحينا آخر تقل حدة فتمثل مجرد اختلاف في اوجه النظر كما في قضية علم النبي للغيب. وحينا ثالثا تتباين الآراء وتتعارض الأهداف كما في قضية تحديد المصطلح الصوفي والعلمي والسياسي. وسيحاول هذا البحث ابراز بعض الخطوط العريضة لاهم الآراء المتباينة التي تعكس اهتمامات فكرية في الفكر المغربي خلال هذا العصر.

فمن قضايا التوحيد ، تبرز مسألة الكسب او خلق الأفعال وتكون مثار نقاش وصراع فكري عبر عن وضعية ساد فيها التقليد ومقارعة كل جديد. وقد اثارت مؤلفات الكوراني - التي اذاعها في المغرب ابو سالم العياشي - ضجة كبيرة وخاصة عند علماء فاس لما حاوله من فهم لمسائل التوحيد علي ضوء الاجتهاد العقلي ، فدافع عن حرية الإنسان في افعاله مستندا الى فكرة القدر الحادثة. وكان كتاب" مسلك الداد الى مسألة خلق افعال العباد" موضوع نقد وجدل اتسم بكثير من الغلو في ردود محمد بن عبد القادر الفاسي والمهدي بن احمد الفاسي والحسن اليوسي. في حين دافع عنه العياشي في رحلته. كما حاول محمد بن احمد المسناوي ان يظل معتدلا في تقويمه لافكار الكوراني وما اصطرع حولها من نقاش.

1- راجع - الرحلة العياشية - 316/1

- اقتفاء الأثر بعد ذهاب اهل الأثر لأبي سالم العياشي

- اتجاه باجازات المشايخ الاجلاء " " "

ومن شدة حرص الفقيه التاثر محمد بن ابي محلي [1] في سجلماسة على الأمر بالمعروف والنهيعن المنكر، حاول ازالة المنكرات المتعلقة بالتوحيد، ومؤلفا عدة رسائل في الموضوع نفسه[2] وقد ألف العياشي في هذه الضجة مؤلفا ضخما اسماه " الحكم بالعدل والإنصاف الرافع للخلاف فيما وقع بين فقهاء سجلماسة من الاختلاف في تكفير من اقر بوحدانية الله وجهل بعض ماله من الاوصاف.

وفي ما يتعلق بقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد سادت كل العصور الإسلامية. وخاصة حينما تكثر الفتن وتضطرب الأحوال مثل ظروف القرن الحادي عشر الهجري. مما اتاح لادعياء التصوف كالطائفة العكازية ودعاة المهدوية[3] كابن ابي محلي ومحمد عبد القادر التاهرتي ، ولمحاولة بسط افكارهم وتحقيق مآربهم. وقد تصدى العلماء لمقارعة افكارهم وردعهم عن غيهم ، فكتب اليوسي والمجاصي [4] في دحض تعاليم العكازيين وكتب التمنارتي في تسفيه افكار التاهرتي وغيرهم من العلماء الدين كتبوا مؤلفاتهم لمحاربة البدع الضالة والدفاع عن الدين القويم. واتسمت هذه الحركة بعنف الصراع، نظرا لتضاد السنة والبدعة، وتركت اثرها في الفكر المغربي الدي حافظ على سلامة تعاليم الدين الإسلامي .

كما انتشرت في الأوساط الاجتماعية كثير من العادات كاستعمال التبغ الذي شغل الفكر المغربي والف فيه عدد من الكتب والفتاوى والمناظرات[5] وشراب البن الذي دار حوله كثير من النقاش عم النظم والنثر. وقد اختلف العلماء في حلية كل ذلك او تحريمه ، فكان صراعا حادا ابان عن واقع اهتمامات الفكر المغربي .

1- (960 -) ادعى المدونة بسجلماسة وقام بحركتها راجع المحاضرات ص النش 121/1/ الالتقاط ص 61 هـ 5 وص 63 هـ 4/ نزهة الحادي ص 200

2- انظر لائحة مؤلفاته في الزاوية الدلائية ص 135

3- من ادعياء المهدوية بتزنيت في الفترة الواقعة بين 1035-1039 هـ وله مراسلات مع التمنارتي ، وهو شخصية مجهولة في كتب التراجم. راجع الحركة الفكرية 131.

4-(- 1103) فقيه وقاض ، اكبر من شأنه اليوسي راجع النشر 152/2 الالتقاط 263 ه 4/ اتحاف اعلام الناس بجمال حاضرة مكناس لعبد الرحمن ابن زيدان ص 47/4

5- راجع الحركة الفكرية ص 346/1 - 266

ومن بين اشهر القضايا التي احتد حولها الفقهاء رأي ابن عرضون الشفشاوني [1] في حق المرأة في اقتسام ثروة الزوج على التساوي ، وقد كان لهذه الفتوى صدى كبير بين علماء المغرب واصطرعت حولها الاراء ، وخاصة بين علماء فاس وعلماء البادية وكان عبد القادر الفاسي اشد العلماء تحاملا على ابن عرضون لمخالفة رأيه العرض الفاسي. كما شارك في النقاش عبد الرحمان الفاسي في العمل الفاسي وغيرهـــم [2].

ومن الاهتمامات الفكرية في هذا العصر مزاولة النقد لفهم الكتابة وتقويم اصولها وتحديد دلالة القضايا وتوضيح معاني صورها . خاصة في عصر كثرت فيه الفتن واختلطت المفاهيم وتباينت الدلالات وانتقلت البنيات. وقد لاحظ عبد السلام بن الطيب القادري [3] شيوع هذه الظاهرة فحاول في مقدمة كتابه" نزهة الناذي وطرفة الحادي فيمن بالمغرب من اهل القرن الحادي [4]. تحديد الالفاظ المستعملة في تراجعه، فرأى ما ابتلى به بعض العامة وجهلة الطلبة باستعمالهم الفاظا خرجوا بها عن موضوعها وبدروا بها عن صدوقها"..." فكم جهول تعقل في غير معقولها واستعملها في غير موضوعها ومدلولها" ..." وذلك ليكون المتطلع على بصيرة فيما يرد عليه من الفاظ وعلى معرفة بمدلول الخطاب [5]. وقد حدد في القسم الأول ما اصطلح عليه الأولياء والصلحاء من الألفاظ ورأى ان ذلك اكد تفسيرا وتوضيحا وتقريرا مثل الفاظ : الشيخ ، المريد الولي ، الصالح ، القطب ... وحدد في القسم الثاني ما اصطلح عليه الفقهاء والعلماء من الألفاظ لتوضيح نعوتهم والتحقق من مكانتهم مثل الفاظ: الشيخ ، الفقيه ، الحافظ ، الإمام ، المشارك... وحدد في القسم الثالث ما اصطلح عليه الأمراء والسلاطين من الألفاظ لما رآه في وقوع التساهل والتهور في اطلاق هذه الألفاظ مثل الفاظ: الأمير ، الرئيس ، السلطان ، الملك ، القائم ...

وتعتبر هذه المقدمة نفيسة في موضوعها ، لما لها من ضبط وتحديد وتحليل وتدقيق. ولعلها تعكس روح الإهتمام بفن الكتابة وقواعد سلوكها وطرائف ضبط الفاظها في علوم لها قيمتها كالتصوف والفقه والحكم ، فهي تحديد اللمصطلح من أجل كتابة علمية لفن التراجم.

1- ابو عبدالله محمد بن الحسن بن عرضون (ت1017) من فقهاء المغرب يكاد يختص في فقه الأنكحة: انظر الالتقاط ص 40 هامش المحقق رقم 4

2- راجع فاس وباديتها من 1549 الى 1637 لمحمد مزين رسالة دبلوم مرقونة ص 3/453/461/ مقال

3- (10 - 1110) انظر الحياة الأدبية على عهد الدولة العلوية لمحمد الأخضر ص 142

4- مخطوط ضمن مجموع ع.ع.270 د من ص 316 الى 758.

5- ن . م ص 238.

وقد تجلت كل هذه الاهتمامات الفكرية – وخاصة في مجال التعبير عن قضاياها – في فنون القول وابرزها الشعر والرسالة فالشعر عبر عن كوامن الذات ازاء الموضوعات العامة فالحماس السياسي بلاط السلطة[1]، والمديح النبوي في رحاب المساجد والزوايا[2]، صدر ذلك عن مواقف لا تخلو من التزام بقضايا الواقع، اما الرسائل فقد كانت اكثر الرسائل للاتصـــــال العلمي[3]. والمخاطبة الإخوانية[4] والتفاوض السياسي[5] وقد عرفت الرسائل ذيوعا كبيرا لتفاعلها مع الأحداث السياسية والإجتماعية والأدبية كما يلاحظ ان تفاعل النظم والنشر في الرسائل قد تميز بنوع من التدبيج والتضمين حقق نمطا اسلوبيا ، وخاصة في الرسائل الأدبية التي حفلت بآراء نقدية[6].

كما كان الزجل (الشعر الملحون) يواكب احداث العصر واهتماماته ، فعبر عن رؤية العامة ازاء واقعها. وقد لفت هذا التعبير نظر اليوسي فاورد نماذج عديدة في كتابه المحاضرات[7] ويعدالملحون في هذا العصر بداية مرحلة متطورة ، وان اتسمت ببعض الركود فانها لم تلبث ان شهدت ازدهارا فيما بعد. ويعتبر المصمودي من كبار اشياع القرن الحادي عشر الهجري مقعدا لهذا الفن وصلة وصل بين مرحلة سابقة واخرى لاحقة ومشاركها في تطوير القصيدة الزجلية[8] كما ان محمد ابن الحسن لم يكن العياشي يقنع بمراسلة منه الا بالملحون[9].

ومثل هذه الاهتمامات الواقعية اتاحت للمغرب فرص انتشار مراكز ثقافية في البوادي وقد قامت بدور علمي ساهم في الحركة الفكرية – على ظروفها – بنصيب وافر .

1– مقلا شعراء بلاط ابي حسون: امحاولو واللكوس انظر المعسول ج2 و 18/ايليغ/ – وشاعر الزاوية الدلائية احمد الدغوغي انظر نزهة الحادي البدور الضاوية.

2–انظر مولديات الشعراء المنصور واشعار الحلبي والمرابط الدلائي والعياشي وعبد الرحمانالفاسي

3– مثلا رسائل اليوسي والعياشي .

4– مثلا رسائل الحسن اليوسي والعياشي وعثمان اليوسي.

5– رسائل المتبادلة بين القوات المتحاربة خلال مرحلة الفتن في القرنالحادي عشر الهجري. راجع المصادر والمراجع المتعلقة بهذه الفترة

6– للعياشي رسالتان نقديان انظر الثغر الباسم ص 359 – 37 –27–411.

7– المحاضرات ص 143– 135– 137–142.

8– القصيدة للدكتور عباس الجراري ص 593

9– الثغر الباسم ص 231

دور البادية في الواقع الفكـــري .

عرف المغرب خلال هذا العصر عدة مراكز ثقافية ، قامت بوظيفتي الوعي الديني والتلقين العلمي وقد تمثلت هذه المراكز في مؤسسات اتخذت اشكالا حسب ظروف تأسيسها ـ فكانت اما مساجد او مدارس او زوايا [1] . انتشرت في البادية والحاضرة وقد تفوقت البادية على الحاضرة بكثرة هذه المؤسسة حتى لوحظ ان حواضر كفاس ومراكش فقدت مكانتها التي عرفتها ايام ازدهار الحركة الفكرية على عهد السعديين ، بما نالها من الفتن والإضطرابات [2] . وكان لذلك من التأثير في الأوساط العلمية في المدن المغربية وخصوصا فاس ما لا يخفى [3] . حيث انحلت الأوضاع الثقافية وتقلص ظلها الى ان امست مقتصرة على تلقي الأوراق والأفكار للمريدين والفقراء وخاصة في الزاوية الفاسية [4] . كما ان مراكش لم تكن نهضتها العلمية الا في عهد استقرارها ، إذ امها عديد من العلماء الوافدين والمهاجرين [5] . غير انها - شأن باقي المدن المغربية - لم تقو على الفتن. وقد استفادت البادية - في ظل غياب السلطة المركزية - من التجاء كثير من العلماء إليها بعيدا عن اهوال الحروب و ملابسات السلطة المحتضرة، مما مكنهم من ممارسة نشاطهم العلمي وتحقيق رغبتهم في استغلال الرأي ، وعدم الرضوخ للحكم لاستصدار الفتاوى والأحكام. وقد ادرك اليوسي هذا الواقع فلاحظ مدى التفاوت بين البادية والحاضرة في معاطاة العلوم وحوافز الدراسة فرأى " أن اهل الحاضرة لم يشتغلوا بالعلم انما اشتغلوا بالحظوظ الدنيوية، وهؤلاء الغرباء الطالبون للعلم البادية ارفق بهم، لانهم يقرأون فيها بلا بضاعة وينجون مع ذلك من الكلفة [6] .

وتعد الزاوية اكبر المؤسسات العلمية في المغرب ، فلم تكن مجرد بناية لاداء الصلاة وتلاوة الذكر واطعام الطعام فحسب ، بل اصبحت مركزا علميا يستهوي قلوب الناس بما تبثه من إشعاع روحي وثقافي يشمل انواع العلوم والمعارف وبما تحققه خزاناتها من تعليم وتثقيف،

1- المؤسسات الدينية بالمغرب لمحمد حجي مقال بمجلة المناهل عدد 18 ص 122.

2- رسائل اليوسي مقدمة المحققة ص 37

3- النبوغ المغربي ص 1/ 274

4- عبقرية اليوسي 37.

5- الحركة الفكرية ص 2/375

6- رسائل اليوسي ص 1/170

أصل الفكر المغربي وأطر الممارسة الثقافية وإشاع النهل من معين تراثها وذخائرها، فتردد عليها العلماء للإغتراف من حياضها ، واقبل عليها الطلبة من مختلف الجهات لتدارس العلوم. كما ان انتشار الزوايا في البوادي خاصة اتاح لابنائها مستوى في التكوين العلمي ، تميز عن الحاضرة لما حققه من جدية في الدراسة وتفتح في التفكير واعتماد على اصول العلوم. وكانت طرق التدريس في الزوايا قويمة صحيحة تتصل بالمتون الكبرى بعيدا عن الملخصات والشروح.(1)

والبادية بهذا التمييز في حركتها الفكرية، قامت وكأنه قد خطط لها لتكون الزاوية الناصرية في الجنوب بتمكورت والزاوية الدلائية في الوسط قلب الأطلس المتوسط ، والزاوية العياشية في الأطلس الكبير ، وليكون حظها في الإضطلاع بالدرو العلمي او فر من حظ زوايا الحاضرة.(2) وقد تناقلت الألسن وكتب التراجم قول بعضهم :" لولا ثلاثة لانقطع العلم من المغرب في القرن الحادي عشر الهجري محمد بن ناصر في درعة ، ومحمد بن ابي بكر في الدلأ ، وعبد القادر الفاسي في فاس ".(3) وهناك علماء آخرون كمحمد بن أبي بكر العياشي (4) -في آيت عياش ... من تركوا آثارا هاما في توجيه الحياة في البادية والحاضرة بما نشروه من دعائم العلم والتصوف مقاومين البدع الضالة ومحاربين الطرقية المنتحلة . غير ان البادية لم تكن وحدها كما يقول عبد العزيز بن عبد الله: " اكثر ايغالا في الابتداع واشد انحرافا عن الروح الصوفية لغلبة السذاجة على اهلها الذين كانوايبالغون في التبرك بآثار الصالحين حد الشذوذ ".(5) ، بل ان انتشار البدع في الطرق الصوفية بلبل واقع الفكر المغربي سواء في البادية او الحاضرة. وقد قاومت الزوايا في البادية هذا الشذوذ محاولة في الحفاظ على أصالة الفكر المغربي في تصوفه السني المعتمد على فقه مالك وعقيدة الأشعري وطريقة الجنيد .

ان البيئة الفكرية في المغرب خلال هذه المرحلة قد مهدت السبيل لحركة فكرية - اسهمت بعطاء صوفي وعلمي وادبي ، كما مدت المغرب بارهاصات لكثير من انواع الصراع كانت مؤهلة لخلق نشاط فكري وازدهار حضاري ، لولا الظروف الداخلية لتلك الزعامات التي افتقدت

1- ن.م. مقدمة المحققة ص 37.

2- مؤسسات الدينية بالمغرب لمحمد حجي مقال بمجلة المناهل عدد 18 ص 130

3- نثر المثاني ص 1 / 26

4- راجع ص 87 هـ 2 من هذا البحث

5- تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث ص 116.

الاستقرار وامكانيات الاستمرار ، ولاضطرار كثير من العلماء والطلبة الى الجهاد في وجه الصليبيين، أو إلى التخفي خوفا على النفس من الفتن ، ولكن الحركة العلمية التي اشاعها المنصور لم تكن قائمة على جذور متينة بسبب الخمول الذي ساد القرنين التاسع والعاشر الهجريين [1] لذلك كانت البيئة الفكرية متسمة بالمحافظة على وضع سابق واجترار كثير من اهتماماته ، ومراعية لواقع العصر وملابساته.

فكانت اهتمامات الفكر المغربي ومعطياته قد ساهمت كثيرا في تحديد رؤيته التي عانت من آثار التطاحن السياسي والاضطراب الاقتصادي والتفكك الإجتماعي ، ما جعل نظرتها معتمة وواقعها ممزقا. ومثل هذه الرؤية لم تكن تخلو من تجدد تتضح آفاقه فيما بعد حين يعرض المغرب الإستقرار بتحقيق الوحدة الوطنية. وان الفكر المغربي في هذا العصر -كما يقول الدكتور عباس الجراري -"

كان يمر بمرحلة اضطراب وتشتت ، وكان يعرف في نفس الوقت لا مركزية وسعت من آفاقه وابعاده ، وارفدت شرايينه بدماء جديدة قوت كيانه الذي كان على وشك الانهيار ."[2]

وبطبيعة هذه البيئة الفكرية التي عاناها المغرب خلال هذه المرحلة الحرجة من تاريخه يبقى المغرب متميزا بشخصته الفكرية ومساهماتها في مجالات التصوف والعلم و الادب عن المشرق زمن الحكم العثماني الذي شهد فتورا في البيئة الفكرية حيث " الموازين اضطربت ، والتفاوت بين الشعراء اتسع، والقيم اختلت ، واللغة مادت وكان الضغط أميل منه الى اي شيء آخر." [3] وقد ادرك المغاربة في رحلاتهم الحجازية بعض هذا الفتور ، فلاحظ ابو سالم العياشي عندما تصدر للتدريس بالمدينة المنورة - ان البلد شاغر من العلوم ، سيما فقه المالكية ، ولم ير من يحقق ادنى مسائله [4] كما وصف الحسن اليوسي الحياة الفكرية في مصر قائلا:" ما كفى نسمعه قبل مشاهدتنا وحضورنا هذه البلدة من افشاء العلم عليه وكثرة العلماء والمتعلمين وتعاطى الفنون ومداولتها ، لم نر شيئا من ذلك اما لدثوره وانقراضه بموت اهله ... او لهراء بهذه البلاد وهذرهم

1- الحركة الفكرية لحجي ص 54

2- عبقرية اليوسي ص 69.

3- مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني لبكري شيخ امين ص 230

4- الرحلة العياشية ص 276/1

بذلك ... وكذلك اهل الصلاح والولاية المشهورين المعروفين المتصوفين ما رأينا منهم احدا."[1] ولا تخلو هذه الآراء من مبالغة ، فالعياشي نفسه يبرز في رحلته المراكز الفكرية التي زارها وتحدث عن واقعها الفكري بعد اتصالاته بمفكريها . اما اليوسي فلعل اعتداده بنفسه وقلة اتصالاته وقصر اقامته بمصر [2] عميت عنه مقامات الرجال كما يذكر عبد الحي الكتاني [3] ان ما انتاب المشرق من تيارات تركية خلق فتورا في الحركة الفكرية ، وبعد المغرب عن الحاضرة التركية اتاح له استقلالا في الفكر ، رغم ان طبيعة البيئة الفكرية في العالم الأسلامي تكاد تعرف خلال هذا القرن مستوى فكريا متقاربا.

وان ما يمكن قوله في سمة هذا العصر باسباب تخلف الفكر وانحطاط الهمم وتقلص العزائم وشيوع الجهل وعسر طلب العلم[4] ... تبقى الحركة الفكرية في المغرب – رغم تمزقها الثقافي – متحصلة مسؤوليتها إزاء الواقع ، فقاومت بدعه ورسمت سبل خلاصـــــه .

1– رحلة اليوسي الحجازية مخطوط خ ع 1418 ك ص 98 ضمن مجموع

2– مكث بمصر اربعة اشهر وتسعة ايام انظر الرحلة ص 100

3– فهرس الفهارس ص 446/2

4– ابو علي اليوسي لعلال الفاسي مقال بمجلة المناهل العدد 15 – ص 17 .

" من قضايا الفكر لدى المؤلفين المغاربة زمان محمد الثالث وابنه سليمـــان "

أحمد العراقـــي
كلية الآداب. فـــاس

كانت لدى العلماء والأدباء المغاربة خلال الحقبة التي حددناها بعهد السلطانين العلويين محمد الثالث وابنه سليمان (1171-1238هـ/1757-1823م) ، في غمرة انشغالهم بالكتابة فيما كان متداولا من المعارف والعلوم والأدب إبداعا وتأليفا، اهتمامات فكرية متميزة بحملة من القضايا، كانت موضوعا للسجال بينهم والكتابة والمناظرة والأخذ والرد. ومن هذه القضايا ما كان قديما، اهتم به أسلافهم من قبل، ودعتهم ضرورات حياتهم إلى أن يستمروا هم كذلك في الإهتمام به؛ ومنها ما كان طارئا، وليد عصرهم، تعرضرا له وأبدوا فيه الرأي أخذا وردا .

فمن القضايا العامة القديمة: محاربة البدع. لقد تمدى عدد من علماء العصر لنقد الإنحرافات الإجتماعية والدينية والأخلاقية المتفشية بين فئات المجتمع المغربي بصفة عامة، ولدى بعض الطرقيين وأرباب الزوايا بصفة خاصة، وشنعوا على أصحابها، وقادوا أحيانا معارك قلمية ضد من كان يناصرهم. والواقع أن توجههم هذا لم يكن وليد عصرهم ولا وليد حكم العلويين، إنما هو أصيل في تاريخ الثقافة الإسلامية عموما يبرز ببروز الإنحرافات ويتعدى لها كلما قويت. وقد تبنى المخزن السليماني في شخص عاهله محاربة البدع، فكتب خطبة[1] من إنشائه لخطباء المساجد يخطبون بها في الجمع ، ألغى فيها المواسم وتناول بدع الطوائف وذكر بتعاليم السنة. إن الناس قد انساقوا نحو الشهوات وخلطوا إيمانهم بالبدع ، وسلكتت بعض الطوائف كعيساوة وجيلالة سبل الحماقة والضلالة والجهالة، وأضحت تستغل المواسم لابتزاز المال وللهو والفساد واختلاط الذكور والإناث ، وتجتمع للذكر بالغناء والرقص؛ فعلى الناس أن يتوبوا من مناك؛ركم وبدعهم ويعودوا إلى الله ويتقربوا إليه بقيام الليل ومجاهدة النفس وأداء الفرائض ، وعلى الولاة أن يمنعوا الطوائف من حضور المساجد وغيرها. ولمولاي سليمان أيضا رسالة ضد بدع الزيارة للأولياء ، أشاد بها الناصري وأشار إلى أنه تكلم فيها عن مفتقرة الوقت وخذر من الخروج عن السنة والتغالي في

البدعة مبينا بعض آداب زيارة الأولياء مع التحذير من تغالي العوام في ذلك ، ومما أورده منها وهو واضح الدلالة قوله:" من الغلو البعيد ابتهال أهل مراكش بهذه الكلمة:" سبعة رجال" ، فهل كان لسبعة رجال شيعة يطوفون عليهم... فعلينا أن نقتدي بسبعة رجال ولا نتخذهم آلهة ، يؤول الحال فيهم إلى ما آل إليه في يفوت ويعوق ونسرا..."[2]. وكما لاحظ أحد الباحثين فإن مولاي سليمان لم يذهب بعيدا في محاربة الطوائف بالرغم من أنه منع عليها إقامة المواسم وحتى حضور المساجد ، كما أنه لم يهدم قبابا ولا أضرحة، فقد ظلت سليفته مرتبط بتعاليم المذهب المالكي، ولكنه كالوهابيين حاول أن يضع حدا للتوسل بالأموات وتقديس الأشخاص إلى حد العبادة ، وبالمقابل فلم يمنع التوسل بالرسول ولا إحياء ذكرى مولده< فقد كانت سلفيته تقوم على مراعاة المذهب المالكي من جهة ومراعاة العاطفة الدينية العميقة التي يكنها الجمهور المغربي المسلم لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم من جهة ثانية" [3] .

ومما ينبغي التنويه به هنا أن مساهمة المولى سليمان في محاربة البدع كان لها صدى لدى بعض علماء العصر، فقد بادر أحمد ابن عبد الملك العلوي (ت 1241هـ) إلى وضع تقييد على خطبته [4] ، وعمد محمد المكي بن مريدة السرغيني (ت 1234 هـ) إلى تأليف كتابه" الكواكب السيارة في البحث والحث على الزيارة" ناقش فيه بعض فحول رسالته ضد بدع الزيارة[5]. واستلهم نهته في محاربة البدع القاضي محمد عاشور الرباطي (ت1260 هـ) فألف رسالة في التصدي لبدع ليلة عاشوراء. وبمكراكش ، ومنها تشبه الرجال بالنساء ، وتشبههم باليهود والنصارى ، واتخاذ الصور ، وضربهم الآت اللهو ... وأخذهم لذلك أموالا من غير طيب أنفس أهلها[6] .

وقد ساهم عدد من العلماء في التصدي لما كانوا يرونه انحرافا و بدعة في حياة الناس ، فدبجوا خطبا وحرروا رسائل في الموضوع؛ ومن أبرزهم في هذا المجال محمد الرهوني ، وله رسالة في تبديع ذكر الهيللة عند تشجييع الجنائز ، وهي الظاهرة التي شاعت في المغرب إلى هذا العصر وبعده، وقد سماها " التحصن والمنعة ممن اعتقد أن السنة بدعة[7] ، وله أخرى تعرض فيها لما شاع آنذاك من سفر تجار المسلمين إلى بلاد الكفار، أو بعث البضائع إليها، سماها " الرسالة الوجيزة المحررة في أن التجارة إلى أرض الحرب وبعث المال إليها ليس من فعل البررة" [8] ومنهم أبو القاسم الزياني ، وينسب له بعضهم كتابات في الموضوع منها" الدرة السنية الفائقة في كشف مذاهب أهل البدع من الروافض والخوارج والمعتزلة والزنادقة" و " كشف الأسرار في الرد على أهل البدع والأشرار" وغيرها[9]. ويتخلل بعض كتبه الأخرى ، وبصفة

خاصة " الترجمانة الكبرى" وقفات ضد ما كان يعتبره بدعا ومناكر يجب التصدي لها ولأهلها؛ فقد ناهض بعض الطرقيين ، وحمل بشدة على التجانيين وشيخهم ، ونسبهم إلى البدعة وجعلهم من الروافض ، كما شنع على " الفقراء" صنيعتهم في المواسم بالضريح الإدريسي بفاس ، وما يكون خلاله بينهم من اختلاط بين الذكور والأحداث ، وما يقومون به من رقص وتصفيق وضرب آلة الطرب وغيرها من الملهيات تشغلهم عن صلاة يومهم ،" فما أقل حياءهم من الله، وما أقبح ما نسبوا لدين الله، فلا أجر لهم في عملهم ولا ثواب ... " (10)

ومما يدخل في هذا المجال مشاركة علماء هذا العصر في الحملة المستمرة لعلماء أهل السنة - وهم منهم - على الفرق الإسلامية غيرهم، وعلى المعتزلة منهم بصفة خاصة؛ ويأتي ذلك في الغالب عند الوقوف على بعض اعتزالياتهم والرد عليها. ولعل خير مثال على هذا كثرة اعتراضاتهم على ما في " الكشافة" للزمخشري على الرغم من إعجابهم به وإقبالهم عليه ، حتى قال شاعرهم سليمان الحوات فيه :

وأجاد في التفسير كل إجادة ** في كل ملل صنف من الصناف
لولا اعتزال كاد يملأ جوفه ** بأدلة ، في غاية الإسراف
لكن أهل السنة السمحاء قد ** ردوا عليه بالدليل الوافي
حتى تمخض ريه من صابه ** للراسخين الكاملي الأوصاف(11).

وقد كانت أكثر اعتراضات العلماء المغاربة عليه فيما صدر عنه في شأن الرسول عليه السلام. ولنا أن نكتفي هنا بالإحالة على وقفات حمدون بن الحاج معه التي سجلها في عدد من نصوصه الشعرية عبر ديوانه العام (12).

وأثيرت من جديد قضية البلديين ، وهي قضية قديمة وخاصة بمدينة فاس ، قامت بها منذ عهد الوطاسيين؛ وأساسها تعصب طائفة من علماء المدينة وتجارها ضد حديثي العهد بالإسلام من اليهود وتسميتهم بالمهاجرين أي الطارئين على الإسلام ، وعرفوا فيما بعد بالبلديين. وكانت هذه القضية قد أثارت معارك قلمية بين الداغين للتعصب والمستنكرين بلغت أحيانا درجة كبيرة من الحدة(13).لقد وجد خلال هذه الحقبة من كانوا ما يزالون على تعصبهم ضد هؤلاء البلديين ، وينظرون إليهم بشيء من الحذر ويأخذون على السلطان المولى سليمان ميله إليهم وتفضيله لهم حتى قال فيه بعضهم يلمزه :

بنو قريظة قد نالوا مرادهـــــم ** من الأمير وحازوا غايـــة الأرب
لا عيب فيه سوى تفضيله لهـــــم ** على بني المصطفى وجملة العرب[14]

ويبدو أن أول من آثار الحديث عن هذه القضية خلال هذا العهد هو القادري في نشر المثاني وذلك ضمن ترجمته لمحمد بن زكري حيث تكلم عنها معرجا على ما كتبه أبو عبدالله ميارة الأكبر في كتابه الشهير" نصيحة المغترين وكفاية المضطرين في التفريق بين المسلمين" مقرا بأن كثيرا مما أورده فيه حق وصدق ، ولكن له فيه تحامل [15]. وأخذ أبوالقاسم الزياني في الروضة السليمانية القادري بتناوله للقضية وإحيائه لها بعدما تنوسيت، وشنع على الداعين إليها ونسب عملهم إلى البدعة الفاحشة [16] فإن موقفه هذا يحمل على اليقين أنه ليس صاحب التأليف الذي ينسب إليه خطأ في هذه القضية ، وهو " قصة المهاجرين المعروفين بالبلديين بفاس " ، لما فيه من تحامل عليهم. وتناول الضعيف بعض مظاهر هذه القضية في تاريخه ضمن أحداث سنة 1212 هـ، حيث أشار إلى موقف البلديين من تهديم مدرسة سيدي مصباح ، وإلى أن السلطان كان يميل إليهم ويفضلهم، وكذلك كان شأن عامله على فاس أحمد اليموري [17]. ويتضح من كلامه في موضع آخر أن بعض العلماء من هؤلاء البلديين كانوا يتأنون من صنيع المتعصبين عليهم ، فقد التزم شيخه عبد القادر بن شقور داره مرة وامتنع عن إعطاء دروسه من أجـــــل ذلـــــــك [18] .

ومن أكبر القضايا الطارئة آنذاك دعوة الوهابيين التي ظهرت في ربوع شبه الجزيرة العربية، وتولى آل سعود نصرتها، وأقاموا حكمهم عليها، وسمعوا إلى نشرها وتبليغها إلى الناس والكتابة إلى أمرائهم وعلمائهم يدعون إليها. وكان عدد من المغاربة، مثل غيرهم من المسلمين ، قد بلغهم أمرها عن طريق الإتصال المباشر بينهم وبين أصحابها خلال مواسم الحج ، وكذلك عن طريق تراسل بعض علمائهم مع زملائهم في الأقطار. وقد بلغ كتاب من آل سعود إلى تونس فتدارسه علماؤها وردوا عليه بواسطة قاضيهم عمر بن قاسم ردا سلبيا لم يكن ينتظر غيره في وقت كانت بلادهم تخضع فيه لسلطان العثمانيين أعداء هذه الدعوة. ووصل هذا الكتاب إلى المغرب أيضا - مباشرة أو عن طريق علماء تونس ، على خلاف بين المصادر - وسارع العلماء المغاربة إلى تدارسه والرد عليه ، وقد اختلفت ردودهم نتيجة بعدهم عن الضغط العثماني ، الذي أثر في مواقف غيرهم من علماء البلاد الواقعة تحت نفوذهم؛ فتراوحت بين التأييد المعتدل لهذه الدعوة والمعارضة لها والتحامل عليها.

لقد ردت جماعة من العلماء المغاربة بالإيجاب والتأييد لهذه الدعوة، ورحبوا بما تقوم عليه من محاربة للبدع ونهي عن المنكر المحرم، وباركوا ما أولاه القائمون عليها من عناية بتوفير الأمن والهناء في ربوع الحجاز وذلك بالقضاء على أهل السلب والنهب ؛ ولكنهم تحفظوا من المغالاة والتشدد في بعض ما كانوا ينادون به من منع زيارة الأنبياء والبناء على القبور ونحو ذلك من الأقوال والأفعال وناقشوهم فيها. وقد تبنى السلطان المولى سليمان هذا الموقف وكلف أحد كبار علماء وأدباء دولته، وهو حمدون بن الحاج ، بتحرير الرد المغربي على كتاب آل سعود ، وبعثه مع ابنه الأمير إبراهيم سنة 1226 هـ صحبة عدد من العلماء والأعيان ، كان قد وجههم لأداء فريضة الحج والوقوف على حقيقة أمر هذه الدعوة في عين المكان والتأكيد من سلامة مبادئها والتمييز بين ما هو أصيل فيها وبين ما أضافه إليها خصومها قصد تشويهها[19]. ويبدو أن السلطان لم يقتصر على تكليف حمدون بن الحاج وحده بهذا الأمر، إذ ألف بأمر منه أيضا الطيب بن كيران رسالتين في الموضوع كبرى وصغرى [20] ، وكتب على لسانه سليمان الحوات رسالة إلى سعود بن عبد العزيز [21] .

إن تعاطف هذا السلطان ، ومن ورائه حاشيته العلمية، مع الدعوة الوهابية يمكن رده إلى ميوله السلفية الإصلاحية التي ما فتىء يعبر عنها في مواقفه وكتاباته، ولكنه كذلك لا ينفصل عن عمله السياسي في الداخل والخارج الذي وجد في طبيعة هذه الدعوة ما يخدم أهدافه. إنها كما يلاحظ أحد الباحثين " ذات جانبين : جانب ديني وجانب سياسي . فمن الناحية الدينية كانت دعوة "إصلاحية" سلفية تحارب البدع، وفي مقدمتها" الطريقة" وسلوكها الديني ؛ ومن الناحية السياسية كانت " ثورة " على الخلافة العثمانية؛ الشيء الذي جعل منها سلاحا ايديولوجيا ملائما في نظر المخزن ، يقاوم به خصومه في الداخل الذين كانوا أساسا من مشايخ الطرق ، وأخذ خصومه في الخارج ، أعني الحكم التركي في الجزائر[22] . إن الوهابية في المغرب ، في نظر هذا الباحث" لم تكن مقبولة لذاتها – على الأقل عند المخزن – بل من أجل وظيفتها ، تماما مثلما أن الطرقية لم تكن مرفوضة لذاتها بل لوقوفها ضد السلطة المركزية. وعندما يكون هناك موقف إيجابي ، سياسيا، من جانب هذه الطريقة أو تلك تصبح مقبولة جنبا إلى جنب مع المبادىء الوهابية السلفية " [23]

وواجهت جماعة أخرى من العلماء المغاربة هذه الدعوة بالمعارضة والتحامل عليها. وترددت لديهم عليها جملة من المآخذ لا تخرج عن سياق المآخذ التي وجهها خصومها في عدد من الأقطار بتأثير من العثمانيين . وتتلخص في مخالفة أصحابها لمذهب أهل السنة وخروجهم عنه وخلق مذهب فقهي خاص بهم ؛ وقد رموا بأنهم مجسمة، وقرامطة، وظاهرية مبتدعون يقفون عند ظاهر

النصوص ، وخوارج يكفرون غيرهم من المسلمين ، وأنهم يمنعون زيارة الأنبياء وأضرحة الأولياء ويعملون على تحطيم قبابها ولا يسمحون بالدعاء عندها خلافا لما أقره أهل السنة [24]..

وبرز من بين هؤلاء العلماء المعارضين أبو القاسم الزياني فيما كتبه في الترجمانة الكبرى وغيرها ، وكان فيما يبدو يصدر في رأيه المخالف عن قناعة سياسية ، تقوم على التعاطف مع العثمانيين ، وكانت له معهم صلات إبان سفارته إليهم. إن صاحب هذه الدعوة – فيما كان يراه - مبتدع ، وإن أتباعه ليسوا سوى أهل البدع من كل صوب وجانب. وقد تحامل كثيرا على حمدون بن الحاج الدي سارع إلى تأييدها وشنع عليه موقفه ، واستبعد أن يكون السلطان قد أمره بشيء من ذلك، وامتدح موقف علماء تونس ونوه به وعمد إلى إثبات جواب قاضيهم على كتاب آل سعود[25] ومن بين المعارضين أيضا أحمد بن عبد السلام بناني (ت 1234هـ) الدي ألف كتابا سماه" الصواعق والدواهي الواردة على المبتدع الوهبي المشتغل بالمناكر والمناهي " رد فيه بشدة على هذه الدعوة وناقش مؤيديها وضمنهم شيخه حمدون بن الحاج ، وأورد فيه بعضا من ردود غيره [26] .

تلك إذن أهم القضايا التي أخذت آنذاك بنصيب من الأهتمامات الفكرية للعلماء والأدباء المغاربة ، فتساجلوا حولها وناقشوا وأخذوا وردوا وكتبوا عنها بعض مؤلفاتهم إلى جانب ما كانوا يكتبونه في مجالات العلم والأدب المتداولة التي كانت مدار حركة التأليف عندهـــم.

الهـــوامـــش

* مبحث مستل من أ طروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب بعنوان" الشعر المغربي على عهد محمد الثالث العلوي وابنه سليمان" ، نوقشت بكلية الآداب بفاس في غضون سنة 1992 .

1- انظرها في الترجمانه الكبرى ، للزياني (تحق . عبد الكريم الفلالي ، مطبعة فضالة،1967) = 466 - 470

2- الاستقصا ، للناصري(الدار البيضاء ، دار الكتاب ، 54-1956) = 123/8. ولا يعرف نص هذه الرسالة الكامـــل الآن .

3- التيارات السياسية والفكرية، لحركات(ط 1 ، الدار البيضاء ،1985)=87.

4- الأتحاف ، لابن زيدان(ط 1 ، الرباط ،29- 1933) = 351/1

5- الأعلام ، للمراكشي(تحق. عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية،73-1983) = 187/6 .

6- الإغتباط ، لبوجندار (مخط. مصور بعناية عبد الكريم، الرباط ،1407)= 183/1

7- المصادر العربية لتاريخ المغرب ، للمنوني(ط 1، منشورات كلية الآداب ، الرباط، 83-1989)=62/2.

8- المصدر السابق = 62/2 .

9- التيار السياسية والفكرية = 204.

10- الترجمانة الكبرى = 160-466.

11- ديوانه (تحق. عبد الحق الحيمر، رسالة د.ع.كلية الآداب، فاس،1985)=263.

12- الديـوان العـام (تحـــق.أحمـد العراقـي، ضمـن أطروحـة د.ك.د. كليـــة الآداب ، فـــاس 1992) = 65، 80، 81، 596.

13- من ذلـك ما بلغتـه خـلال عهـد السعديـين، راجع= الحركة الفكرية في عهد السعديين، لحجي (ط 1، مطبع فضالة 77-1978) = 273/1-280.

14- تاريخ الضعيف (تحق أحمد العماري ، ط 1، الرباط ،1406) = 297.

15- نشر المثاني ، للقادري(تحق. محمد حجي وأحمد التوفيق، ط 1، الرباط،77-1986) = 344/3-353.

16- الروضة السليمانية،للزياني(مخط.خع.257ك)=341-342.

17- تاريخ الضعيف = 296-297. (18) المصدر السابق = 298.

19- راجـــع مقـالنـا= الـــرد المغربـي علـــى الرسالـة السنوية للشيـــخ محمـــد بـن عبـد الوهـــاب (المناهل ،ع 30س11)=125-154.

20- المصادر العربية لتاريخ المغرب =66/2 . (21) مقدمة محقق ديوانه = 54

22- تطـور الانتلجانسيـا المغربيـة ، للجابـري(ضمـن كتـاب النتلجانسيـا فـي المغـرب العربـي ، ط1، بيروت، 1984)=10

23- المصدر السابق = 13

(24) H. Laoust, Les shismses dans l' Islam (PAYOT, PARIS 1965):331

25- الترجمانة الكبرى = 388-403 ، وانظر كذلك الروضة السليمانيجة=417-418

26- المصادر العربية لتاريخ المغرب = 2/66-67.

ملاحظات حول مناهج الدراسة والتدريس في القرن(12هـ/18م) من خلال كتاب الإكليل والتاج لمحمد بن الطيب القادري

مـارية دادي
كلية الآداب وجـدة

ينتسب الشرفاء القادريون الوافدون على مدينة فاس إلى الشيخ عبد القادر الجيلالي (ت 561/1166) الذي يرفع نسبه إلى علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت الرسول (صلعم).

وقد كان سلفهم ببغداد أول أمرهم إلى أن خرج جدهم أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الشيخ عبد القادر الجيلالي - أثناء هجوم التتار على بغداد - فسكن سلف القادريين الكوفة، ومنها قدموا على جزيرة الأندلس في حدود سنة 671/1273.

كان أول قادم منهم على الأندلس السيد أحمد بن محمد بن الشيخ إبراهيم دفين واسط، وذلك في أواخر القرن التاسع الهجري (15م).

كما كان أول قادم من القادريين من غرناطة على فاس هو محمد الجد السادس لمؤلفنا محمد بن الطيب القادري. بعد استقرار الأسرة القادرية بفاس عملت على ربط صلات وثيقة ببعض العائلات الفاسية ذات الميول العلمية والطرقية مثل أسرة آل الفاسي، والأسرة الدلائية وغيرهما من العائلات الأندلسية العريقة التي صاحبتهم أثناء هجرتهم - أو سبقتهم إلى مدينة فاس، فنبغ منها عدد من العلماء خاصة في عهد الدولة العلوية نخص بالذكر منهم: محمد العربي القادري (1106/1695) وأخوه عبد السلام بن الطيب القادري (ت 1110/1699) وحفيده محمد بن الطيب القادري (ت 1187/1773).

ولد محمد بن الطيب القادري في مدينة فاس في 7 ربيع الأول عام 1124هجرية / 14 أبريل 1712م، وتربى في حجر والده الطيب بن عبد السلام القادري الذي كان فقيها متميزا بالزهد والقناعة، وعمل على تنشئة ولده محمد نشأة حسنة وحرص على تعليمه.

أخذ محمد القادري على يد علماء أجلاء منهم محمد بن عيسى الميسوري (ت 1150) ومحمد

التاودي بن الطالب بن سودة (ت 1209) وعبد المجيد بن علي الزبادي (ت 1163هـ) ومحمد بن قاسم جسوس (ت 1182) وغيرهم كثير.

وقد حصل على إجازات علمية على يد علماء من داخل المغرب مثل محمد بن الحاج التلمساني (ت 1170) ومحمد جسوس (ت 1182). ومن خارج المغرب مثل الشيخ الحفناوي المصري (ت 1175) وذلك لربط سنده في علومه مع علماء المشرق.

على أن شيخه محمد الكبير السرغيني (ت 1164) هو الذي أثر في تكوينه تأثيرا كبيرا، بحيث انطبع محمد القادري بشخصية شيخه هذا وبدأ يحذو حذوه في كل شيء ومن ذلك اهتمامه بتراجم الرجال، حيث كانت لشيخه محمد الكبير السرغيني معرفة تامة بأحوال الرجال ومراتب المحدثين، وهكذا نرى محمد القادري أثناء مجالسة شيخه هذا بدأت تظهر لديه بوادر التأليف، ومن ذلك تقييد الطرر على المؤلفات (وقيدت منه طررا كثيرة على نسختي من المختصر وتقريرات حسنة).(1)

اشتغل محمد القادري – مضطرا بخطة العدالة وذلك بسماط عدول القرويين رغم معارضة شيخه محمد الكبير السرغيني الذي كان يقول: (لا يرضى لمتعاطي العلم خطة الشهادة ولا القضاء ولا ما في معناهما من الرياسات)(2) وكان يعتبر أن تولي الخطط في تلك الأزمة هو مجرد جرحة في دين متوليه، ورغم ذلك فقد قبل محمد القادري الاشتغال بخطة العدالة إلى جانب اشتغاله بالتدريس في بعض مساجد فاس خاصة مسجد الأندلس، وقد تخرج على يديه عدد من الطلبة أهمهم سليمان الحوات العالم المؤرخ توفي عام 1819/1231. وأبو القاسم الزياني المؤرخ الكبير (ت 1834/1249).

وقد ظهرت بوادر التأليف والقيد لدى محمد بن الطيب القادري في وقت مبكر من حياته، بل وهو لم يزل في طور الطلب، فبدأ أولا بتقييد الضرر على المؤلفات التي يقوم بدراستها على يد شيوخه ثم انتقل بعد ذلك إلى مرحلة التأليف.

وبموازاة مع موهبة التقييد والتأليف ظهرت لدى القادري موهبة فرض الشعر كذلك، حيث نجده منذ 1149هـ يقوم بنظم قصيدة شعرية في رثاء أبي بكر بن محمد الخديم الدلائي وهكذا

1- محمد القادري، التقاط الدرر، تحقيق هاشم العلوي، ص:457

2- محمد القادري، الزهر الباسم في مناقب الشيخ سيدي قاسم .....، مخطوط خ ع.ع.ك 2318، ورقة 86 ظهر

مع ترعرع القادري أصبحت (قريحته سيالته في نظم الشعر مع المهارة في أنواته الأدبية)[1] لذلك نجد عددا من مؤلفاته عبارة عن أراجيز مثل أرجوزة فريدة الاشتياق وأرجوزة االصوارم الفتكية، أو عبارة عن قصائد مطولة مثل فريدة الدر الصفي، ودرة المفاخر، هذا إضافة إلى عدد من المنظومات في فنون مختلفة.

وقد خلف لنا محمد القادري مؤلفات عديدة متنوعة المواضيع والفنون، غير أن أكثرها ألف في التراجم والأنساب واالتاريخ.

وأشهر مؤلفاته لحد الآن نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، والتقاط الدرر.... وكتاب الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج وهو المقصود في هذا العرض.

يعتبر كتاب الإكليل والتاج من أهم آثار محمد بن الطيب القادري العلمية، وقد حدد القصد من تأليفه له بقوله: (فالمقصود بهذا الجزء تذييل كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج.... لكن أخرج عن هذا الموضوع إلى زيادة أقوام ربما يتأكد بهم التعريف ممن لهم شهرة صلاح أو علم أو تصنيف، أو ظننته أنه من هذا الوظيف).[2]

ويعتبر هذا الكتاب معلمة للتعريف برجالات المغرب خصوصا والعالم الإسلامي عموما خلال عشرة قرون من القرن الثاني إلى القرن الثاني عشر الهجريين (8/18م) كما تكمن أهمية الإكليل في أنه بالإظافة إلى اهتمامه بالترجمة لأعلام المذهب المالكي فإنه اهتم كذلك بعدد من رجالات المذاهب الأخرى، كما اهتم بجميع شرائح المجتمع الإسلامي على اختلاف مراتبهم وتوجهاتهم، وهو بذلك يدخل في إطار المؤلفات التي تؤرخ للشعوب باعتبار أن الشعب هو المحرك الأساسي لعجلة التاريخ، وهو باني الحضارات بخلاف بعض المؤلفات الأخرى التي تعتبر أن التاريخ هو تاريخ الملوك والأسر الحاكمة.

كما ترجع أهمية الإكليل إلى كونه مجالا هاما للتاريخ الفكري الإسلامي ومن ثمة فهو من الكتب التي لا غنى عنها للباحث في التاريخ لرصد مختلف مراحل التطور الفكري عبر العصور، وأحوال الدراسة والمدرسين، وأنواع الكتب والعلوم المدروسة وقيمة المدارس ودور العلم، وذلك من خلال الترجمة لأساتذتها ومن خلال استقراء بعض نصوص الكتاب الخاصة بالتاريخ الفكري والتي تتعلق أساسا بمدينة فاس في نهاية القرن السابع عشر وطيلة القرن الثامن عشر أمكننا أن نستنتج ما يلي:

1- سليمان الحوات، السر الظاهر فيمن أحرز بفاس الشرف الباهر، مخطوط خ.ح 3069ز، ملزمة 20، ص: 3

2- محمد القادري، الإكليل والتاج، في تذييل كفاية المحتاج، مخطوط بالخزانة الحسنية رقم 1897، ص 1

برز في هذا القرن في مدينة فاس عدد من الأساتذة العلماء كانت تعج بهم جامع القرويين والمدارس التابعة لها غير أننا نقتصر على ذكر بعضهم مع ذكر التحلية التي حلاهم بها القادري لكي نبرز مكانتهم العلمية والفكرية فمنهم:

- محمد الكبير السرغيني (ت 1164) وهو شيخ محمد القادري قال عنه في الإكليل (له مشاركة في علم البيان، وأصول الفقه والتاريخ وله معرفة تامة بأحوال الرجال والأسانيد)[1]

- أحمد بن عبد العزيز الهلالي (ت 1175) (أديب لغوي بياني، منطقي، مهندس)[2]

- أحمد بن عبد العزيز الشرايبي الفاسي (ت 1192) (فرضي فاس والمنفرد بتحقيق علم الحساب بها)[3]

- الحسن بن مسعود اليوسي (ت1102) له شأن عظيم في الإدراك والتحصيل والإتقان، فكان يتعجب من ذلك كل من لقيه)[4]

- الحسن بن رحال التادلي (ت 1140) (صاعقة العلوم والتدريس، ونادرة الزمان في كشف الأوهام ودفع التلبيس)[5]

- محمد بن عبد القادر الفاسي الفهري (ت 1116) (مشارك، محقق نظار، بحر ضخم فائض زخار)[6]

- محمد بن إسماعيل الشريف العلوي (ت 1118) من علماء هذا العصر وذكر عنه القادري أنه (كان يؤوي إليه الطلبة وجهابذة العلماء للتعليم عليهم وكان يمتحنهم في الفهوم والأبحاث فلا يخلص إلا القليل منهم)

- محمد بن قاسم بن زاكور الفاسي (ت 1120) عالم كبير وهو صاحب كتاب نشر أزاهير البستان.....

1- محمد القادري، الإكليل والتاج، في تذييل كفاية المحتاج، مخطوط بالخزانة الحسنية رقم ص 47

2- نفسه ص:30

3- نفسه ص:30

4- نفسه ص:38

5- نفسه ص:39

6- نفسه ص:92

- محمد بن عبد الرحمان الفاسي (ت 1134) كان مرجوعا إليه في علم التاريخ، وهو صاحب فهرسة المنح البادية.

- محمد بن المسناوي الدلائي (ت 1136) عالم كبير وله مؤلفات كثيرة

- عبد الوهاب أدراق الفاسي (ت1159) أنتهت إليه رئاسة الطب وانفرد بها في الدولة العلوية الهاشمية... [1] له معرفة بالنحو واللغة والشعر (وأما الطب الذي هو فنه فيحق أن يخضع له بقراط فمن دونه، ويود ابن سينا وجالنيوس أن يكونه، حاشى جلالته في العلوم الإسلامية ومهارته في القواعد الكلامية) [2]

- عبد السلام بن الطيب القادري (ت 1110) مرجوعا إليه في علم التاريخ وضبط الانساب واشتهر بمؤلفاته الكثيرة والتي أربت عن الأربعين [3]

لقد نشطت حركة التأليف في هذا القرن على يد هؤلاء الأساتذة المذكورون وغيرهم من أساتذة القرن الثامن عشر غير أن الملاحظة الأساسية هي أن جل مؤلفاتهم عبارة عن شروح أو حواشي أو طرر على مؤلفات يقومون بتدريسها، ومن ذلك مثلا أحمد بن محمد بن يعقوب الولالي له (شرح على مختصر الشيخ السنوسي في المنطق، ومنها شرحه على السلم للأخضري، ومنها شرحه على منظومة الأخضري في البيان وله قصيدة لامية في المنطق وشرحها، وشرح على جمل الخونجي، وشرح على رسالة الجرجاني، وشرح على خطبة مختصر السعد، وشرح على تخليص المفتاح للقزويني، وشرح على المقاصد للسعد... وشرح على روضة الأزهار للجادري في التوقيت، وله حاشية على كبري الشيخ السنوسي....) [4]

وكذلك نجد عمر بن عبد الله الفاسي (ت 1188) شراح لأمية الزقاق في الأحكام، وشرح قصيدة ابن فرح في ألقاب الحديث، وحاشية على المغنى لابن هشام، وحاشية على شرح مختصر السنوسي، وحاشية على الكبرى.

1- له أرجوزة جيدة في حب الافرنج بين فيها النبات المسمى بالعشبة وخواصه وأحكامه، وقد ترجمت هذه الأرجوزة إلى اللغة الفرنسية من قبل الدكتور رينو والأستاذ ج كولان.

2- الإكليل، ص: 130 من المخطوط

3- ذكر له ليفي بروفنصال 30 مؤلفا، وزاد عليها محمد الأخضر 14

4- الإكليل، ص: 26

من خلال ما ذكرنا نلاحظ أن أساتذة القرن الثامن عشر اهتموا بتدريس مؤلفات عديدة ولكن جلها من المختصرات والأنظام والشروح والحواشي، إما ألفوها هم أنفسم أو ألفت على يد زملائهم هذا طبعا بالإضافة إلى أمهات الكتب المعروفة آنذاك كتفاسير القرآن الكريم لابن عطية الغرناطي وأبي بكر بن العربي الفاسي، وموطأ الإمام مالك، وصحيحح البخاري والسنن، والشفا للقاضي عياض، ومختصر الشيخ السنوسي، والسلم للأخضري، والروضة للجادري في التوقيت ومنية ابن غازي في الحساب، والمحلى على جمع الجوامع لابن السبكي، والمباحث الأصيلة في التصوف لابن البناء والمرشد لابن عاشر، وغيرهم.....

نلاحظ أيضا أن هذه العلوم المدرسة كانت تهتم أساسا بعلوم القرآن والحديث وأصول الفقه والنحو واللغة والتصوف، أما ما عدا ذلك فكان محضورا لديهم ومن برع فيه لا يلقى استحسانا من أساتذته وزملائه ومن ذلك مثلا نجد القادري يذكر ترجمة محمد بن سليمان الروداني (ت 1095) أنه لقي شيخه محمد بن عبد الله معن بعد أن (مهر في علم الحكمة وغيرها كالهيئة والتنجيم والحساب والمنطق... فزجره عن تعاطي هذه العلوم وما أشبهها أشد الجزر) ونلاحظ أن الدولة هي الأخرى لم يكن يستهويها تدريس مثل هذه المواد في مدارسها وجوامعها فكانت تحذر من تدريس مثل هذه المواد ويؤكد لنا هذا ما جاء في منشور صدر عن السلطان سيدي محمد بن عبد الله سنة 1203/1788-1789 يوجه فيه الخطاب إلى شيخ القرويين وعميدها على ذلك العهد حيث يقول فيه متحدثا عن الأساتذة والشيوخ: (إننا نأمرهم أن لا يدرسوا إلا كتاب الله تعالى بتفسيره، ومن كتب الحديث المسانيد والكتب المستخرجة منها، والبخاري ومسلما وغيرها من الكتب الصحاح، ومن كتب الفقه المدونة والبيان والتحصيل والمقدمة لابن رشد... وكتاب النوادر ورسالة ابن أبي زيد وغير ذلك من كتب الأقدمين.... ومن أراد أن يخوض في علم الكلام والمنطق وعلوم الفلسفة... فليتعاط ذلك في منزله مع رفاقه الذين لا يدرون أنهم لا يدرون! ومن تعاطى ذلك في ما ذكرنا من المساجد، ونالته عقوبة فلا يلومن إلا نفسه...)[1]

وهذه المؤلفات التي ذكرنا وغيرها كانت تلقن للطلبة في الجوامع والمساجد مثل جامع القرويين ومسجد الأندلس ومسجد سوق الرصيف بعدوة القرويين ومسجد الشرفاء، ومسجد باب عجيسة ومسجد رأس العقبة الزرقاء من عدوة القرويين، وجامع الحمراء بفاس الجديدة، وكذلك في المدارس مثل مدرسة الصهريج بجوار مسجد الأندلس والمدرسة المتوكلية، والمدرسة الرشيدية بالإضافة إلى

1- مقتطفات من المنشور الصادر عن السلطان محمد بن عبد الله نقل عن عبد الهادي التازي، جامع القرويين، مجلد 3/723.

بعض الزوايا كزاوية سيدي عبد القادر الفاسي، بل كان الأساتذة لا يستنكفون عن إفادة طلبتهم بدروس حتى على سطوح المدارس ومن هؤلاء مثلا أحمد بن علي الوجاري (ت 1141) الذي كان تدريسه أولا بالمدرسة الرشيدية بسطحها، ثم اقترح عليه بعض الناس النزول إلى بعض المساجد ليتسع المكان بهم فجعل يدرس بمسجد الأندلس)[1]

بل أكثر من ذلك كان بعض الأساتذة يلقي دروسه في سطوان داره مثل محمد بن أحمد الدلائي (ت 1137) الذي انفرد بعلم العروض (فأبى أن يلقنه إلا في سطوان داره... فكان بعض أشياخنا ممن حضره)[2]. وكانت العلوم تلقن للطلبة على يد أساتذة أجلاء كل حسب اختصاصه في مكان مخصص ووقت معين (تولى الكرسي الذي تحت السبوع.... بجامع القرويين وكان يقرئ بين الظهر والعصر عليه ابن الحاجب وصغرى الشيخ السنوسي).[3] وكان كل كرسي بالقرويين محبسا على كتاب من الكتب يدرس في وقت مخصوص، وإذا انتهى الأستاذ من الدرس الذي وقع عليه التحبيس ينزل إلى الأرض ويجلس ويتبرع بما يريد من دروس حسب رغبته أو -وهذا غالبا- حسب رغبة طلبته.

ولم يكن هؤلاء الشيوخ يتخلفون عن إعطاء دروسهم مهما كانت الظروف وحتى في حالة مرضهم كان من الممكن أن يلحق بهم طلبتهم للأخذ عنهم داخل منازلهم بل وهم فوق فراش مرضهم، حيث ذكر القادري في ترجمة الحسن بن رحال التادلي (ت 1140). (وشرع في إقراء الشفا وهو مريض والطلبة يدخلون عليه للقراءة بفراشه) وكانت الدراسة تبدأ عند طلوع الشمس وتستمر إلى ما بعد صلاة العشاء، فمن الأساتذة من يلقي درسه وينصرف ومنهم من يستمر وقتا طويلا (كان يشرع بمجلسه ... عند طلوع الشمس ويتمادى فيه إلى الزوال من غير ضجر ولا ملل)[4].

أما الطلبة فكل على حسب مقدرته على الإستيعاب، وحسب اجتهاده ومثابرته، بحيث كان بعض الطلبة المجدين يترددون على المجالس طيلة اليوم من طلوع الفجر إلى ما بعد صلاة العشاء بدون

1- الإكليل، مخطوط، ص:28

2- الإكليل، مخطوط، ص:97.

3- محمد القادري، الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج، تحقيق مارية دادي، رسالة مرقونة بخزانة كلية الآداب بالرباط، الترجمة رقم 715.

4- نفسه، ترجمة الحسن بن رحال التادلي رقم 180.

انقطاع، بحيث لا يذهبون لتناول الطعام إلا بعد انتهاء مجالس العلم وأداء صلاة العشاء (كان أكلنا من وقت العشاء إلى وقت العشاء ولا يمكننا الأكل في النهار لكثرة المجالس في أنواع العلوم)[1].

وكانت طريقة إلقاء الدروس تتغير من أستاذ إلى آخر فمنهم من (يقبل كل ما يلقى عليه من أبحاث ولا يعوزه جواب)[2]. ومنهم (من يقتصر في درسه على بيان مدلول اللفظ ولا يتعرض لبحث ولا لرد.... ولا يحتمل المراجعة)[3] بل ويعتبر أن الاعتراض على العلماء من قبيل الغيبة فلا يجوز إلا لضرورة بيان الحق.

وإذا كان جل الأساتذة يتميزون بالتواضع وتبادل الآراء والسير على نهج السلف الصالح فإنه كان يوجد من بينهم من يعتد بنفسه وبآرائه ومنهم أحمد بن مبارك الفلالي الذي (له انفراد بأشياء من عندياته يجريها على ما يظهر له ولا يبالي بمن يخالفه تقدم أو تأخر كبر أو صغر، ويصرح لنفسه بالاجتهاد المطلق) وكان إقبال الطلبة على أستاذ دون غيره يتعلق بنوع الدروس التي يلقيها ثم بحسب طريقته في الإلقاء وقدرته على إقناع طلبته، لذلك نجد بعض المجالس دون أخرى - خاصة بالطلبة وعليها إقبال عظيم، غير أن السلطة الحاكمة كانت - في بعض المرات - لا تنظر بعين الرضى لهذه المجالس، لذلك نجدها تعمل على نقل هذا الأستاذ من مكان إلى آخر علها تتمكن من تشتيت الطلبة المقبلين على مجالسه: (وأقبل الناس عليه قبولا عظيما، فكان حيثما جلس للتدريس أقبل الناس عليه، فكان بسبب ذلك لا يدعه الأمير أن يتقرر في موضع)[4].

وكان من عادة الأساتذة كلما أنهوا تدريس مؤلف معين أعادوه مرة أخرى، وهكذا كان بعضهم يعيد تدريس مؤلف واحد عشرات المرات بل مائة مرة وأكثر قال القادري في ترجمة محمد التادلي الدلائي: (أقرأ ألفية ابن مالك نحو مائة مرة، ومقامات الحريري نحو ثلاثين ختمة)

كما نجد الطلبة لا يكتفون بدراسة المؤلف الواحد مرة واحدة على أستاذ معين، بل يعيدونه على نفس الأستاذ عدة مرات ثم ينتقلون لإعادة دراسة نفس الكتاب على يد أساتذة آخرين عدة مرات وبشكل مثير للانتباه فنجد القادري يذكر في ترجمة الحسين بن ناصر الدرعي (ت 1091):

1- نفسه، ترجمة علي بن ميمون الغماري، رقم 471.

2- الإكليل، ترجمة الحسن بن رحال التادلي، رقم 180.

3- نفسه، ترجمة محمد الكبير السرغيني، رقم 206.

4- نفسه، ترجمة الحسن اليوسي، رقم 178.

(أقرأ على أخيه....مختصر خليل ستة مرات، وتسهيل بن مالك خمس مرات)[1] بل نجد محمد القادري نفسه أخذ متن الأجرومية على يد محمد بن عيسى الميسوري مرتين ثم أخذه على يد أبي جيدة المشاط مرتين، ثم أعاده على يد أبي عبد الله بن محمد الشيخ مرة واحدة، ثم درسه على يد محمد التاودي بن سودة مرتين، ثم أعاده على يد عبد القادر بن العربي بوخريص مرتين، معناه أن القادري أعاد قراءة متن الأجرومية تسع مرات وعلى يد خمسة شيوخ بل الأكثر من ذلك أنه أضاف في الأخير (وفهمت ما قدر لي منها).

وكان الأساتذة والطلبة كلما أنهوا دراسة مؤلف معين يقيمون احتفالا كبيرا يسمونه يوم الختم، وكان يوم الختم يوما شهودا يحتفل به الطلبة والأساتذة على السواء وربما حضره ممثل السلطان أو السلطان نفسه، بحيث نجد محمد القادري يقول في ترجمة التاودي بن سودة (وأقرأ التفسير في القرويين وختمه وكان يوم ختمه مشهودا لم يتخلف عنه إلا القليل).

وغالبا ما يمنح الأستاذ إجازة للطالب الذي تلقى على يديه أصنافا من العلوم، والإجازة هي اعتراف تام من الأستاذ لطالبه بنجابته وقدرته على تدريس المادة أو الكتاب الذي تلقاه على يد شيخه وأتقنه، وغالبا ما تكون هذه الإجازة بالمجالسة (وأخذ بالإجازة والمجالسة عن الشيخ أبي محمد عبد القادري الفاسي)[2] ولكن لا بد أن نشير إلى أن هذه المجالسة تطول سنين وسنين، بل قد تطول عشرات السنين بحيث نجد محمد القادري قد لازم شيخه محمدجسوس أكثر من ثلاثين سنة قبل أن يحصل على إجازة منه.

وكان بعض الطلبة لا يكتفون بالحصول على إجازات من داخل المغرب بل يسعون جادين للحصول على إجازات من خارج المغرب وخاصة على يد أساتذة من المشرق وقد ترددت بين ثنايا الكتاب أسماء العديد منهم، نذكر على سبيل المثال نور الدين الشراملیسي، وإبراهيم الميموني، وعبد السلام اللقاني، وزين العابدين الطبري وغيرهم كثير.... بل لم تقتصر هجرة الطلبة إلى الخارج للأخذ عن الأساتذة فقط بل كانت هجرتهم للأخذ على أستاذات كذلك وللحصول على إجازات منهن حيث نجد أن القادري يذكر في ترجمة محمد المرابط الدلائي: (أخذ بالمشرق على السيدتين مباركة

1- الإكليل، مخطوط ص:0 4

2- الإكليل، ترجمة الحسن اليوسي، رقم 178.

وزين الشرف بنتي العلامة عبد القادر بن محمد... بن المحب الطبري، فأجازتا له ما يجوز لهما روايته).[1]

وفي حالة تعذر سفر الطالب إلى أستاذ ما في مكان ما للأخذ عنه بالمجالسة كان من الممكن له أن يحصل منه على إجازة بالمكاتبة ولكن على شرط أن يكون إسمه وشهرته قد وصلا إلى البقاع التي يوجد بها الأستاذ، ولكن الإجازة بالمكاتبة لم تكن لها الأهمية التي توجد للإجازة بالمجالسة بحيث يمكن أن نقارن الإجازة بالمكاتبة بما يسمى اليوم بالدكتوراه الفخرية.

ونشير إلى أن الدراسة كانت تنقسم إلى فصول تبعا لفصول السنة لكن الملاحظ أن فصل الشتاء هو الذي تنشط فيه حركة التدريس أكثر ويتركز فيه أكبر عدد من الدروس بالنسبة لباقي فصول السنة، ولم تكن الدولة هي التي تقرر اليوم الذي تبدأ فيه الدراسة أو تنتهي، بل كان ذلك حسب اتفاق الأساتذة مع بعضهم، وغالبا ما يأخذون برأي من يكبرهم سنا وقدرا:(ان الشيخ سيدي يحيى بعثني إليك للمشورة على أي يوم نبدأ فيه قراءة فصل الشتاء، فقال له صاحب الترجمة: قل له: هو الشيخ في أي يوم أراد فعل، فقال له: في يوم كذا؟ فقال: على بركة الله).[2]

وكان يحضر في مجلس الدرس - بالإضافة إلى الطلبة - عدد من الأساتذة، بحيث كان الأساتذة لا يستنكفون عن الأخذ عن بعضهم البعض، وهذا ما جعل العلاقة بين الأستاذ والآخذ عنه في بعض الأحيان تكون علاقة الند للند بل في بعض المرات كان الأستاذ لا يجد حرجا في أن يستشير الآخذ عنه في مسألة تطرأ عليه أثناء إلقائه الدرس، وكان الحاضرون يعتبرونها من تواضع الأستاذ (كان يدرس بالقرويين فينزل على كرسيه فيسأل سيدي عبد الرحمان الفاسي ويرجع إلى كرسيه وكانوا يعدونها من تواضعه وإنصافه)[3].

وإذا كانت العلاقة بين الأساتذة مع بعضهم البعض من جهة، ثم بينهم وبين الطلبة من جهة ثانية تتميز بالمحبة والإحترام والتقدير المتبادل بين الطرفين فإن العكس هو الصحيح بالنسبة للعلاقة بين الأساتذة والسلطة الحاكمة بحيث نجد من بين الأساتذة من (يعيب ما يظهر من جور الولاة على

1- الإكليل، مخطوط، ص:8 8

2- سيدي يحيى يقصد به يحيى السراج وهو الذي بعث أحد تلامذته إلى مجلس عبد الواحد الحميدي، أنظر الإكليل ص:8 2 .

3- أنظر ترجمة محمد بن أبي القاسم المري في الصفحة 7 6 من المخطوط.

4- أنظر ترجمة محمد الكبير السرغيني في الإكليل.

المنبر في خطبة وفي محل تدريسه وعلى رؤوس الأشهاد ولا يبالي)[1] ومنهم من خص عن أهل عصره بالصدع بالحق عند أمير وقته)[2] بل منهم من تمادى في موقفه أكثر من ذلك بحيث (كان لا يذكر السلطان في الخطبة على عادة الخطباء)[3]

وكان الأساتذة إلى جانب قيامهم بمهمة التدريس غالبا ما تسند إليهم مهام أخرى كالخطابة والإمامة في المساجد وغيرها، غير أ بعضهم - خاصة الذين اشتهروا بورعهم - كان يقبل إعالة أسرته إلا من عمل يده، لذلك عملوا على الاشتغال بمهن أخرى خاصة نساخة الكتب وتسفيرها، بحيث نجد القادري يقول في ترجمة عبد القادر الفاسي: (ولقوته في الزهد والورع كان يأكل من عمل يده بالنسخ للكتب الحديثية وغيرها مع اتساع جاهه وغزارة علمه وشغله بالتدريس).

غير أن الملاحظة الأساسية وهي أنه إذا كان الأساتذة - في غالب الأحيان - يقبلون القيام بالمهام الأخرى التي تسند إليهم كالخطابة والإمامة وما في مضمونهما، فإن جلهم - إن لم نقل كلهم - لم يكن يقبل القيام بمهمة القضاء. خاصة بعد أن أصبحت خطة القضاء متصلة اتصالا وثيقا بالسياسة وتقلباتها، وأصبح غالب الحكام يقفون بالمرصاد لكل من أظهر النجابة والعدل من القضاة، وبناء عليه فقد زهد الأساتذة والعلماء في هذه الخطة، واعتبروها (صداع في الرأس، وسم قاتل في الجوف وسلسلة في العنق وسنارة في الحلق)[4] وعملوا على التهرب منها بجميع الحيل فمنهم من تحامق وأظهر البله وذلك شأن الكثيرين ومنهم أحمد بن علي الجرندي الأندلسي (ت 1125هـ): (عين لولاية القضاء فتهرب منها، وتحيل بأن تحامق وأظهر البله فأعفي منه)[5] ومنهم من ألزم بها جبرا عليه فقبل بها وسلم أمره إلى الله بحيث نجد القادري يذكر في ترجمة الحسن بن رحال المعداني (ثم ألزم بقضاء مكناسة جبرا فوليه).

1- أنظر ترجمة محمد الكبير السرغيني في الإكليل.

2- أنظر ترجمة الحسن اليوسي في الإكليل.

3- الإكليل، ترجمة أحمد بن ناصر، رقم 130.

4- الإكليل، مخطوط، ص:157

5- نفسه، ص: 26

ونظرا لعزوف كبار العلماء والأساتذة عن قبول تولي الخطط وخاصة خطة القضاء فقد بدأ الحكام يسندونها لمن يقبل القيام بها حتى وإن كان أقل كفاءة - علما ودينا - وهكذا نزلت خطة القضاء - وخاصة خلال القرن الثامن عشر - إلى من هو أحط قدرا وعلما بل وإلى خملاء الناس بحيث نجد القادري أثناء ترجمته لمحمد بن أحمد التماق (ت 1150) يقول: (فلم يبرح أن قال له بعضهم ياقاضيا! وناداه به! فبقي مبهوتا لبعده عن ولاية القضاء، إذ كان من خملاء الناس، فقال له: لا تظن أنك تصعد إليها! بل ولاية القضاء ستنزل إليك، فكان كذلك، حتى نزلت لمن هو أحط منه علما ودينا بكثير)[1]

كانت هذه بعض ملامح الدراسة والتدريس خلال القرن 18 غير أن الملاحظة الأساسية أن هذه الملامح ظلت على ما هي عليه قبل الوقت الذي تحدثنا عنه بكثير ثم بعده بوقت طويل ولم تخضع لتغيير جذري إلا خلال القرن العشرين.

1- الإكليل مخطوط، ص: 101.

الكتابة التاريخية عند محمد بن القادري
"كتاب نشر المثاني نموذجا"

محمـد رزوق
كلية الآداب. عين الشق الدار البيضاء

لا تخفى أهمية القادري كمؤرخ، بفعل تكوينه واتصالاته المتعددة، واطلاعه على خفايا الأمور[1]، كما لا تخفى أهمية كتاباته التاريخية خاصة كتابه *نشر المثاني*[2] فرغم أن الكتاب يعتبر في عداد كتب التراجم إلا أن استعراضه لعدد من الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية جعله يرقى – وبدون تردد – إلى صف كتب التاريخ العام التي لا تقتصر على تراجم الأشخاص، وقد شهد له بهذا أكثر من باحث نذكر على سبيل المثال ليفي بروفنسال إذ يقول في هذا الصدد: "يمكن أن نعتبر نشر المثاني تاريخا سياسيا وضع في شكل حوليات"[3]

غير أننا بحكم تشعب الكتاب وطوله سوف نقتصر على دراسة قسم من الجزء الأول فقط، وهو يشتمل على مقدمة تعرض لتصور القادري للكتابة التاريخية، كما يشتمل على تراجم لعدد من شخصيات العهد السعدي.

وهكذا سوف نقسم عرضنا هذا إلى محورين أساسيين:

المحور الأول: الأسس التي تقوم عليها الكتابة التاريخية عند القادري.

المحور الثاني: تعامل القادري مع تراجم الفترة السعدية.

المحور الأول:
الأسس التي تقوم عليها الكتابة التاريخية عند القادري

هناك عدد من الأسس تقوم عليها الكتابة التاريخية عند القادري نلخصها فيما يلي:

أولا: *الأساس المعرفي*:

فهو ما فتئ يبرز أهمية التاريخ، إذ يبدأ في مقدمته الثانية لكتابه بعبارة تحمل أكثر من معنى: "الإلماع لبعض فوائد التاريخ"، وهو تصريح ضمني لإثارة الإنتباه إلى قلة اعتناء العلماء بالتاريخ، فهو عندما ألف كتابه *نشر المثاني* جعله كذيل لكتاب *درة الحجال* لأحمد بن القاضي، وهذا الأخير نفسه جعل كتابه كذيل لكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان، أي عمليا المحافظة على التواصل المعرفي.

ولم يكن القادري - بطبيعة الحال - أول من أثار الإنتباه إلى هذه القضية، فقد سبقه إلى ذلك - مثلا - محمد العربي الفاسي بقوله: "... كم من عالم عرف برجاله وأوسع الخطو في مجاله ... ولم يكتفوا بما أدوا من الواجب، وأبدوا من ذلك دون حاجب، حتى أزروا، بمن قصر عن أدائه أو قصر في إبدائه، ووسموا المغاربة بالإهمال، ودفنهم فضلاءهم في قبري تراب وإخمال، فكم فيهم من فاضل نبيه طوى ذكره عدم التنبيه، فصار إسمه مهجورا كأن لم يكن شيئا مذكورا ...".(4) وإذا ما حاولنا أن نبحث عن سبب قلة اعتناء العلماء المغاربة بالتاريخ، فإننا لن نتيه كثيرا، فالقادري نفسه يركز في كتاباته على الجانب الديني، أي عمليا يقوم بما قام به سبقه مثل الأفراني الذي عد - صراحة - علم التاريخ من العلوم الشرعية،(5) وسيقوم بنفس الدور من أتى بعد القادري أيضا مثل الناصري الذي وضع مقدمة لكتابه سماها: "مقدمة في فضل علم التاريخ"(6) يقول فيها: "إعلم أن علم التاريخ من أجل العلوم قدرا، وأرفعها منزلة وذكرا، وأنفعها عائدة وذخرا، وكفاه شرفا أن الله تعالى شحن كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، من أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية، بما أفحم به أكابر أهل الكتاب، وأتى من ذلك بما لم يكن لهم في ظن ولا حساب، ثم لم يكتف تعالى بذلك حتى أمتن به على نبيه الكريم، وجعله من جملة ما أسداه إليه من الخير العميم ...".(7) وقد أثارت هذه القضية أيضا انتباه ليفي برفنسال إذ يصرح بما يأتي: "إذا كان العالم المغربي لا يعير اهتماما كبيرا لمعرفة الأحوال التاريخية وتسلسلها الزمني، فما ذلك إلا لأنه يعتبر التاريخ من المسائل الدنيوية وأن الاشتغال به من باب اللهو والعبث".(8)

ثانيا: *الأساس الديني*:

يعتبر القادري أنه بكتاباته التاريخية يخدم الدين أيضا، وطرحه هنا واضح، فالتاريخ ليس مجرد أحداث انقضت وانتهى أمرها، وبالتالي تبقى في عداد الأمور الدنيوية المنتهية، بل أن الأحداث نفسها يمكن أن تكون منطلقا للتفكير في الحياة الأخروية، عن طريق الاتعاظ بما وقع للسلف، وعدم

ارتكاب نفس الأخطاء، فهو عندما يتعرض مثلا لشخصية معينة يبدأ بتبوئها لمركز مهم إلى سقوطها ... وهو وإن لم يعلق، إلا أن عباراته تترك امتدادات كثيرة في نفسية القارئ. وعندما يتعرض لكارثة طبيعية (زلزال، فيضانات) فليس المقصود هو تسجيل الكارثة فقط، ولكن أيضا للاتعاظ والتحذير والتنبيه، على غرار ما يروى في القرآن الكريم من أحداث في هذا السياق، وهذا ما أوضحه الناصري أيضا فيما بعد عندما يقول: "... إن علم التاريخ لما كان مطلعا على أحوال الأمم والأجيال ومفصحا عن عوائد الملوك والاقيال ومبينا من أعراف الناس وأزيائهم ونحلهم وأديانهم ما فيه عبرة لمن اعتبر وحكمة بالغة لمن تدبر وافتكر ...".(9)

ثالثا: ضرورة توفر شروط معينة في المؤرخ

بما أن القادري يعتبر التاريخ من العلوم الشرعية كان عليه أن يستلهم منهجيته من القرآن الكريم والسنة النبوية، ومن هنا سر اهتمامه بالتحري والتثبت من خلال اعتماده لعلم مصطلح الحديث المعتمد أساسا على تبني قواعد علم الجرح والتعديل، خاصة وأن مهنته عملية التوثيق، فهو محترف للعدالة وتلقي الشهادة بسماط العدول بفاس، ومن هنا أيضا سر اهتمامه بمصداقية الوثيقة وتخوفه من التزوير، وفي هذا يقول: "... وهذه فوائد عظيمة لائقة بالأحكام سيما مثل هذا الزور، وهي متأكدة جدا في حق من ترد عليه الرسوم من القضاة ونحوهم، وشروط الرفع على الخطوط معروفة في محلها. والحاصل أن التعرض لهذا الأمر يجب أن يكون سليم الصدر، متبرئا من هوال، متحريا في تأدية ما يلقيه، مصرحا بالمقاصد، قوالا للحق في المنصف والجاحد، مسويابين الأقارب والأباعد، ليس مقصوده إلا إظهار الدين، وفضيحة دسائس المفسدين، متثبتا في نقله، متحريا في قوله وعمله"(10) وهو في هذا يرجع - بطبيعة الحال - إلى أصول متعددة:

فهو يرجع أولا إلى الحافظ السخاوي، إذ يقرر بالنسبة لشروط المؤرخ: "وأما شرط المعتني به (التاريخ)؛ فالعدالة مع الضبط التام الناشئ عن مزيد الإتقان، والتروي سيما فيما يراه في كلام كثير من الجهلة المعتنين بسير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ...".(11)

ويعتمد ثانيا قول التاج السبكي في كتابه معيد النعم ومبيد النقم: "المؤرخون على شفا جرف هار لأ نهم يتسلطون على أعراض الناس، وربما مس أناس تعصبا أو جهلا أو اعتمادا على نقل من لا يوثق به أو غيرها من الأسباب، فعلى المؤرخ أن يتقي الله. قال الشيخ الوالد: الرأي لا يقبل مدح أو ذم من المؤرخين إلا بشروط: أن يكون صادقا، وأن يعتمد اللفظ دون المعنى، وأن يكون عارفا بحال من يترجمه علما ودينا وغيرهما من صفاته، وهو عزيز جدا، وأن يكون حسن العبارة،

عارفا بمدلولات الألفـاظ، حسن التصـور حتـى يتصور في حال ترجمته حال ذلـك الشخـص، ويعبر عنه بما لا يزيد ولا ينقص من حاله، وأن لا يغلبه الهوى فيطلب في مدح من يحبه أو يقصر في غيره ...".(12)

ويعتمد أيضا قول أحمد بابا : " ...لما كان علم التاريخ ومعرفة الأئمة من علماء الملة، من الأمور العلية، يعتني به كل ذي همة زكية، إذ هم نقلة الدين وحملة الشريعة المحمدية، وبه يتميز الصالح من الطالح، والمسقوط من المقبول، ويعرف دول العدل منهم ومن هو مجهول، فيعطي كل ذي حق حقه، كما ورد به أمرٌ من الرسول ...".(13)

وبذلك يمكن استخلاص أهم شروط المؤرخ بالنسبة للقادري كما يأتي:

- ضرورة التثبت من الوثائق المتوفرة
- ضرورة التروي في الكتابة
- ضرورة التحلي بالنزاهة والموضوعية، وعدم التحيز لهذا الظرف أو ذاك.
- ضرورة توفر قدر معين من المعلومات تمكن من ترجمة الشخص المعني حتى نصل إلى صورة صادقة للرجل.

رابعا: ضرورة توفر منهجية معينة لكتابة التراجم:

سلك القادري طريقة الحوليات وهي طريقة ابتدأت عند المحدثين ونضجت عند الطبري واستمرت مع غيره سواء بالمشرق أو المغرب. ومنهجه في التراجم مستوحى على العموم مما قاله الصفدي بهذا الصدد: "... يبدأ في التراجم باللقب ثم بالإسم، وبالنسبة إلى البلاد ثم إلى الأصل ثم إلى المذهب في الفروع، ثم إلى الاعتقاد، ثم إلى العلم والصناعة والخلافة والسلطنة والوزارة والقضاء والامرة والمشيخة ...".(14)

وقد حدد القادري منهجيته في النص الآتي: "... وغالب من ذكرنا فهو من أشير إليه بعلم أو إصلاح أو رياسة. وكثير منهم ممن اشتهر بذلك ومن لم أطل الكلام في ترجمته فهو بحسب ما وقفت عليه. فإنما ذلك قصور لا تقصير. وكثير من المشاهير تركت التطويل في ترجمته، واقتصرت على الضروري، اتكالا على ما سبقني به غيري ولئلا يفضي إلى التطويل الممل ...".(15)

نستخلص إذن من هذا النص ما يأتي:

- إنه ترجم لثلاثة أصناف من المجتمع: العلماء - الصلحاء - الرؤساء - وبالطبع له مبرره في ذلك.

- إن التقصير في الترجمة يرجع إلى قلة الوثائق التي يتوفر عليها، وليس عن قصد معين.

- بالنسبة للمشاهير ترك التطويل، واكتفى بما هو ضروري في رأيه، وذلك تجنبا للتكرار، إذ أن هؤلاء غالبا ما ترجم لهم مؤرخون سابقون، وبالتالي فإن إعادة ذلك يؤدي إلى الملل بالنسبة للقارئ.

وقبل ختام هذا المحور نطرح سؤالا نعتقد أنه مهم في بابه لما يطرحه من نقاش، وهو: لماذا يركز القادري على كتب التراجم، خاصة وأننا نعلم أن كتاب نشر المثاني ليس هو الوحيد بل هناك كتب تراجم أقرب للمؤلف؟

نذكر أولا بأن كتب التراجم في التاريخ الإسلامي كانت بمثابة موسوعات، وبالتالي فإن من الكتب في التراجم - مثل ابن خلكان وغيره - كان يقصد بها تسجيل الأحداث الكبرى للحضارة الإسلامية، إذ كان هناك تخوف من طمس معالم هذه الحضارة، فهل كان للقادري نفس الهاجس؟

نرى - وبدون تردد - بأننا لا نستبعد هذا الهاجس، خاصة وأن القادري عاش مرحلة الأزمة بعد وفاة السلطان مولاي إسماعيل العلوي، وعاين بنفسه ما آل إليه المغرب من تدهور، أي نفس المرحلة التي عاشها قبل سكان المشرق، لكن مع ملاحظة أن القادري يطغى عليه الجانب الصوفي إلى حد كبير، ويترجم إلى من يعتبرهم أقطاب المجتمع من الصوفية. فهل معنى ذلك أنه كان يرى أن الحياة الحقيقية مع هؤلاء، وبالتالي فإنه عزف عن الحياة الدنيوية نتيجة الأوضاع السائدة؟

المحور الثاني:
تعامل القادري مع تراجم العهد السعدي

سبق أن قلنا أننا سنركز على تعامل القادري مع أحداث الفترة السعدية، وهي أحداث لم يعشها ولكن استقى أخبارها من مصادر معينة، مما يجعلنا نتساءل حول المصادر التي استعملها. قبل ذلك نورد المصادر التي اعتمدها القادري بالنسبة للفترة السعدية، وهي على الشكل الآتي:

- درة الحجال، وجذوة الإقتباس، لأحمد بن القاضي
- مرآة المحاسن لمحمد العربي الفاسي
- مطمح النظر لمحمد الطيب الفاسي
- نيل الإبتهاج، وكفاية المحتاج لأحمد بابا
- الإصليت لابن أبي محلى
- ريحانة الألبا للخفاجي
- الوفيات للفشتالي

- فهرس أحمد المنجور
- روضة الآس لأحمد المقري

هناك إذن عدة تساؤلات تطرح حول الأسباب التي جعلته يختار هذه المصادر بعينها، هل لأن المصادر الهامة الأخرى لم تكن متوفرة لديه؟ أم أن توجهات تلك المصادر لم تكن تلائم توجهاته، خاصة تلك المصادر التي - حسب رأيه - تبالغ في الأطناب والمرح.

وعلى كل فالمصادر التي لم نشر إليها نذكرها على الشكل الآتي:

- فهرس عبد الواحد السجلماسي
- مناهل الصفا لعبد العزيز الفشتالي
- نزهة الحادي، صفوة من انتشر للأفراني
- تاريخ السودان، لعبد الرحمان السعدي
- خلاصة الأثر للمحبي

إلى غير ذلك من المصادر التي لم يشر إليها، أما حيث ملاحظاته على تراجم نشر المثاني، فلنبدأ بأول ترجمة في كتابه وهي ترجمة عبد الواحد السجلماسي، مفتي مراكش.(16)

نلاحظ أولا أن مؤرخنا رتبه في وفيات (1001هـ) مع أنه توفي - كما هو معلوم - سنة (1003هـ).

انتبه القادري إلى هذه المسألة وتعمد ذكره في وفيات 1001هـ للأسباب التي يذكرها: "ووجب ذكره أولا في هذه العشرة الأولى، وإن كان محله أن يذكر عام ثلاث منها الذي هو عام وفاته لأمرين، أحدهما: التبرك بهذا النسب الكريم، والإعتناء ببركة البيت العظيم، وأداء البعض حقهم وفضلهم العميم، وليكون تاجا لطليعة هذا التقليد الذي هو من مواهب ربنا الفتاح العليم... ".(17)

فمبرره هنا، إذن، واضح، أي تكريما للدولة التي يعيش تحت ظلها ورعايتها، الدولة العلوية، ولا غرابة نجده يستطرد في ذكر نسب الملوك العلويين.

أما من حيث المصادر التي اعتمدتها في ترجمة هذه الشخصية، فنجد أولا مرآة المحاسن، ودرة الحجال، ولم يذكر مصدرا أساسا ألا وهو فهرس المعني بالأمر الإلمام، مما جعلها ترجمة موجزة وناقصة، فلا يتطرق إلى قضايا عديدة كان من الممكن أن يفيدنا فيها وهو الخبير في الأنساب، مثلا موقف عبد الواحد السجلماسي - وهو من أجداد العلويين - من مسألة نسب السعديين التي طرحت بحدة أواخر العصر السعدي لأسباب سياسية.

وقضية أخرى كان بالإمكان أن يفيدنا القادري فيها، أقصد بذلك الدور الحقيقي الذي لعبه المترجم له كمفتي للحضرة المراكشية، ألم يتدخل قط في الحياة السياسية؟ خاصة وأن قضايا عديدة تدخل فيها غيره مثل عبد الواحد الحميدي مفتي فاس، الذي تذكره المصادر أكثر من مرة.

كذلك علاقته مع علماء، مع المجتمع إلى غير ذلك، كل ذلك لا نجد له أثرا في كتاب نشر المثاني. النموذج الثاني الذي سوف نختاره، ترجمة السلطان أحمد المنصور الذهبي.(18)

على العموم ترجمة مطولة بالنسبة للترجمات الأخرى، وهذا يرجع إلى الدور الكبير الذي قام به في تركيز دعائم الدولة السعدية، وإلى كون عصره يعتبر أبهى وأزكى فترات العهد السعدي.

فيما يتعلق بالمصادر، فقد اعتمد القادري المصادر الآتية:

- درة الحجال، جذوة الإقتباس، المنتقى المقصور، لأحمد ابن القاضي.
- ريحانة الألبا، لشهاب الدين الخفاجي
- فهرس أحمد المنجور
- منظومة عبد الله المكلاتي: تكميل وفيات الفشتالي
- أحمد المقري، روضة الآس
- أبو العباس المرابي، تقاييد

لم يتعرض القادري، إذن، للكتاب الرئيسي وهو مناهل الصفا لمؤرخ الدولة الرسمي عبد العزيز الفشتالي، والأمر له خطورته. هناك احتمال بأن الكتاب كان مفقودا أو غير معروف لديه، هذا احتمال بعيد، لأن المصادر تؤكد أن السلطان العلوي محمد بن عبد الله كان يقرأ مناهل الصفا ويعتز به ويقتدي به. وهناك احتمال آخر، هو أن القادري تعمد عدم ذكره لأن مؤلفه مؤرخ رسمي للبلاط وبالتالي فهو - حسب رأيه - يبالغ في مدح الدولة ورجالاتها، ومما يؤيد كلامنا هذا ما قاله بالنسبة لمؤرخ آخر هو أحمد بن القاضي عندما نقل من كتابيه المنتقى المقصور ودرة الحجال، إذ يورد في هذا الصدد ما يأتي: "... له غلو واطراد في صاحب الترجمة، فلذلك تركنا من كلامه ما الأولى تركه ...".(19)

وبطبيعة الحال لا نستغرب موقف القادري هذا من أحمد بن القاضي، فهو يسير مع منهجه الذي فصلناه في إطار المحور الأول من ضرورة التزام الصدق والأمانة العلمية والتثبت. وليس معنى ذلك أنه كان ممن يحقد على السلطان أحمد المنصور الذهبي أو على الدولة السعدية، بل يقر لهم بما يعتبره صدقا خاصة فيما يتعلق بشرف نسبهم إذ يقول في هذا الصدد: "... كانوا معروفين بالشرف سنين عديدة قبل إمارتهم وبعدها، وهو محل اتفاق وتسليم من الكافة.(20)

هناك مسألة أخرى تحفظ فيها مؤرخنا أيضا وهي مسألة فتح المنصور للسودان، إذ أورد أولا قول ابن القاضي: "...ملك أرض السودان وتوات وتيجورارين، وقدر ما ملك السودان مسيرة شهر ... استولى على المغرب الأقصى من شط البحر الرومي من ملوية إلى السوس إلى النيل المار بالبلاد السودانية من بلاد التكرور ...".(21)

وعلق بعد ذلك على قول ابن القاضي بما يأتي: "... وما ذكره من ملك السودان إلخ ... الله أعلم بكيفيته لملكه ذلك وصفته"(22)

فضل مؤرخنا هنا السكوت عوض الدخول في التفاصيل مخافة الإنزلاق، وكلمته: "فالله أعلم بكيفيته لملكه ذلك وصفته" تحمل أكثر من دلالة.

النموذج الأخير: فيما يتعلق بتعامل القادري مع أحداث خروج المسلمين من الأندلس، فقد وضعها ضمن أحداث سنة 1017 هـ.(23)

نلاحظ أولا أن مؤرخنا نقل حرفيا ما أورده المقري في نفح الطيب (4:510-553)، بالإضافة إلى استشارته إلى كتاب نبذة العصر لمؤلف أندلسي مجهول.

والإضافة الوحيدة التي يوردها: "... وقد أدركنا قوما بفاس يقال لهم أولاد ابن يوسف المذكور، والآن انقرضوا ولم يبق أحد منهم ..."،(24) وأدرك بعد ذلك ما قاله شهاب الدين الخفاجي في بكائه على أصول الأندلس، وهي لا تضيف شيئا جديدا كماهو معروف. وكان من الممكن أن يفيدنا بالنسبة للوثائق التي حملها معهم الأندلسيون إلى المغرب خاصة بفاس، خاصة بالنسبة لكثير من القضايا التي نجهلها حول الأندلسيين بالمغرب.

وخلاصة القول، فإن القادري – بالرغم من وجود بعض العناصر السلبية في كتاباته التاريخية – مؤرخ متميز، يحتاج إلى دراسات متعددة بفعل غزارة إنتاجه. وما قدمناه محاولة لإثارة الإنتباه إلي جوانب معينة من كتابه نشر المثاني لعلها تكون دافعا لدراسات أخرى لجوانب أخرى من الكتاب، وذلك ما نتمنى أن يتحق.

الهـــوامـــش

1- عاش محمد بن الطيب القادري 63 سنة (1124هـ/1712-1187هـ/1773)، فقد قضى طفولته وبداية شبابه في عمل السلطان العلوي مولاي إسماعيل، وعاصر الأزمة التي عرفها المغرب بعد وفاة المذكور، كما عاش جزءا من حياته في عمل السلطان محمد بن عبد الله. وللمزيد من الإيضاح أنظر:

- هاشم العلوي القاسمي، مقدمة تحقيق كتاب التقاط الدرر، 1: 123-171.

2- صدر في أربعة أجزاء بتحقيق الأستاذين محمد حجي وأحمد التوفيق:

الجزء الأول صدر بالرباط سنة1977، والجزء الثاني بالدار البيضاء سنة1982، والجزآن الثالث والرابع بالدار البيضاء سنة1986.

3- مؤرخو الشرفاء، ص. 72

4- مرآة المحاسن، ص.4

5- نزهة الحادي، ص.2

6- الإستقصا، 1: 3-6

7- المصدر السابق، 1: 3

8- مؤرخو الشرفاء، ص. 38

9- الإستقصا، 1: 3- 4

10- نشر المثاني، 1: 15

11- الحافظ السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص.114.

12- نقلا عن أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص. 31.

13- أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص. 27.

14- المصدر السابق، ص. 31.

15- نشر المثاني، 1: 29.

16- المصدر السابق، 1: 30-32.

17- المصدر السابق، 1: 30.

18- المصدر السابق، 1: 98-108.

19-المصدر السابق، 1:104.

20- المصدر السابق، 1:98.

21- المصدر السابق، 1:105.

22- أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص. 27.

23- المصدر السابق، 1: 145-147.

24- المصدر السابق، 1: 146.

التأليف التاريخي في العصر العلوي. أبو القاسم الزياني نموذجا

العربي الحمدي
كلية الآداب. بني ملال

ينبغي أن نعلم منذ البداية أن التأليف التاريخي المقصود هنا هو التأليف الذي أنجزه المنتمون للمرحلة التاريخية المدروسة، وليس الذين عاشوا بعدها وكتبوا عنها، وهو ثانيا تأليف المغاربة وليس غيرهم. وهو ثالثا التأليف التاريخي الذي اتخذ أصحابه التاريخ موضوعا لهم عن قصد، ومارسوا الكتابة التاريخية بوعي، إذ من خلال هؤلاء فقط نستطيع مقارنة الكتابة التاريخية في العهد العلوي إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي. منهجيا ومضمونيا ومن حيث موضوعية الكتاب، مع العهد السعدي أساسا، والتقاليد الإسلامية المنهجية[1] في الكتابة التاريخية عامة؛ ومع باقي الكتابات التاريخية في العهد العلوي نفسه من ناحيتي المنجهية وموضوعية المؤلفين. والغاية من هذه المقابلة الوقوف على التطور أو الجمود الحاصلين في الحركة العلمية التاريخية للمرحلة.

لابد من الإعتراف بأن الثقافة الإسلامية في المغرب، وإلى نهاية المرحلة المراد دراستها، بقيت هي الطابع المسيطر على كل نشاط فكري. وكان الهدف منها فهم العقيدة إذ هي أساس الدين، وتوضيح الشريعة التي ينبني عليها الجانب العلمي في الإسلام. ولهذا لم يكن في الإمكان الإشتغال بالأعمال الدنيوية ومن بينها التاريخ،[2] ولذلك كان ضروريا أن يبقى هذا العلم في المجتمع المغربي كما في المجتمع الإسلامي عامة علما مهمشا. لا يشتغل به إلا كعلم مساعد للحديث وروايته يدل

1- حتى لا يعتقد أننا نقصد مقارنة الإنتاج التاريخي العلوي لهذه المرحلة موضوعيا أو مضمونيا مع إنتاج العصور الإسلامية كلها. وإنما نقصد أننا سنرجع في الحديث عن المنهج خلال المرحلة، إلى أنه متشابه مع معالم المنهج التاريخي الإسلامي.

2- بروفنصال ليفي، مورخو الشرفاء، تعريب عبد القادر الخلادي، الرباط، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التاريخ (5) 1397هـ-1977م، ص 33.

على ذلك في المغرب اعتبار علم التاريخ من الإهتمامات الدنيوية والإشتغال به من باب اللهو.[3] وعدم النص عليه كمادة للتدريس في كل العصور سواء في القرويين أو باقي المدارس وفي العهد العلوي الذي يعنينا أيضا استمر تهميش تدريسه سواء مادة تابعة أو مستقلة، فالمواد المدرسة هي النحو والصرف والبلاغة والأصول والحديث والتفسير[4] ومع ذلك فإن مهتمين بالتاريخ ظهروا في ظل هذا المناخ الثقافي العام المنغلق دون طموحاتهم، واشتغلوا بالتاريخ الوطني، فارتبطت كل ثقافة المغاربة بثقافة باقي البلدان الإسلامية إلا موضوع التاريخ فإنه الوحيد الذي اتخذ الصبغة المحلية.[5] واضطر المشتغلون بموضوعه إلى البرهنة على أهميته في مقدمات أعمالهم رغبة في إثبات صلاحية الموضوع، وإبعادا لكل نقد يمكن أن يتعرضوا له من قبل العلماء، ومن الذين فعلوا، الزياني الذي نهتم به في هذه المناسبة وذلك في مقدمة كتابه الترجمان المعرب.[6] هؤلاء الرجال الذين تحملوا تلك الصعاب من أجل الإهتمام بالتاريخ هم الذين نود رصد أعمالهم ومحاولة الوقوف على الجديد فيها.

يظهر من المفيد بدء هذا العمل بمقابلة عامة تمهيدية بين التأليف التاريخي في العهد السعدي ومثيله في العهد العلوي، وهي مقابلة الغاية منها إعطاء نظرة عامة عن التطور الحاصل أو عكسه في المرحلة المدروسة. ثم القاء الأضواء على دور أبي القاسم الزياني في هذا التطور برصد الجديد من خلال مؤلفاته.

وهنا لا يمكننا الإدعاء بأننا نقوم بعمل أصيل فيما يخص رصد المؤلفات والتعريف بمحتوياتها، ولكننا نستفيد من أعمال غيرنا[6] للقيام بالإستنتاج بعد المقابلة وهو كل ما نتوخاه من هذا العرض المتواضع.

3- نفس المرجع، بروفنصال: مؤرخو الشرفاء ص 38

4- نفس المرجع، ص. 30.

5- نفس المرجع، ص. 33

6- بروفنصال ليفي، المرجع السابق، ومحمد المنوني المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، ج1و2، منشورات كلية الاداب والعلوم الإنسانية، الرباط،1404-1983.

إذن نبدأ أولا بتناول مضمون التأريخ السعدي والعلوي من وجهين: أولهما عدد المؤلفات. وثانيهما تنوع المواضيع[7] التي دخلت في اهتمام المؤرخين.

نستعرض المؤلفات التاريخية في العهد السعدي الذي لم يتجاوز قرنا وعقدا من الزمان. بدأ منذ تمكن السعديون من توحيد البلاد تحت نفوذهم سنة 961هـ/1554م. وانتهى سنة 1069هـ/1659م باستيلاء العلويين على الحكم. وقد اعتبر ليفي بروفنصال هذه المؤلفات ستة: الفهرسة للنجور، ومناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفاء لعبد العزيز الفشتالي، والمدود والمقصور من سنا أبي العباس المنصور لمحمد الفشتالي التمكروتي، والمنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، ودرة السلوك فيمن حوى من الملوك، وشرحها بعنوان الدر الحلوك المشرق بدر السلوك، كلها لابن القاضي أحمد بن محمد، وأخيرا مخطوط فاس كما سماه لمؤلف مجهول.[8] واقتصر محمد حجي على ذكر مصدرين تاريخيين فقط هما مناهل الصفا والمنتقى[9] وممن ذكرها محمد المنوني وتبرز من القائمة التي قدمها أربعة كتب ذات اتجاه تأريخي محض وهي "البحر الزخار والعيلم التيار" للجباني مصطفى بن حسين التركي. و"درة السلوك"، والمنتقى المقصور" لابن القاضي، و"مناهل الصفا" للفشتالي.[10]

وننتقي من هذه الكتب المقترحة في اللوائح السابقة ما هو تاريخي واضح الإتجاه، وهنا نضطر إلى التخلي عن عناوين وردت عند هؤلاء الكتاب، ونكتفي فقط بخمسة كتب وهي كالتالي:

1- ***مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفاء*** لأبي فارس الفشتالي عبد العزيز بن محمد بن ابراهيم الصنهاجي القاسمي المتوفى سنة 1031هـ/1621م بفاس. بقي من هذا الكتاب جزؤه الثاني نشرته المطبعة والمكتبة العصرية بالرباط 1973م بتحقيق الدكتور

7-الأحداث الشعبية – الأحداث السياسية – الأحداث الخاصة – الأحداث العامة – أحداث الفيئية (التيجانية مثلا) – أحداث الجهة – أحداث خارجية.

8- بروفنصال ليفي، المرجع السابق، ص. 78-100.

9- حجي محمد، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج. 1، الرباط، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التاريخ(2)، 1396هـ 1976م، هامش 1، ص. 154.

10- المنوني محمد، المرجع السابق، ج.1، ص. 134-135؛ 141-142-145.

عبد الكريم كريم. يتحدث من التاريخ عن الأحوال السياسية والإجتماعية والتدابير الإقتصادية والمنشآت العمرانية والإنجازات الثقافية[11] وهو عبارة عن تقريظ ومديح لأسرة المنصور الشريفة.[12]

2- "المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور" لأبي العباس ابن القاضي أحمد بن محمد ابن أبي العافية المكناسي الزناتي ثم الفاسي المتوفى بفاس سنة 1029هـ/1616 م. اعتبرت هذا الكتاب تأليفا تاريخيا لأنه سيرة ذاتية للخليفة مع أعماله الاجتماعية والسياسية، ولأن الكتاب يسلط الأضواء إضافة إلى حياة الخليفة على أحوال تاريخية مهمة. تتكون من مقدمة وعشرين بابا وخاتمة، ومايزال مخطوطا في ثلاث نسخ. أجودها نسخة الخزانة الملكية 3179ز في 359ص.[13]

3- "درة السلوك فيمن حوى الملك من الملوك" وشرحها، "الدر الحلوك المشرق بدرة السلوك فيمن حوى الملك من الملوك " ورغم أن المؤلف أرجوزة شعرية فإني اعتبرتها وشرحها موضوعا تاريخيا بحتا لأن عنوانها مصرح بذلك وصاحبها قصد بها التأريخ كما أن مضمونها التاريخي فقد تحدث فيها عن السيرة وحياة الخلفاء وبني أمية وبني العباس والفاطميين وبني أيوب، والأتراك في القسم الأول. وذكر في القسم الثاني تاريخ المغرب من الفتح إلى المرابطين ثم المرينيين فالوطاسيين فالسعديين إلى عصره 999هـ/1590م. ما تزال القصيدة المكونة من 400 بيت مع شرحها مخطوطة بالخزانة العامة رقم د 52.[14]

4- "تاريخ الدولة السعدية" مجهول المؤلف " جمع منه جورج كولان ثلاث نسخ فدققه فقام بنشره ضمن مطبوعات معهد الدروس العليا المغربية سنة 1934 استهله كاتبه بذكر أخبار السلطان مولاي محمد الشيخ الملقب بالأصغر يتحدث عن أخبار بداية السعديين وسيطرتهم على فاس بتفصيل ولكنه يمر على عهود باقي السلاطين السعديين مر الكرام. ومن سمات الكتاب

11- نفس المرجع، ص. 142.

12- بروفنصال ليفي، المرجع السابق، 81.

13- المنوني محمد، المرجع السابق، ج 1، ص 145.

14- المنوني محمد، المرجع السابق، ج 1، ص. 141.

التحامل على سلاطين الدولة السعدية على أنه لم يتغافل على محاسنهم[15] وقد أدرجت هذا الكتاب في قائمة التأليف التاريخي على العهد السعدي
نظرا لأن مؤلفه دقيق المعلومات ومن ثم يبدو أنه مؤرخ سعدي معاصر للأحداث ولكنه أيضا أدرك بداية عهد العلويين.

وقبل الحديث عن المؤلفات التاريخية في العهد العلوي إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي لابد من تحديد هذا العصر زمانيا إنه يبدأ مع سنة1069هـ /58-1659. وينتهي بحكم السلطان مولاي عبد العزيز حيث حكم بين1311و1325هـ الموافق ل1894-1908م. استمرت هذه الفترة إذن 241 سنة. إن من خصوصيات المؤلفات التاريخية في المرحلة أن كتابها لم يقفوا عند التأريخ لعصرهم هذا، بل تجاوزه إلى عصر أو عصور قبله. ومن المؤكد أن المعلومات الصالحة للتأريخ كثيرة إلى درجة يمكن معها الحديث عن ثورة مصدرية خلال هذا العصر، ولكن المؤرخين الذين اتخذوا لهم التأريخ موضوعا معلنا وواضحا بقوا محدودي العدد[16] نرتبهم بحسب أقدميتهم كالتالي:

1- ***"تاريخ الدولة السعدية"*** لمؤلف مجهول سبقت الإشارة إليه أعلاه. يبدو أن الكتاب مؤلف سنة1090هـ/79-1680م. والذي يعنينا منه أنه مصدر تضمن أخبار بداية العلويين زيادة على تأريخه للسعديين والمرينيين والوطاسيين.[17]

2- ***"زهرة الشمارخ في علم التاريخ"*** هذه أرجوزة مكونة من206بيتاونعتبرها من المؤلفات التاريخية بسبب تبني ناظمها للتاريخ موضوعا في العنوان وكذلك في المحتوى. فقد تعرض بتلخيص لتاريخ الخلفاء والملوك والسلاطين عبارة عن قائمة بأسماء وتاريخ حكمهم. وهذه الأرجوزة لعبد القادر الفاسي الفهري. وله أيضا كتاب:

3- ***"تقييد في أخبار دولة الشرفاء السعديين"*** أرخ فيه كما هو واضح من العنوان للسعديين، ولكنه تحدث عن بداية دولة العلويين. توفي هذا الكاتب سنة 1096م/685هـ.

15- بروفينصال ليفي، المرجع السابق، ص. 97-100.

16- المنوني محمد، المرجع السابق، ج 1، ص. 158.

17- نفس المرجع، ص. 158-159.

4- **"تقييد في تاريخ الدولة العلوية"** صاحب هذا الكتاب هو بردلة[18] محمد بن القاضي. أرخ فيه لبداية الدولة العلوية إلى عام 1101 هـ/1689م.[19]

5- **"نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي"** لمحمد الصغير الأفراني المتوفى سنة 1155هـ/1742م.جعلها 21 مبحثا، 75 منها لأيام السعديين، وما بقي للعصر العلوي إلى عهد المولى إسماعيل. هذا الكتاب منشور في باريس سنة 1888م. على يد هوداس.

6-**"روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل الشريف"** أو "الظل الوريف في مفاخر مولانا إسماعيل الشريف" عبارة عن سيرة ذاتية للمولى إسماعيل إلى سنة 1133هـ/ 1720م. من تأليف الأفراني أيضا وهو كتاب منشور بتحقيق عبد الوهاب ابن منصور بالمطبعة الملكية بالرباط سنة 1962م.[20]

7- **"طلبة الدعة في تاريخ وادي درعة"** لمحمد المكي بن موسى الناصري عبارة عن منوغرافية لدرعة رتبها على ثلاثة أبواب وضمنها أخبار درعة ونخيلها وسائر فواكهها. توفي كاتبها سنة 1170هـ/1757م. والكتاب ما يزال مخطوطا.[21]

8- **"تقاييد تاريخية"** لابن ابراهيم الدكالي، عبارة عن يوميات تاريخية من عهد مولاي إسماعيل إلى عام 1182هـ/1768م. كان أسلوب الدكالي التحري في الأخبار والتعقيب عليها بموضوعية تامة. يبدو أن الزياني تتلمذ عليه في هذا المنهاج من غير أن يذكره. اعتمد ابن زيدان .

18- المنوني محمد، المرجع السابق، ج1، ص159.

19- نفسه.

20- نفس المرجع، ص.160.

21- نفس المرجع، ص.162.

على هذه التقاليد وهي لا تزال مخطوطة. التقاييد وهي ما تزال مخطوطة.[22]

9- **"نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني"** للقادري محمد بن الطيب بن عبد السلام المتوفى سنة 1187هـ/1773م. ورغم أن الكاتب يبدو من خلال عنوانه كتاب تراجم، ونحن لا نرى مكانا لكتب التراجم في هذا العرض، فإننا أدرجناه ضمن قائمة الكتب التاريخية نظرا لاتباعه المنهج الحولي من جهة ولاشتماله على معلومات تاريخية بلغت من القيمة درجة جعلت الأستاذ نورمان سيكار ينشرها في كتيب خاص سنة 1978 عن طريق المعهد الجامعي للبحث العلمي.[23]

10- **"الحلل البهيجة في فتح ثغر البريجة"** (الجديدة الحالية) للسلماني محمد بن القاسم المراكشي الذي عاش إلى 1182هـ/1778م. قسم كتبه إلى ثلاثة أبواب: الأول في الحديث عن السلطان محمد بن عبد الله، والثاني وصف فيه جيش ومحلة السلطان المتجهين إلى البريجة من مراكش، وحصار وقتال النصارى بها. والثالث في تحريرها ودخول المغاربة إليها وما فوجئوا به من ألغام البارود.[24]

11- **"الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب"** للزياني أبي القاسم بن أحمد بن علي المتوفي بفاس سنة 1249هـ/1833م. تاريخ عام ينطلق من بدء الخليقة إلى عصر المؤرخ. فيذكر آدم عليه السلام وما بعده من الأحداث. ثم يلم بالدول التي قامت قبل الإسلام، واختصر بعد هذا استعراض الدول الإسلامية بالمشرق والمغرب غير أنه توسع في الفصول الخاصة بالأتراك العثمانيين، ودولة السعديين والعلويين الذين عاش في كنفهم إلى عام 1228هـ/1813م. ما يزال الكتاب مخطوطا باستثناء القسم الخاص بالعلويين الذي نشره مع ترجمته هوداس سنة 1886م.[25]

22- نفس المرجع، ص. 219.

23- نفس المرجع، ص. 219-220.

24- المنوني محمد، المرجع السابق، ج 1، ص. 221.

25- المنوني محمد ج.2. ص. 11.

12- **"البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف"** للزياني دون فيه تاريخ الدولة العلوية من نشأتها حتى1233هـ/1817م. وصدره بمقدمة تشتمل على لوائح بأسماء خلفاء وملوك الإسلام إلى أواخر عصر السعديين، وبهذا التقديم أصبح البستان هو الآخر نوع التواريخ العامة.(26)

13- **"الروضة السليمانية في ملوك الدولة الإسماعيلية، ومن تقدمها من الدول الإسلامية"** وهو نسخة من البستان الظريف مع بعض الزيادات إلى عام1239هـ/1823م.

14- **"ألفية السلوك في وفيات الملوك"** للزياني. أرجوزة من ألف بيت أوجز فيها تاريخ دول الإسلام مشرقا ومغربا، فذكر خلفاءهم وملوكهم ووفياتهم وابتدأ من الهجرة إلى عصره عام1222هـ/1807م.

15- **"أرجوزة الفية"** يبدو أنه جعلها الزياني أساسا لأرجوزة تاريخ الإسلام بحيث خصصها للدول السابقة عن الإسلام ولم يذكر وفيات الحكام.

16- **"بغية الناظر والسامع والهيكل الجامع لما في التواريخ الجوامع"** للزياني شرح فيها الأرجوزتين ولكن أضاف في هذا الشرح معلومات مهمة انتقاما من وثائق فقدت بعد عصره أو دونها مما سمع ورأى أيام السلطان محمد الثالث وابنيه اليزيد وأبي الربيع.(27)

17- **"التاج والإكليل في مآثر السلطان الجليل سليمان بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل"** للزياني. زاوج فيه بين المواضيع التاريخية والسياسية. وضمنه سيرة أبي الربيع وأحداثا حصلت في عصره.

26- نفس المرجع، ج.2. ص. 12.

27- المنوني محمد، ج2، ص. 13.

18- **"تكميل الترجمان في خلافة مولانا عبد الرحمن"** كتاب نوه فيه بسيرة أبي زيد بن هشام في فترة نيابته عن عمه أبي الربيع ثم ذكر سياسته بعدما تولى الملك.

19- **"عقد الجمان، في شمائل السلطان، سيدنا ومولانا عبد الرحمن ..."** تعرض فيه لتاريخ أبي زيد المولى عبد الرحمن بن هشام من مبايعته عام 1238هـ1822م. إلى 1245هـ/1829م.(28)

20- **"شرح الحال والشكوى للكبير المتعال"** لأبي القاسم الزياني. أرجوزة نظمها لإثبات أحداث الإنتفاضة التي عرفتها مدينة فاس عند مبايعة الأميرين إبراهيم ثم السعيد ابني السلطان اليزيد حامي 35-1236هـ/1820م. ضد السلطان مولاي سليمان.(29)

21- **"تقاييد تاريخية"** للقادري عبد السلام بن عبد الله الخياط المتوفى سنة1228هـ/ 1813م. جمع في هذه التقاييد مواضيع متنوعة بدأ بحياة محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل، وعرف بذريته. ثم أورد معلومات عن تاريخ العلويين إلى عصر اليزيد، وختم بلمحة عن تاريخ السعديين.

22- **"تاريخ الدولة العلوية"** للضعيف محمد بن عبد السلام الرباطي عاش إلى1233 هـ/1818م. اتبع فيه المنهج الحولي أوجز في المرحلة السابقة على عصره ثم أورد تفاصيل ضافية عنى فيها بشتى الأحداث الخاصة والعامة في تتبع يومي تقريبا.(30)

23- **"الإبتسام عن دولة ابن هشام"** وللكتاب عنوان آخر: "ديوان العبر في أخبار القرن الثالث عشر" لم يعرف كاتب هذا التاريخ ولكن يعتقد أنه لإدريس الجعيدي إذ يرد على لسان

28- نفس المرجع، ص. 15.

29- نفس المرجع، ص. 17.

30- نفس المرجع، ص. 14.

الكاتب أنه صار كاتبا في بلاط المولى عبد الرحمن سنة1245هـ/1838م. يتحدث المؤلف عن عصري المولى سليمان والمولى عبد الرحمن بن هشام. يرصد الأحداث وكبار الموظفين ويهتم بالكوارث الإجتماعية كالغلاء والمجاعات والأوبئة، وبالأحداث خارج المغرب كاحتلال فرنسا للجزائر، وحملة نابليون إلى مصر، وإصلاحات محمد علي باشا، والدعوة الوهابية وامتاز هذا الكاتب بالتوسع في التحليل وأوصل التدوين إلى سنة1266هـ/1859م.

24- ***"الدر المنضد الفاخر بما لأبناء مولانا علي الشريف من المحاسن والمفاخر"*** للكرودي محمد بن عبد القادر الفاسي المتوفي سنة1268هـ/1852م. دون فيه فقط أخبار المولى إسماعيل.(31)

25- ***"نزهة الجلاس في قصة أبي أحلاس"*** وله عنوان آخر "الفوائد المرضية للأنفس الزكية" لابن يعقوب محمد بن أحمد المرابط توفي سنة1221هـ/1807م. يتضمن الكتاب معلومات عن فتنة نشبت في قبيلة آيت باعمران بسوس أول سنة1207هـ. على يد المكنى "بوحلاس" يحيط بأخبارها وموت قائدها.(32)

26- ***"رسالة في تاريخ سجلماسة"*** لمحمد بن الهاشمي العلوي المدغري، كان قاضيا بسجلماسة ومدغرة أيام السلطان أبي الربيع. وهو كتيب صغير غير تام الموضوع.(33)

27- ***"نزهة الإخوان وسلوة الأحزان، في الأخبار الواردة في بناء تطوان ومن حكم فيها أو تقرر من الأعيان"*** لسكيرج عبد السلام بن أحمد التطواني توفي سنة1250هـ/34-1835م. بقيت من هذا الكتاب أجزاء لا تزال مخطوطة.(34)

31- المنوني محمد، المرجع السابق، ج2، ص. 16.

32- نفس المرجع، ص. 17.

33- نفسه.

34- نفسه.

28- **"مقيدة حول حادثتين"** للسقاط محمد التاودي بقي على قيد الحياة إلى سنة 1288هـ/1871م. ذكر فيها ما أقدم عليه الإسبان من بناء برج في حدود سبتة الشرقية وتطور ذلك إلى حرب تطوان، وذكر فيها أيضا ثورة الأمير عبد الرحمن بن السلطان مولاي سليمان بعد مبايعة محمد الرابع(35)

29- **"الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي"** لاكنسوس محمد بن أحمد المراكشي المتوفى سنة 1294هـ/1877م. كان تأليف هذا الكتاب خمسة أقسام كما يقسم الجيش في الحروب مقدمة وجنح أيمن وجناح أيسر وقلب وساسة. عرف في المقدمة بالامامة العظمى وأحكامها وبين الفرق بينها وبين الخلافة والملك. ثم انتقل إلى الجناح الأيمن مع ظهور الإسلام، فالخلفاء الأربعة، فبني أمية فالعباسيين فالفاطميين فالعثمانيين. وفي الجناح الأيسر عرف بدول الغرب الإسلامي حتى عصر السعديين. ثم توسع في الدولة العلوية وهي القلب منذ قامت حتى أيام محمد الرابع متبعا المنهج الحولي إلى عام 1282هـ/1865م. وجعل ساقة الجيش هي خاتمة الكتاب وفيها نظر للمناصب السياسية وأورد تراجم الوزراء العلويين.(36)

30- **"إعراب الترجمان عن قصة الأوداية مع مولاي عبد الرحمن"** للفاسي عبد الرحمن المجذوب المتوفي سنة 1295هـ/1878م. أرخ في هذه المقامة لمراحل الثورة التي قام بها جيش الأوداية ضد السلطان عبد الرحمن عامي 1247هـ/1831م.(37)

31- **"الفتوحات الوهبية في سيرة مولانا الحسن السنية ومفخر اختراعته البهية"** للسملالي حسين بن محمد السوسي توفي سنة 1309هـ/1891م. فصل في هذا الكتاب الأحداث الحاصلة أيام الحسن الأول مع التعليق على بعضها.

35- نفس المرجع، ص. 18.

36- المنوني محمد، المرجع السابق، ج2، ص. 93-94.

37- نفس المرجع، ص. 100.

3 2- ***"مطالع الحسن واتباع السنن بطلوع راية مولانا الحسن"*** للسملالي - وهو غير السابق - علي بن محمد السوسي المتوفي بفاس سنة 1311هـ/1813م. أورد فيه أخبار الحسن الأول إلى منتصف أيامه فقط مع بعض الأخبار الأخرى قسم الكتاب إلى مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة.

3 3- ***"مطالع السعادة في فلك سياسة الرئاسة"*** لنفس الكاتب السملالي علي بن محمد. يتكون من مقدمة وستة فصول وخاتمة. يتحدث عن قواعد السياسة ولها ما يقابلها من مواقف الحسن الأول.

3 4- ***"نهاية المقول في تنبيه همم الفحول"*** شرح لقصيدة سبق أن نظمها منوها بحياة الحسن الأول وفي الكتاب مداخل مطولة وأخبار متعددة وهو لنفس الكاتب السملالي علي بن محمد.(38)

3 5- ***ذخيرة الأواخر والأول فيما يتضمن من أخبار الدول"*** للمشرقي محمد العربي بن عبد القادر بن علي الحسني توفي بفاس سنة1313هـ/1895م .يتكون مؤلفه من ستة أبواب اشتملت الأربعة الأولي تاريخ ما قبل الإسلام منذ آدم عليه السلام، والخامس من ظهور الإسلام إلى عصر المؤلف، والسادس من العلويين إلى الحسن الأول مع تراجم لعلماء من فاس والجزائر المتأخرين.(39)

3 6- ***"الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصا"*** للناصري أحمد بن خالد بن حماد السلوي المتوفي سنة1315هـ/1897م. تاريخ عام من الفتح الإسلامي إلى أواخر القرن 19.اتبع فيه التسلسل الحولي، حاول أن يكون مع التاريخ ويبتعد عن الإستطرادات كما فعل أغلب معاصريه. قارن بين النصوص ونقدها أحيانا معطيا رأيه بكل تحرر. والجديد عنده اقتباسه من المصادر الأجنبية " تاريخ المغرب" مثلا لمانويل كستيانوس بواسطة ترجمان خاص.(40)

38- نفس المرجع، ص. 96-97.

39- المنوني محمد، المرجع السابق، ج2، ص. 91.

40- نفس المرجع، ص.91 - 92.

37-***"الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن"*** لابن الحاج أحمد بن محمد بن حمدون الفاسي المتوفي سنة 1316هـ/1899م. تحدث عن كل الدولة العلوية مع توسع في عصر الحسن I الذي كان من وراء فكرة تأليف هذا التاريخ. جعله 12 بابا، نصف الكتاب عبارة عن سبعة مداخل الخلافة والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومشاورة العلماء ومجالستهم وتنظيم الجيش.
والباب الثامن للتعريف بالنسب العلوي. والتاسع فيه الدولة منذ نشأتها إلى السلطان مولاي سليمان، ثم كتب تاريخ الحسن الأول يتبع الطريقة الحولية والكتاب ما يزال مخطوطا في نسخة ناقصة.(41)

38- ***"الدرر الجوهرية في مدح الخلافة الحسنية"*** لابن الحاج أيضا. تناول فيه بعد التمهيد سيرة الحسن الأول وخاصة ظهائره. وأدرج فيه القصائد التي مدحه بها في المناسبات إلى عام 1308هـ/1860م.

39- ***"الدرر الإبريزية في المناقب العزيزية"*** لنفس الكاتب. ترجم فيه للسلطان المولى عبد العزيز من بيعته 1311هـ إلى 1316هـ. ولم يتم الكتاب بسبب موت المؤلف.(42)

40- ***"أرجوزة في دول المغرب"*** نظمها ابن سليمان محمد الغالي بن المكي الغرناطي الفاسي المتوفي سنة 1317هـ/1899م. عرف فيها بدول المغرب الأقصى إلى نهاية القرن 19م. مع بداية حكم السلطان عبد العزيز.(43)

41- ***"التنبيه المعرب عما عليه الآن حال المغرب"*** أبو عشرين الحسن بن الطيب عاش حتى سنة 1324هـ/1906م. بدأ في هذا الكتاب بدولة الحسن الأول ثم عبد العزيز ثم الثائر بوحمارة ورحلته إلى الجزائر مع السفير بناصر غنام. ومواضيع أخرى والمعلومات الباقية منه هي المعلقة بالسلطانين الحسن الأول وعبد العزيز. يبدو الكاتب مائلا إلى السلطانين فينوه بأعمالهما

41- نفس المرجع، ص. 95-96.

42- نفس المرجع، ص. 97.

43- نفس المرجع، ص93.

وانتصاراتهما. كما يصف الأحوال بالمغرب بعد موت العزيز ويتألم لما صار عليه من ضعف.(44)

بعد هذا الإستعراض الطويل للمؤلفات في العهدين السعدي والعلوي والذي لم يكن منه بد لإجراء المقارنة، نقول إن التأليف التاريخي في العهد العلوي من حيث عدد المؤلفات بلغ أضعاف ما أنتجه العهد السعدي. ومهما كان أخذنا بعين الإعتبار مدتي الحكم المتفاوتتين، قرن ونيف للسعديين وقرنيين ونصف للعلويين إلى نهاية القرن التاسع عشر؛ فلايسعنا إلا الحكم بتفوق التأليف التاريخي، وبامتياز في العهد العلوي (41 مؤلفا) على التأليف التاريخي في العهد السعدي (4 مؤلفات).

وهنا نجد نموذجنا يقفز إلى قمة هذا الإنتاج من حيث عدد المؤلفات، ولا يمكن أن يجاريه في ذلك مؤرخ سعدي أو علوي، إنه أبو القاسم الزياني الذي ألف من الواحد والأربعين كتابا العلوية ربع عددها أي عشرة كتب كاملة.(45)

هذا بالنسبة للإحصاء العددي، أما فيما يتعلق بالمضامين، فإن العهد العلوي أيضا حقق توسعا كبيرا، وأدخل في اهتمام المؤرخ ما كان يعتقد أنه بعيد عن مجاله بل أن التاريخ اليوم ما يزال يطمح إلى ولوج بعض هذه المواضيع التي تحقق الإشتغال عنها في العهد العلوي، كالتاريخ الشعبي مثلا حينما سمي بتاريخ المنسيين رغم قول صاحب "مؤرخو الشرفاء" إن المؤرخين المغاربة – لعله يقصد في العهدين السعدي والعلوي – اقتصروا على التأريخ للسلطة الملكية، وما أحاط بها، ووقع منهم إهمال لتاريخ البلاد الداخلي الشعبي الذي يدور حول زوايا المرابطين، والطرق الدينية.(46)

وقبل أن نرد عليه باهتمامات نموذجنا أبي القاسم الزياني لابد أن نحصي المواضيع المطروقة في العصرين السعدي والعلوي:

في العصر السعدي لابد أن نسجل أن الفشتالي تطرق إلى مواضيع أمثال السياسة والاجتماع، والتدابير الإقتصادية، والإنجازات العمرانية والثقافية، ولكن لابد من القول أيضا إنها انطلقت من السلطان في اتجاه المجتمع فتكون دخلت اهتمام الفشتالي كأعمال للسلطان وليست كأحداث شعبية، فبقيت ملتصقة بالسياسة وحركته وتدابيره.(47) نفس الشئ يقال عن ابن القاضي حينما

44– المنوني محمد، المرجع السابق، ج2، ص.97 - 99.

45– أنظر قائمة المؤلفات على الصفحات أعلاه.

46– بروڤينصال ليڤي، المرجع السابق، ص.53.

47– أنظر أعلاه، ص.3.

تناول أعمال المنصور الإجتماعية والسياسية، ولكن لابد من تسجيل نوع من التوسع عند ابن القاضي حينما طمح إلى أن يصير مؤرخا شموليا، ولكن للأسف في أرجوزة شعرية وهي: "درة السلوك ..." وشرحها "الدر الحلوك" فقد تناول تاريخ الإسلام من السيرة إلى العثمانيين، ثم خص المغرب من الفتح إلى عصره. فيكون هذا توسعا زمانيا إلى عصور قبل زمانه، وكذلك أضاف مواضيع تاريخية للدول التي اعتنى بالتأريخ لها ولكنها في الغالب سياسية فقط. ونسجل في العهد السعدي

إضافة المؤرخ المجهول لجوانب من الأحداث السياسية، وهي إظهار السلبيات في تصرفات الحكام السعديين[48] والخلاصة إذن:

- توسع في المجال الزمني لاهتمام المؤرخ مع الحفاظ على طابع الحدث السياسي مع ابن القاضي.

- توسع بإبراز العيوب للمؤرخ المجهول.

فالملاحظة إذن أن التوسع في تنوع الموضوعات التاريخية بقي محدودا جدا في العهد السعدي.

أما العهد العلوي بصفة عامة فقد عرف توسعا كبيرا بالقياس إلى العهد السعدي نتابع ذلك بحسب تقدم الزمان وتطور الأحوال:

1- اهتم عدد من مؤرخيه بالتاريخ العام فتوسعوا زمانيا إلى ما قبل، ولكنهم تجاوزوا اهتمام المؤرخين السعديين، فوصلوا إلى بداية الخليقة.

2- عرفت فترة محمد الثالث 1171هـ/1757م، تقدما نسبيا في تدوين التراجم والأحداث. وظهرت بصمات زيادة في رصد الأحداث.[49] فتوسع التأريخ حين اهتم المشتغلون به بأحداث اجتماعية، ولكن ليست منطلقة من السلطان، بل من المجتمع نفسه، وفيئية، كفئة التيجانيين مثلا، ومحلية، كحي أو مدينة. وبلغ الاهتمام أقصى توسعه حين عني بالأحداث الشخصية كما فعل الضعيف الرباطي، قال العلامة المنوني: "ظهر مؤلف اهتم برصد أحداث محلية ووقائع لم يسبق إلى جعلها ضمن اهتمام المؤرخ وهو محمد بن عبد السلام الضعيف الرباطي".[50]

48- أنظر أعلاه، ص.3-4.

49- المنوني محمد، المرجع السابق، ج2، ص219.

50- نفس المرجع، ص. 10.

3- دخول العناية بمواضيع خارجية معاصرة، فقد عرف القرنان الثامن والتاسع عشر عناية الكتابة التاريخية بالتحولات الخارجية داخل العالم الإسلامي (حركة محمد بن عبد الوهاب) وفي العالم الأوربي (تسجيل مواقف ضد كل من حملة نابليون واحتلال الجزائر).[51] فلما ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر أطماع الإستعمار في احتلال

المغرب ورغم أن المؤرخين المغاربة -كما ذهب إلى ذلك بروفنصال- لا يكترثون عادة بما ليس له صلة بتاريخ بلادهم[52] فإن مؤلفات جديدة ظهرت متخذة موضوعا جديدا لها هو التنديد بالمستعمر والدعوة إلى رفضه وجهاده.[53]

وخلاصة القول عن هذا الجديد العام في العهد العلوي أن هذا العهد لم يعرف تطورا تصاعديا في التأريخ عامة والمضامين المعتنى بها خاصة، بل لابد من تسجيل أنه منذ عهد محمد الرابع 1276-1311هـ/1857-1873م. إلى نهاية القرن عرفت المؤلفات التاريخية بعض التراجم في المضمون والعدد والمنهجية، كما طغى التأريخ الرسمي وخاصة في عهد الحسن الأول كممثل لنهاية القرن التاسع عشر م.[54]

والآن ماذا يمثل أبو القاسم الزياني من هذه التجديدات المضمونية؟ فيما يخص التاريخ العام زمانيا ومكانيا ظهور أول تاريخ عام كتبه مؤلف مغربي[55] زمانيا منذ الخليقة إلى عصره، وهو الترجمان المعرب.[56] وأول تاريخ عام كتبه مكانيا، أي جمع فيه أقطار عديدة، وهو الترجمانة الكبرى. فقد تحدث فيه عن مصر والهند وغيرهما.[57] وهو يعتبره كتاب تاريخ كما يبرر الإهتمام بالتاريخ في مقدمته.[58]

51- المنوني محمد، المرجع السابق، ج2، ص،11.

52- بروفينصال ليفي، المرجع السابق، ص66.

53- المنوني محمد، المرجع السابق، ج2، ص.6.

54- نفس المرجع، ج2، ص. 90.

55- نفس المرجع، ص. 10.

56- أنظر أعلاه ص.6.ومخطوط الخزانة العامة رقم1577. وبرفنصال ليفي، المرجع السابق، ص.116

57- الزياني بو القاسم، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، حققه وعلق عليه عبد الكريم الفلالي، الرباط، دار المعرفة،1991، مقدمة المؤلف، ص35.

58- الزياني أبو القاسم، المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص.49.

فيما يخص إضافة مواضيع جديدة يعتبر الزياني خير من وسع مضامين الإهتمام التاريخي، فهو الذي عني بالتجاني وانتقده، وكشف كل الخونةبصراحة وجرأة وذلك في "تحفة النبهاء في التفريق بين الفقهاء والسفهاء"[59] وهنا يكون الزياني قد أرخ للفرد كما أرخ للجماعة، كما أرخ للدولة.[60]

وتميز الزياني فيما يخص العناية بالمواضيع الخارجية عمن قبله من مؤرخي السعديين، وعمن عاصروه من مؤرخي العلويين حين أدخل موضوع العلاقات بين المغرب ودول أوربا، وكذلك تاريخ أوربا الذي جاء فيه الزياني بما لم يسبق أن تحقق لغيره.[61]

وأخيرا نقول إنه وسع مضمون الاهتمام التاريخي حين تكلم عن الجغرافية وطوعها لخدمة التاريخ. فقد رأى في الترجمانة معلومات لم يتسن لسابقيه ولا لمعاصريه أمثال العياشي والغزال أن يضمنوهاكتبهم.[62] وهو موضوع يكتسي أهمية حين يكون خارجيا لما يتحمله الواصف من مشاق، قد تحملها الزياني خلال رحلاته، وتفوق في ذلك على غيره. وختاما لابد من ذكر استعمال الزياني للخريطة فقد أعجب بمنهجية خريطة فرنسية وعلق عليها برسالة مفسرة،[63] وتقدم خطوة في هذا المجال حين رسم خريطة الكرة الأرضية بيده.

وهكذا يكون نموذجنا متفوقا فيما يتعلق بالمضمون التاريخي ومحققا لخطوات تطويرية كبيرة في ميدانه.

كان من المفروض أن نعثر على المنهجية في مقدمات الكتب المؤلفة، ولكن هذه الكتب في العهد السعدي لا يمكنها أن تعطي المتتبع معالم منهجية واضحة. فالجزء الثاني الباقي من "مناهل الصفا"

59- نفس المصدر والمقدمة، ص.5.

60- نفس المصدر والمقدمة، ص.30.

61- الزياني أبو القاسم، المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص.30، ويقول ليفي بروفنصال في هذا المعنى: امتاز في المضمون بالعلم الذي ضمنه كتبه أمثال الترجمان والبستان عن أوربا سنوات. برفنصال ليفي، المرجع السابق، ص. 132-133.

62- نفس المرجع، ص.127.

63- المنوني محمد، المرجع السابق، ج2، المقدمة، ص.5.

لا يتضمن مقدمة. كما أن "درة السلوك" وشرحها ليست لها مقدمة منهجية، وكذلك "تاريخ الدولة السعدية" للمؤلف المجهول.(65) وتوجد إشارات منهجية في مقدمة "المنتقى المقصور" لابن القاضي؛ حيث يعلم القارئ بأنه سيخلل الأحداث التاريخية الجافة بحكايات وقصائد وملح لتعين القارئ على الإستمرار في القراءة.(66)

ولكن القاسم المشترك بين العهدين من الناحية المنهجية هي الطريقة الحولية في سرد الأحداث. فقد بقيت طريقة الكتابة عند المؤرخين المغاربة في العهدين نفس الطريقة المعروفة عند أسلافهم من مؤرخي الإسلام.(67) غياب الربط بين الأحداث لغياب موضوع ناظم لها والاكتفاء بذكر الأحداث على السنوات.(68) ومع هذا فإن العصر العلوي امتاز منهجيا عن العهد السعدي رغم هذا الإتفاق والتطابق من حيث الطريقة الحولية. وأول ملاحظة عامة هي غياب النقد والتعليق على الأحداث على العهد السعدي باستثناء ما فعله المؤرخ المجهول(69) إذ تصدى لإظهار مساوئ الحكام السعديين:

1- إن العصر العلوي ومنذ حكم محمد الثالث عرف ظهور بصمات منهج جديد يتجلى في استعمال النقد التاريخي يمكن العثور على ذلك في مؤلفات محمد بن الطيب القادري وابن ابراهيم الدكالي.(70)

2 - بروز الواقعية والضبط والدقة في تحديد الأماكن، ووصف الأحداث، وهذا أمر لم يعرف كثيرا عند مؤرخي الدولة السعدية وعرف بهذا مثلا كل من الضعيف(71) والزياني(72) وابن ابراهيم الدكالي الذي يبدو أن الزياني تتلمذ عليه دون أن يصرح بذلك.(73)

64- الزياني أبو القاسم، الترجمانة ...، المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص. 30.

65- أنظر أعلاه، ص. 3- 4.

66- بروفينصال ليفي، المرجع السابق، ص.87.

67- نفس المرجع، ص.57.

68- نفس المرجع، ص.69.

69- أنظر أعلاه، ص. 4.

70- المنوني محمد، المرجع السابق، ج1، ص219.

71- نفسه.

72- بروفينصال ليفي، المرجع السابق، ص.131.

73- المنوني محمد، المرجع السابق، ج1، ص219.

فيما يتعلق بتوضيح المنهجية من خلال مقدمات الكتب في مؤلفات العهد العلوي فإن كتابا قليلين هم الذين يمكن استشفاف المنهجية من خلال مقدماتهم، وكثير منهم إما أن مقدماتهم خالية منها "كالحلل البهيجة في فتح ثغر البريجة للسلماني"[74] وإما أنها بدون مقدمات، مبتورة مثلا " تاريخ الدولة العلوية للضعيف"[75] وإما أنهم كتبوا شيئا آخر في مقدماتهم كابن الحاج في مداخلة في "الدر المنتخب" فقد تحدث عن الخلافة والعدل والأمر بالمعروف والنهي ومشاورة العلماء ومجالستهم وتنظيم الجيش.[76] وغالب ما يصدرون به كتبهم الحديث عن فضل علم التاريخ وأهمية كتابته والبحث فيه.[77] وقد أجمل ليفي بروفنصال فعلهم هذا مع تعميم صائب في حق المؤرخين المغاربة بالقول "ينوه المؤلفون في التاريخ بقيمته، ويوضحون فوائده ولكنهم لا يتصدون لتحديد ماهيته"[78] ونضيف نحن: ولا لتحديد منهجية العمل فيه. ويبقى الآن أن نرى الجديد عند أبي القاسم الزياني في المنهجية، وهل وفى بما سجلناه من تطور طفيف حاصل في العصر العلوي مقارنة بالعصر السعدي: ونقف على ذلك من خلال مؤلفاته الثلاثة المهمة وهي "الترجمان المعرب" و"البستان الظريف" و"الترجمانة الكبري".

أولا نسجل بقاء أبي القاسم كغيره محافظا على الطريقة الحولية في التأليف بل يمكن اعتباره غير ممثل لها في المولفات الثلاثة، وفي غيرها. يقول ليفي بروفنصال عن هذا المنهج في الترجمان مثلا: "واستعمل الزياني في الترجمان المنهج الحولي مقتفيا في ذلك كبار مؤرخي الإسلام كالطبري والبلاذري".[79]

74- أنظر قائمة المصادر العلوية أعلاه، ص.4-11.

75- الضعيف الرباطي محمد بن عبد السلام، تاريخ الدولة العلوية السعدية، من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان1043-1238هـ/1633-1812م، تحقيق محمد البوزيدي الشيخي، الدار البيضاء، دار الثقافة،1988 الجزء الأول، ص.93.

76- أنظر أعلاه، ص. 10.

77- أنظر مثلا الناصري أحمد بن خالد، الإستقصاء الجزء الأول، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب،1954، ص. 3-4، بعد المقدمة.

78- بروفنصال ليفي، المرجع السابق، ص.45.

79- بروفنصال ليفي، المرجع السابق، ص.116.

ثانيا نقول بأن الزياني أيضا كان خير ممثل للتطور الحاصل باستعمال نقد الأخبار والتعليق عليها وإبداء الرأي فيها. فالزياني في كتبه تقريبا يعتبر التاريخ تأريخا للأفراد والجماعات الفاعلة قبل أن يكون تأريخا للحوادث فهو يبحث عن الأسباب، ولا يقف
عند السرد المجرد كما فعل عدد من معاصريه، ومن قبلهم مؤرخو الدولة السعدية، وكذلك كتاب الحوليات الإسلامية قديما، ويزيد على ذلك كله إبداء الرأي الشخصي في الأحداث.(80)

ثالثا نقول إنه كان خير ممثل للواقعية والضبط والدقة في تحديد الأماكن، فاستطاع أن يصرح بما لم يتمكن غيره من التصريح به إلا الضعيف إلى حدود استعمال الجارح من الكلام أحيانا.(81) فالواقعية تجلت في ميله إلى تدوين الحقائق كما هي أولا، ولم ينصرف إلى تدوين أفكار ونظريات المؤرخ.(82) ولتحقيق هذه الواقعية اتخذ الزياني ثلاثة أنواع من المصادر: مصادر مكتوبة ومصادر شفوية، ومشاهدات شخصية.(83) ولقد تجنب الزياني المدح أوالذم بالكتابة المباشرة عن الواقع المعيش، وانطلاق من الوثيقة، وحتى إذ تصدى لتعرية أحد فإنه يبدو متحررا من الأحقاد ملتزما بكتابة التاريخ للتاريخ.(84) وفيما يتعلق بالدقة وضبط المواقع فنظرة بسيطة على الترجمانة، تظهر الفرق بينه وبين غيره في ذلك؛ أمثال العياشي أبو سالم عبد الله في رحلته، والغزال أحمد بن عبد الوهاب.(85)

أما عن المنهجية في مقدمات كتبه فإننا نقول عن مقدمة "الترجمان المعرب" إنها لم تتضمن أي منهج، ولكن تحدث فيها عن سياسة الملك.(86) وأما البستان الظريف، فقد جعل الزياني مقدمته في رفع نسب العلويين: "وسميته البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف؛ وجعلت له مقدمة وثلاثة عشر بابا وفصولا أربعة وجامعة وخاتمة؛ المقدمة فيرفع

80- الزياني أبو القاسم، الترجمانة...، المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص.3.

81- بروفنصال ليفي، المرجع السابق، ص.103.

82- الزياني أبو القاسم، الترجمانة...، المصدر السابق، ص.76.

83- نفس المصدر، ص. 40.

84- نفس المصدر، مقدمة المحقق، ص. 7.

85- بروفنصال ليفي، المرجع السابق، ص.127.

86- الزياني أبو القاسم، الترجمان المعرب، مخطوط الخزانة العامةرقم د.1577.

نسبهم الشريف، الشهير عن التعريف."[87] تبقى إذن مقدمة الترجمانة الكبرى[88] وهي عبارة عن تعريف بكتابه، بعثه مع الإهداء إلى المولى سليمان. وفيها أورد ما يشبه منهجيته في تأليف الكتاب نستخرج معالمها من نصوصه كالتالي:

1- ***صفة الشمول***: "هذه الترجمانة الكبرى التي جمعت أخبار العالم برا وبحرا" (الترجمانة ص. 2).

2- ***الإحاطة بالتراث السابق***: "لم تقتصر على ما في الرشاطي من الأمصار، وعلى ما جمعه ابن عبد المنعم في الروض المعطار" (الترجمانة، ص.2).

3- ***الزيادة على معلومات المؤلفات السابقة*** وأبرز ما أغفلته على ما جلبه ابن الجوزي من أخبار البحار والقفار، وعلى ما في خريدة العجائب من الجزر والعيون والآبار والأنهار، وعلى ما في عجائب المقدور من نفائس الحكم والأسرار" "وأبرزت ما أغفلوه ولم يكن به شعور وإنذار" (الترجمانة الكبرى، ص.2).

4- ***تحلية المكتوب بالنوادر***: وهنا يتفق مع ابن القاضي في مقدمة "الملتقى المقصور" وأبو القاسم يعني بالنوادر على ما يبدو شيئا مخالفا لما عناه ابن القاضي، فالمقصود عنده الشبه الصادرة عن المجوس واليهود وأهل التثليث، يدرجها الزياني كمنهاج للكتابة لم يسبق به رغم اعتماده على من سبقوه في هذه النوادر والحوادث في الرد عليها: "وحليتها بحوادث ونوادر وحكايات جلبها المؤرخون الكبار، كالإمام ابن قتيبة والمسعودي والطبري، وابن عساكر، والذهبي، والبكري، والبلاذري، وابن كثير، وابن خلدون، وابن أبي زرع، وابن زيدون، وابن حزم، وابن مرزوق، وابن الخطيب، وقيدت ما في غرر كلامهم من النكت والأشعار، وما في رحلة البلوي من نفائس الأخبار، وما في السرخسي للأندلس والمغرب، من كل ما يعجب ويطرب، وما في رحلة العياشي، ومحاضرات اليوسي وأدبيات الولالي، وابن سعيد السوسي." (الترجمانة، ص.2).

87-الزياني أبو القاسم، البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف القسم الأول من النشأة إلى عهد سيدي محمد بن عبد الله، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، طبعة وزارة الشؤون الثقافية، د.م.د.ت.، ص.27

88- الزياني أبو القاسم، الترجمانة الكبرى، ص. 34-45.

5- ***الرد على هذه الحوادث*** بالبراهين المستقاة من التفسير والفقه والحديث، ومن شواهد العرب القديمة والحديثة. وتوفية الجواب لهم نقلا عن المتصدين لهم: "وما يناسب ذلك من البراهين القاطعة من التفسير والفقه والحديث، ومن شواهد العرب قديمهم والحديث، في الرد على المجوس واليهود وأهل التثليث وأهل البدعة والإعتقاد الخبيث" (الترجمانة، ص.2)

وهكذا يكون الزياني قد حقق ولو في الكتاب ما أغفله سابقوه من السعديين والعلويين، ومعاصروه أيضا: فيكون من الناحية المنهجية أحسن ممثل للتطور الحاصل في حركة التأليف التاريخي في العهد العلوي إلى نهاية القرن 19 الميلادي.

بقي أن ننظر في موضوعية المؤلفين في العهد السعدي والعلوي. فالبنسبة للعهد السعدي نقول إن أحدا لم يتحدث عن موضوعية المؤرخين في العصر السعدي لغلبة طابع المدح، والإشتغال بالتاريخ الرسمي. ولكن المؤرخ المجهول على الأقل تعرض بموضوعية لمثالث الحكم السعدي، وبالغ في ذلك حتى تساءل البعض عن أسباب تغاضيه عن المحاسن، وإبداء المساوئ.(89) ولكنه رغم ما قيل يذكر المحاسن أيضا.

هذا كل ما في العهد السعدي، أما مؤرخو العهد العلوي فقد اشتهر منهم عدد وافر بالموضوعية أمثال ابن ابراهيم الدكالي في "تقاييد تاريخية" والقادري محمد بن الطيب في "نشر المثاني"(90) والضعيف في تاريخه.(91) والناصري في الإستقصا(92) وبعدهم نقف على نصيب الزياني من الموضوعية، والدرجة التي احتلها في هذا الباب. وهنا لا يسعنا أيضا إلا أن نقرر بأنه حقق فيها قصب السبق، وقد ساعده على ذلك أنه لم يشتغل بالتأريخ ابتغاء عطاء، أو رجاء تقرب من أولي السلطان، قد يقال قدم كتبه للمولى سليمان، نعم ولكن ليس ذلك بداعي التملق، لأنه كان غني المال والجاه. ويكفينا منه أن كتبه التي أرخ فيها للسعديين أو العلويين تملأ النفوس اطمئنانا لتوفرها على الضبط والدقة في الأحداث والأماكن.(93)

89- بروفنصال ليفي، المرجع السابق، ص. 99.

90- أنظر أعلاه، ص. 5.

91- أنظر أعلاه، ص.7.

92- أنظر أعلاه، ص. 10.

93- بروفنصال ليفي، المرجع السابق، ص. 131.

كان أبو القاسم صادق القصد، صريحا في القول، ونبيلا في الهدف يتجلى هذا من خلال ما تناوله في كتبه من مواقف تدل على الجدة في عمله، وعلى رغبته الأكيدة في قول الحق مهما كان مرا وجارحا أحيانا، متحملا ما قد يجلب عليه ذلك من بلاء.(94)

وأعظم من هذا أن الزياني تجاوز من أن يتبنى الموضوعية في ذاته، ليوصي بها غيره. ويبين ما الذي يزيغ عنها، ومن الذين يجانبونها. فقد بين كيف يقع المؤرخ في مزلقة، فهو ينحرف حيث يكتب قبل سن الرشد، وهي سن الأربعين من عمره. فإذا كتب قبل ذلك وقع في الهواء، وطلب النفع سلبا وإيجابا حين يدمح وحين يذم.(95)

ومجمل القول إن التأليف التاريخي في العهد العلوي مقارنة مع العهد السعدي حقق تقدما كثيرا من حيث عدد المؤلفات، وتوسع مضامينها ومن حيث موضوعية المؤلفين وتقدما متواضعا من حيث المنهجية. وإذا كان المؤلفون عامة أسهموا بحظ وافر في هذا التطور الذي عرف فتورا بعد الزياني، ومع ذلك بقي خير من مستواه في العهد السعدي، فإن أبا القاسم الزياني كان نجم هذا العصر بدون منازع في كل المجالات التي أردنا إثبات التطور الحاصل فيها. وأخيرا نقول إذا لم يكن للعصر العلوي في ميدان الكتابة التاريخية بميزة تخصصه. وهي له من غير شك - فيكفيه ميزة أن يظهر فيه مثل الرجلين أبي القاسم الزياني ومحمد بن عبد السلام الضعيف.

94- الزياني أبو القاسم، الترجمانة..، المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص.3.

95- نفس المصدر، مقدمة المحقق، ص. 7.

"وقفة على أحوال الثقافة والمثقفين أيام المولى إسماعيل "

محمـد مـــــرزاق
جمعية تاريـخ المغرب. وجـدة

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد أشرف الخلق أجمعين
" *رب اشرح لي صدري ويسرلي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي* "

وبعد ، أيها الإخوة اسمحوا لي أن أبدأ مداخلتي بتقديم التحية إلى الأطر التي سهرت على تنظيم هذه الندوة. من أساتذة وإداريين؛ هذه الندوة التي نتمنى لهاكل النجاح ونرجو أن تكون حلقة في سلسلة الندوات التي نريدها سنوية متجددة في مضامينها مجددة ومدعمة لحبل الإتصال بين مختلف الفرقاء في ميدان البحث التاريخي .واشكركم باسم أعضاء مكتب جمعية التاريخ- فرع وجدة - على دعوتهم لنا للمشاركة بما يسر الله.

أيها الإخوة: إن موضوع الثقافة والمثقفين أيام للمولى إسماعيل. كغيره من المواضيع التاريخية تناولته الأقلام الكثيرة من زوايا متعددة ومن مواقع مختلفة جعلت الذاتية في كثير من الأحيان تلعب دورها لتجعل الحسنة سيئة والسيئة حسنة وذلك إما بدافع الرهبة أو الرغبة ، وبين
هذا وذاك يتيه القارئ بحثا عن الحقيقة التي يجدها بعد جهد جهيد بحثا وتنقيبا عن النصوص ومقارنة ومقابلة بينها وتحليلا لها واستنتاجا منها. وهو النهج الذي اخترته لمعالجة هذا الموضوع ، مع اعترافي مسبقا بأن ما وصلت إليه من خلال ما توفر لي من نصوص ووقائق لا يمكن أن يرقى الى الإلمام بالموضوع إلماما شافيا. وإنما هي وقفة سريعة ومحاولة متواضعة لاستجلاء بعض الخفايا من هذا الموضوع الواسع المتشعب الذي ارتأيت أن أصوغه في إشكالية مبنية على ثلاثة اسئلـــة هي :

1 - هل كانت الثقافة المغربية في كمها ونوعها أيام المولى اسماعيل تسير نحو الأحسن مما كان عليه امرها من قبل ؟

2 – هل كانت الثقافة المغربية آنذاك تساير ما كان عليه الأمر فيما وراء البحر المتوسط ؟

3 – لم كان الأمر كذلك إن كان ؟ ولم لم يكن إذا لم يكن ؟ وهذا يعني البحث عن الأسباب بعد ثبوت حالة من الحالتين .

ففيما يتعلق بالسؤال الأول :

1 – هل كانت الثقافة المغربية في كمها ونوعها أيام المولى إسماعيل تسير نحو الأحسن مما كان عليه امرها من قبل ؟ فإني فضلت للاجابة عنه أن أورد مجموعة من الشهادات المتضمنة في نصوص مختارة من رسائل تبودلت بين السلطان المولى إسماعيل وبين عميدي الثقافة المغربية آنذاك : الشيخين محمد بن عبد القادر الفاسي والحسن اليوسي .

أ – فمما كتب المولى اسماعيل الى الشيخ الحسن اليوسي ضمن رسالة غالب الظن أنها كتبت سنة 1096 هـ/1685م، معبرا عن انشغاله وتخوفه من اند ثار العلم بالغرب وموجها اللوم الى هذا الشيخ لفراره الى البادية وهجره لمجالس العلم بفاس قوله:" والله إلا فجعنا الغرب في مسألة العلم. وخفنا عليه أن يندثر منه ... اين تجد السبيل في التباعد والتجافي عن حواضر المسلمين ؟... وأي عذر لك في التباعد عن حاضرتنا ؟ "(1).

ب – وكتب الى الشيخ محمد بن عبد القادر الفاسي في نفس السنة مقارنا بين ما كان عليه مستوى العلم بفاس وما أصبح عليه داقا ناقوس الخطر ليحتزم العلماء ويعملوا على إنقاذه قائلا " ما تفخر فاس على سائر المدن والأقاليم والأقطار إلا بالعلم حتى لو جاءهم عالم براني لم يرضوا بعلمه ولم يبالوا به ... وأظن أن العلم تراخت مسألته عندكم وعطلت معاطاته في بلادكم حتى أن على الفلوس رحمه الله قد حاك علماءكم وطلبتكم واحدا بعد واحد وكانوا يتقونه فليس منكم من عجزه ولا من قهره ... فالله الله في الإحترام على العلم ثم الله الله في الإحتزام عليه وبثه وإفشائه قبل أن تعضوا عليه الأنامل بالتواجد "(2) .

ج – ثم بعد عشرين عاما من هذه المراسلة كتب في نفس المعنى ولنفس العالم يستفسره بنوع من اللوم والعتاب الشديدين عن مجالس العلم التي أصبحت قاصرة عن أن تخرج طلبة في المستوى المطلوب علما وأدبا ودراسة و فهما يمكنهم من تولي المناصب وتحمل مختلف المسؤوليات قائلا:" ومجالس العلم التي سمعنا حديثها يتلى والثناء عليها يكرر وتجلى وددنا والله أن لو رأينا

1-الحسن اليوسي الرسالة الكبرى ضمن رسائل أبي علي الحسن اليوسي، جمع وتحقيق فاطمة القبلي ج1، ص140.

2- مجلة تطوان – العدد الخاص ص 38.

نتائج ... فطالما استقصينا الخبر والبحث عمن حصل علما أو أدبا جما وبرز في فنون العلم... من أبناء هذا العصر ممن تخرج عليك ومن مجلسك أو مجلس غيرك من المدعين
العلم المتفقهين في الدين ليظهر للناس بعلمه ونجابته ونقر به من مجلسنا للإنتفاع به والأخذ عنه والإستفادة منه ، كلا والله ما وجدنا من يكون بهذه المثابة ولا على هذه الصورة >>.(1)

د – نفس الإهتمامات والإنشغالات ونفس الإستنتاجات نجدها عند عميد علماء البادية في زمانه الشيخ الحسن اليوسي وهو يستعرض احوال الثقافة المغربية والمثقفين في رسالته الكبرى الى المولى إسماعيل وكيف أنها تأرجعت على مر القرون بين المد الجزر منذ عهد الأدارسة الى أن وصل الى العلويين فقارن بين منجزات الملوك الثلاثة الأوائل في هذا الميدان قائلا<... ثم جاء المولى محمد بن الشريف ... فأحيا العلم في بلده وأعطى الفقهاء وأكرمهم وخالطهم ، وحرر أهل البلاد للقراءة ... وتسارعوا حتى أن الرجل المسن من أهل سجلماسة يكتب الجرومية في لوحة ويقرأها ... ثم جاء المولى رشيد بن الشريف فاعلى مناره (أي العلم) وأوضح نهاره. وأكرم العلماء إكراما لم يعهد واعطاهم مالم يعد ولا سيما بمدينة فاس ... ثم قد انتهت النوبة اليوم الى سيدنا ومصباح زماننا وشمس غربنا ، فأي شيء يمنعه وهمته أعلا وخزانته أملا وقريحته أقوى وبصيرته أضوى من أن ينتهض الى بناء هذه المكارم وتأسيس هذه الدعائم وتجديد هذه المعالم وإحياء هذه المراسم ، فيملأ مساجد فاس ومكناسة وسلا وتطاوين ومراكش وسجلماسة ودرعة بمجالس العلم >>؟(2) .

هـ – إذا كان الشيخ اليوسي قد قارن في هذه الشهادة بين ما كان عليه حال الثقافة من قبل وما اصبح عليه وضعها في زمن المولى إسماعيل مستخصا تراجع مجالس العلم وعددها ومحملا إياه مسؤولية ما وقع ؛ فإنه في شهادة أخرى يشير الى عجز هذه الثقافة واقتصارها على التقليد والترديد ويحمل علماء العصر تبعات هذا الأمر وذلك حين يقول :" مع تقاصر أبناء العصر عن استجلاء الخفيات. وتقاعد عزائمهم عن الترقي الى المدائح العليا وإخلادهم إلى حضيض الراحة والبطالة وتعاطيهم كؤوس الغباوة والجهالة، وأمثلهم من يصمم على أقوال المتقدمين من غير تمييز

1- مجلة تطوان – العدد الخاص ص 59

2 – الحسن اليوسي – الرسالة الكبرى ، ضمن رسائل ابي علي الحسن اليوسي. جمع وتحقيق فاطمة القبلي ج 1ص145 -147

بين غث وسمين، وإن تبصرت فيما ألفوه أو أبديت وجها غيرما ألفوه جاهروك بالنكير أو حاصوا عنك حيصة الحمير، أفيبقى بعد ذلك محصول؟ ...وهل هذا إلا ما يخمد القرائح ويضيق الجوانح ؟" [1] .

السؤال الثاني :

- هل كانت الثقافة المغربية آنذاك تساير ما كان عليه الأمر فيما وراء البحر المتوسط ؟

لتمثل الفرق الشاسع بين ما كانت تعرفه أوروبا الغربية على الخصوص من تطور حضاري مستمر شمل كل الميادين والمرافق واعتمد أساسا على تطور الفكر وشمولية الثقافة، وبين ما كان عليه الحال في مغرب المولى إسماعيل ، يكفي أن نورد الأمثلة الآتية عن بعض مظاهر هذا الفرق :

1 - بقاء عملية استنساخ الكتب في المغرب يدوية في الوقت الذي مر فيه قرنان من الزمن وأكثر على اختراع يوهان جوتنبرغ الألماني طريقة جديدة للطباعة (1454م) ما فتئت تتحسن مع الزمن لينتشر بفضلها الكتاب بأثمان مناسبة في المدن والبوادي الأوروبية وتنتشر معه الثقافة والمعرفة ويزداد عدد المتعلمين ؛ بينما بقي تداوله - أي الكتاب - في المغرب مقصورا على نخبة قليلة محدودة من الناس ، الأمر الذي جعل الجهل يضرب أطنابه حتى في الربوع المحظوظة آنذاك.

2 - تراجع عدد سكان المغرب نتيجة الأوبئة والمجاعات زيادة على الحروب الأهلية في الوقت الذي كان فيه عددهم يزداد بصفة مطردة في أوربا وذلك بسبب تطور أساليب الإنتاج الفلاحي وتقنياته من جهة وتحسن مستوى المعيشة ووسائل الوقاية والعلاج وتشجيع النسل من جهة أخرى: ففي فرنسا مثلا وحتى يوفر كولبير Colbert يدا عاملة للمعامل الفرنسية قام بدعاية واسعة لتشجيع النسل فخصص منحا للشباب الذين يتزوجون قبل سن العشرين وأسقط كل التكاليف عن العائلات التي تنجب عشرة أطفال "[2].

3- رغم ما قيل عن الأسطول المغربي وعن جولاته ومغامراته في التعرض للسفن الأوروبية وأسرها في عرض المتوسط والمحيط؛ فإنه بقي قاصرا ودون المستوى مقارنة مع ما كانت عليه أساطيل اوربا التي قطعت المحيطات منذ نهاية القرن الخامس عشرة في رحلات

---

1 - الحسن اليوسي - الحاشية على كبرى السنوسي - مخطوط الخزانة العامة د/1771 ص 803 .

2- Edmons. Pognon. Histoire du Peuple Français P.296

استكشافية أفادت جميع الميادين بدءا بتصحيح المعلومات الجغرافية وتجريب الإختراعات الفلكية والتقنيات الملاحية إلى إقامة مستعمرات تجارية وسياسية؛ في الوقت الذي عجز فيه الأسطول المغربي في كمه ونوعه وأطره حتى عن نقل الحجاج الى الديار المقدسة وتوفير الحماية لهم ليكفيهم رحلات برية شاقة ومحفوفة بالمخاطر ، بل وعجز حتى عن نقل السفارات الدبلماسية الرسمية إلى الخارج ، تلك السفارات التي كانت تنتظر في غدودها ورواحها على هذه الضفة وتلك أياما لترحل في أمان على متن سفن أجنبية .

4- إذا كانت الثقافة والفنون في اوروبا قد ترعرعت وتطورت في احضان البرجوازية الناشئة وتحت حمايتها المعنوية وبتضحياتها المادية، فوصلت نتيجة لذلك الى ما وصلت إليه ؛ فإن هذه الطبقة لم يكن لها وجود في المغرب بشكل يسمح لها أن تفيد الثقافة بفك قيودها ودعمها لتصبح منتجة فتستفيد منها، وذلك لأسباب عديدة منها ما يرجع الى العلماء الذين لعبوا دور الكنيسة في اوروبا العصر الوسيط بآرائهم وفتاويهم ، ومنها ما يرجع الى الظروف السياسية التي ساد في ظلها السلب والنهب بكل أشكاله الأمر الذي جعل أصحاب المال لا يتجرأون على إعلان ثروتهم بل ويعملون على كنزها وتعطيل سريانها وسيولتها متظاهرين بالكفاف في أحسن الأحوال فضيعوا بذلك ما لم يضيعه أغنياء أوروبا .

والخلاصة هي أننا لو جمعنا ما استنتجناه من خلال أجوبتنا عن السؤالين السابقين لوجدنا أن الحركة الثقافية المغربية أيام المولى اسماعيل لم تكن تسير نحو الأحسن مما كان عليه الأمر من قبل وأنها لم تكن تساير ما كان عليه الحال فيما وراء البحر المتوسط ، الشيء الذي يوصلنا الى السؤال الثالث أي إلى التساؤل والبحث عن الأسباب التي أدت الى ذلك .

- على الرغم من أن طرفي النزاع في قضية الثقافة والمثقفين وهما السلطان والعلماء قد تبادلا التهم وحمل كل طرف صاحبه مسؤولية ما آلت إليه أحوال هذا الميدان وأهله إما بشكل مباشر وصريح أو عن طريق الرمز والتلويح؛ رغم هذا فإن أسبابا أخرى لا يمكن إغفالها ساهمت بدورها في هذا الأمر، لذلك سنحاول جردها بدءا ببعض الأسباب التي كان مصدرها السلطان والعلماء وهي كالآتي :

1 - موقف السلطة الحاكمة من العلم والعلماء وهو موقف اتسم احيانا بنوع من العنف الذي يفسره البعض بأنه ضرورة كانت تمليها ظروف جمع الكلمة ولم الشتات وتحقيق الوحدة المفقودة منذ زمن ليس بالقريب ، ومن مظاهر هذا الموقف :

أ- إلقاء القبض على القضاة وسجنهم بمشور فاس بتهمة الجهل سنة 1093هـ/1682م

ب - التشديد على شيوخ الزوايا وامتحان الكثير منهم

ج - دعوة العلماء وأمرهم بالخروج إلى الجهاد ، وهو أمر أوله بعضهم بأنه نية مبيتة للتخلص منهم وأوله آخرون بأنه يهدف إلى ابعادهم عن مجالس العلم ومجالسة الطلبة [1]

د - الضغط على علماء فاس للموافقة على تمليك العبيد وهي القضية التي نزلت بثقلها على الساحة فأثرت على العلاقات بين الطرفين على مدى سنين متعددة وذهب ضحيتها عدد من العلماء كان على رأسهم الشيخ عبد السلام جسوس الذي خلف اغتياله في سجنه سنة 1121 هـ / 1711 م استياء كبيرا في أوساط الخاصة والعامة .

2 - قلة الحوافز أو انقطاعها ونعني ذلك الأعطيات التي كانت تمنح للعلماء والطلبة لتكفيهم عناء البحث عن مصادر لعيشهم وعيش نويهم ، حتى أن الحسن اليوسي نفسه عانى من هذا الأمر فاضطر إلى الرحيل عن فاس. وفي هذا يقول موجها كلامه إلى المولى اسماعيل :

" ولما مات السلطان (أي المولى الرشيد) انقطع ذلك (العطاء) فصرنا في فتنة مع العيال، فقلنا لأصحابنا: إن هذه الحاضرة ليست لنا بدار مقام ..."[2]. إلى أن يقول :" والفرق بينما يعطي اليوم ومن كان يعطيه مولانا الرشيد ، أن ذاك موجود وهذا غير موجود ، لا فرق بينهما غير ذلك ، وإلا فمتى اعطانا السلطان اليوم عطاءا فرددناه عليه ؟ [3].

3 - عدم الإستفادة من النهضة الأوروبية الشاملة آنذاك ولو عن طريق رحلات استطلاعية وإرسال بعثات طلابية للوقوف على التحولات في ميادين الصناعة ووسائل النقل والإكتشافات الطبية والتطورات الزراعية وذلك إما بسبب هيمنة التعصب الديني الذي كان يعتبر السفر إلى بلاد النصارى والتعامل مع أهلها نوعا من الشرك ، حتى أن جدالات حادة كانت تقوم بين العلماء حول اقتناء أبسط البضائع الأوروبية كالألبسة الصوفية من نوع الملف [4]، وإما بسبب الغرور المبني على تمجيد الماضي القريب والبعيد مع احتقار الخصم والتقليل من شأنه وذلك في إطار من النشوة والغلو الزائدين عن الحد ، وهو تصرف إن دل على شيء فإنما يدل على قصر في النظر وجهل بالواقع وانعدام للوعي الحقيقي بالذات .

1- راجع الرسالة الصغرى للحسن اليوسي أو ما يسمى براءة اليوسي.

2- الحسن اليوسي - الرسالة الكبرى - ضمن المصدر السابق الذكر ج 1 ص 170

3 - نفسه - ص210

4 - انظر نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ج 2 ص319

4- تناحر العلماء وكيدهم لبعضهم البعض وهو امر وإن كان يبدو طبيعيا وعاديا لوجوده في كل زمان ومكان؛ إلا أنه أخذ أبعادا خطيرة كان من المفروض ألا يأخذها حتى تكون المسيرة الثقافية في مستوى الشهرة السياسية والعسكرية للوطن آنذاك : ذلك أن العالم كان يتحرى ويحتاط فيما يقوله ويكتبه وربما يصل لدرجة كتمان ما تميل إليه نفسه من آراء ونظريات خصوصا "لما وقع امتحان لجمع من المؤلفين بذلك لأن الحسدة يدسون عليهم الزيادات في كتبهم أو النقص منهاليلزموهم امرا منكرا من تفسيق أو تبديع أو أقبح من ذلك "(1)

ولم يسلم الحسن اليوسي من هذا الأمر وما شابهه إذ عانى المر من حيف بعض علماء فاسوتعصبهم الإقليمي. فقد قالوا فيه من جملة ماقالوا: " نرى الرجل بربريا ثم إذا تكلم تكلم بلسان أهل الحاضرة ... وأنه ما فاته شيء إلا أنه لم يقرأ بفاس " (2).

5 - الزام علماء الوقت طلبتهم بعدم الخوض في العلوم والأبحاث التجريبية باعتبارها ضربا من الشرك وبالإقتصار على ما كان يلقن من العلوم ويدرس من الكتب مؤكدين " على أن العلم هو معرفة ما تحتويه بلا زيادة ولا نقصان ، وأن دورهم ينحصر في حفظها وتبليغها للغير" (3). وبذلك كبتت المواهب وضاع الكثير من الجهد ودفن مع أصحابه بسبب هذا النوع من الرقابة التلقائية والجماعية التي ساهم فيها العلماء أنفسهم عن قصد عندما أعمت الغيرة والحسد بعضهم ومن غير قصد حينما تعصب جلهم للتراث فحجروا الفكر وقتلوا الإبداع .

6 - موت عدد مهم من العلماء وطلبة العلم نتيجة الكوارث التي ضربت المغرب عامة وحاضرة العلم فاس خاصة ، وقد كان في مقدمتها المجاعات والأوبئة التي كانت تتفاقم وتخبو حسب السنوات.

- ففي سنة1085 هـ مثلا " ظهر الطاعون بفاس الجديد المرينية فصلي بها ليلة المولد على عشرين ، وكثر بها وخلت مدرستها وسدت ... وكثر إلى أن بلغ الموتى في ليوم واحد من أربعمائة الى ثمانمائة إلى ألف وأزيد.(4)

---

1 - نفسه - ص326 .

2 - الحسن اليوسي - المصدر السابق ج 1 ص207

3 - محمد زنيبر - مجلة كلية الآداب - الرباط - عدد 3 - 4 ص99

4 - محمد بن الطيب القادري - نشر المتاني ج 2 ص250 - تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق

- وفي سنة 1133هـ ؟1721 م" " اشتد الغلاء وارتفعت الأسعار ووقع مرض في الناس ومات كثيرحتى إن الأموات جمعوا بمارستان فاس وتراكم بعضهم على بعض حتى صعدوا من الأرض نحو القامتين "(1). حسب شهادة للقادري .

هكذا إذن ومن خلال ما ذكرناه من أحوال ومسبباتها يتبين لنا كخلاصة لهذه المداخلة أن أحوال الثقافية والمثقفين أيام المولى إسماعيل لم تكن أحسن مما قبلها ولم تكن تواكب ما حولها وأن المسؤولية في هذا لا يتحملها طرف دون آخر. بل كانت مسؤولية مشتركة بين السلطان والعلماء مع تدخل عوامل أخرى طبيعية وصحية لتكريس هذا الوضع وزيادة الطين بلة كما يقولون.

- فإذا كان السلطان مسؤولا فلأن أكبر انشغالاته والتي أخذت من وقته وجهده الكثير: كانت سياسية وعسكرية أكثر منها ثقافية لأن ظروف جمع الكلمة ولم الشتات الداخلي والذود عن الوطن ودرء الخطر الخارجي كانت تفرض عليه كثرة التنقل والحركة والشدة والحزم في المواقف علما أن هذا لا ينفي عنه الأهتمام بالعلم وأهله لأن الأدلة على ذلك كثيرة في حياته ومنها على سبيل الذكر: ولعه بجمع الكتب وحرصه على اقتنائها من داخل المغرب وخارجه حتى أنه في إحدى رسائله اقترح على شارل الثاني (كارلوس) ملك اسبانيا أن يكون افتداء الأسرى الإسبانيين مقايضة بالكتب العربية: مائة كتاب عن كل نصراني .

- و إذا كان العلماء مسؤولين فإن لهم مبرراتهم التي تثبت صدق نواياهم ذلك أن الحرص على التراث ووحدة المذهب وعقدة الحذر من العدو الكافر والخوف منه ومن أفكاره جعلت مبلغ اجتهاداتهم لا يرقى إلى أكثر مما بلغه. اعتقادا منهم أنهم حرصوا واجتهدوا فلهم الأجران حسب ما ظنوا واعتقدوا ، ولهم الأجر الواحد حسب ظننا نحن اليوم لأنهم اجتهدوا فأخطئوا .

- أما الأسباب الأخرى من جفاف وغلاء ومجاعات وأوبئة وفتن ومحن وزلازل وسيول؛ فتلك أمرها الى صاحب الأمر يصيب بها من يشاء ويصرفها عمن يشاء في إطار قوله تعالى: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم (2) وقوله:" إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون "(3). صدق الله العظيـــــم .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

1- نفسه ج 3 ص253 .

2 - سورة الرعد الآية 11

3 - "يونـــس" 44 .

نماذج وصور من تصدي العلماء للفساد الإجتماعي والديني والصوفي خلال القرنين الهجريين الحادي عشر والثاني.

علال معگـــول
كلية الآداب. مكناس

يتناول هذا العرض ما يلي:

1- رسائل أبي محلي لأهل فگيك والراشدية وسجلماسة لتنبيههم إلى أدعياء التصوف الذين يعيثون في الأرض فسادا. مستغلين سذاجة الناس وجهلهم، للوصول إلى مبتغاهم المادي والمعنوي ضاربين بالشريعة عرض الحائط.....

2- موقف أبي علي اليوسي من أهل البدع والأهواء...

3- موقف العلماء من محنة جمع العبيد التي شهدها العهد الإسماعيلي.

4- الصراع بينهم وبين الولاة المستبدين الذين أوغروا صدر السلطان على العلماء متهمين أياهم بالتشغيب عليه ومعارضته....

وستعكس هذه المواقف، من خلال العرض المفصل، دور العلماء في حماية المجتمع من الإنهيار والفساد، مسترخصين في ذلك حياتهم وراحتهم، إيمانا منهم بالدور الذي يلعبونه في الحياة العامة، وبالرسالة المنوطة بهم باعتبارهم ورثة الأنبياء في متابعة نشر الفضيلة والشريعة والعلم بعدهم، وعلى مر الأجيال والحقب، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها....

وسأقتصر في هذا العرض على بعض المواقف التي تسترعي الإنتباه، ومنها تصدي من بعض العلماء الأجلاء إلى أدعياء التصوف الذين اتخذوه وسيلة للإسترزاق من جهة، والتحكم في رقاب الناس من جهة أخرى، موهمين أياهم أن لهم اطلاعا واسعا على الأسرار الغيبية، وقدرة على خرق العادة بزعمهم، ويشيهون بين الناس بواسطة اتباعهم وخدامهم، أن ما يقوم به أمثال هؤلاء الشيوخ لا ينبغي أن تقوم حوله الشبهات، ولا أن يوصف بما ينزع إليه أهل الأهواء من

البشر، معتمدين على النية في الإعتقاد وحدها[1]، دون الإلتفات إلى الأعمال، والسلوك المستقيم والسيرة الصالحة بين الناس، ومراعاة حدود الشريعة وغير ذلك مما يعتبر الخوض فيه مفسدا للنية في الإنتساب إلى الشيخ من جهة، وعدم حصول البركة المرغوب فيها من جهة أخرى!!

وإذا كان أهل الباطن[2] لا يرغبون في الدنيا، بزهدهم حتى في اللباس الأنيق، خوفا من تمييزهم عن بقية الناس، فإن هؤلاء يقبلون على ملذات الحياة، ويسعون إليها بكل سبيل، وإن كانوا متأثرين بمنهج أهل الباطن في إبعاد التأمل والتفكير في أعمالهم وأفعالهم المحرمة شرعا وعرفا...

ولم يكتف العلماء وأهل التصوف الحق في تصديهم للفساد الإجتماعي والديني والصوفي، وتنبيههم على مخاطره بالرسائل والخطب، بل ألفوا مؤلفات في الموضوع، ومنها كتاب منجنيق[3] الصخور في الرد على أهل الفجور[4]، لأبي العباس أحمدبن عبد الله بن أبي محلي[5] (ت: 1022 هـ / 1613م) الذي جمع فيه رسائله إلى علماء فكيك وصلحائها، في شأن من ادعى الصلاح، والولاية الروحية في تلك الناحية، بعد أن سارت الركبان بفضائحه وأعماله المنافية للدين والأخلاق والمروءة، منها مخالطته للنساء والإختلاء بهن فرادى وجماعات[6]، وتأخيره لصلاة الجمعة حتى خروج وقتها والناس ينتظرونه خوفا منه، وتبعا لهواه[7]، وأكله لأموال المتخاصمين كما يفعل ظلام الأجناد بالرعية[8].

1- أنظر ما كتبه اليوسي المتصوفة من أهل آسفي في رسائله 2/421 تحقيق فاطمة خليل القبلي، دار الثقافة البيضا ط 198.

2- وهم الذين يرفضون علم الظاهر في حججهم بما في ذلك الشريعة أنظر رد اليوسي عليهم بعد أن رماهم بالزندقة والكفر المصدر السابق 2/354.

3- المجنيق: آلة ترمي بها الحجارة في الحروب، معربة (القاموس المحيط :المجنيق).

4- مخط خ .ح رقم582.

5- شيخ صوفي، قاد حرب طاحنة ضد زيدان بن أحمد المنصور الذهبي، فقتله أنصار هذا الأخير بمراكش. أ نظر (النشر، والتقاط الدرر حوادث1022هـ)

6- منجنيف الصخور: ورقات: 14 - 18 - 277 - 278.

7- نفسه ورقات: 45 - 47 - 48.

8- نفسه ورقة 49.

وهذا الشخص يعرف بالشيخ عبد القادر بن محمد السماحي[9] كما ورد في ثنايا الكتاب المذكور[10] وفيما أنكره عليه علماء الراشيدية وسجلماسة وفگيگ ومنهم شيخ أبي محلي أبو القاسم[11] بن محمد بن عبد الجبار الفگيگي (ت: 1021هـ - 1612م) (الذي كان يحذر منه سرا وجهرا، وينفر عنه لما تحقق من أمره إفكا ونكرا)[12]. ومما جاء في رسالة أبي محلي إلى علماء زمانه بعد التقديم.. (... فأقول ومنه سبحانه استمد العون على المأمول، ما تقوله الأئمة ايدهم الله، في مأمورات الله تعالى ومنهياته؟ هل العالم، والسلطان والولي، والضعيف، والشريف، المكلفون في ذلك سواء؟ أم يجوز لأحدهم ما يحرم على غيره، كما يوهمه، بفعله أو قوله، بعض من يتعدى حدود الله؟ وذلك كرجل يزعم أنه ولي صالح، وشيخ بالغ، يخلو بالنساء الثيبات والابكار ذوات الحلي والاعطار، دون ساتر بالليل والنهار، في الحضر والاسفار والله تعالى يقول: (ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن)[13] الآية.... فهل والحالة هذه يحل لفقيه أن يسكت عمن شأنه ما ذكر؟ إن فعل ذلك أصابته لعنة ربه... وهل من يرسل إليه حليلته أخته أو بنته، أو وليته، أو يدعها تمضي إليه، ليجعل فمه في أذنها أو قريبا منه، وبحيث يرى جسمها وذراعها، أو شعرها، ويحاورها وتراجعه في زينة وعطر، دون ستر، هل هو ديوثي[14] لايدخل الجنة أم لا؟....)[15].

فالتقريع والتوبيخ والإنكار الوارد في أسئلة هذه الرسالة موجه لمن أذا كان العلماء قد قاموا بواجبهم في التنبيه على هذا الإنحراف بالدين وبالمجتمع إلى المهالك والمفاسد؟

9- لم أعثر على ترجمة، ورسائل المصدر السابق كلها تدور في شأنه.

10- نفسه ورقات: 46 - 69 - 237 - 254 ....الخ

11- أديب فقيه متصوف، وهو صاحب (الفريد في تقييد الشريد وتوصيد الوبيد) شرح فيه قصيدة عمه ابراهيم بن عبد الجبار الفگيگي (ت: حوالي954هـ1547م) أنظر ترجمة أبي القاسم في (النشر والتقاط الدرر حوادث 1021هـ ومقدمة تحقيق الفريد لعبد الهادي التازي)

12- مجنيف الصخور ورقة 32.

13- النور / 31.

14- الديوث: القواد على أهله، والذي لا يغار عليهم، من حيث الأمر إذا لينه، وكأنه لين نفسه على ذلك، وفي الحديث تحرم الجنة على الديوث (اللسان - ديث).

15- مجنيق الصخور، ورقة234 - 235.

إنه موجه إلى من يعنيه الأمر، إلى الناس كافة حاكمين ومحكومين خصوصا أهل فگيگ، بصفة أخص إلى السلطة التي في يدها الأمر، بعد أن تأكد الضلال والتضليل، وكثر الفساد والمفسدون: ممن ينتحلون الدين والصلاح. ويستغلون سداجة العوام وجهلهم.. لهؤلاء وأولائك جميعا يقول أبو محلي:

(... ولا تركنوا[16] إلى الذين ظلموا يا أهل فگيگ إذا عرفتموهم من كتاب الله فتمسكم النار، فإن قلتم: جهلنا هذا الأمر قلت: الجاهل لا يعذر بجهله (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون)[17] كيف وقد عرفتكم به غير واحد من العلماء، قبلنا! فما عذركم عند الله في اتباعه مع وضوح زيغه؟ فإن كان ذلك منكم عن جهل أو سهو، وأنكم كنتم فيه على غير بصيرة، فما تقولون اليوم إذ بصرناكم بنور الفرقان، وبسنة رسول الله تعالى، صلى الله عليه وسلم إلى الإنس والجان؟ وقد قال تعالى له، ولكم به إسوة حسنة: (وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين[18] .... وإن أبيتم كلكم أو بعضكم إلا التمادي معه على الضلال المبين، فها أنا قد أنذرتكم من عذاب شديد يصيبكم معه... في الدنيا والآخرة....)[19].

ويستمر الإنحراف وتتكرر البدع والأهواء عبر السنين ممن يدعون الصلاح ليصل الأمر مع طائفة العكاكزة، التي ظهرت بتادلا وبجبال فازاز[20] إلى أقصى مستوى في هدم الدين واستحلال المحرمات، واستبدال الشريعة الحق بشريعة الهوى والضلال، مما جعل السلطان إسماعيل يتصدى لها للقضاء[21] عليها (سنة1102هـ1690م) موازاة مع ما قام به العلماء من تنبيه على أباطيلها، والتشهير بمفاسدها وعقائدها التي تعرض لها أبو اليوسي بالتفصيل[22].

16- اقتباس من قوله تعالى: (ولا تركنوا إلى الذين ظلوا فتمسكم النار) هود/113.

17- النحل 43 - والأنبياء / 7.

18- الأنعام / 68

19- منجنيق الصخور، ورقة 15.

20- المعروف الآن بالأطلس المتوسط.

21- أنظر النشر، والتقاط الدرر، حوادث السنة المذكورة.

22- رسائل اليوسي 1/274-299.

منها اعتقادهم بأنهم أصحاب حقيقة، وغيرهم أصحاب شريعة، ولما طولبوا بإخراج هذه الحقيقة للناس، قالوا: (الحقيقة حرة، ولا تخرج إلى السوق، والشريعة خادم)[23]. لا يلتفت إليها وليست ذات قيمة، ومن ثم (رفضوا المأمورات: كالصلاة والصيام، والضحية، واقتحموا المنهيات كالزنى، وأكل الميتة، وقتل المسلمين، ونهب أموالهم...) معتبرين أن الجيفة (ذبيحة الله، وذبيحة الله خير من ذبيحة الأدمي)!! وأن (المرأة كالسجادة، صلي، واعط خاك يصلي)[24]!! وحين يريد القطب[25] عندهم اختبار المريد، ورياضته، وأماتة نفسه يأمره أن يأتي بزوجته إلى المجلس الغاص بالفقراء، وينبطح في الأرض، وتنبطح زوجته،. ويأتي القطب فوقها منبطحا على الزوجة، فيجامعها حتى إذا قضى منها وطره، جاء الفقراء واحدا بعد واحد، بحسب مراتبهم من الشيخ حتى يقضوا أوطارهم من زوجة ذلك المريد جميعا،فإذا فعل به ذلك وبزوجته قالوا: قد بلغ، وقد ماتت نفسه)[26].

وبعد استعراض أبي علي اليوسي لمناكرهم التي اكتفينا بالقليل منها عن الكثير، لم يتردد في إظهار الحسرة والأسى على ما آل اليه الإسلام مع أمثال هؤلاء الذين لهم تأثير على العوام. والذين لولاهم ما كان يظهر نظيرهم في كل زمان ومكان، لجهل الناس من جهة، وسرعة استجابة النفوس للأهواء من جهة أخرى، ولذلك قال أبو علي اليوسي: (فانظروا يا معشر المسلمين هل يلام من مات من هذا أسفا؟ وهل التعامي عن هذا شأن المؤمنين سلفا أو خلفا؟... وهؤلاء السفهاء بين أيدينا أضعف من قرملة[27]، وأذل من وتدبقاع[28]، وإنا لعبيد سوء إذا لم ننتصر، وجهلة غافلون إذا لم ننتبه ونذكر ...)[29].

بهذه المسؤولية العلمية والدينية.. والإحساس بها واجه العلماء كل أنواع الإنحراف، سياسيا كان أم اجتماعيا أم دينيا وروحيا، باعتبارهم حماة الشريعة المدافعين عنها في خضم تناسل الأعراف

23- رسائل اليوسي 1/279-280-281.

24- نفســـــه

25- يعرف بالخطاب، أنظر النشر، حوادث1102هـ/1690م

26- رسائل اليوسي 1/282

27- القرملة: شجرة من الحمض ضعيفة على ساق لاتكن ولاتظل، ومن أمثال العرب فيمن يستعين بأذل منه وبمن لا دفع له (ذليل عائد بقرملة) و (أذل من قرملة) أنظر (اللسان - قرمل).
ومجمع الأمثال 1/396 ط2 منشورات دار مكتبة الحياة دون تاريخ.

28- محجمع الأمثال 1/395.

29- رسائل اليوسي 1/286

والعادات التي تنتشر باستمرار، لغلبة الجهل والأمية في المجتمع، وصعوبة غسل الأدمغة مما عشش فيها من فساد، بالإضافة إلى من يستغل هذه الأوضاع لترويج أهوائه وأباطيله، بغية اكتساب حطام الدنيا، غير مكترث بما ينتج عن ذلك من فساد اجتماعي شامل، يتقوى مع مرور الأيام والسنين، كما قال أبو علي اليوسي: (فالحذر الحذر ممن لا يحافظ على سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ومما كانت عليه الجماعة، ولا سيما الأمر في هذا الزمان الذي قل فيه الخير، وتنوسيت المعالم الشرعية، والآثار النبوية، وصارت السنة بين البدع كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، وقد ابتدعت أمور... وقد غلبت العادات على العبادات، حتى كادت تقضي عليها، لولا أن الله تعالى يحفظ دينه في أيدي خواص عباده)(30)

وإذا كان الحال على هذا الوضع في زمان أبي علي اليوسي، فما بالك بما بعده، خصوصا إذا علمنا أن البادية لا تحظى بمجالس العلم والعلماء وبوسائل نشر المعرفة على غرار ما يجري في المدن، وإن لم تدمرها عوامل الفتن والإضطراب التي كانت آنذاك، وبعد وفاة السلطان إسماعيل بالتحديد، لا تكاد تخمد حتى تشتعل من جديد وإن قدر للحركة العلمية والأدبية أن تزدهر خارج المدينة بعيدا عن مراكز النفوذ السياسي، فإن ذلك لا يعمر طويلا بسبب الإنحراف الذي يزاحم الصلاح في كل زمان ومكان، تمشيا مع تناقضات الحياة التي تذكي الصراع فيها وتعمقه إلى أجل مسمى لضعف سلطة العلماء ونفوذهم في المجتمع، أو تنحيتهم عن مراكز القرار، أو تخليهم عن وظائفهم الدينية والإجتماعية.

فإحساس العلماء بالمسؤولية الجسيمة الملقاة على عاتقهم في حماية المجتمع، وتدبير مصالح أفراده الدنيوية والأخروية، مهما تطلب ذلك من ثمن، حتى ولو تعلق الأمر بأرواحهم وأنفسهم، تضحية بها من أجل أداء تلك الرسالة النبيلة التي يعتبرونها من الواجبات هو الذي جعلهم حريصين على انتقاد بعضهم بعضا وتذكيرهم من حين لآخر في كل فرصة سنحت لهم، بالدور الريادي الذي لا تستقيم أحوال المجتمع الإقتصادية والسياسية والعلمية والدينية إلا به، فهم المرأة التي تعكس استقراره وتقدمه أو العكس. حين تخليهم عن ذلك الدور المنوط بهم. ولنستمع إلى التحذير الذي وجهه أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي(31) (ت1090هـ/1679م) للشيخ محمد العربي

30- رسائل اليوسي 2/381

31- أحد أشياخ الزاوية العياشية الكبار، له مشاركة واسعة في الفقه والتصوف والأدب، وصاحب الرحلة المشهورة، أنظر (النشر، والتقاط الدرر حوادث السنة المذكورة).

بردلة[32] (ت:1133هـ/1720م) حين تولى خطة القضاء بفاس[33]، وكأنها وصية منه إليه، لأنه التحق بالرفيق الأعلى في السنة نفسها، وبعد التذكير بالقضاء الإلاهي الذي لا مرد له،وبالنصوص القرآنية، المفصلة في إقامة العدل بين الناس، وبأقوال دائمة التصوف في مراقبة الله في كل فعل وسلوك، لم يترك أبو سالم أية وسيلة لاقتلاع شهوة الطمع والجاه من نفس صاحبه إلا استعملها وأشار إليها، وهو مقتنع بأن مخاطبه ليس من السهل أن تسيطر عليه الشهوات، وأن تتملكه الرغبات الدنيوية لتحصينه بعلمي الظاهر والباطن، وعلم الشريعة والحقيقة، ومع ذلك يتصدى لما يمكن للنفس الأمارة من أحاسيس لإبطال مفعولها تجنبا لهلاك صاحبها، ووقوعه في المحظور، مادام أن عمل الإنسان محفوف بالنقائض والعيوب، مهما بلغت مكانته في العلم والإستقامة. لهذا طالب صاحبه بتطهير المجتمع من الجور والظلم والفساد، كما ورد في مقدمة الرسالة. وطالبه في صلبها بتطهير نفسه من كل استعلاء، وميل إلى صاحب الرياسة والجاه فيخسر دنياه وآخرته، متعمدا في ذلك على النصوص والأدلة المقنعة، التي لا يبق معها أي احتمال أو تبرير مخالف لذلك كما جاء في قوله:(...فطهروا هذه الحلة الإلهية بزينة التسليم والرضى، واقطعوا عروق سحق المقدور من قلوبكم بسيف المشاهدة[34] المنتضى... وتأدب بآداب الله تعالى لعباده المؤمنين في قوله: (وما كان لمومن ولا مومنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم)[35]،وتأدب بالأكابر العارفين بالله، وفي إلقاء النفس سلما بين يدي الملك الحق... وإني أخشى عليك بحمد الله الرغبة فيها، والسعي في تحصيلها، وإنما أخشى عليك أمرين: التوغل في سخط المقدور، والتبرم من الواقع، فتحرم ثواب الرضى، أو استحلاءها بعد طول المدة استحلاء خفيا، لا شعور لك به، يظهر أثره بالتألم الباطني عند استشعار العزل يوما ما...).

32- فقيه نوازلي، خطيب، تولى قضاأ فاس والفتوى بها، عزل من منصبه مرارا أنظر (التقاط الدرر، والنشر حوادث السنة المذكورة).

33- سنة1090، أنظر حوادث هذه السنة في نثر المثاني.

34- المشاهدة والشهود عند الصوفية هي رؤية الحق بالحق، أنظر (التعريفات) لعلي بن محمد الجرجاني ص129، دار الكتب العلمية بيروت.ط..1983.

35- الأحزاب .36

وتنتهي الرسالة بإبراز دور المناصب الشرعية، ومكانتها لدى الحق سبحانه، ولدى الناس أجمعين، والأهمية التي تلعبها في صيانة الحقوق والواجبات، وما ينبغي القيام به من أجل إحلالها تلك المرتبة السنية التي لا معنى للحياة، ولا طعم لهما ولا لذة دونها..

(ولا تظن أن ما حليتك به من الأوصاف، التي لم يعهد مني قبل تحليتك به مما يرمي جزافا، بل كان ذلك مني لغرض شرعي، وهو إعطاء المنصب الشرعي حقه من التعظيم، فإنه خلعة إسلامية خلعها الملك الحق عليك، فيجب على كل من له نور بصيرة أن يوفيها حقها، وأن يشاهد ذلك من الله، لأن الأدب معه أدب مع الله تعالى، وكذلك سائر الولايات الإسلامية دينية كانت أن دنيوية، من لم يتأدب مع أهلها بأدب الله فقد تعرض لمقت الله...))[36].

ولجسامة هذه المسؤولية وأهميتها كان كثير من العلماء يستنكفون عنها خوفا من زلة قدمهم فيها، وميلهم عن الحق، لما قد يقوم به الشهود أو العدول من تنزوير وتدليس، في الشهادة والرسوم، وغيرها مما يعتمده القاضي في الفصل بين المتنازعين والخصوم، خصوصا في عهود الاستبداد والجور والظلم، التي لا تراعى فيها الحقوق الدينية والدنيوية، فيضطر كثير من العلماء بسبب هذا وذاك إلى التخلي عن هذه الخطة، بل منهم من كان يتحامق (ويظهر من نفسه البله والأفعال الخسيسة)[37].

ومن المحن التي نفرت العلماء من ممارسة هذه الخطة منحة[38] جمع العبيد في العهد الإسماعيلي بملابستها السياسية والإجتماعية فقد انقسم العلماء حولها ما بين مساير تحت الإكراه ورافض لها. ومن هذا الصنف من وفر بنفسه إلى الجبال والقرى والمدن الصغرى، ومنهم من واجه الموقف وجهر بالحق، لا يهابه إلا قوة الله، وقانون الشريعة الذي يستمد منه قوته وحجته، وبراهينه على بطلان ما يفتريه المفترون الذين يفسدون في الأرض باسم الدين، ويرتكبون من الأعمال ما هو حرام شرعا ووضعا...

36- الثغر الباسم في جملة من كلام أبي سالم، لأبي سالم الصغير محمد بن حمزة (ت: بعد عام1140هـ / بعد1727م) مخط خ.ع رقم304 كـ ورقة118-119

37- محمد بن الطيب القادري في ترجم الشيخ أحمد بن علي الجرندي (ت:1125هـ/1713م) أنظر نشر المثاني حوادث السنة المذكورة.

38- صاحب الفكرة ومنفذها محمد بن قاسم عليلش المراكشي الذي كان أبوه كاتبامع أحمد المنصور الذهبي، ومع أبنائه، وكان يملك ديوان عسكر هذا السلطان، أنظر (الجيش العرمرم 1/3 6 ط. حجرية.)

يقول صاحب[39] الدر المنتخب عن حوادث سنة 1119هـ1707م(وفي ثاني عشر من ذي القعدة هذا العام، وقيل في العام قبله.... ورد كتاب من السلطان وقرئ بفاس على المنبر بتمليك حراطين فاس، وطلب من العلماء أن يضعوا خطوط أيديهم على ذلك في الدفتر، وبقي الأمر نحو أربعة أشهر وفر غير واحد من العلماء لرؤوس الجبال، وبها استقر، وتغيب بعض العلماء في موضع حيث لا يطلع له على خبر ومن كان عاجزا قال: أمر الله ليس منه مفر، ومنهم من التجأ إلى مولاه في السر والجهر، وطلب من الله الموت، ولا يحضر لهذا الأمر...[40])

وأذا كان الشيخ محمد بن محمد المشاط[41] قد فر بأهله وولده إلى وزان، في سياق هذه الأحداث، فإن قاضي شفشاون علي بن عيسى العلمي، لم يترك خطة القضاء فحسب، بل ترك أولاده وعياله وفر بنفسه متوجها إلى الله في أرضه الواسعة، بعد أن وجه رسالة في هذا الموضوع إلى القائد علي إبن عبد الله الريفي خليفة السلطان إسماعيل في تطوان يخبره فيها بما عزم على القيام به، فرارا بنفسه وبدينه، ومما جاء فيها بعد الحمدلة والتصلية:

(..وأعلمك أن ولاية القضاء والحكم بين المسلمين قد صعب علي في هذا الزمان، الذي كثر فيه البغي والطغيان حتى تغير الحال، وتراكمت الفتن والأهوال، وتعذر تنفيذ الأحكام الشرعية، والعمل بالسنة السنية، وارتكب الناس البدع ومحدثات الأمور، من غير فرار من ذلك ولا نفور، ولأجل هذا عزلت نفسي عن الحكم بين المسلمين، وفررت إلى رب العالمين ... والآن لما ظهر من يفتن الناس عن دينهم، ويزلزلهم عن عملهم ويقينهم، ويلزمهم شهادة الزور، والحكم بالباطل والفجور

39- هو أحمد بن محمد ابن الحاج السلمي، وزير السلطان الحسن الأول واحد أدباء عصره ومؤرخيه (ت:1316 هـ/1898 أنظر: (الإعلام لابن إبراهيم 2/345-439 المطبعة الملكية الرباط 1974

40- الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن 6/ ورقة385-388-مخط خ.ح رقم 12184ز.

41- أحد شيوخ فاس في عصرهلا نملك عنه حتى الآن غير ما أورده عنه تلميذه علي مصباح الزرويلي في التقديم لقصائده التي مدحه بها، واكتفى محمد بن الطيب القادري بالإشارة إليه ضمن الاعلام الذين أخذوا عن جده عبدالسلام ووعد بأنه سيترجم لهم غير أنه وقع الاغفال عن هذا العلم لسبب من الأسباب أنظر: (سنا المهتدي لعلي مصباح مخط خ.ح ر11095ز، لوحة220 وديوانه مخط خ.ح رقم6938 ورقات: 55-59-60 والتقاط الدرر ص280).

واسترقاق الأحرار من أمة المختار، صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم، فحسبي نفسي والإستعداد لرسمي... وأولادي وأهلي وأستودعتهم الله، وتركتهم في أمانته سبحانه وكلاءته، وأما أنا فلا أقيم إن شاء الله حيث أسمع خبر شفشاون، ولا يسمعون خبري، ثم أذهب على وجهي، والسلام عليكم والرحمة والبركة..)[42].

وصور محنة المجتمع كثيرة في رسائل العلماء وغيرهم، وتتبعها يعطي مادة خصبة للمهتمين بالمجالات الإقتصادية والإجتماعية والسياسية والدينية، من خلال تمور أصحاب تلك الرسائل في الأحداث المحيطة بهم، والإشارة إليها قصد اخبار من وجهت إليهم بنتائجها في أرواحهم وأمتعتهم وأهلهم ونويهم، دون أن نعرف بالتحديد أحيانا مسبب تلك الأحداث ومرتكبها لاغفال ذكره تجنبا للمزيد منها ومن مآسيها، مما يجعلنا نربطها بالسياق التاريخي للعصر، وبالفتن التي انعكست آثارها المؤلمة على المجتمع من جهة، وعلى كبار علماء العصر من جهة أخرى لجهرهم بالحق، ورفضهم الخضوع لغيره والإستسلام للظلم والفساد الذي تفنن فيه الولاة كسبا لرضى السلطان عنهم، بعد استشعاره بأنهم هم المدافعون الحقيقيون عن تثبيت الأمن والإستقرار، وأن العلماء والفقهاء على خلاف ذلك يسعى الكثير منهم في تأجيج نيران الفتن، وخصوصا المعارضين منهم، وفي هذا السياق امتحن الشيخ عبد السلام جسوس[43] وقتل، لموقفه من المحنة المعروفة بجمع العبيد، أبو علي اليوسي عانى مرارة الحياة بعد تهجيره من زاويته التي أقامها (بخلفون) ناحية خنيفرة، على ضفاف نهر أم الربيع، لما يشكله مقامه هناك من خطر، لكثرة أتباعه من جهة، وحنين اليوسي وأهل المنطقة المذكورة، إلى مجد الزاوية الدلائية المخربة، من جهة أخرى، فيومر بالرحيل إلى مراكش فيعاني، ثم يرحل إلى مكناسة وبعدها إلى مراكش مرة أخرى ثم إلى الزاوية الدلائية المهجورة

42- تاريخ تطوان لمحمد داود 2/40 منشورات معهد مولاي الحسن بتطوان1965.

43- من شيوخ فاس في زمانه، كانت له معرفة فائقة بالنحو واللغة والفقه والحديث والتفسير، فقتل مخنوقا في سجنه سنة1121هـ/ 1709، أنظر: (التقاط الدرر، والنشر حوادث السنة المذكو ورياض الورد لابن الحاج مخط خ.ع رقم2313 ك143 والمنزع اللطيف لابن زيدان مخط خ.ع رقم595 ج ورقة310 - 329 وسلوة الأنفاس للكتاني 2/14 ط حجرية.....)

(... التي أمر بالرحيل إليها عزما عزما ولا بد..)[44] مع ما صاحب ذلك من أهوال لاحقت أهله وأتباعه، كما جاء في قوله:

(ولما كنت بمراكش حرسها الله، سنة 1093هـ/1682م. وقد بقيت الأملاك في (خلفون)، والكتب وما معها في مكناسة، وبقيت العلائق في جبال (فازاز)، والقبيلة في (ملوية) قلت: (طويل)

تشتت قلبي في البلاد فقسمة بمراكش منه على رجل طائـــر
وأخرى بخلفونة وأخرى مقيمة بمكناسة الزيتون وحول الدفاتر
وأخرى بفازاز وأخرى تجزأت بملوية الأنهار بين العشائـــــر
الخ.....[45]

ولم يكن حظ الشيخ أحمد بن عبد القادر التستاوتي[46] (ت:1127هـ-1715م) بأقل من صاحبه في هذه المحن، التي قادته إلى السجن بفاس بسبب مواقفه من انهيار الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية والدينية، والإفلاس العام الذي أدى به إلى توجيه رسالة إلى المهدي المنتظر صور فيها مشاعر الناس وهمومهم، مما يعانونه من اضطهاد وظلم، وشوقهم إلى كل من يرفع البلاء عنهم ويضع حدا للفتن، وأعمال النهب والسطو، واستباحة الحرمات، وأكل الأموال بالباطل، ويكبح جماح الولاة والعمال الذين أطلقوا العنان لملذاتهم وشهواتهم فيما لا حق لهم فيه.. مما يجعل النفوس في مثل هذه الأزمات تتجاوز واقعها إلى البحث في المعتقدات عن المطهر والمخلص من الكروب، فينصرف الذهن إلى العقيدة الشيعية في المهدوية، بالرغم من أن المغاربة لا يومنون بهذا المذهب عبر تاريخهم الطويل، بل قاوموه عند ظهوره كما هو واضح في ثورة العلماء عليه، وعلى رأسهم القاضي عياض.. وأحمد بن عبد القادر التستاوتي باعتباره أحد أصحاب شيوخ الزاوية الناصرية، وعلمائها

44- رسائل اليوسي 1/161.

45- نفسه 1/49.

46- من شيوخ التصوف والأدب في زمانه توفي بمكناسة الزيتون من تلامذة الشيخ محمد بن ناصر الدعري وقد قام الأستاذ الزميل عبد اللطيف شهبون بدراسة حول شعره، أنظر (التقاط الدرر، والنشر، حوادث السنة المذكورة، والروض الزاهر لمحمد بن موسى الناصري ضمن مجموع مخط خ.ح رقم 11861 ز، ورقة 252-258)

الكبار، ومنهم الشيخ أحمد بن ناصر الدرعي (ت1129هـ/1716م)، لم يكن متأثرا بالمذهب الشيعي في جملته، ولكن إيمانه ببعض الخوارق والكرامات عند أهل التصوف قادته إلى ما يظهر إلى العقيدة المهدوية، كما هو واضح في رسالته.... (وفي اليوم الثامن من جمادى سنة خمس وتسعين وألف هـ1683م) كتبت ما نصه: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، أما بعد: فإن هذا الدين لايستقيم إلا بصوفي، وفقيه، وإمام، ونعني بالصوفي الشيخ الكامل [47]، الذي فرغ من تهذيب نفسه، وإقامة الله لصالح العباد، وصرفه في الوجود، ومكنه من التصريف أي تمكين وجعل بيده الربط، والحل، والتولية، والعزل... ونعني بالعالم العامل بعمله الذي نسبت [48] بالشرع العزيز يده، وقام داعيا إلى الله... تتعلم منه الناس أمور دينهم، وتأخذ عنه الأحكام الشرعية مقلدا السلف الصالح في الإشتغال بمنافع المسلمين...

ونعني بالإمام الخليفة الذي تقام به الحدود، وتحقن الدماء وينتصر المظلوم من الظالم... ويجري في سائر تصرفاته على المنهج الذي سارت به الخلفاء الراشدون، وهذا (أغرب من عنقاء). (وأعز من الكبريت الأحمر) وقد طال انتظار الناس إليه، وترقب طلوع شمس الاقبال عليه، والمرجو من الله أن يكون قريبا، ويكون لنداء الحق مجيبا...) [49].

وقد ميز المهدي المنتظر المقصود من الثلاثة [50] المذكورين في رسالته: الأول لم يذكره إلا لأنه تقدم في القرن السادس، وكان سفاكا للدماء، والثالث هو الذي وقع الإجماع عليه، (يحضر زمن الدجال، ويجتمع بعيسى ابن مريم عليه السلام... وأما الثاني من المهديين المذكورين، وهو الذي رجونا قربه وتمنينا على الله أن يكشف به ريب الزمان وخطبه، ويقال أنه يظهر في أوائل المائة

47-السالك:(هو الذي مشى على المقامات بحاله لابعمله)أنظر (كتاب التعريفات للجرجاني ص116

48- نبس الرجل: إذا تكلم فأسرع، واصل النبس الحركة (للسان نبس)

49 -- نزهة الناظر وبهجة الغصن الناضر) للمؤلف نفسه مخط خ.ع رقم1302د، ورقة 44/أ وقد قام الأستاذ أحمد الطريبق اليدري بدراسة لهذا الكتاب مازالت مرقونة بكلية الآداب بالرباط.

50- وقد جعلهم الشيخ أحمد بن أبي محلي أربعة، عند مناقشته لمهدوية ابن تومرت الفاسدة وهم: مهدي بالإسم فقط سمي به في صغره والثاني مهدي الصفة فقط، وهو عمر بن عبد العزيز، والثالث هو الجامع بين مهدوية الصفة والذات، وهو المهدي الفاطمي (وأما المهدي الرابع فإنما هو عيسى عليه السلام.... ومن سوى هؤلاء الأربعة في ادعاء إمارة أو هداية في ولاية أو رسالة إنماهو مهدي ضلالة تقدم أو تأخر) أنظر (السلسبيل في قصد السبيل) له، مخط خ.ح رقم 4733، ورقة 90/ب - 93/ ب.

الثانية عشرة... يستوطن ماسة وأحوازها وشالة، ويسع ملكه الديار المصرية، فمن ظفر به فليشد يده عليه...)[51]

وإلى جانب هذا الإعتقاد في المهدي المنتظر، وفي زمانه ومكانه، والوصف الذي قدمه للأوضاع الإجتماعية والسياسية والإقتصادية الداعية إلى ظهوره، وأشار إلى جملة من الأحكام والمبادئ والأعمال التي ينبغي القيام بها، وهي بمثابة دستور مستمد من أصول الشرع قرآنا وسنة، وإجماعا، وسيرة للصحابة والخلفاء الراشدين، ولم يترك للمهدي المنتظر إلا إمكانية التطبيق، بدءا من رد المظالم إلى أصحابها وتطهير بيت المال منها، ومن المفاسد كلها، وتفقد أحوال السجناء، والبحث في ظروف سجنهم، وتأسيس الجيش المناسب... وغير ذلك مما تتطلبه أحوال البلاد والعباد، لنشر الإستقرار والطمأنينة في النفوس مع التأكيد على تقريب أهل الصلاح من العلماء، والإستماع إليهم، والعمل بآرائهم، ضاربا المثال باستقامة الشيخ عبد العزيز بن عبد الرحمن الفلالي[52](ت1096/1684م) ومواقفه مع قائد فاس آنذاك عبد الله الروسي، ومما جاء في قوله:

(... ينبغي أن تكون بطانته وأهل مشورته العلماء المخلصين لله ... ويكون في مأكله وملبسه ومشربه تابعا للخلفاء الراشدين ولا يضيع أموال المسلمين في الفرش والبسط، والجواري، وفاخر اللباس، فإن ذلك ليس هو من فعل الخلفاء...[53].

ولا شك أن هذه الرسائل وغيرها تكشف بوضوح سبب البلوى التي تعرض لها كثير من العلماء، ورجال التصوف واتباعهم، فثبت منهم من ثبت وفزع من فزع، وتفسر لنا الغموض الوارد في بعضها، حين لا يذكر المرسل والمرسل إليه بإسمه، وما يدل عليه من توقيع وغيره ويكتفي بعبارة (من فلان - إلى بن فلان) ويتجنب فيها كذلك ذكر سبب المحنة اعتمادا على إشارة يعرفها المخاطب، مما يجعل الغموض محيطا بكثير من جوانبها. وإن عرف المرسل والمرسل إليه موضوع الرسالة، فإنه يجهل أسباب الفتنة، ومن يؤجج نيرانها، فلايسع الدارس والحالة هذه إلا أن يعود إلى سياق

51- نزهة الناظر ورقة 44/أ

52- أحد الفقهاء المحتسبين المشهورين في عصره كان متشددا في مراقبة الأثمنة في الأسواق، وله نازلة مع قائد فاس آنذاك عبد الله الروسي الذي حاول فرض المكوس على أسواق فاس: فمنه المحتسب منها، أنظر: (النشر، والتقاط الدرر حوادث السنة المذكورة).

53- نزهة الناظر ورقة 44/أ.

الأحداث والظروف الإجتماعية المحيطة بها، ليربط من خلالها الأسباب بالمسببات والنتائج بالمقدمات والعوامل، ليفسر ذلك الغموض الذي يكتنف هذا النوع من الرسائل، كما جاء في خطاب أبي علي اليوسي إلى الشيخ أحمد بن عبد القادر التساوتي، وهي من رسائله التي لم تنشر بعد:(... وها أنت ترى وتسمع... لقد تعدى فلان فعل فلان واعلم أن البلاد خرب، والجار قد انتهب... ولم ندر ماذا أراد الرجل بهذا الفعل؟ هو إخراج الرعية من الحرم لا غير، أم إخلاء الموضع لقنط فنرحل؟ أم التجريب بهذا القدر؟ فإن تم له ازداد إلينا فكل ذلك يحتمل، فقوموا على ساق الجد في التضرع أن يدفع الله شره عنا، وعمن بقي معنا... فتضرعوا، واستصرفوا بالمشايخ، ولا تكفوا حتى يشرح لكم الحال، فتعلمونا به على الفور، والله يبقى السر(54).

وإن كنا نجهل (فلانا) هذا، أو (الرجل) الوارد ذكره في هذه الرسالة، فإننا لا نجهل الظروف المحيطة بحياة اليوسي والتساوتي وغيرهما من رجال التصوف والعلم. لما لهم من الإتباع من جهة وما لهم من مواقف وجرأة من جهة أخرى، على مناهضة الجور والظلم والفساد من أي كان، خصوصا من الولاة والعمال الذين ركبوا أهواءهم وشهواتهم إعجابا بسلطتهم ونفوذهم، الشيء الذي نفر العلماء والعوام منهم على حد سواء، لاعتمادهم على التخويف والتهريب، والإكثار من جباية الأموال بالباطل، وفرض الضرائب والمكوس على الناس....

وفي سياق هذا الصراع نضع رسالة أحمد بن عبد القادر التساوتي المؤرخة بتاريخ (1091هـ/ 1680م) إلى القائد عمر بن أحمد الريفي، نصحه فيها بالرجوع عما كان يقوم به من تنكيل وتعذيب للإشراف وأهل التصوف، لشغلهم بأنفسهم عن أهلهم وذويهم، وتكليفهم بأنواع الأعمال على سبيل السخرة تحقيرا لهم وأيقافا لمد نفوذهم بين الناس حتى لا تتقوى المعارضة هنا وهناك، ومنها قوله: ((.... فقد بلغني أن همتك تشرئب للتولية على أبناء الصالحين وأنك تريد أن تستخدمهم، وتجعلهم في طي قبضتك، متكلا على جاهك وسطوتك، فتعجبت من هذا على ما بلغني عنك من أنك تحب الجهاد وتحافظ على الصلوات الخمس، وتديم الأوراد، وكيف لا نعجب والمنافاة بين القصدين ظاهرة. وبالجملة فإن أردت بذلك نصر الدين، وقصدت بهم أن تردهم إلى اقتفاء آبائهم ومتابعة السلف الصالح، وتأمرهم بعمارة المساجد والمدارس المعطلة... . وحينئذ ينبغي أن يطيعوك، ومن عصاك عصى الله ورسوله وخرج عن طاعة الإمام، وأما إن كنت إنما تريد بذلك مجرد الشهرة أو إهانتهم أو أنهم ليسوا على شيء، أولا تكاد تجد فيهم من ينفعهم أو يدفع عنهم، فقد جعلت نفسك هدفا.... واستطاب

54- نزهة الناظر ورقة 3 8/أ

لك أن تبعث أصحابك لأبنائهم يأخذون منهم السخرة، ويستعملون عليهم بجاههم... وهب أن العقوبة تأخرت عنك إلى الدار الآخرة فماذا تقول؟ وبأي شيء تعتذر؟ ... وقد تصحناك، فإن قبلتها فلك أجر من قبل النصيحة، وإن رددتها فنحن برآء منك، و ((اقض ما أنت قاض، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) (55) ...)) (56).

ومن خلال هذه الرسائل وغيرها يتضح دور العلماء في حماية الشريعة والمجتمع من الفساد، وحماية السلطة نفسها بتنبيه رجالها إلى ما يمكن أن ينتج عن الشطط والميل عن الحق والعدل، بعدم إمضائه والسماح به، من خلال الوظائف التي يقومون بها، تدريسا، وخطابة، وإفتاء، وقضاء، وحسبة، وإيمانا منهم برسالتهم الدينية والحضارية التي لا يقوم بها من حفظ شيئا من العلم، ولكن من اتصف بخصال العلماء العاملين بعملهم المستنيرين بنور الحق، وبالشريعة ظاهرا وباطنا، وهذا ما يجعل الكثيرين منهم يستنكفون عن مصاحبة أهل السلطة، حفاظا على أنفسهم ودينهم ووظيفتهم مما قد يتأثرون به من أهواء أهل الإستقامة والعدل منهم، فما بالك بغيرهم، كما هو واضح في رد أبي علي اليوسي حينما ليم على ذلك:

((.... وأن الدين والأمانة غالبا في المنقبض دون المخالط فإنه غالبا غير مأمون، ولا شك أنه يجوز أن يكون في صحبة الملوك من هو صحيح الدين قائل بالحق، واقف عنده، ينفع الله به وبتنبيهه ولكنه (أعز من الكبريت الأحمر (57). والغالب عليهم رقة الديانة وطلب المرضاة في كل شيء....) (58).

55- طه /72

56- نزهة الناظر ورقة 55/أ - ب

57- مثل يطلق على الشيء النادر، أنظر: مجتمع الأمثال للميداني 1/675).

58- رسائل اليوسي 1/153 -154.

قراءة في وثائق جديدة حول مكانة العلماء في الحياة اليومية (نماذج من عصر الدولة العلوية)

محمد اللبـــار
كليـة الآداب. وجـدة

إنه لا جدال اليوم حول أهمية الوثائق بمختلف تعاريفها في كتابة التاريخ، باعتبارها من المصادر الأصيلة المكونة للمادة الأساسية في البحث والتدوين التاريخيين. هذا البحث الذي يجب أن يعمل على ترتيب وتنسيق ما يستخرج من هذه الوثائق من معلومات وإشارات وحقائق، وهذا التدوين الذي يجب أن يسير وفق منهج علمي متناسق.

وعليه فضياع الوثائق خسارة كبرى للتاريخ إن لم يكن في ذلك ضياعه بالمرة. في حين يكون توفرها - على تعدد أنواعها واختلاف أزمنتها وتباين مواضيعها - رصيدا يقوي همة الباحث وحظوظه للوصول إلى رسم صورة قريبة من الواقع التاريخي للفترة التي يريد دراستها أو للظاهرة التي ينوي استكشافها.

وانطلاقا من الوعي بهذا كله ومن الإيمان المطلق أن الوثائق تراث الأمة جمعاء، هاأنذا اليوم أقدم للمهتمين بتاريخ الدولة العلوية أربع وثائق كانت دفينة لم تنشر من قبل.(1)

أما بخصوص المواضيع التي تتطرق لها الوثائق، فقد تنوعت بدرجة تسمح بترتيبها - بهدف تسهيل التعامل معها منهجيا - في محورين يبرز كل محور منها نموذجا معينا عن أهمية مكانة العلماء في الحياة اليومية خلال القرنين الأولين من تاريخ الدولة العلوية.

المحور الأول

ويشمل هذا المحور ثلاث وثائق، ثلاثة ظهائر سلطانية يسدل بها الملوك العلويون أردية التوقير والإحترام على الشرفاء المناليين الزباديين، وينعمون عليهم بصلة كريمة. وهؤلاء الملوك هم:

- المولى رشيد سنة 1078هـ.
- سيدي محمد بن عبد الله سنة 1201هـ.
- المولى سليمان سنة 1233هـ.

عللت هذه الظهائر الثلاثة - رغم اختلاف فترات صدورها - أسباب هذه العناية ودواعي هذه الصلة بثلاثة عوامل:

أولها: المحبة والصداقة التي كانت تجمع الشرفاء المناليين الزباديين بالأسرة العلوية على الأقل منذ عهد المولى الشريف ابن علي العلوي، إذ ورد في ظهير المولى رشيد عن هذه المحبة والصداقة ما نصه في حق المناليين: "أولاد الإمام الفقيه النبيه محبنا حقا وصدقا وصديق والدنا قدس الله روحه في الجنة آمين".

ثانيها: مكانة الشرفاء المناليين العلمية، إذ أشار ظهيرا المولى رشيد وسيدي محمد بن عبد الله إلى هذه المكانة العلمية باستعمالهما لقب "الفقيه"، في حين ذكر تلك المكانة العلمية صراحة المولى سليمان الذي وصف هؤلاء المناليين بأنهم "بيت شرف وعلم وعمل".

ثالثها: النسب الشريف، إذ ورد في ظهير المولى رشيد أن المناليين "من أولاد السيد عيسى بن إدريس الشريف الحسني نفعنا الله به الذي ضريحه بأيت عتاب".

وورد في ظهير سيدي محمد بن عبد الله أنهم: "من ذرية سيدي عيسى بن إدريس نفع الله به. كان أسلافهم قد نص عليهم سيدي إسماعيل والأئمة والملوك قبل رحمهم الله".

وجاء في ظهير المولى سليمان أن المناليين "من نسل سيدي عيسى بن إدريس نفع الله ببركاتهما. وقد نص عليهم جماعة من أهل العلم كبردلة وابن الحاج والمسناويين والفاسيين كما في ظهير الوالد المرحوم بكرم الله تعالى".

أما بخصوص الشرفاء المناليين المذكورين في هذه الوثائق فالمعروف عنهم أنهم من الشرفاء الأدارسة من سلالة عيسى بن إدريس دفين أيت عتاب ببلاد تادلا، وبالضبط من فرع بعض حفدته الذين أقاموا مدة بسوس الأقصى بمنالة -التي يقال لها أيضا ألالة- قبل نزوحهم إلى فاس.(2)

وأول من دخل منهم إلى فاس هو جدهم مَحمد بن الحسين الذي لقب بالمنالي لقدومه من منالة. ولقب حفيده الخامس مَحمد بن علي بلقب الزبادي، واشتهر بنفس اللقب من بعده ابن حفيده محمد بن علي. فعرفت أسرتهم بهذا اللقب إلى اليوم.(3)

وفي كل ما تقدم عن هذه الوثائق إشارة إلى ظهائر إسماعيلية وربما سعدية أكدت نسب المناليين، وإلى بعض العلماء الذين اعتنوا بالأنساب عامة وبأنساب الأشراف خاصة.

ونعتقد أن المولى رشيد لم يكن في حاجة إلى ذكر سنده في نسب هذه الأسرة المنالية مادام أن معرفته لها كانت منذ عهد والده من جهة، ومادام أنه من جهة ثانية هو نفسه كانت له - على غرار إخوته المولى مَحمد قبله والمولى إسماعيل بعده - دراية واسعة بالتاريخ والأنساب والسير.(4)

أما بخصوص العلماء الذين قالوا كلمتهم في شرف هؤلاء المناليين والذين وردت أسماؤهم في هذه الوثائق - وبالتدقيق في الوثيقة الثالثة - فهم بردلة وابن الحاج والمسناويون والفاسيون.

بردلة: وهو محمد العربي بن أحمد بردلة الأندلسي الفاسي (1042-1133هـ) فقيه سلفي علامة محقق، قاضي الجماعة بحضرة فاس ومفتيها وخطيب القرويين بها على عهد المولى إسماعيل، وأحد كبراء علماء جامعتها. كان مرجوعا إليه في المعضلات والنوازل والمشكلات.(5) والراجح أنه كان من جملة العلماء الذين كلفهم المولى إسماعيل بتمييز الأشراف عن غيرهم، فساهم بذلك في ضبط "الديوان الإسماعيلي".

ابن الحاج: والمقصود إما ابن الحاج الأب وإما ابن الحاج الإبن.

ابن الحاج الأب: وهو أحمد بن العربي بن الحاج السلمي المرداسي الفاسي (1042-1109هـ) فقيه علامة مدرس.(6) كان من العلماء العاملين ومن الصلحاء الفاضلين.(7) ولي قضاء فاس الجديد على عهد المولى إسماعيل.(8) والراجح أنه كان من العلماء الأعيان الذين تكلفوا بضبط الديوان الإسماعيلي بمعية العربي بردلة السالف الذكر.

ابن الحاج الإبن: وهو محمد بن أحمد السالف الذكر (ت 1128هـ) تولى جميع ما كان لوالده بعد وفاة هذا الأخير(9) بما في ذلك المساهمة في ضبط الكناش الإسماعيلي.

المسناويون: وكانوا من أشهر علماء المغرب في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة، يرجعون في نسبهم إلى الدلائيين وزاويتهم. ومن أشهر من اشتغل منهم بضبط الأنساب يذكر:

أبو عبد الله محمد المسناوي الدلائي (1072-1136هـ) الذي جال في الأنساب وعلم بالأحساب. ومن تأليفه في الموضوع: "نتيجة التحقيق في بعض أهل الشرف الوثيق".(10) "ورسالة في فروع الجوطيين بفاس ومكناس".(11)

أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمان الدلائي

(ت1141هـ بالحجاز)، الذي كان علامة خطيبا واعظا محققا حافظا مؤرخا نسابة برع في الفقه واللغة والسير وعلم الأنساب والأدب وغير ذلك. له تآليف عديدة يخص منها موضوعنا: "درة التيجان ولقطة اللؤلؤ والمرجان"، وهي أرجوزة جمع فيها مشاهير شرفاء المغرب، أبياتها 313، ألم فيها بالسبطين السيدين الحسن والحسين وعقبهما وذكر فروع السيد عبد الله الكامل من أولاده الثلاثة، وتوسع قليلا في عرض الشعب الإدريسية.(12)

الفاسيون: وهم أهل الزوايا الفاسية بأحياء المخفية والقلقليين بفاس، وقد كانوا في علمهم أكثر بيوت المغرب شبها بالبيت الدلائي. وأشهر من اهتم منهم بعلم الأنساب:

محمد بن أحمد الفاسي الفهري (ت1179هـ) الذي قام "بشرح درة التيجان ولقطة اللؤلؤ والمرجان" للدلائي المذكور آنفا، وبين ما تتناوله من أنساب أشراف المغرب وحلل ذلك تحليلا واسعا.(13)

عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي الفهري (ت1096هـ) الذي تعرض في أرجوزته "الأقنوم في مبادئ العلوم" إلى تحليل عدة علوم منها علم الأنساب عموما وعلم أنساب الأشراف خصوصا.(14)

عبد الواحد بن محمد الفاسي الفهري (ت1213هـ)، صاحب كتاب: "غاية الأمنية وارتقاء الرتبة العلية في ذكر الأنساب الصقلية".[15]

وهناك مؤلفات أخرى اهتم أصحابها بالأنساب الشريفة في المغرب، ولعل أصحابها هم المقصودون في ظهير سيدي محمد بن عبد الله بلقب "الأئمة"، نذكر منهم على سبيل المثال:

عبد القادر بن محمد الإدريسي الشبيهي (ت1099هـ): "ديوان الأشراف".[16]

أحمد المدغري العلوي الحسني (ت1101هـ): الأنوار السنية في نسبة من بسجلماسة من الأشراف المحمدية"، واهتم بنسب العلويين.[17]

عبد السلام بن الطيب القادري الحسني الفاسي[18] (ت1110هـ): "الدر السني في بعض من بفاس من أهل النسب الحسني".[19] وكتابه هذا بمثابة مدونة مرجوع لها في أنساب العلويين والأدارسة والقادريين والحسينيين صقليين وعراقيين المقيمين بفاس.[20]

ومعلوم أن عبد السلام بن الطيب القادري الحسني كان نسابة حضرة فاس على عهد السلطان المولى إسماعيل وأحد أعيانها من الشرفاء والعلماء، من تآليفه في الأنساب كذلك: "الإشراف على نسب الأقطاب الأربعة الأشراف"،[21] و"مطلع الإشراق في نسب الشرفاء الواردين من العراق"، عرض فيه نسبهم، ومكارمهم وفروعهم.[22]

أحمد بن أحمد الإدريسي العلمي (ت1123هـ): "ديوان الأشراف".[23]

التهامي بن رحمون الحسني العلمي (ت1130هـ): "الأنجم الزاهرة في الذرية الطاهرة"، عن الشرفاء عموما والعلميين خصوصا.[24] وشذور الذهب في خير النسب"، عرض فيه فروع الأدارسة عموما والعلميين خصوصا.[25]

محمد بن ريسون العلمي (ت1234هـ): "فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير". ألفه بأمر سيدي محمد بن عبد الله ودون فيه فروع الشرفاء العلميين مع تمييز الأجلاء من الدخلاء.[26]

محمد التهامي العلوي الشاكري (ت1210هـ): "أرجوزة في الفروع العلوية".[27]

سليمان الحوات (ت1231هـ): "قرة العيون في الشرفاء القاطنين بالعيون"، عن نسب الشرفاء الدباغيين القاطنين بحومة العيون بفاس القرويين.[28]

أبو القاسم الزياني (ت1249هـ): "تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب"[29] و"أرجوزة حول بعض فرق الجوطيين بفاس ومكناس".[30]

محمد بن عبد السلام البيجري المكناسي (ت1169هـ): "الإنصاف في القضاء بين النقيب وبين من انتسب إلى بيت النبوة من الأشراف".[31]

ومعلوم أن اعتماد الملوك العلويين على هؤلاء العلماء في ضبط أنساب الأشراف كان قد جاء في ظروف خاصة كان ولابد فيها من التمييز بين الشرفاء صرحاء النسب والمتشرفة الذين ادعوا النسب الشريف.

وهذه مسألة كانت بدايتها في عهد المرينيين، وتفاقمت مع بداية ضعف السعديين بعد وفاة أحمد المنصور سنة 1012هـ وانشغال أولاده بالحروب على الملك وإهمالهم أمر الأشراف والنقباء، بل أمر الرعية كلها. فكثرت الرسوم المزورة والشجرات المستعملة والظهائر المفتعلة وفسدت الأنساب وتساوت الأحساب وفسدت طريق النقابة، ... وصار النقيب يجبي المال ويقبض الهدايا ويلحق بأهل البيت من لا نسب له فيهم ولا اتصال له بهم.[32]

علما أن الشرفاء ومنذ عهد الدولة المرينية على الأقل كانوا يتمتعون في المغرب على العموم بتقدير كبير جدا ويتمتعون جميعا غنيهم فقيرهم بحظوة،[33] عمل السعديون على المحافظة عليها. وسار على نهجهم فيها الملوك العلويون الذين كلفوا الشرفاء بدفع زكواتهم وأعشارهم بيد أشياخهم وأسقطوا عنهم ما سواها من الوظائف كالهدية والمؤونة والسخرة والعمالة فلا يعطون إلا ما حرمه الله عليهم.[34]

وباختصار كان الشرفاء معفون من كل الوظائف الجبائية بما في ذلك واجبات الأسواق، وهي مزية كانوا يحرصون عليها كثيرا.[35] بل أكثر من ذلك كان الملوك العلويون ينعمون على الشرفاء بصلات تستحق الذكر. نذكر منها على سبيل المثال الصلة الرشيدية للشرفاء المنالين كما وردت في الوثيقة الأولى: "وقد أنعمنا عليهم بأربعمائة رأس من الغنم وعشرة من البقر وعشرة من الإبل".

وكان الشرفاء المرموقون أكثر من بين جميع شرفاء فاس في عصر الدولة العلوية على العموم هم الشرفاء الأدارسة[36] الذيـن أنعم عليهـم سيـدي محمد بن عبد الله بصلة.[37] تقول الوثيقة الثانية في حق مَحمد المنالي الزبادي و"أدخلناه وأبناء عمه مع الشرفاء الأدارسة المشاهير القاطنين بفاس ... فهم عندنا من جملتهم يقبضون من صلتنا معهم". وكان أمر هذا السلطان واضحا لما أمر الفقهاء والأشراف والقضاة أن لا يقبض صلته إلا الشرفاء صرحاء النسب.[38]

ولكن كيف للسلطة أن تميز بين الشرفاء صرحاء النسب وأهل الدعاوي المتشرفة الذين تطلعوا إلى الإستفادة من امتيازات الشرفاء؟

جرت العادة في المغرب ومنذ عهد أحمد المنصور أن بعض المشكلات الطـارئة – كمسألة النسب الشريف مثلا – لا يفصل فيها السلطان تلقائيا، بل يرجع فيها تبرئة لذمته إلى العلماء والفقهاء فيستفتيهم فيها ويأخذ رأيهم[39]، وسار الملوك العلويون على نهجه فاهتم بجدية بهذا الموضوع الملوك الأوائل إلى عهد المولى سليمان الذين أصدروا أوامرهم لأعيان الشرفاء والعلماء والقضاة بتمييز الأشراف من أهل الدعاوي بكل قرية وكل قبيلة وكل مدينة.[40] فكان لهم ما أرادوا، وقام العلماء بدورهم في هذه المسألة.

وهكذا احتفظ لنا العصر العلوي – زيادة عما سبق من مؤلفات العلماء والأئمة في الموضوع – بشذرات من "الديوان الإسماعيلي" الذي يميز الأشراف من غيرهم، وهو ديوان رسمي.[41]

وقد عمل السلطان سيدي محمد بن عبد الله على تجديد هذا الديوان الإسماعيلي على يد جماعة من العلماء وقضاة جبل العلم وأعيان القبائل[42] وصلت إلينا منه "دفاتر إحصاء الأشراف العلوييننبتافيلالت"[43] و"دفتر يضم مجموعة من الأشراف"[44] وسار المولى سليمان على نهج والده.

وأعتقد أن لنا في هذه الوثائق الثلاثة صدى لكل هذه المسألة المتعلقة بنسب الشرفاء سواء من حيث اعتناء الملوك العلويين بها أو من حيث دور العلماء في إثبات النسب الصريح للشرفاء.

المحور الثاني

ويشمل وثيقة واحدة، وهي ظهير تعيين السيد عبد المجيد بن علي المنالي الحسني الزبادي إماما بمسجد جامع الأبارين بفاس.أصدره السلطان المولى عبد المالك بن إسماعيل (شعبان 1140هـ ذي الحجة 1140هـ). وهو مؤرخ يوم 22 ذي القعدة عام 1140هـ.

وتورد الوثيقة في حد ذاتها المبررات التي دفعت السلطان المولى عبد المالك إلى تنصيب السيد عبد

المجيد في هذا المنصب الديني، لكونه: "الشريف الصالح العلامة الإمام ... لعلمه ونزاهته وضبطه وأمانته سيما وهو من آل بيت النبوءة الشريفة".

ولم يفت الوثيقة أن تذكر صراحة بالمحبة القائمة التي تجمع الأسرة العلوية الحاكمة بالأسرة المنالية الزبادية عند ذكر إسم الإمام: "مولاي عبد المجيد بن محبنا الأجل مولاي علي المنالي الحسني المدعو الزبادي".

كما حددت هذه الوثيقة اختصاصات هذا الإمام: "أننا نفذنا له الإمامة بمسجد جامع الأبارين من محروسة فاس ... تنفيذ تاما والواقف عليه يعمل به ولا محيد له عن مذهبه ولابد".

وإذا سألنا عن هذا الإمام فإنه كان من علماء القرويين الأعلام. قال عنه وعن أسرته صاحب نشر المثاني:[45] كلهم خيرون مرضيون أهل مسكنة وديانة ومروءة وعفة وصيانة وصاحب الترجمة أفضلهم وأكملهم لوفور علمه وبراعة نظمه وكمال دينه وحسبه وحلمه ... كان محبا لأهل العلم والدين". رحل بدوره إلى الشرق بهدف الحج والعلم على عادة أهل زمانه عام 1158هـ فحج وزار ولقي العلماء والأخيار وأخذ عنهم (الشيخ محمد كشك المصري، الشيخ محمد الحفناوي، الشيخ محمود الكردي، الشيخ البرناوي، الشيخ السمان).[46]

شارك في علوم كثيرة ومهر في علم اللغة وكان إماما فيه حافظا شوارده ودقائقه. وله الباع الطويل في علم الطب تمادى على ممارسته ومطالعته لكتبه. فكان يعالج المرضى ويباشرهم ويظهر على يده الشفاء. (من جملة مرضاه الذين شفوا على يده نذكر القادري صاحب نشر المثاني) وله أيضا براعة في نظم الشعر ومدح العلماء وآل البيت والصالحين. له تقاييد عديدة في التاريخ والتصوف واللغة وعلم العروض لا يعرف عنها الكثير. له مؤلفات أشهرها "بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام" ألفها في سفره إلى الحج وضمنها مسائل نفيسة وعلوما جليلة. توفي في سنة 1163هـ/1750م.[47]

وحدث تعيينه نراه حدثا غنيا عن كل تعليق لأن الإمامة في المساجد وخاصة في مسجد جامع يأمه العلماء والطلبة. لم تكن تناط إلا بكبار العلماء. بل أكثر من ذلك عادة ما يكون الإمام المنتدب للصلاة من أبرز مشايخ القراء وأفصحهم لسانا وأحسنهم أداء لتلاوة القرآن وترتيله.

إذا أخذنا بعين الإعتبار المكانة العلمية للأسرة المنالية كما وصفها المولى سليمان[48] ومحمد بن الطيب القادري[49] ومحمد بن جعفر الكتاني،[50] بما في ذلك مكانة والدة هذا الإمام السيدة عائشة بنت الحاج علي بونافع، حفيدة سيدي عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي من بنته السيدة آمنة، التي كانت مواظبة على طلب العلم وحضور مجالس العلماء طيلة اليوم بما في ذلك دروس

ولدها مَحمد عند الفجر ودروس ولدها عبد المجيد بين العشائين.[51] إذا أخذنا كل ذلك بعين الإعتبار نفهم ذلك الجو الأسروي العلمي الذي شب فيه عبد المجيد وأخوه مَحمد السالف الذكر في الوثيقة الثانية. ذلك الجو الذي يعكس زهو عصرهما بالعلم والعلماء ويفسر انكبابهما على العلم وطلبه والعطاء فيه، رغم أن الفترة كانت كلها قلاقل سياسية 1139-1171هـ.

وما كانت رحلة كل منهما إلى الشرق، عبد المجيد في سنة 1158هـ ومَحمد في سنة 1166هـ - في عصر كانت الرحلات لا تخلو من المخاوف والصعاب والمغامرة والأهوال المتنوعة - إلا انعكاسا لوضعية أسرتهما المادية وطموحهما المعنوي وعزيمتهما العلمية، لأنه ما كان لهما أن يقوما بالرحلة لولا توفر كل هذه الأسباب وتضافرها.

أما عن مكانتهما العلمية بين أقرانهما فالراجح حسب ما تجمع لديهما من العلم وما خلفاه من التآليف في العلوم الدينية والفنون الأدبية أنهما كانا يميلان إلى تيار المدرسة الوسطى المعتدلة في الثقافة المغربية في ذلك العهد. إذ اعتنيا بالتفسير والحديث والفقه والتصوف دون إهمال الأدب واللغة والملحون والتاريخ والتراجم والسير.

أما إذا سألنا عن مسجد جامع الأبارين من محروسة فاس فنجده أقرب مسجد جامع إلى جامع القرويين لا يبعد عنه إلا ببضع خطوات، غير بعيد من مدرسة العطارين في اتجاه رحبة القيس وهو يعرف كذلك باسم مسجد جامع زنقة حجامة.[52] كان أنذاك بجمعه بين أربع مهمات مسجدا جامعا متميزا: فهو مسجد للصلوات الخمس، وجامع لإقامة صلاة الجمعة، ومأوى للطلبة الآفاقيين، وكان به كرسيان علميان رسميان لتدريس التفسير والحديث وغيرها من العلوم والفنون تعاقب عليهما أعيان العلماء عبر التاريخ نذكر منهم على سبيل المثال:

- في التفسير أبا القاسم بن محمد الغماري القشتالي النالي (ت721هـ)[53] وأبا عبد الله محمد بن أحمد بن الكماد القسنطيني (ت1116هـ).[54]
- وفي الحديث لا ننسى الرحالة السفير المؤرخ أبا العباس أحمد بن محمد بن القاضي المكناسي (ت1025)[55] والعلامة محمد بن أحمد ميارة الفاسي (ت1072هـ).[56]

وبتقديمنا لهذه الوثيقة الرابعة ووقوفنا على سيرة الإمام عبد المجيد المنالي الزبادي وعلى مكانة هذا المسجد الجامع الذي حافظ على سمعته العلمية كمؤسسة تابعة لجامعة القرويين منذ مطلع عصر الدولة المرينية على الأقل، نكون قد وقفنا على نموذج من اهتمام سلاطين الدولة العلوية بجامعة القرويين مع كافة فروعها وكبير عنايتهم بشؤون إدارتها وتسيير أجهزتها من جهة، وعلى جميل

رعاية هؤلاء الملوك للشؤون الدينية للرعية عامة وحسن سهرهم عليها من جهة ثانية، وذلك بتعيين علماء القرويين في أجل المناصب الدينية وأكثرها حساسية في المجتمع المغربي المسلم.

كما نكون قد وقفنا كذلك على مورد من موارد عيش علماء القرويين المحاضرين الذين كانوا غالبا ما يقومون - إلى جانب التدريس بعدة مهام تشرفهم معنويا وتزود دخلهم ماديا (إمامة، قضاء، فتوى، نظارة، شهادة، نسخ الكتب ...)، ولعل تولي الإمامة والخطابة من أشرف هذه المهام إن لم تكن أشرفها، لأنها كانت كلما أنيطت بعالم إلا وفتحت له باب الإمتزاج اليومي بالناس وبحياة المدينة، وعملت على تزايد احترامه من طرف كافة الفئات الإجتماعية دون استثناء، وفسحت له باب المساهمة في تأطير الرعية دينيا بطريقة جد مباشرة.

الوثيقة رقم 1.

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

عن أمر عبد الله المتوكل على الله الناصر لدين الله القائم بحق الله .... أمير المؤمنين ابن الشريف السجلماسي الحسني أيده الله آمين.

الطابع وبداخله (يظهر)

على الطرة: العلي الإمامي الهاشمي السلطاني الشريف

وسطه: الرشيد بن الشريف بن علي أمير المؤمنين أيده الله ونصره

كتابنا هذا أسماه الله تعالى وأعز أمره وأطلع في سماء المعالي شمسه المنيرة وبدره آمين. يستقر هذا الظهير الكريم بيد إخواننا الشرفاء الأجلاء السيد أبو يعقوب يوسف المنالي والسيد أبي محمد الشرقي الشريف أولاد الإمام الفقيه النبيه محبنا حقا وصدقا وصديق والدنا قدس الله روحه في الجنة آمين السيد أبي عمران مولاي موسى بن أحمد الشريف الحسني من أولاد السيد عيسى بن إدريس الشريف الحسني نفعنا الله به الذي ضريحه بآيت عتاب يتعرف منه بحول الله ..... أننا جدد نالهم ..... والظاهر الملوك المقدسة الذي بيننا ومن حام حولهم بوجه ولا مجال فلا يلمن إلا نفسه والواقف عليه من خدامنا ووصفائنا وقوادنا وولاة أمرنا يعمل به ولا يتعداه وقد أنعمنا عليهم بأربعمائة رأس من الغنم وعشرة من البقر وعشرة من الإبل مراعاة لوجه الله العظيم ونبيه الكريم وكتب والسلام في ثامن عشر جمادى الأخرى عام ثمانية وسبعين وألف٪

الوثيقة رقم 2

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الطابع وبداخله:

في الدائرة: ومن تكن برسول الله نصرته

إن تلقه الأسد في آجامها تجم.

في الوسط: محمد بن عبد الله بن إسماعيل

الله وليه ومولاه

يستقر هذا الكتاب الشريف بيد ما سكه الفقيه الشريف سيدي محمد بن مولاي علي المنالي الحسني الشهير بالزبادي ويتعرف منه بحول الله وقوته وشامل يمنه وبركاته أنا أدخلناه وأبناء عمه مع الشرفاء الأدارسة المشاهير القاطنين بفاس الذين يقبضون مال الإراثة وأعشار السلع الواردة من تلمسان والجزائر وأعشار الحجاج فهم عندنا من جملتهم يقبضون من صلتنا معهم وهم من ذرية سيدي عيسى بن مولانا إدريس نفع الله به كان أسلافهم قد نص عليهم سيدي إسماعيل والأئمة والملوك قبل رحمهم الله ونأمر كافة خدامنا وولاة أمرنا أن يحملهم مع أولادهم على كامل المبرة والإكرام والرعي الجميل المستدام والسلام في خامس عشر جمدى الأولى من عام 1201/

الوثيقة رقم3.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

الطابع وبداخله:

سليمان بن محمد بن عبد الله

توكلت على الله

قد جددنا لحامله الشريف الفقيه عبد السلام بن علي المنالي الحسني عرف بالزبادي وأبناء عمه ما بأيديهم من ظهائرنا الكريمة أسماها الله بمنه المتضمنة يقبضون من صلتنا مع الشرفاء الأدارسة أهل الإراثة بفاس فهم من نسل سيدي عيسى بن إدريس نفع الله ببركاتهما وقد نص عليهم جماعة من أهل العلم كبردلة وابن الحاج والمسناويين والفاسيين كما في ظهير سيدنا الوالد المرحوم بكرم الله تعالى وقد جددنا لهم العهد الذي كانوا عليه تجديدا تاما فهم بيت شرف وعلم وعمل والواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا يعمل به والسلام منتصف شوال عام 1233٪

الوثيقة رقم 4.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

الطابع: (ضاع)

ويظهر أنه انتزع من مكانه

كتابنا هذا أسماه الله تعالى وأعز أمره وأطلع في سماء المعالي شمسه المنيرة بيد حامله الشريف الصالح العلامة مولاي عبد المجيد بن محبنا الأجل مولاي علي المنالي الحسني المدعو الزبادي أننا قد نفدنا له الإمامة بمسجد جامع الأبارين من محروسة فاس لعلمه وذرايته وضبطه وأمانته سيما وهو من آل بيت النبوءة الشريفة تنفيدا تاما والواقف عليه يعمل به ولا محيد له عن مذهبه ولابد والسلام وكتب في الثاني والعشرين من ذي القعدة سنة أربعين ومائة وألف٪

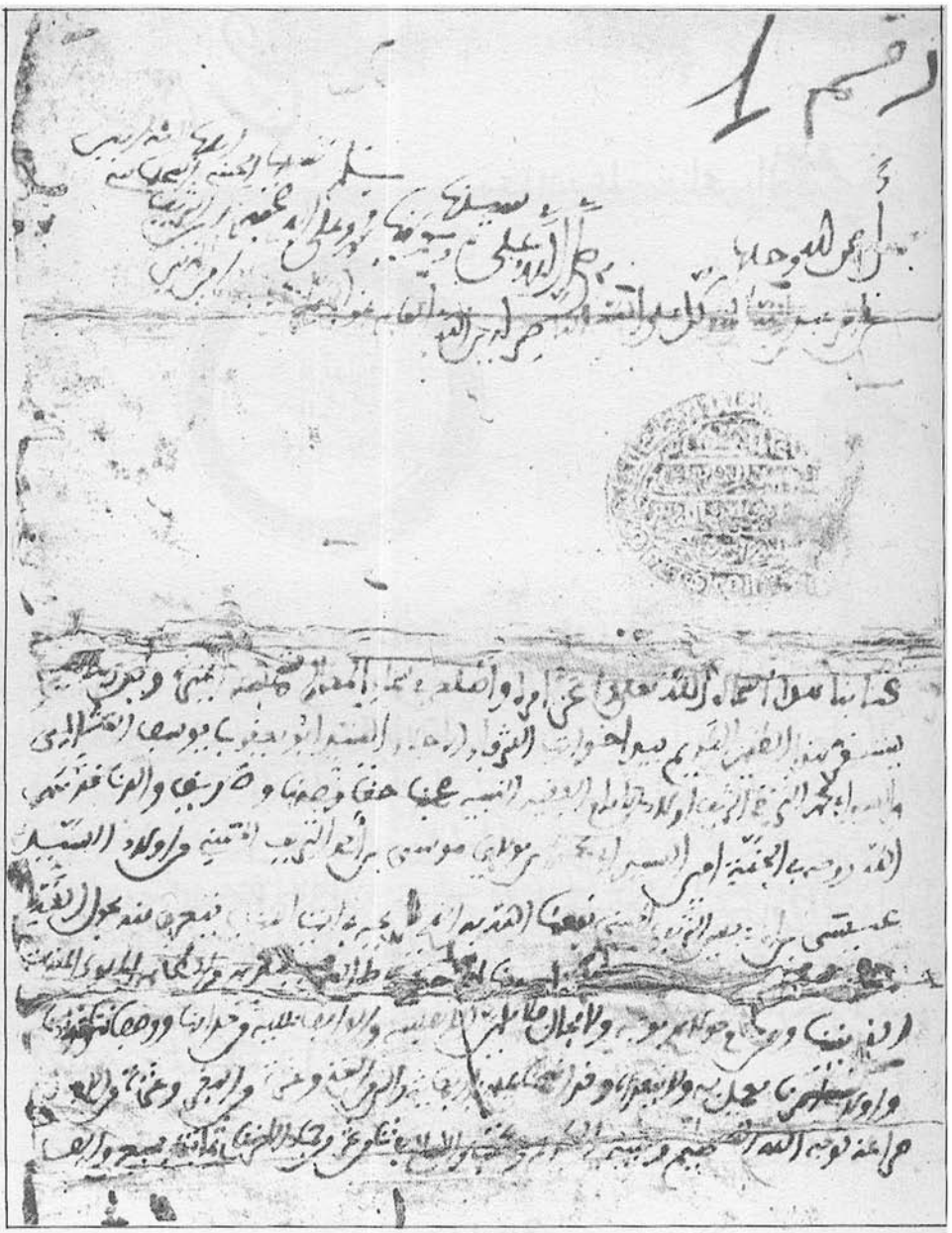

مخطوطة

مخطوطة2

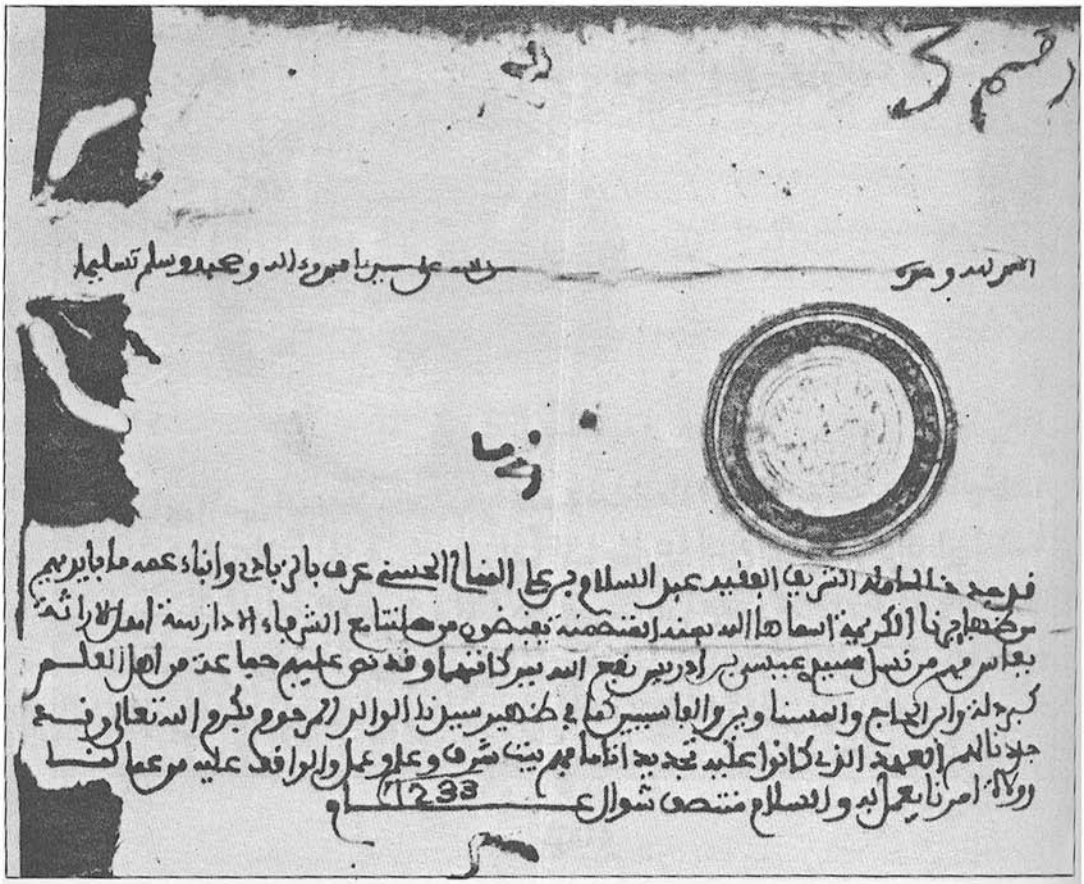

مخطوطة 3

مخطوطة 4

الهوامـــــش

1- عـثرت علـى هـذه الوثائـق ضمـن مـخلفـات جـدي رحمه الله سيدي عبد العزيز بن الخضر المنالي الزبادي، ت 1969م.

2- ابن زيدان، عبد الرحمن، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ط.2، الرباط، 1990، ج.3، ص.239.

3- شجرة نسب الأسرة المنالية الزبادية الواردة في صداق سيدي عبد العزيز المنالي الزبادي المتوفى سنة 1969م. وهو صداق يعود في تاريخه إلى سنة 1321هـ/1903م .والصداق بحوزتي مع مجموعة أخرى من الوثائق المتعلقة بهذه الأسرة.

الكتاني، محمد بن جعفر، سلوة الأنفاس فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، ط.ح.، فاس، 1916، ج2، ص.187.

4- بنشريفة، محمد، ملامح من شخصية محمد الأول. دعوة الحق، العدد 258، غشت 1986، ص.21.

5- القادري، محمد بن الطيب، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الرباط،1986، ج3، ص.247.

الكتاني، سلوة الأنفاس، مرجع سابق، ج3، ص. 138.

6- المرجع السابق، ج1، ص.153.

التازي، عبد الهادي، جامع القرويين، بيروت، 1972، ج.3، ص.796.

7- القادري، نشر المثاني، مرجع سابق، ج.3، ص.83.

8- ابن زيدان، عبد الرحمن، العز والصولة في معالم نظم الدولة، الرباط،1962،ج2، ص.10

9- الكتاني، سلوة الأنفاس، مرجع سابق، ج1، ص.153- 154.

10- القادري، نشر المثاني، مرجع سابق، ج3، ص.265-273.

الكتاني، سلوة الأنفاس، مرجع سابق، ج3، ص.44-46.

11- المنوني، محمد، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج1، ص.182، رقم 478.

12- القادري، نشر المثاني، مرجع سابق، ج.3، ص312- 314.

المنوني، مرجع سابق، ج1، ص 182، رقم481.

13- المرجع السابق، ج1، ص.229، رقم 618.

14- المرجع السابق، ج1، ص.201، رقم 531.

15- المرجع السابق، ج2، ص.37، رقم 729.

16- المرجع السابق، ج1، ص.178، رقم 465.

17- المرجع السابق، ج1، ص.182، رقم 472.

18- القادري، نشر المثاني، مرجع سابق، ج.3، ص 86-115.

19- مطبعة حجرية فاسية، 1308هـ.

20- المنوني، مرجع سابق، ج1، ص180، رقم 473.

21- المرجع السابق، ج1، ص.181، رقم 475، مطبعة حجرية.

22- المرجع السابق، ج1، رقم 474.

23- المرجع السابق، ص.178، رقم 466.

24- المرجع السابق، ص.181، رقم476.

25- المرجع السابق، رقم 477.

26- المرجع السابق، ج2، ص.38، رقم 733.

27- المرجع السابق، ص.36، رقم 728.

28- المرجع السابق، ص.37، رقم 730.

29- المرجع السابق، ص.38، رقم 734.

30- المرجع السابق، رقم 735.

31- المرجع السابق، ج1، ص.182، رقم 482.

32- الزياني، البستان الظريف، مرجع سابق، ص. 227-230.

33- لوتورنو، روجي، فاس قبل الحماية، ترجمة إلى العربية محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت 1986، ج2، ص.700.

34- الزياني، البستان الظريف، مرجع سابق، ص. 229

35- لوتورنو، مرجع سابق، ج2، ص.702.

36- المرجع السابق.

37- الزياني، البستان الظريف، مرجع سابق، ص. 229

38- المرجع السابق.

39- العمراني، عبد الله، مولاي إسماعيل بن الشريف، تطوان، 1978، ص.133.

40- الزياني، البستان الظريف، مرجع سابق، ص. 227-230.

41- المنوني، مرجع سابق، ج1، ص178، رقم 464.

42- الزياني، البستان الظريف، مرجع سابق، ص. 227-230.

43- المنوني، مرجع سابق، ج1، ص235، رقم 648.

44- المرجع السابق، رقم651.

45- القادري، نشر المثاني، مرجع سابق، ج.4، ص78

46- الكتاني، سلوة الأنفاس، مرجع سابق، ج2، ص.185.

47- القادري، نشر المثاني، مرجع سابق، ج4، ص. 78.

الكتاني، سلوة الأنفاس، مرجع سابق، ج2، ص.185.

48- الوثيقة الثالثة.

49- القادري، نشر المثاني، مرجع سابق، ج4، ص. 78.

50- الكتاني، سلوة الأنفاس، مرجع سابق، ج2، ص.184-189.

51- المرجع السابق، ص. 187-188.

52- التازي، القرويين، ج2، ص.484.

53- المرجع السابق، ص.388، و ص.484.

54- المرجع السابق، ص. 388 ج 3، و ص.796.

الكتاني، سلوة الأنفاس، مرجع سابق، ج2، ص30.

55- التازي، القرويين، مرجع سابق، ج2، ص.388و ص 517.

56- المرجع السابق، ج2، ص.388.

المنوني، مرجع سابق، ج1، ص148، رقم 345.

العالم والسلطة في المغرب خلال القرن 19

عبد اللطيف حسني
كلية علوم التربية الرباط

يطرح موضوع العالم والسلطة إشكال العلاقة بين الدين والسياسة، بين المقدس، والدنيوي، فالعالم من حيث هو وريث الرسول (العلماء ورثة الأنبياء)، قد حمله النص الأساسي في الإسلام (أي القرآن)، وكذا السنة، مهمة ترشيد الحياة الدنيوية للمسلمين، وفق التعاليم التي أوحى بها الله لرسوله، أما للسلطة، فتخرج عن إطار المقدس، فهي من عمل الإنسان، تجسد ذلك واضحا في سقيفة بني ساعدة، حيث اجتمع الأنصار والمهاجرون، في أعقاب وفاة الرسول، ليأمروا عليهم، من يسير شؤونهم السياسية، ويدبر أمورهم الدنيوية إن ما جرى في هذا الإجتماع، لغني الدلالة، فقد عنى ذلك في أحد وجوهه، نهاية الجمع بين السلطتين الدينية، والدنيوية. فتوقف الوحي بوفاة الرسول، وعدم نص الرسول على من يخلفه، اعتبرت دليلا قاطعا على أن أمر السلطة، أمر دنيوي، فنحن إذن أمام حقلين يبدوان ظاهريا متباينين، حقل العلماء، الأوصياء على الشريعة، وحقل السلطة، والسيادة. ذات الطابع الدنيوي، بيد أن هذا الطابع المتغاير لكلا الحقلين، وبنتيجة الصراعات الإجتماعية التي عرفتها المجتمعات الإسلامية، سينتفي، إذ سرعان ما سيختفي التباين، لمصلحة التلاقح، والتداخل، بين حقلي ا لمعرفة والسلطة، وهو ما سنتعرف عليه من خلال بحث موضوع "العالم والسلطة" انطلاقا من حالة المغرب، وعلى ضوء حقبة محددة في الزمان الممتد من سنة 1800 إلى سنة 1900 إلا أنه قبل التقدم أكثر في مقاربة موضوعنا هذا، ينبغي أن نحدد بدءا بعض المفاهيم التي تعتبر بمثابة مفاتيح، يتوقف عليها فهم العلاقة التي قامت بين العالم والسلطة خلال الحقبة المذكورة.

فعن أي عالم نتحدث؟

وما هي السلطة التي نقصد؟

- في تحديد مفهوم العالم:

يعتبر العلم من صفات الله تعالى: "العليم ، والعالم ، والعلام" "وهو الخلاق العليم" و "عالم الغيب والشهادة" ، فالعلم، صفة إلاهية، إلا أن إضفاء هذه الصفة عن الله، لا يعني أن العلم في مستوياته الدنيا، لا يعد من صفات البشر، إذ يجوز في لسان العرب، أن يقال للإنسان الذي علمه الله علما من العلوم، عليم كما قال يوسف للملك: "إني حفيظ عليم"، وقول القرآن إنما يخشى الله من عباده العلماء".

والعلم في المستوى الإنساني، يعني، نقيض الجهل، علم علما وعلم هو نفسه، ورجل عالم وعليم من قوم علماء فيهما جميعا..... قال ابن جني: "لما كان العلم، قد يكون الوصف، به بعد المزاولة له، وطول الملابسة. صار كأنه غريزة ولم يكن على أول دخوله فيه، ولو كان كذلك لكان متعلما لا عالما، فلما خرج بالغريزة التي باب فعل صار عالم في المعنى كعليم.... وعلام، وعلامة، إذا بالغت في وصفه بالعلم. أي عالم جدا، والهاء للمبالغة، كأنهم يريدون داهية من قوم علامين، وعلمت الشيء أعلمه علما، عرفته، قال ابن بري: وتقول علم وفقه، أي ساد العلماء والفقهاء[1] فالعلم إذن، سيادة، سلطة ضد الجهل. وتكريس لتفوق نخبةمن الحاملين للمعرفة عن باقي مكونات المجتمع. "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون."[2]، لقد تنبه "عمر بن الخطاب" بذكائه البعيد الغور، لهذه المكانة للهيئة العالمة في الإسلام، إذ قال قولته الشهيرة: "تفقهوا قبل أن تسودوا"[3]

يبدو من خلال هذا الإستقراء اللغوي، أن مثل هذا المحدد يبقى قاصرا، رغم مساهمته في توضيح هذا المفهوم، إذ إلى جانب ذلك ينبغي علينا الإلتجاء إلى المحدد الإجتماعي. وفي هذا الإطار يبدو العلم، كقيمة اجتماعية: يضفيها المجتمع على نخبة من أعضائه، الذين يتعين أن يكونوا مشاركين، أي أن يكونوا على إلمام ودراية، بمختلف العلوم السائدة في عصرهم، من هنا فإن مفهوم العالم يختلف باختلاف الحقب الحضارية وباختلاف التصور السائد حول العلم،غير أن التابث في هذا الصدد، هو صفة المشاركة، فالمشارك في التقليد المغربي، هو وحده الذي يستحق لقب عالم. لنأخذ كمثال لحديثنا، نموذج تراجم الشخصيات الواردة في كتاب "المعسول" للمختار السوسي بأجزاءه العشرين. والتي عاشت خلال القرن 19، فمن بين 111 شخصية يترجم لها المؤلف، لا يحضى بلقب عالم في ترجمة المختار السوسي له إلا 3 أشخاص[4]، ومن التصفح في كتب التراجم، يتبين أن هذا اللقب، غالبا ما يطلق على الملمين بالعلوم الشرعية، أي العلوم النقليةالمسماة أيضاوضعية، أي تستند إلى خبر واضعها الشرعي دون أن يكون للعقل دخل فيها ما عدا إلحاق

الفروع بالأصول، وقد جعل ابن خلدون كل العلوم العربية نقلية باستثناء العلوم الفلسفية التي دعاها طبيعية لأن الإنسان يهتدي إليها بفكره[5] ومن مشمولات هذه العلوم، علم التفسير والقراءات:أصول الدين، أصول الفقه، الفرائض، التوقيت، التصوف ، اللغة، النحو البلاغة، وأخيرا، التاريخ.

- في تحديد مفهوم السلطة:

السلطة كما أسلفنا، تبتعد عن مجال المقدس، تنشأ دنيوية، تنشأ من حاجة الجماعة البشرية، لمن يكف العدوان الذي قد يقترفه البعض ضد البعض ضمن نفس الجماعة والسلطة. أو بتعبير الحقوقين. السيادة، لا تصبح ذات مفعول، إلا إذا أعلنت الجماعة التي هي في حاجة إليها عن رضاها، أي عن مشروعيتها، والسلطة من أجل أن تكتسب هذه المشروعية، لا بد لها من أساس شرعي، تستند إليه، قد يكون هذا الأساس، كاريزمية الممسك بزمام السلطة، وقد يكون هذا الأساس، واقعي، يستند إلى الخدمات التي تقدمها السلطة لفائدة الجماعة، وقد تكون الشرعية، شرعية دينية[6] كما هو الحال في المغرب على العهد العلوي، فالمغرب الذي ظل طوال تاريخه الكبير، تتقاذفه العصبيات القبلية،[7] نجده يحسم مع ظهور الدولة العلوية، مسألة السلطة، لصالح الشرعية الدينية، على حساب الأساس القبلي، فبعيدا عن النزاعات القبلية، يستدعى البيت العلوي، البيت المنتمي إلى سلالة الرسول، ليتولى زمام قيادة السلطة. ولما كانت الشرعية هنا شرعية دينية، فقد كان طبيعيا، أن يتداخل حقل العلماء، الحراس على الشريعة، مع حقل السلطة التي تحكم، وتمارس السلطة باسم مشروعية دينية، الأمر الذي يبرر في نظرنا المكانة التي حضي بها العلماء على هذا العهد، إن عالما من نمط فريد، كالحسن اليوسي، المعاصر للسلطان مولاي إسماعيل، كان قد رسم إلى حد ما، معالم الأدوار التي سيضطلع بها علماء المغرب في وقت لاحق، إنه رفض التحالف مع السلطة ضد المجتمع في نفس الوقت الذي رفض فيه التحالف مع المجتمع ضد السلطة، فظل بذلك في موقع يمكنه من التأثير على الجميع،[8] إنه نموذج مثال، من الصعب أن يتكرر، ولكن سيصبوا الكثيرون نحو الحذو حذوه.

بعد هذا التحديد لكل من مفهومي العالم والسلطة، علينا أن نلقي بعض الأضواء، حول القنوات التي أهلت علماء المغرب خلال الحقبة المدروسة، للمشاركة في ممارسة السلطة، إن تاريخ المغرب، يكشف عن تقليدين رئيسيين، تمكنا من خلالهما علماء المغرب من الإسهام في الحياة العامة أو السياسية للشعب المغربي تقليد الفتوى، وتقليد البيعة.

- تقليد الفتوى:

كتب ابن خلدون بخصوص مهام الإفتاء يقول: "وأما الفتيا فللخليفة تصفح أهل العلم والتدريس، ورد الفتيا التي من هو أهل لها، وإعانته على ذلك، ومنع من ليس أهلا لذلك وزجره، لأنها من مصالح المسلمين في أديانهم...."(9)، إذا كان كلام ابن خلدون هذا، يحمل على الإعتقاد، أن اختصاص الإفتاء هو في عداد الخطط الرسمية للدولة. فإن واقع الفتوى انطلاقا من التجربة التاريخية المغربية، يظهر أن المغرب لم يعرف إفتاء رسميا، ولا خطة حكومية له، فالدولة نفسها، تستفتي العلماء. وكثيرا ما يعارضون أغراضها ولا يوافقون عليها، وقد كان ذلك عاملا وراء المقام الذي حظي به العلماء عند المغاربة. وجعل منهم بمثابة الزعماء السياسيين ومن ثم كان لمهمة الإفتاء شأن خطير في حياة الفرد والجماعة.(10)

- تقليد البيعة:

يعتبر هذا التقليد، عنصرا أساسيا في مشروعية الحكم، فالحاكم لا يصبح حاكما إلا إذا تمت له البيعة بشكليها الصغرى ، والكبرى، فالبيعة الصغرى، تتم من طرف أهل الحل والعقد، الذين يندرج في عدادهم العلماء، وأما البيعة الكبرى، فتتم من قبل عامة الجمهور، وقد ساهم علماء المغرب، في ترسيخ هذا التقليد، لا سيما علماء فاس، الذين ظلوا يلعبون أدوارا أساسية، على مستوى البيعة الصغرى، فكيف إذن استغل هذان التقليدان من قبل علماء المغرب خلال القرن19. في التأثير على السلطة، وعلى المجتمع؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل تجعلنا في صلب موضوع العالم والسلطة، وهو الموضوع الذي سنتناوله من خلال استعراض نماذج ملموسة لواقع علاقات العلماء بالسلطة. خلال الحقبة المعينة. وذلك عبر المحورين التاليين:

1- العالم والسلطة: علاقات حرص على المشروعية 2- العالم والسلطة: علاقات رهبةورغبة:

- العالم والسلطة: علاقات حرص على المشروعية، تتجلى هذه العلاقة بشكل واضح، في بيعة السلطان إبراهيم بن يزيد سنة 1820، كما تتجسد في سلسلة فتاوى العلماء المغاربة خلال هذه الحقبة، عن أسئلة سلاطين المغرب.

فبخصوص بيعة المولى إبراهيم بن يزيد وهي البيعة التي جاءت في أعقاب الإشاعة القوية التي راجت في فاس، بشأن تنازل السلطان المولى سليمان عن الحكم، إذ كان المغرب يعاني خلال

هذه الحقبة من أزمة سياسية حادة، نتيجة الثورات والإنتفاضات التي عمت البلاد[11] وهو ما صوره المؤرخ الناصري مستندا في ذلك إلى أكنسوس،أذ كتب يقول على لسان السلطان مولاي سليمان:

"... قد رأيتم ما جرت به الأقدار من فساد قلوب الرعية، وتمادي القبائل على الغي والفساد ومن يوم رجعنا من وقعة زيان. ونحن نعالج أمر الناس، فلم يزدادوا إلا فسادا، وقد جرى على الملوك المتقدمين أكثر من هذا، فلم ينقصهم ذلك عند رعيتهم، بل قاموا معهم، وأعانوهم على أهل الفساد حتى أصلحوهم، وإني قد عجزت بشهادة الله، لأني ما وجدت معينا على الحق، وكم مرة تحدثني نفسي أن أترك هذا الأمر وأتجرد لعبادة ربي حتى أموت..."[12].

فهذا الخطاب المستقى عن أكنسوس، والمثبت من قبل الناصري يعكس تماما الحالة التي آلت إليها سلطة السلطان، وإذ انعكس هذا الخطاب بشكل إيجابي على المخاطبين به (أي أهل مراكش) فإن تكرار نفس الخطاب بفاس، كانت له نتائج بالغة السلبية كادت أن تعصف بسلطة السلطان. إذ تسارع أهل فاس إلى قبول الإستقالة، وخطوا خطوات بعيدة في البحث عن سلطان لملإ كرسي السلطنة الشاغر، وهو ما صوره الناصري قائلا:

"... وصدقوا (يعني أهل فاس) أن السلطان قد خلع نفسه، واجتمع رؤساء أهل فاس (...) وتفاوضوا في أمر البيعة فوقع اختيارهم على المولى إبراهيم بن يزيد، وكان ذا سمت وانقباض، وكان صهر السلطان على إبنته..."[13].

هذه البيعة، نجدها ممهورة بتوقيع أجلة علماء فاس، فطبقا لنصها الوارد لدى محمد داود في كتابه "تاريخ تطوان" نجدها تنص على الفقهاء التالية أسماؤهم:

".... فمن فقهاء فاس الطيبة الأنفاس، الفقيه العلامة سيدي محمد ابن إبراهيم، والفقيه العلامة سيدي عبد السلام الأزمي الشريف، والفقيه الشريف سيدي أبو بكر المنجرة، وصاحب هذا الإنشاء العبد الفقير محمد بن أبي بكر اليازغي الزهني، والفقيه الشريف سيدي عبد الملك المري، والفقيه الشريف سيدي أبو بكر الإدريسي، والفقيه الشريف سيدي بدر الدين، والسيد العربي الزرهوني، والفقيه سيدي المجدوب الفاسي، والفقيه سيدي محمد ابن سليمان، والفقيه السيد عبد السلام المسناوي، والفقيه القاضي سيدي محمد بن عبد الرحمن الدلائي....."[14].

لم يتعد العلماء، في موقفهم هذا، إطار الدفاع عن الشرعية الإسلامية، ففي فقه السياسة الإسلامي، لا بد للمجتمع المسلم من سلطة، وهي ضرورة بمقتضى العقل والنقل، كما أنه لا بد

لهذه السلطة من مواصفات معينة، ولدى أهل السنة. فإن شرط القرشية، (أي الإنتماء إلى بيت الرسول)، يعتبر شرطا أساسيا فيمن يتولى إدارة شؤون المسلمين، لذلك، يبدو أن علماء فاس، رغم مؤاخذة أبي القاسم الزياني لهم، لم يترددوا في مبايعة سلطان جديد للمغرب، روعي في انتقاء مجموعةمن المواصفات، لعل أكثرها إثارة مواصفة القرشية، فهم هنا، يظهرون بمثابة الحراس المنافحين عن الشرع الإسلامي، لذلك يبدو "الناصري" مسايرا لهم في مواقفهم هذه، إذ كتب بشأن هذا الحدث يقول: "... واعلم أن ما صدرمن أهل فاس، ومن واقفهم على هذه البيعة، لا لوم عليهم فيه، وما كان من حق السلطان رحمه الله أن يبعث إليهم بذلك الكتاب الذي أوقعهم في حيص بيص، وكان سببا لهذه الفتن."(15)

من جهة أخرى، يبدو، هذا الدور الذي اضطلع به علماء المغرب- أي دور السهر على حراسة الشرع الإسلامي، دور اقرتهم السلطة عليه، وزكته، يبدو ذلك جليا في سيل الأسئلة التي كانت توجه من قبل سلاطين هذه الحقبة، إلى العلماء مستفتين إياهم، بخصوص القضايا الشائكة التي كانت تعرض للمغرب.

فمباشرة بعد حرب تطوان سنة1860، إلتجأ السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن، لاستفتاء العلماء، حول صلح تطوان، الذي يرتب على المغرب غرامة قدرها 20 مليون من الريال، لايوجد منها إلا الربع، إذ طلب منهم الإجابة عن إمكانية جواز فرض متبقى المبلغ المصالحعليه على الرعية، قد تصدى للإجابة عن ذلك الكثير من العلماء، من جملتهم الفقيه عمر بن سودة، والمهدي بن سودة والفقيه محمد الدويري، وإذا كانت أغلبية المستفتين، قد أجابوا بضرورة فرض متبقى الغرامة على الرعية، ملحين على ضرورة العدل في جباية الأموال،(16) فإننا لا نعدم استثناء لذلك، فمن بين المستفتين، نجد إمام الضريح الإدريسي مولاي أحمد العراقيبجيب بشكل مغاير، ففي نظره أن الصلح لا يجوز فبالأحرى، فرض الغرامة على المسلمين. وهو في هذا الصدد يقول: " الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيئين وعلى آله وصحبه أجمعين، الصلح بالمال الكثير الذي ليس ببيت المال إلا ربعه، مع كون العدو طالبا للصلح غير مطلوب لا يجوز وينقض لما فيه من توهين الإسلام وإذهاب قوته بنزع ما بأيدي الرعية من المال، وتفرقهم عن الإمام بنقل المغرم، فإن العدو إذا علم ضعفنا وإفلاسنا من المال الذي لا قوام للجند إلا به، واشتدت قوته بما يأخذه منا، إنتهز فرصته فينا، ونقض الصلح بأدنى شيء..."(17).

تتعدد الأمثلة عن الإستفتاءات التي لجأ فيها سلاطين الدولة العلوية خلال هذه الحقبة للعلماء، نكتفي بمثال آخر من أواخر القرن 19، وبالضبط في سنة1883، أي على عهد السلطان الحسن

الأول الذي تصاعدت في أخريات أيامه مطالب الدول الأوروبية بالإمتيازات في المغرب، والتي من جملتها تحرير التجارة الخارجية للمغرب، فالتجأ السلطان إلى العلماء مستفتيهم في هذه القضية، التي اجمع بصددها كل من العلماء التالية أسماءهم على رفض تحرير التجارة الخارجية للمغرب، وهم: حميد بن محمد بناني، وجعفر الكتاني - مولاي عبد الملك الضرير - أحمد بن محمد بن الحاج - عبد الله بن إدريس الودغيري - عبد الهادي بن أحمد الصقلي - عبد السلام بن المهدي بن سودة - الطيب بن كيران - الماحي بن ابراهيم الصقلي التهامي بن المدني جنون - عبد الملك بن الكبير العلمي - أحمد بن محمد ابن الخياط الزجار - محمد بن الحفيد بن محمد الشامي - محمد بن رشيد العراقي الحسني - المكي بن أحمد الحسني الوزاني، ومما جاء في نص فتواهم بهذا الصدد، نقتطف مايلي:

"الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. بعد ما ورد الظهير الشريف، المكتوب بحوله على الباشا الأسعد السيد عبد الله بن أحمد، في شأن ما طلبه بعض نواب الأجناس بطنجة، من تسريح ما طلبوه من اوسق، إلى آخر ما تضمنته حسبما حوله، مشيرا أيده الله وسدده أهل الإشارة من رعيته، واطلعنا عليه وفهمنا مضمنه، وأجبنا بمثل ما أجاب به أهل الصلاح والخير والدين، المشار إليهم بالظهير الشريف من أنه لا خير في تسريح ما ذكر لهم بوجه ولا حال، لا ظاهرا ولا باطنا، لما يترتب على ذلك من المفاسد التي لا تحصى....." (18)

إن العالم هنا، يضطلع بدور عملية ترشيد سياسة السلطة، فهو من موقع معرفته بالشرع الإسلامي، من المفروض، أن يبث في تصرفات السلطة العملية، التي يزنها بميزان الشرع للتحقق من مدى تطابقها معه، وإجمالا، فقد شكل تقليد البيعة الذي كان يسهم فيه العلماء من ضمن مجموع أهل الحل والعقد، وتقليد الفتوى، في خلق حوار، بين السلطة والعالم كممثل للرأي العام، ويبدو أن العالم في ممارسته لهذين التقليدين، لم يكن يحد من حقه في إبداء الرأي، إلا مقتضيات الشرع الإسلامي.

العالم/ السلطة. علاقة رهبة ورغبة:

في مستوى آخر، من مستويات مقاربتنا لهذا الموضوع، يمكن أن نرصد خلال الحقبة المذكورة، نماذج لعلماء ظلت علاقتهم بالسلطة، علاقة تعطش جامح ورغبة طاغية في الإلتحام بالسلطة، يتجاذبها حذر ورهبة من ركوب مخاطر هذا الإلتحام، إن الزياني وأكنسوس، والناصري يقدمون نماذج حية لهذه العلاقة.

كتب الزياني "بشأن ارتباطه بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله يقول:

"... ولما استرحنا من السفر عدت للقراءات كما كنت، ولما سألنا عمن كنا نألفه من الطلبة في القراءة والأنس، وجدنا أكثرهم تعلق بخدمة السلطان سيدي محمد لما بويع. كالفقيه الأديب السيد أحمد بن ناصر الغياثي والفقيه الأديب السيد أحمد الغزال..... هؤلاء كانوا أقراننا ومعاصرين لنا، ومشاركين معنا في القراءة والأنس. وكان رفيق من طلبة سوس إسمه سعيد الجزولي، ويعرف بالشليح، كان يقرأ معنا وكان له ولوع بشراء كتب التاريخ ومطالعتها،وكنت أسهر معه على سردها، وألفته فلم أشعر إلا وهو عند السلطان سيدي محمد، فلما بلغني خبره وما صار إليه حاله شرهت نفسي للحاق بهم، وتعلقت همتي بخدمة السلطان فلما بلغ ذلك والدي رحمه الله، نهاني عنها وشرح لي حالها ومآلها. وقال:يابني اتق الله واشتغل بما يعنيك، ولا تقدم على ما يضنيك، فمالي سواك. ولاأستريح حتى *أراك. وبك أتعلل وأزيل وحشتي ويحصل أنسي. فساعدني إلى أن تجعلني في* رمسي. فقلت إن رفاقي ومن كنت آنس بهم ذهبوا وحصلوا على ما طلبوا، وبلغوا الغاية في العز والجاه، وعلى من أقيم وأترجاه؟ وأية معصية في هذا المجال؟ ولا بد أن أقتضي بمن قال:

لباب الملوك فكن لازما ولا تخش ممن بغى أو حسد
فإن الذئاب تهاب إذا تمرغ يوما بباب الأسد

فقال لي رحمه الله: ما لي أسعى في نعيمك وتسعى في بؤسي، وأحطب في حبلك وتقصد عكسي. وأنشدني قول أبي علي اليوسي:

لا تقربن مالكا ولا تلوذ به ولو تنل عنده عزا وتمكينا
يستخدمونك في لذات أنفسهم فيذهب العمر لا دنيا ولا دينا

وقال أجبني عن هذا فسكتت،

ثم قال وقد تكلمت يوما مع سيدي عبد الكريم السرغيني في هذا المعنى فأنشدني:

إن الملوك بلاء حيثما حلوا فلا يكن لك في أكنافهم ظل
تحلو لديهم إذا عللت ما علو فإن نهيت رجعت عندهم كل
فاستعن بالله على أبوابهم تعلو إن الوقوف على أبوابهم ذل

ثم قال وقد ظهر لي أنك كالفحل الصائل والمراد بقول القائل:

وإذا بدت للنمل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطبه
وإن حاطت أتى ما ليس له تيقن بأن يحرقه حطبه

ثم قال وأين أنت عن قول من قال:

تباعد عن السلطان لا تغش بابه فتسلب دنيا أو تصيبك واجـــده

فليـس ينـــام من ألم ببابـــه وإن هو أغناه وسد مفاقـــده

وماهـو إلا النـار تحرق من دنا إليها فلا تقربه واخش بوادره

أو ما سمعت قصيدة بن الوردي المسماة نصيحة الكتاب التي منها:

جانب السلطـان واحـذر بطشـه لا تعانـد مـن إذا قـال فعـــل

واستمر على هذا المنوال إلى التمام، ثم أقبل علي بأنواع النهي والتحذير، ودقائق الوعظ في الأول والأخير، فلم ينفع عزمي نهيه، ولا ردني إنذاره وهديه، وسعيت في ذلك من أصح طرقه، وتقلبت في منصب الكتابة من غربه لشرقه، ولقيت من زعازع أرياحه ورعده وبرقه، إلى أن بلغت كورة الرأس ومضيق العنق، ووقفت على دائرة الأفق، في السفر والمقام مدة عشرة أعوام، ثم حصلت في النكبة، ووقفت على باب الندبة، وأقمت بين الهلكة والتلف عام إثنين وثمانين ومائة وألف، وهي النكبة الثانية، ولما خلصت من النكبة وكتب لي أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله بعد الطلاق رسم الرجعة، وقلد في ديوان كتابته وأقبل علي بكليته، وخلف لي ما ضاع، وصرت بالمماليك والأتباع، وبلغت أعلى المراتب، وتقلبت في المناصب....(19)

هذا النص الذي استقيناه عن الزياني، يظهر بشكل جلي، عشقا وهياما بالسلطة، إلا أنه يخفي في نفس الوقت، حذرا، ومخاوف، ورهبة، من جموح السلطة، التي تملك قوة القهر، والبطش، وإن نكبات الزياني المتعددة لتبرر في نظرنا هذا المزيج من الرهبة والرغبة الذي طبع علاقة العالم بالسلطة، مرة أخرى، يمكن أن نلاحظ نفس الطابع الذي اتسمت به علاقة السلطة بالعالم، من التأمل في السيرة الذاتية لكل من المؤرخين، أكنسوس، والناصري، كتب " محمد غريط" في "فواصل الجمان" مترجما لحياة أكنسوس يقول: "..... استكتبه السلطان مولانا سليمان قدسه الله، واغتبط منه بقريحة هامعة، وفطنة جامعة، على أن هذا السلطان كان لشدة إقدامه وسعيه لمرامه بأقدامه، وسهولة حجابه، واستبداده بسلبه و إيجابه، لم تكد تظهر لوزير معه سياسة ولا استقلال برياسة، حتى إنه كان يقيض المبيضات ببنانه، ويطرزها ببديع افتنانه، فتكتب بمحضره على وفق نظره، ومن أتى بأيسر تغيير، شدد عليه النكير.... ولما ولي الخلافة من جدد رسمها وجود وسمها، وأحيا زهرتها بعد أن كانت داوية، وعمر بيوت أموالها بعد أن ألفيت خاوية أول الدولة االثانية..... مولانا عبد الرحمن بن هشام، ولى الوزير المذكور كتابة إنشائه، وأولاه نعمة عفوه وإغضائه عن سوابق حادت عن سبيل إرضائه، وقلما سلم وزير ملك من تغير خلفه إن سلم من تلفه، فقام صاحب الترجمة به

طوقه، على تخوف لم يسوغ له استئامة وظنون لم تدع له استقامة، إلى أن حدث له ما حرك حفائظ اتهامه بالميل والتشيع إلى من له تشوف للملك وتطلع، واتفق أن السلطان وجده لذلك المتشوف محادثا فصدق من كان في عقد إذايته لذلك نافثا، فاعتقل وامتحن وتجوهل قدره وامتهن ..... ثم سرح وما كاد بعد مقاساة الهموم والأنكاد، وأخبرني من له مزيد اطلاع على حقيقة أمره، أن السلطان كان يعتقد ما نقل فيه زورا وتدليسا.... حتى رماه لبعض أولائك الشرفاء جليسا بفناء دارهم بزقاق الحجر، فعلم أن الساعي فيه ما كذب ولا فجر وكان هؤلاء الأشراف في بقية من ثروة، وتمسك من الطمع في ميل الرعيةبعروة ودلة، ومن بعهد جاد به أبوهم عن تخير وجهد لمن رماه بأعبائه مضطلعا، وعلى أسراره مطلعا اقتداء بالصديق وسليمان بن عبد الملك ابن مروان في استخلاف العمرين عليهم الرحمة والرضوان، واجتمع للسلطان بهذاالإتفاق من التأثر والإتفاق ما لم يجتمع، وليس من رمى كمن سمع، ولاذنب أعظم عند الملوك من التعرض لأعراضهم والخروج عن أغراضهم، فتحمس الواشي وقويت الحجة، واتسعت في التضريب محجته، وإذا فقد المرء سعوده أعان فعله حسوده فأطرحه السلطان ونبذه، وأنفذ به ما أنفذه، ثم أشخص إلى مراكشة على أسوإ حال في إبان أوحال. فمكث بالحرم الغزواني محترما، والمعزلة ملتزما، إلى أن زار السلطان ذلك الحرم فخضع بين يديه واستمنح مما لديه، فقال له ما زلت حيا، فقال نعم ولطريق الخوف والسكينة منتحيا فقال لك الأمان فتوجه حيثما تشاء لا تخاف دركا ولا تخشى وبقي حليف أذكار وسمير أسفار وأشعار مع احترام الملوك وولاتهم واتصال جوائزهم وصلاتهم إلى أن صار ضجيج أحجار في عام أربعة وتسعين ومائتين وألف.....(20).

إن قراءة هذه السيرة الذاتية لأكنسوس، تكشف بشكل جلي، الطابع الحذر للسلطة في تعاملها مع الهيئة العالمة فالعلاقة هنا بين العالم والسلطة، علاقات رهبة ممزوجة برغبة. يتعزز هذا الإستنتاج لدينا من التأمل في سيرة ذاتية لعالم آخر عاش في أخريات القرن 19.إنه مؤرخ المغرب العصري "أحمد بن خالد الناصري"، الذي بدأ حياته مدرسا، ليترقى بعد ذلك في العديد من المناصب المخزنية. كتوليه لخطة الشهادة بمدينة سلا سنة1863، وتعيينه بخطة العدالة والصائر على الأحباس الكبرى بنفس المدينة وذلك في سنة1868. ثم انتقاله بعد ذلك للخدمة بمرسى الدارالبيضاء سنة1875، وبينيقة الصائر بمراكش سنة1877. ليلحق بعد ذلك للعمل بمرسى الجديدة. وذلك في حدود سنة 1879، ليعتمد كمستشار للسلطان الحسن الأول. ولينتهي به المطاف إلى العمل من جديد بمرسى الدار البيضاء(21).

بيد أن الناصري رغم حضوته هذه، فإنه فضل في النهاية اعتزال الوظائف المخزنية، والتفرغ لنشر المعرفة، والاعتكاف على التأليف، إن هذا الموقف الذي اتخذه الناصري لنجد تأويله في بعض المراسلات غير المنشورة له، إذ مما جاء في إحدى هذه المراسلات المؤرخة في 10 شوال 1302 هـ الموافق لِ 1882، بخصوص الموقف من السلطة، ما يلي ".....وقد بلغني كتابك الأعز، وما اشتمل عليه من أمر اللقى بأمير المؤمنين أيده الله، فالحمد لله على القبول والسور. وأعلم سيدي أنك اليوم في حالة يجب الحمد عليها كثيرا، خلاف ما لو كنت مستعملا لهم في خطة، فأنت اليوم والحمد لله متفرغ لما يهمك في الدين والدنيا أدام الله علينا وعليكم نعمته آمين، وأثار ذلك في ظني هو الذي أوجب لك ماواجهوك به من البرور زادك الله رفعة وقبولا....."(22).

إن الناصري يبدو هنا رغم تعلقه بالسلطة، في موقع رهبة وحذر من قوتها القاهرة، وهو ما انتبه إليه "عبد الله العروي" الذي كتب بهذا الشأن قائلا:

"ويحق لنا أن نقول أن المؤرخ الرسمي بالمعنى الضيق مؤرخ البلاط، لم يوجد إلا نادرا بين المؤلفين في التاريخ العربي، مع أنهم كانوا يسعون من وراء تآليفهم إلى استمالة الولاة والإنتفاع من كرمهم، لكن عدم تحمسهم وبرودة أسلوبهم واعتدال أحكامهم، كانت تمنعهم من الوصول إلى هدفهم، والكتب العديدة التي ترمز إلى النجوم والزهور والبساتين والحدائق، والحلل والياقيت والطرب والقنص لم تستهو ألا القليل من الأمراء، وآخر من ذاق مرارة السخط مؤرخ المغرب العصري أحمد الناصري صاحب كتاب الإأستقصاء. وذلك بسبب ما أورده عن علاقات السلطان عبد الرحمن والأمير عبد القادر الجزائري. مع أنه كان يريد بكتابه التقرب من السلطان الحسن الأول"(23)

نستطيع أن نستخلص إذن من مقاربتنا الموضوع "العالم والسلطة" أن العلاقة التي ربطت بينهما علاقةتتماهى عند حدين، حد الحرص والدفاع عن المشروعية، وهو دور إضطلع به العلماء المغاربة خلال الحقبة المدروسة، من خلال تقليدي البيعة والإفتاء. وهما التقليدين الذين كانا يحدان من الطابع الفرداني للسلطة، ويسمحان بنوع من الحوار بين السلطة والهيئة العالمة، يختلف توقيته بحسب الظروف وحجم المشاكل المطروحة، وهذين التقليدينسيتم استغلالهما إلى أبعد حد قبيل وأثناء الحماية الفرنسية على المغرب (خلع السلطان مولاي عبد العزيز، وبيعة السلطان مولاي عبد الحفيظ) أما الحد الثاني الذي تتماهى عنده العلاقة بين العالم والسلطة فهو الحد الذي حاولنا استجلاءه من

خلال قراءة السيرة الذاتية لكل من "الزياني" "أكنسوس" "الناصري" إن العلاقة هنا تتجاوز إطار الحرص على المشروعية إلى إطار الإمتزاج بالسلطة غير أن هذا الطموح، هذه الرغبة في ممارسة السلطة من قبل العالم، ووجهت بالسلطة القاهرة مما ولد لدى العلماء عزوفا ورهبة من ركوب هذه الدمغامرة غير الآمنة، يبقى أن نتساءل في نهاية هذه المداخلة ألا يمكن اعتبار هذه النمطية التي استجليناها لعلاقة العالم بالسلطة، نمطية تصلح لفهم علاقة المثقف بالسلطة، في وقتنا الحاضر؟

الهوامـــــش

1- ابن منظور لسان العرب المجلد 12 ص:416 - 417 - 418 دار صادر بيروت سنة 1956

2- سورة الزمر آية 9

3- صحيح البخاري المجلد 1 ص:47 بيروت بدون تاريخ

4- المختار السوسي المعسول 20 جزء طبعة الرباط

5- ابن خلدون المقدمة ص: 779 بيروت1982

6- جوليان فروند علم الإجتماع عند ماكس ڤيبر. ترجمة تيسير شيخ الأرض ص215 - 216 - 217 - دمشق سنة 1976

7- ابن خلدون المقدمة ص230 - 231

8-Jacque berque Vlémas fondateurs insurgés du Maghreb XVII Siècle P.P 242 - 243 Paris 1982

9- ابن خلدون المقدمة ص:22

10- عبد الله كنون ذكريات مشاهير رجال المغرب (أبو عمران الفاسي) سلسلة رقم 34 ص 16 لبنان بدون تاريـــــخ.

11- الناصري الإستقصاء ج. 8 ص148 - 149

12- الناصري نفس المرجع

13- الناصري نفس المرجع ص149 - 150

14- أبو القاسم الزياني. تحفة النبهاء في التفرقة بين الفقهاء والسفهاء مخطوط الخزانة العامة الرباط ضمن مجموع كـ241

15- الناصري المرجع السابق ص158

16- محمد داود تاريخ تطوان مجلد 5 ص: 108 وما بعدها

17- محمد داود نفس المرجع من ص: 102 إلى 106

18- أحمد بن محمد بن حمدون ابن الحاج الدرالجوهرية في مدح الخلافة الحسنية مخطوط الخزانة الحسنية مجلد 2 رقـــــم: 512

19- أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفلالي

20- محمد غريط فواصل الجمان ص: 8- 9-10-11- 12- الطبعة الأولى فاس سنة 1347هـ

21- عبد اللطيف حسني الإسلام والعلاقات الدولية. نموذج أحمد بن خالد الناصري ص: إفريقيا (الشرق
الدار البيضاء سنة 1991.
22- عبد اللطيف حسني رسائل أحمد بن خالد الناصري رسائل غير منشورة، تحت
الطبع الدار البيضاء سنة 1994
23- عبد الله العروي، العرب والفكر التاريخي ص:3 9 دار الحقيقة بيروت 1973.

تاريخ المغرب من خلال الرحلات في عصر الدولة العلوية

أحمد حدادي
كلية الآداب. وجدة

لما كانت كتب التاريخ العام لا تفي بغرض نقل جميع الأحوال الاجتماعية والسياسية والثقافية والفكرية لبلد من البلدان، فإنه ينبغي أن نتخذ سبلا أخرى، ونبحث عن طرائق مختلفة لأجل استكمال هذه المادة؛ وذلك بالإستعانة بالروافد المتنوعة كمذكرات العلماء والفقهاء، وملاحظات الخاصة والعامة في الترحال والإقامة، وكذا ما نجده واردا بطريق غير مباشر في القصص والمقالات والقصائد والمنظومات ودواوين الشعراء والنوازل الفقهية والفتاوي العلمية، وأجوبة العلماء وأسئلتهم في مختلف الفنون والعلوم، وكذا التراجم والسير والوفيات وسير الأعلام وطبقاتهم ومذاهبهم والفهارس والأثبات مما له صلة مباشرة بالتاريخ الخاص بالبشر أو المدن والأقاليم مما يفضي بنا إلى التاريخ العام ... إلى غير ذلك مما له صلة وثيقة بالنشاط الإنساني والبشري.

ويتحصل لدينا من خلال هذا أن التاريخ المسمى بالعام ما هو إلا جزء يسير إذا قورن بهذه الروافد والتيارات التي تمثل النشاط الإنساني في مختلف الميادين والاتجاهات. فما أكثر الإشارات إلى حوادث الكسوف والخسوف والجراد والزلازل والمذنبات والأمراض كالطاعون والوباء الجارف والمجاعات والجفاف والحروب والقرصنة والسلب والنهب والفتن والمحن والحركات وظهور حيوان معين أو وحش غريب، إلى غير ذلك من المظاهر والمعاملات كالعلاقات التجارية والصناعية والثقافية ووجوه الفن والحضارة والزراعة وغير ذلك كالعادات والتقاليد في المأكل والمشرب والملبس. ولا شك في أن هذه الإشارات غالبا ما ترد في كتب بعيدة عن كتب التاريخ، ولكنها ذات أثر في الأحداث الكبرى التي نعتبرها في مجرى التاريخ العام ...

هذا هو الدافع إلى اختيار هذا الموضوع الذي اقترحت له عنوان: تاريخ المغرب من خلال الرحلات في عصر الدولة العلوية.

فكتب التاريخ في الزمن الحديث والمعاصر كتب محدودة وتتخذ لنفسها مناهج وطرائق لا تخول

لها استكناه جميع الوجوه التي نطلع من خلالها على كثير من الأمور الظاهرة والدقيقة. وكذا الإشكالات المتضاربة، وذلك في المجتمعات الإسلامية فيما بينها وبين الدول التي كانت تتعامل معها في أوروبا وإفريقيا وآسيا.

وقد اخترت الرحلة بخاصة لأنها هي الميدان الذي يشارك به العالم في صناعة التاريخ بفكره وعقله ويديه، لأنه يلاحظ ببصره ويحلل بفكره وعقله. ويؤول ويشرح ويعلق ويستنتج وينظر حسب ما أوتي من الثقافة والعلم. وصناعة التاريخ ليست بالأمر الهين.

وما أكثر الرحلات المغربية القديمة والحديثة التي لا يمكن أن يستغني عنها المؤرخون والاجتماعيون وعلماء النفس ورجال الاقتصاد والمال وأهل الأدب والنقد والمهتمون بالجغرافيا وعلوم الأرض والنبات والحيوان بل أن فيها ما يشبع نهم أولئك الرومانطقيين في مجال الخرافات والأساطير. ومن هذه الرحلات على سبيل المثال لا الحصر: رحلة ناصر خسرو[1] ورحلة الشريف الإدريسي[2] ورحلة أبي بكر بن العربي المعافري الإشبيلي[3] ورحلة أسامة بن منقذ[4] ورحلة التجاني[5] ورحلة العبدري[6] ورحلة ابن رشيد السبتي[7] ورحلة القاسم التجيبي السبتي[8] ورحلة ابن بطوطة[9] ورحلة خالد بن عيسى البلوي[10] ورحلة الحسن بن محمد الوزان الفاسي[11] ورحلة محمد السنوسي.[12]

1- سفرنامة رحلة ناصر خسرو القبادياني المروزي. ترجمة وتقديم: الدكتور أحمد خالد البدلي. الرياض 1403هـ 1983م.

2- نزهة المشتاق في افتراق الدقاق. عالم الكتب ط1.1409-1989.

3- قانون التأويل. دراسة وتحقيق محمد السليماني. دار العرب الإسلامي. ط2.1990.

4- كتاب الإعتبار. تحقيق وتقديم الدكتور قاسم السامراني. ط1.1407.1987.

5- تقديم حسن حسني عبد الوهاب. الدار العربية للكتاب. ليبيا- تونس 1981.

6- الرحلة المغربية تقديم وتحقيق ذ. محمد الفاسي،1968.

7- ملء العيبة. بما جمع طول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة.

8- مستفاد الرحلة والاغتراب. تحقيق عبد الحفيظ منصور الدار العربية للكتاب1975.

9- طبع دار التراث بيروت19681388.

10- تاج المفرق في تحلية علماء المشرق تقديم وتحقيق ذ. الحسن السايح طبع اللجنة المشتركة.

11- وصف إفريقيا ترجمة؛ محمد حجي، وذ. محمد الأخضر. الرباط1400.1980.

12- الرحلة الحجازية. تحقيق علي الشنوفي، تونس1396-1976.

ورحلة عبد الغني النابلسي[13] ورحلة طافور[14] ... إلى غير ذلك من عيون الرحلات في الشرق والغرب مما يتضمن أخبارا حسانا ومعلومات قيمة عن المجتمعات والطبيعة وغيرها من وجوه النشاط البشري والإنساني وحياة البر والبحر والحيوان والطيور والنبات والجبال والوديان إلى غير ذلك من أحوال الثقافة والعلم والعقل والنفس وأحوال الحرب والسلم والمال والاقتصاد والعادات والتقاليد، وذلك حسب اهتمام كل رحالة وميوله، وإذا جمعنا ميول هذا إلى اهتمام ذلك، ونظرة هؤلاء إلى نوازع أولئك تحصل لدينا ذلك التاريخ الذي كنا نأمله، وهو علم التاريخ المتكامل الذي لا يغفل شيئا من الأشياء هذا إذا عرفنا أن كثيرا من المسائل التي يسميها الناس جزئية أو عرضية أو تافهة أو هامشية أو غير ذات بال ... قد تكون هي السبب الحقيقي لتلك المعضلات التي حيرت العلماء والباحثين والمختصين قديما وحديثا.

فالتاريخ - كما يراه السخاوي - تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصحة وعقل وبدن ورحلة وحج وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة من ظهور ملمة وتجديد فرض وخليفة ووزير وعزوة وملحمة وحرب وفتح بلد وانتزاعة من متغلب عليه وانتقال دولة، وربما يتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء وغير ذلك من أمور الأمم الماضية وأحوال القيامة ومقدماتها مما سيأتي أو دونها كبناء جامع أو مدرسة أو قنطرة أو رصيف أو نحوها مما يعم الانتفاع به مما هو شائع مشاهد أو خفي سماوي كجراد وكسوف وخسوف أو أرضي كزلزلة وحريق وسيل وطوفان وقحط وطاعون وموتان وغيرها من الآيات العظام والعجائب الجسام والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت بل عما كان في العالم. وأما موضوعه فالإنسان والزمان ومسائله أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان.[15]

ونلاحظ في هذا التعريف ورود الرحلة والحجج بخاصة. ولاشك في أن رحلات المغاربة كما سنبين بعد قد قامت بوصف معظم عناصر هذا التعريف إن لم نقل أجمعها.

13- الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز تقديم أحمد عبد المجيد هريدي. مصر 1986.

14- ترجمة وتقديم الدكتور حسن حبشي. مصر، 1968.

15-الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ... دار الكتاب العربي. بيروت لبنان 1399-1979.

وقد لاحظ ابن خلدون أن التحقيق في التاريخ قليل وطرق التنقيح في الغالب فيه كليل[16] ورأى المسعودي أن العلم قد بادت آثاره وطمس مناره وكثر فيه العناد وقل الفهماء، فلا تعاين إلا مموها جاهلا متعاطيا ناقصا قد قنع بالظنون وعمي عن اليقين.[17] وأما طاش كبرى زاده فيرى أن فائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز عن أمثال ما نقل عن المختار ويستجلب نظائرها من المنافع، وهذا العلم كما قيل: عمر آخر للناظرين والانتفاع في مصره بمنافع يحصل للمسافرين.[18]

أما في ما يخص الرحلة والأسفار فقد أوضح الأستاذ صديق القنوجي أن آداب السفر نوعان: ظاهر وباطن ولكل منهما آداب.

فأما الظاهر فهو أن ينوي به طلب العلم والعبادة أو يكون للهرب من مشوش في الدين ... الخ. وأما الباطن فهو أن لايسافر إلا لزيارة أمر ديني ويستفيد في كل بلدة من مشايخها أدبا أو كلمة ينتفع بها، لا ليحكى ذلك عنهم فقط، ويقيم بكل بلدة بقدر الحاجة لا أكثر من ذلك ولا يجالس فيها إلا العلماء أو الصلحاء الصادقين المتبعين للكتاب والسنة، ويلازم في الطريق الذكر وقراءة القرآن وشغل العلم والكتابة والعمل الصالح. وإذا تيسر خدمة قوم صالحين فبها ونعمت، وإن لم يحصل في السفر زيادة في الدين فليرجع إذ لو كان بحق لظهر أثره.[19]

وذكر الخطيب الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي قال: أخبرنا أبو الحسن محمد بن عبيد الله بن محمد الحناني، أنبأ علي بن محمد ابن الزبير الكوفي، ثنا الحسن بن علي بن عفان ثنا جعفر بن عون ثنا عيسى الحناط: أن الشعبي قال: لو أن رجلا سافر من أقصى الشام

16- مقدمة تاريخ ابن خلدون. ج.1. ص. 3 ط.1971.

17- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين، دار الفكر،1393-1973.

18- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم. دار الكتب العلمية بيروت لبنان، وانظر كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، ص.271.

19- أبجد العلوم، الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم.دار الكتب العلمية1978 ج 2/ص37

إلى أقصى اليمن فحفظ كلمة تنفعه فيما يستقبله من عمره رأيت أن سفره لا يضيع.[20]

وبناء على هذه الآراء والتعريفات فإننا نجد أن الرحلة في العصور العلوية الثلاثة:

(1075-1171هـ) (1664-1757م)

(1171-1238هـ) (1757-1823م)

(1239-1311هـ) (1524-1900م)

كانت تسير وفق هذه التعريفات والمضامين. وبهذا يمكن أن نستخلص منها تاريخ العالم العربي وبعض الأوروبي بعامة، وتاريخ المغرب وعلاقته بهذه الدول والبلدان بخاصة. بل أن ما تحتوي عليه من الدقائق والتفاصيل، والملاحظات المنقولة من عين المكان تفيدنا كثيرا في أخذ صورة صحيحة عن أحوال المجتمعات في هذه العصور.

---

20 - الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي تحقيق نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط19751ص. 96

	الرحالـــــــة	نوع الرحلـــة	مقصد الرحلة	تاريخ الرحلة	ت. الوفـــاة	عنوان الرحلـــة	الملاحظـــــــات
1	أحمد حلبي	من المشرق إلى المغرب	المغرب – فاس				كان شافعيا لا يشترك في المناقشات
2	أبو سالم العياشي	الحجـــــازية			1090هـ 1682	ماء الموائد تعداد المنازل	هي موسوعة في علم الشريعة والتصوف فيها منازل إلى الحج
3	محمد بن سليمان	مشرقيـــــة	القسطنطينية + دمشق				المناهج والبرامج التعليمية
4	الحاج محمد تميم	سفاريـــــة	فرنســـــا	1682 – 1093	1094		إبرام اتفاقيـــــة
5	أحمد محمد الهشتوني	حجازيـــــة		1684 – 1096		هداية الملك إلى بيت الله الحرام والوقوف بالمشاعر العظام	له رحلتـــــان
6	عبد الرحمان الفاسـي						
7	محمد عبد الله الشريف	حجازيـــــة			1040 – 1090 – 1631		

	الرحالـــــــــة	نوع الرحلة	مقصدالرحلة	تاريخ الرحلة	تاريخ الوفاة	عنوان الرحلة	ملاحظـــــــــات
8	محمد الوزير الغساني	سفارية حجازية	إسبانيا الأندلس	عهد شارل الثاني 1102 - 1119	1119 - 1707	افتكاك الأسير	الأسرى + الكتب (مكتبة الاسكوريال)
9	محمد الطيب الفاسي	سفارية	الجزائر		ولد 1064		الهدنة مع الأتراك إثر انهزام الجيش المغربي بالمشارع على نهر ملوية وشارك الوزير الغساني
10	أبـو علي اليوســي	صحراوية جغرافية	الصحراوية رسم الحدود		1102 - 1695		رسم الحدود
11	أحمـــد العـــاج	حجازية		1078 - 1667			
12	أبو عبد الله مجد التركي	سفارية	باريس	1111 - 1099			وجه المولى إسماعيل أحد قواده الكبار إلى فرنسا سفيرا(لويس 14)
13	محمـــد بـــن زاكـــور	علمية	الجزائر وتطوان		1120	أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان	البرامج والمناهج

	الرحالـــــــــــة	نوع الرحلة	مقصد الرحلة	تاريخ الرحلـــة	تاريخ الوفاة	عنوان الرحلة	ملاحظـــــــــات
14	محمد علي الرافعي الأندلسي التطواني	مشرقية			1040 في 1125	المعارج الراقية في الرحلة المشرقية	
15	محمد إبراهيم الزرهوني	زيارية	إلى سوس	1123 - 1720 1127 - 1723		رحلة الوافد في أخبار هجرة الوالد في هذه الأجيال بإذن الواحد	من أهم الرحلات
16	أحمد بن ناصر	حجازية جغرافية علمية		1096 - 1684 1109 - 1697 1121 - 1709	1129 - 1057 1717 - 1647		تشبه الرحلة العياشية/له ثلاث رحل الرحلة الأخيرة هي الشهيرة والمطبوعة
17	أحمد بن الخياط	حجازية					له: سلسلة الذهب المنقود في ذكر الأعلام على الأسلاف والجدود
18	أحمد القادري الفاسي	حجازية		1100 عاد إلى فاس	1133 - 1050	نسمات الآس في حجة سيدنا العباس	ترك رحلة سجل فيها مناقب رفيقه الصالح أبي العباس بن معن

	الرحالـــــــة	نوع الرحلة	مقصد الرحلة	تاريخ الرحلة	الميلاد و الوفاة	عنوان الرحلة	ملاحظـــــــات
19	محمد عبد الرحمان الفاسي	حجازية			1194 - 1058 1721 - 1648		فهرسة سماها: المنح البادية في الأسانيد العالية،استفاد منها الإفراني في النزهة والصفوة
20	أبو محمد عبد الواحد الحسن الصنهاجـــي	حجازية			1722 - 1135		
21	أحمد بن عبد الله السوسي البيوركي الاسفركيســـي						فيها فوائد على العهد الإسماعيلي طويلة مسهبة
22	أبو عبد الله أحمد الروداني الدرعي			بـــدأ في 1152 - 1739 فرغ منها 1156 1742	1743 - 1137		
23	أحمد أبي عشرة الفاسي العربي				1724 - 1137		جامعة مفيدة نقل منها صاحب نشر المثاني

	الرحالـــــــــة	نوع الرحلة	مقصد الرحلة	تاريخ الرحلة	الميلاد و الوفاة	عنوان الرحلة	ملاحظـــــــات
24	محمد الطيب الشركي الصميلي	له ثلاث رحلات		الثالثة 1139- 1726		فضائل الحرمين الشريفين	
25	محمد عبد السلام بناني	حجازيـــــة		1141 - 1728			فضائل الحرمين الشريفين
26	محمد عبد الرحمن الدلائي	حجازيـــــة		1141 - 1729			قصيدة في مناسك الحج
27	أحمد صالح الدراوي الدرعي الأكناوي	حجازيـــــة				الرحلة الشافية	
28	عبد الرحمن الجامعي					الدرر المديحية في محاسن الدولة العلوية أو نظم الدرر المديحية أو التاج المشرق الجامع لمواقيت المغرب والمشرق	نقل عند الأكناوي
29	أحمد محمد السوسي العياشي	حجازيـــــة			1149-1736		

	الرحالـــــــــة	نوع الرحلة	مقصد الرحلة	تاريخ الرحلة	الميلاد و الوفاة	عنوان الرحلة	ملاحظـــــــات
30	الوزير الاسحاقي	حجازيـــــة			1150		
31	محمد عبد القادر الجيلالي	حجازيـــــة					مع السيدة خناثة بنونة بنت بكار التي توفيت نسة 1155 أم الأمير إسماعيل
32	خناثة بنت بكار	حجازيـــــة			1746 - 1159		الهدايا وشوار العقارات وغير ذلك
33	عبيد المجيد المنالي الزيادي	حجازية - علمية			1750 - 1163	بلوغ المرام بالرحلة الى بيت الله الحرام	صحبة الصوفي أبي محمد عبد الوهاب التازي 1206
34	محمد بن الطيب الشرقي	مشرقيـــــة			1170 - 1110 1756 - 1698	الأفق المشرق بتراجم من لقيناه بالمشرق	
35	محمد المكي أبي ناصر	حجازيـــــة			1756 - 1170		
36	أحمد عبد العزيزالسجلماسي	حجازيـــــة		1151	1175 - 1113 1761 - 1701		خلاصة هذه الرحلة في نشر المثاني فيها وصف مصـــر الجزيرة العربية
37	أحمد عبد الله بالقاسم السوسي الجرسيفـــي						

	الرحالـــــــــة	نوع الرحلة	مقصد الرحلة	تاريخ الرحلة	الميلاد و الوفاة	عنوان الرحلة	ملاحظـــــــات
38	محمد الطاهر بن علي بن عبد السلام السلاوي	مشرقية - حجازية	الأستانة الحجاز	1179 - 1756			
39	ابن الطيب القادري			1187			
40	أحمد المهدي الغزال	سفاريـــــة	إسبانيـــــا	1179 (1766-1765)	1777- 1191	نتيجة الإجتهاد في المهادنة والجهاد إلى كارلوس 3	لأجل افتكاكالأسارى، له مع العلمي مساجلات شعرية
41	إبراهيم السوسي العيني	حجازيـــــة			1784 - 1199		وقف على المختار السوسي
42	أبو محمد عبد الوهاب التازي	حجازيـــــة			1206		صحبة الزيادي
43	أحمد حسن المتيوي	داخلية صحراوية		1786 - 1202 فرع منها 1203		بيان السبيل من حضرة فاس إلى أرض تافيلالت	بأمر من السلطان سيدي محمد بن عبد الله

	الرحالـــــــــة	نوع الرحلة	مقصد الرحلة	تاريخ الرحلة	الميلاد و الوفاة	عنوان الرحلة	ملاحظـــــــات
44	محمد التاودي بن سودة	مشرقية – حجازية		1777 - 1191	1795 - 1209		التقى بصاحب تاج العروس ولجماعة من الأولياء والصالحين والعلماء
45	العياشي الفاسي	سفاريـــــة	إسبانيـــــا		1211	دفتر الرحلة	عن سفارة القائد عبد المجيد الرحماني
46	محمد عثمان المكناسي	سفاريـــــة	الرحـــــلات		1212	الإكسير في افتكاك الأسير	
47	أحمد محمد الفاسي	حجازيـــــة					برامج الدراسة والنقد....
48	محمد عبد السلام الفاسي	داخليـــــة	ســـــوس	1211 (1797-1796)	1213 - 1166 1799 - 1753		
49	محمد أحمد أبو راس المعسكري	حجازية وله رحلات		1803 - 1218	1214 - 1130 1799 - 1718	رحلتي ونحلتي في تعداد رحلتي	الحجاز. مصر. الشام. المغرب

	الرحالـــــــــة	نوع الرحلة	مقصد الرحلة	تاريخ الرحلة	الميلاد و الوفاة	عنوان الرحلة	ملاحظـــــــات
50	حمدون بن الحاج	مشرقيـــــة			1232 - 1174 1817 - 1760		
51	محمد عبد السلام الضعيف الدباحي	داخليـــــة			1236 - 1165 1820 - 1752		تطوان. فاس. طنجة. وزان. شفشاون. وزيارة الصالحين
52	محمد عبد السلام بناصر	حجازية (له رحلتان)		1751 - 1196 1796 - 1211	1824 - 1239		اقتناء المخطوطات
53	ابن عمرو الرياطي	علميـــــة		1776 - 1211			إلى مراكش وسوس (السلوى)
54	أبو القاسم الزياني	عامة شتكول			1827 - 1243	الترجمانة الكبرى وله: رحلة الحداق لمشاهدة البلدان والآفاق	التاريخ والجغرافيا، مذكرات أخبار
55	عبد القادر الكوهن	حجازيـــــة			1249 - 1147 1833 - 1734		حـــــج وجـــــاود

	الرحالـــــــــة	نوع الرحلة	مقصد الرحلة	تاريخ الرحلة	الميلاد و الوفاة	عنوان الرحلة	ملاحظـــــــات
56	أعشعاش عبد القادربن محمد	سفاريـــــة	فرنســـــا	1845 - 1261			وصف باريس البرورتوكول الزخاريف العلاقات
57	محمد عبد الله الصفار	سفاريـــــة	فرنســـــا				ذهب في معية أعشعاش
58	أحمد علي محمد دينية الرياحي	حجازيـــــة		1850 - 1267			
59	أحمد العربي حسون الوزاني			1852 - 1269		الرحلة الوزانية الممزوجة بالمسالك المالكية	
60	أبو عيسى المهدي الطالب الوزاني	حجازيـــــة		1269			
61	محمد الطاهر الفاسي	سفاريـــــة	إنجلتـــــرا		1285 - 1246 1868 - 1830		الحضارة الأوربية بأمر من سيدي محمد بن عبد الرحمان
62	أبو العلاء إدريس عبد الهادي العلوي الشاكري الحسني	داخليـــــة	من فاس – الرباط	1871 - 1288			
63	أبو حامد العربي الشرقي	حجازية بمكرشت الجزائر		1873			الرحلة العريضة في أداء الفريضة
64	محمد بن االكعاب الأودي	سفاريـــــة		1875 - 1292			في البعثة العلمية إلى فرنسا مع السلطان مولاي الحسن

	الرحالـــــــــة	نوع الرحلة	مقصد الرحلة	تاريخ الرحلة	الميلاد و الوفاة	عنوان الرحلة	ملاحظـــــــات
65	أكنســـــوس	داخليـــــة			1294		تطوان – القصـر – ســـلا
66	إدريس بن محمد العمراوي	سفارية – حجازية	باريـــــس		1879 - 1296	تحفة الملك العزيز بمملكة باريز	بهضونية الحاج عبد الكريم البرنوصي وعبد القادر البخاري
67	محمد سعيد الشريف الكثيري السوسي	حجازيـــــة			أواخر القرن 13 هـ		
68	أبو عبد الله السوسي اليزيدي						صفيـــــرة
69	الصفـــــار	داخليـــــة	من مكناس إلى مراكش	1881 - 1298	1298		أطال فيها (رحلة مولاي الحسن)
70	أحمد العربي البلغيثي الحسني						
71	أبو عبد الله محمد المختار الحاج السوسي الألفي	داخليـــــة	رحلة إلى سوس	1881 - 1289 1885 - 1308			رحلة المولى الحسن إلى سوس (أولى وثانية)
72	أحمد عبد الواحد المواز الحسني	داخليـــــة	إلى سوس				رحلة المولى الحسن إلى تونس بعث نسختها من المدرسة الباريزية للسلطان المولى الحسن

	الرحالـــــــة	نوع الرحلة	مقصد الرحلة	تاريخ الرحلة	الميلاد و الوفاة	عنوان الرحلة	ملاحظـــــات
73	الطاهري محمد بن عبد السلام	سفاريـــة	باريـــس	1882 - 1300		منتهى النقول ومشتهى العقول أو ما يجب أن يقال من الأقوال ولا يقال به إلا بعد التوازن في المقال توازن المثقال بالمثقال	الخلاف بين المولى الحسن ودولة الحمايـــة
74	أبو الحسن علي بن محمد السملالي	داخليـــة	الجزائـــر	1884 - 1302			
75	الحاج المعطي عبد الكبير المزامزي	سفاريـــة	إسبانيـــا	1889 - 1684			صحبة الكردودي + موظفين ساميين
76	أحمد الكردودي	سفاريـــة	إسبانيـــا	1884 - 1302	1900 - 1318	التحفة السنية للحضرة الشريفة العينية بالمملكة الإصبنيولية	
77	محمد بن محمد الفلاق الفرياوي				1891 - 1309		
78	محمد الحسن السبعي			1892 - 1310			

	الرحالـــــــــة	نوع الرحلة	مقصد الرحلة	تاريخ الرحلة	الميلاد و الوفاة	عنوان الرحلة	ملاحظـــــــات
79	أبو الفضل الفاطمي الحسين الصقلي الحسيني	حجازيـــــة		1892 - 1310			
80	محمد بن الحاج محمد بن سعيد السلاوي			1868 - 1285	1892 - 1310		بأمر من مولاي سيدي محمد بن عبد الرحمن
81	أبو محمد عبد الله بن عبد السلام الفاسي العمري	صحراويـــة		1893 - 1310		النسمات الغربية في الوجهة السجلماسية	تكلم فيها على رحلة السلطان مولانا الحسن الثراء آخر حياته
82	محمد سهيد الســـلاوي	سفاريـــة	فرنســـا	1865			في عهد نابليون3
83	عبد السلام العلمي	علمية دراسية	القاهـــرة	1313 - 1250 1895 - 1834			دراسة الطب
84	محمد الطيب بن أبي بكر ابن الطيب بنكيران	حجازيـــة		1896 - 1314			بلاد المطهرة (مذهب الإمام مالك)
85	الحسن بن محمد العســال	حجازيـــة		1897 - 1315			
86	علي بن أحمد الجرجاوي	مغربيـــــة		1897 - 1315			تحدث فيها عن أصل البربر ذكرها الكتاني في فهرس الفهارس

	الرحالـــــــــة	نوع الرحلة	مقصد الرحلة	تاريخ الرحلة	الميلاد و الوفاة	عنوان الرحلة	ملاحظـــــــات
87	محمد بن التهامي الرياطي						
88	محمد بن محمد الرايس	زيارـــــة		1882	1906 - 1324	الرحلة المرصعة ببديع اللآل في ترجمة الشريف المنيف سيدي محمد الخمال	
89	علي بن محمد بن أحمد بن علي دينية الرياطي	سفاريـــــة	إسبانيـــــا		1907 - 1325		
90	محمد بن يحيى السوسي الولاتـــــي	صحراويـــة	ســـــوس	1893 - 1313 1318 إلى 1900	1911- 1329		وصف فيها المغرب كما رآه
91	محمد بن محمد بن عبد الله					الرحلة المراكشية أو مرآة المبادئ الوقتية	
92	محمد بن يحيى بن المختار الشنجيطي			1893	1912 - 1330		
93	إبراهيم بن صالح السوسي العروسي التازروالتي			1887 - 1305	1933 - 1352		
94	محمد المورع الأندلســـي	حجازيـــــة					ذكرها الكتاني في السلوة وله منظومة في مشاهير مدينة فاس

	الرحالـــــــــة	نوع الرحلة	مقصد الرحلة	تاريخ الرحلة	الميلاد و الوفاة	عنوان الرحلة	ملاحظـــــــات
95	الحاج إدريس الجعيدي	سفاريـــــة	لنـــــدن				في رسالة الزبيري إلى إنجلتـــرا
96	محمد عبد السلام العربي السلطان سيدي محمد بن عبد الله	حجازيـــــة					
	محمد بن أحمد بن عبد الله الحضيكي						
97	أحمد بن عبد العزيز الملالي	حجازيـــــة					
98	محمد بن علي العياشي						
99	أبو حامد العربي بن يوسف الفاسي الفهري	داخليـــــة	قبيلة بني زروال وزاوية الدلاء				ذكرها الزياني في رحلته (في خزانة الأزهر)
100	رحلة أحد القيعائيين	حجازيـــــة					رآها المختارالسوسي
101	محمد بن عبد القادر الكوفي	حجازيـــــة					ذكرها الكردودي
102	الحسن العســـال	سفاريـــــة	إنجلتـــــرا	1902 - 1909			

.	الرحالـــــــــة	نوع الرحلة	مقصد الرحلة	تاريخ الرحلة	الميلاد و الوفاة	عنوان الرحلة	ملاحظـــــــات
103	عبد الله بن عبد السلام الفاسي	سفاريـــــة		1327 - 1909			
104	السعد سكبرج	سفاريـــــة		1334 - 1916			

أنـــواع الرحـــلات

داخلية: (1 0 صحراوية لرسم الحدود) (1 5 نظام البرابر بسوس ورودانة) (2 1 فوائد عن العهد الإسماعيلي) (2 8 محاسن الدولة الحسنية) (3 4 إلى أرض تافيلالت) (4 8 سوس) (4 9 المغرب) (4 9 فاس) (5 1 تطوان. فاس شفشاون وزان مكناس طنجة). 4 5 2 6 تمكدشت (6 1 من فاس رلى الرباط) (6 4 الوظيفة المخزنية والتمرد في بعض المناطق) (6 9 مكناس ومراكش) (7 0 سوس) (7 1 سوس) (7 6 ..) (8 0 سجلماسة والصحراء) 8 5 أصل البربر (8 8 لأمر مخزني) (8 9 الصحراء وسوس) 9 0 مراكش. (9 9 قبيلة بني زروال وزاوية الدلاء).= 2 4

حجازية ومشرقية: 1-2-3-5-7-8-1 1-4-1 6-1 7-1 8-1 9-1 0-2-
3 5-3 4-3 3-3 2-3 1-3 0-2 9-2 7-2 6-2 5-2 3-22
5 2-5 0-4 9-4 7-4 6-4 4-4 2-4 1-3 8-3 7-3 6
9 6-9 3- 92 -8 4-8 3-7 8-6 7-6 2-5 9-5 8-5 5-5 4 المخطوطات
5 2= 1 0 1-1 0 0-9 8-97

زيـــــارية:7 8

سفـــارية:(فرنسا) (8إسبانيا) (9الجزائر) (1 2 باريس) (3 8إلى الأستانة) (4 0 إسبانيا) (4 6 مالطا وونايوبي) (4 6 تركيا والمشرق) (4 9 الشام) (5 6 فرنسا)(5 7 فرنسا)(6 0 عواصم أوروبا 6 2 الجزائر) (63فرنسا) (6 5 فرنسا) (7 2 باريس) (7 3الخلاف بين المغرب والحماية) (7 4 إسبانيا) (7 9 فرنسا) (8 1 فرنسا)(9 4 لندن إنكلترا) = 2 5

علميـــة:(1 3 الجزائر وتطوان) 5-4-5 8 2 دراسية الطب والتطور العلمي =4
ينقل منها الأفراني 1 9 ... عند الكتاني 2 8

ولما كانت الرحلة وثيقة من أهم الوثائق المكتوبة في التاريخ[21] فإنه يحسن أن نعرف بهذه الرحلات تعريفا مقتضبا مع الإشارة إلى أهم ما تتضمنه. وها هي تراجم أهم الرحالين في العصر العلوي:

1- ***أحمد الحلبي*** (1080) (رحلة من المشرق إلى المغرب) وقد استقر بفاس بعد أن رحل من الشرق وهذا عنوان صريح عن التواصل بين المشرق والمغرب وكان لا يشارك في المناقشات، لأنه كان شافعيا. وهو أديب فصيح بليغ.[21]

2- ***أبو سالم العياشي*** (1090) (رحلته حجازية) وتشتمل رحلته على معلومات من البلاد الإسلامية والمغرب وهي موسوعة في علم الشريعة والتصوف. وتسمى رحلته: ماء الموائد[22] وله رحلة أخرى اقتصر فيها على تعداد المنازل والمراحل وقد ألفها لتلميذه أبي العباس أحمد بن سعيد المكيلدي الشيخ الشهيد 1094-1682[23]

3- ***محمد بن سليمان الروداني*** صاحب كتاب صلة الخلف ت(1094هـ) وقد زار القطينطنية ودمشق. وقد قام بهذه الرحلة سنة 1081 إلى دمشق[24] وتفيدنا هذه الرحلة في استكناه المناهج والبرامج والجوانب العلمية لعصره.

4- ***الحاج تميم***

وكان مبعوثا مغربيا شبه رسمي إلى فرنسا نيابة عن القائد ابن حدو حيث أبرمت اتفاقية بين الطرفين في سان جرمان آن لي يوم 20 محرم 1093/ 29 يناير 1682.

وقد ألقى الحاج محمد تميم خطابا أمام لويس الرابع عشر، وقدم له الهدايا التقليدية التي كان من بينها بعض السباع والنعام، وشاهد أثناء مقامه بباريس حفلة تمثيلية إيطالية. وقد رسم أنطون تروفان العضو بأكاديمية الفنون صورة فنية للسفير تميم وحاشيته وهو بإحدى شرفات المسرح،

21- انظر الرحلة كوثيقة من بين أقدم الوثائق المكتوبة في تاريخ المغرب القديم للأستاذ عمر العلوي العمراني -كلية الآداب. مكناس- وهو مقال ضمن كتاب آداب الرحلة والتواصل الحضاري. جامعة مولاي إسماعيل مكناس، سلسلة الندوات.5. 1993. ص13.

21- (مكرر) أنظر الإعلام للمراكشي 2/332 ترجمة250

22- وقد صورها وفهرسها الدكتور محمد حجي.

23- دليل مؤرخ المغرب الأقصى 2/338 عدد1452 لعبد السلام بن سودة.

24- انظر كتاب صلة الخلف وكتاب الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية لمحمد الأخضر ص.106.

وكان يتتبع باهتمام فصول المسرحية وبصحبة الضابط الترجمان جوزيف دوزيموندييس الذي كان يرافق الحاج تميم منذ نزوله بميناء بريست. Brest[25]

5- **أحمد بن محمد أحوزي الجزولي الهشتوكي** نزيل تامكروت.

رحلته حجازية 1096-1684.

وتسمى رحلته: هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام والوقوف بالمشاعر العظام[26]، وله رحلتان[27].

6- **عبد الرحمن الفاسي** (1040-1090) (1631-1685)

وكان كثير المؤلفات وكان له شغوف بالعلم وله أزيد من مائة (100 كتاب)[28]

7- **أبو عبد الله محمد بن عبد الله مولاي الشريف** (ت 1101-1689)

رحلته حجازية.[29]

8- **أبو عبد الله محمد (حم) بن عبد الوهاب الوزير الفساني**

(1119-1707)

وقد شرح ما شاهده في سفارية من العجائب والغرائب إلى بلاد الأندلس لافتكاك أسارى المسلمين واستخراج ما بقي من الكتب الإسلامية.[30] وله رحلة حجازية.[31]

وهو أحد أفراد السفارة التي وجهها المولى إسماعيل إلى الجزائر برئاسة محمد الطيب الفاسي.[32]

25- التاريخ الديبلوماسي. د. عبد الهادي التازي. 9/2 7

26- دليل مؤرخ المغرب لابن سودة 2/370 عدد 1617.

27- نفسه 2/345 عدد 1486.

28- الحياة السياسية لمحمد الأخضر 114. وليفي بروفنصال... الخ

29- دليل 2/343 عدد 1478

30- نفسه 2/344 عدد 1481

31- نفسه.

32- مؤرخو الشرفاء. ليفي بروفنصال 20.

وكان الغساني متضلعا من الأدب، حريصا على اقتناء الكتب وكان يصف المنشآت والتقاليد في المجتمع الإسباني الأرستقراطي والبلاط الإسباني أواخر ق 17.

وكان قد قام بغارة إلى الجزائر على إثر الهزيمة التي مني بها المغاربة في التاريخ على وادي ملوية[33]

9- **محمد الطيب الشرقي** 1064

وقد عينه السلطان مولاي إسماعيل ليكون ضمن السفارة التي أوفدها إلى العاصمة الجزائرية لإمضاء الهدنة مع الأتراك، وذلك إثر انهزام الجيش المغربي بالمشارع على نهر ملوية وقد شارك في تلك السفارة مولاي عبد الملك بن مولاي إسماعيل والكاتب محمد الوزير الغساني وجماعة من أكابر موظفي البلاط المكناسي.[34]

10- **أبو علي الحسن اليوسي** (1102)

له رحلة صحراوية لرسم الحدود، أرسله المولى الحسن[35]

11- **أحمد بن الحاج** (1042-1109) (1632-1697) رحلته حجازية حج سنة 1078-1667 وقد قرأ على الشهرزوري والشيراملسي واللقاني[36]

12- **أبو عبد الله محمد التركي** صاحب الضريح بروضة العلوي/ الرباط.

كان كاتبا مع الرئيس محمد بن عائشة الرباطي أحد سفراء السلطان مولاي إسماعيل، ورحلته باريزية وسفارية في حدود 1111هـ /1699م[37] وجه المولى إسماعيل أحد قواده الكبار سفيرا إلى ملك فرنسا لويس 14 وكان ابن عائشة في صحبته، ولكن هذه الرحلة تعد ضائعة.

13- **محمد بن زاكور** 1120.

رحلته نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان، روي عن البركة وابن محمد قدورة وغيرهم. ونجد في هذه الرحلة ما يتصل بالمناهج والبرامج.[38]

33- الحياة الأدبية 156-160 وانظر وحي البينة للمرحوم محمد الفاسي ص 73. ومؤرخو الشرفاء 201.

34- مؤرخو الشرفاء، ليفي بروفنصال 209.

35- وحي البينة، 69-70 دليل مؤرخ المغرب 2/344 عدد 1479.

36- الحياة الأدبية 136.

37- دليل مؤرخ المغرب 2/344 عدد 1480.

38- نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان .. المط. الملكية 1887-1967

14 **أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن أحمد الرافعي الأندلسي التطواني.**

رحلته: المعارج الراقية في الرحلة المشرقية، وقد ابتدأ رحلته من تطوان.

15- **محمد بن إبراهيم الزرهوني.**(39)

رحلته: رحلة الوافد في أخبار هجرة الوالد في هذه الأجيال بإذن الواحد.

ألفها في رحلة والده: شيخ زاوية تصفت بواد نفيس من السوس الأقصى إلى مكناسة الزيتون بأمر من السلطان مولاي إسماعيل1125-1713 عقب فراره من زاويته أثناء الحوادث التي وقعت بين برار وادي نفيس بسوس الأقصى. والمخزن السعيد سنة1123-1720 لأنه استعجل أمر الزرهوني عند المصامدة وقد دمت الزاوية أثناء هذه الحوادث سنة1713.

وتعد هذه الرحلة من أهم المراجع التاريخية لما تحويه من المعلومات الضافية عن نظام برار المصامدة الاجتماعية والسياسية، وأنباء وأحاديث غريبة عن السوس وروادنة وأماكنها بدقة، وعن زعمائه ورجاله المشهورين.(40)

16- **أحمد بن ناصر** ت1129هـ 1717م.

رحلته حجازية، وتشبه رحلة العياشي، علمية جغرافية فيها معلومات تتعلق بالمسالك والمنازل وعلماء مصر والجزيرة العربية(41) وقد حج ثلاث مرات.(42)

17- **أحمد بن الخياط.**

حج وسكن القاهرة1130 1718.

وهو صاحب سلسلة الذهب المنقود في ذكر الأعلام من الأسلاف والجدود أكملها أخوه.(43)

18- **أبو العباس أحمد القادري الفاسي** (1050-1640) (1133-1689)

39- دليل مؤرخ. 2/365. عدد 1598.

40- دليل مؤرخ. 2/346. عدد 1490.

41- مؤرخو الشرفاء206. دليل مؤرخ المغرب 2/344 عدد 1484.

42- أنظر ملخص هذه الرحلات والحياة الأدبية172.

43- مؤرخو الشرفاء217.

رحلته حجازية. نسمات الآس في حجة سيدنا أبي العباس. حمل السلاح قصد الجهاد، عاد إلى فاس عام 1100 وقد ترك رحلة سجل فيها مناقب رفيقه الصالح أبي العباس أحمد بن عبد الله معن.(44)

19- ***محمد بن عبد الرحمن*** (1058-1648) (1134-1722)

كان متبحرا في العلوم الإسلامية، رحلته حجازية

وله فهرست سماها: المنح البادية في الأسانيد العالية. أورد فيها معلومات غزيرة تتعلق بأشياخه وأقاربه. استفاد منها الأفراني في النزهة والصفوة.(45)

20- ***أبو محمد عبد الواحد بن الحسن الصنهاجي***. 1135-1722، رحلته حجازية.(46)

21- ***أحمد بن عبد الله السوسي البيوركي الأسفريكيسي***

ت 1136-1723

قال المختار السوسي:

فيها فوائد جمة عن العهد الإسماعيلي في المغرب يعد فيها كل ما أراد.(47)

22- ***أبو مدين عبد الله بن أحمد الروداني الدرعي*** (1137-1743)

ينقل عنه الرحالة أبو إسحق العيني، وهي طويلة مسهبة.

كان قد عثر عليها الكتاني في تامكروت. فرع منها سنة 1156-1742. وذلك بعد بدء الرحلة 1152-1739.(48)

44- مؤرخو الشرفاء 209.

45- مؤرخو الشرفاء 210.

46- دليل مؤرخ المغرب. 345/2. عدد 1487.

47- دليل مؤرخ المغرب. 345/2. عدد 1488.

48- دليل مؤرخ. 347/2. عدد 1492.

23- ***أحمد بن أبي عشرة الفاسي الفهري***. ت1137-1724

ينقل عنه صاحب نشر المثاني. قال المولى سليمان في عناية أولي المجد: هي جامعة مفيدة ذكر فيها جماعة من لقيهم بالمشرق والمغرب.(49)

24- ***أبو عبد الله محمد بن الطيب الشركي الصميلي***.

وله ثلاث رحلات.

أما الثالثة فتوجد في ليبسك وقف عليها المرحوم محمد الفاسي وأما الأخريان فلا ندري عنهما شيئا.(50)

25- ***محمد بن عبد السلام بناني***.

رحلته: فضائل الحرمين الشريفين. وهي حجازية، رحل سنة 1141-1728.(51)

26- ***محمد بن عبد الرحمن الدلائي***

له: رحلته حجازية سنة 1141-1729.(52)

27- ***أحمد بن صالح الدراوي الدرعي الكتاوي*** (ت 1144-1731)

الرحلة الشافية. وهي حجازية.(53)

28- ***عبد الرحمن الجامعي***، كان حيا في (1132-1719)

له الدرر المديحية في محاسن الدولة الحسنية.أو نظم الدرر المديحية. أو التاج المشرف الجامع ليوافيت المغرب والمشرق. نقل عنه الأكتاوي في فهرس الفهارس.(54)

29- ***أحمد بن محمد السوسي العياشي***. ت(1149-1736).

له رحلة حجازية.(55)

30- ***الوزير الإسحاقي***

قال الدكتور عبد الهادي التازي: "إن المتتبع لمقرر الرحلة الأميرية لابد أن ينصف

49- دليل مؤرخ. 2/345. عدد 1489.

50- دليل مؤرخ. 2/347. عدد 1498.

51- دليل مؤرخ المغرب 2/347. عدد 1498.

52- مؤرخو الشرفاء 215.

53- دليل مؤرخ المغرب 2/346. عدد 1491.

54- دليل مؤرخ المغرب 2/339. عدد 1456.

55- دليل مؤرخ المغرب 2/349. عدد 1493.

في كثير من المعلومات التي قدمها عن هذه الزيارة والتي كانت تفوق من حيث كمها وكيفها ما عثرنا عليه في بعض المصادر المغربية الأخرى سواء منها المخطوطة والمطبوعة..

وكذلك فإنها تفوق دون شك ما وقفنا عليه لدى المؤرخين الليبيين القدامى..[56] وقال: "نظرا لما تركته هذه الزيارة من أثر على علاقات المغرب الخارجية فقد كانت مناسبة للحديث عن التماس أمريكا وساطة المغرب بينها وبين ليبيا وعن السفارات الليبية للمغرب أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله".[57]

3 1- ***محمد بن عبد القادر الجيلالي***.

له رحلة حجازية ذكرها صاحب نشر المثاني.

وكان مع السيدة خناتة بنت بكار التي توفيت سنة1155 وهي زوجة المولى إسماعيل ت 1171-1757، وهي في مجلدين.[58]

3 2- ***خناتة بنت بكار***1159-1746.

وهي زوجة السلطان مولاي إسماعيل، وقد حملت معها 100.000 دينار هدية للحرمين وفي الرحلة أخبار عن الفروسية واستعمال الأسلحة لعبيد البخاري وإعجاب الأتراك بذلك. فيها الهبات والعطاء لأهل ينبع. وشراء العقارات ودفعها في سبيل الله.[59]

3 3- ***عبد المجيد المنالي الزبادي***. ت1163-1750

وله رحلة حجازية: بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام[60] وقد أكمل الزبادي دراسته بالمشرق صحبة الصوفي ابن محمد عبد الوهاب التازي.[61]

3 5- ***محمد المكي بن ناصر***. المؤرخ ت1170-1756.

له رحلة حجازية. توجه سنة 1156 إلى مكة.[62]

56- أمير مغربي في طرابلس أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي ص.10.

57- نفسه.

58- دليل مؤرخ المغرب347. عدد1445.

59- الحياة الأدبية243.

60- مؤرخو الشرفاء223، وكتاب الحاجية في ثلاث رحلات في البلاد الليبية لعلي فهمي خشيم. دار مكتبة الفكر، طرابلس ليبيا ط19741، والحياة الأدبية246.

61- مؤرخو الشرفاء239.

62- الحياة الأدبية265.

36- ***أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي.***

حج مرتين، إلى الحرمين، ومصر والجزيرة العربية وله رحلة خلاصتها في نشر المثاني.[63]

37- ***أحمد بن عبد الله بلقاسم السوسي الجرسيفي*** (ت1180-1766).

له رحلة حجازية.[64]

38- ***محمد الطاهر بن علي بن عبد السلام السلاوي.***

له رحلة إلى الأستانة والحجاز بأمر من السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحل سنة 1179-1765.

قال صاحب أتحاف أشراف الملا:

حج وزار ورأى العالما وقيد الرحلة فما أبهما[65]

39- ***ابن الطيب القادري.***

لا نعرف أن للقادري رحلة، ولكن ليفي بروفنصال يقول: خصص للعلماء الأجانب قسما كبيرا من كتابيه مستمدا المعلومات المتعلقة بهم من رحلات العاصرين له[66]

40- ***أحمد بن المهدي الغزال***

نتيجة الإجتهاد في المهادنة والجهاد. وهي رحلة سفارية إلى الإسبان بأمر من سيدي محمد بن عبد الله لأجل افتكاك الأسارى. وقد قام بها سنة (1179-1765).[67]

وله مع العلمي مساجلات شعرية،[68] وتعد رحلته سياسية تجارية.[69] وله رحلة إلى الجزائر، وتعد رحلته وثيقة تاريخية مهمة.[70]

63- مؤرخو الشرفاء225 والحياة الأدبية 281.نشر المثاني 4/143 ...الخ

64-دليل مؤرخ المغرب 2/348 عدد 1502.

65- دليل مؤرخ المغرب 2/348 عدد 1503.

66- دليل 2/366 عدد 1602.

68- مؤرخو الشرفاء233.

69- وحي البينة 75.

70- الحياة الأدبية.313، وقد طبعت رحلته، دار الغرب1980 .تحقيق إسماعيل العربي.

1 4- ***إبراهيم السوسي العيني*** ت1199-1784.

وقف عليها المختار السوسي ، وهي رحلة حجازية.[71]

2 4- ***أبو محمد عبد الوهاب التازي***1206.

وكان قد صحب الزيادي، وهي رحلة حجازية.[72]

3 4- ***أحمد بن الحسن المتيوي*** له بيان السبيل من حضرة فاس إلى أرض تافيلالت، سنة 1201-1786، بأمر من السلطان سيدي محمد بن عبد الله، فرغ منها سنة1203-1788.[73]

4 4- ***محمد التاودي بن سودة***، ت(1209-1795)

له رحلة حجازية، التقى بصاحب تاج العروس وكان شيخ الجماعة،[74] وبما أنه كان يعظم العلماء فإنه زار جماعة من الأولياء والصالحين والعلماء. رحل عام1191-1777.[75]

5 4- ***العباس بن عبد القادر الفاسي***:

دفتر الرحلة، عن سفارية القائد عبد المجيد الرحماني إلى إسبانيا، وهي رحلة سفارية.[76]

6 4- ***محمد بن عثمان المكناسي***. (1212-1799).

من حسن حظ التاريخ والأدب والدبلوماسية المحافظة على رحلاته الأربعة: إسبانيا مرتين، وإلى مالطة ونابولي وتركيا والمشرق للحج.

أهم رحلاته: الإكسير في افتكاك الأسير1193-1779[77]

71- دليل 2/349 عدد1525.

72- مؤرخو الشرفاء239.

73- دليل 366 عدد1443.

74- مؤرخو الشرفاء238.

75- الحياة الأدبية،322.

76- الحياة الأدبية،276.

77-حققه د. محمد الفاسي. منشورات المركز الجامعي1965 وانظر وحي البينة 77، والحياة الأدبية334، والتاريخ الديبلوماسي للدكتور عبد الهادي التازي 9/52.

- البدر السافر في افتكاك الأسارى من يد العدو الكافر

- إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الحرام وزيارة القدس الشريف والتبرك بقبر الحبيب.[78]

قال الدكتور عبد الهادي التازي: ليس لعلاج معضل سياسي ولكن من أجل اقتناء مخطوط نفيس بألف مثقال كان عبارة عن نسخة من صحيح الإمام البخاري بخط الإمام الصدفي.

وذلك عندما كانت الولايات المتحدة تضرب حصارها على طرابلس عام1218-1803 وتشبث الحرب بين أمريكا وليبيا سنة1218-1803.[79]

47- ***أحمد بن محمد الفاسي*** 1166-1213.

رحلته حجازية على طريقة العبدري وفيها برامج الدراسة ومعلومات على شرب القهوة والشاي.[80]

رجع إلى فاس آخر سنة1218-1797.[81]

48- ***محمد بن عبد السلام الفاسي***، (1130-1214-1718-1799).

رحلته داخلية إلى سوس.[82]

49- ***محمد بن بوراس المعسكري***، له:

رحلتي وغلتي في تعداد رحلتي.

تحدث عن رحلاته المتعددة إلى الحجاز ومصر والشام والمغرب، وقد وصف فيها مدينة فاس وصفا كافيا.

رحل سنة1218-1803.[83]

50- ***حمدون بن الحاج*** 1174-1232، (1760-1817).

رحلته شرقية، وهي مشهورة.[84]

78- نشره المرحوم محمد الفاسي.

79- التاريخ الديبلوماسي، 52/9.

80- الحياة الأدبية،330.

81- دليل مؤرخ 349/2 عدد1507.

82- الحياة الأدبية،342.

83- دليل 349/2 عدد1510.

84- الحياة الأدبية،352.

5 1- *محمد بن عبد السلام الضعيف الرباطي*

(1236-1165) (1752-1820).

رحلته داخلية جاب فيها تطوأن وفاس، وطنجة، وشفشاون، ووزان ومكناس. وكان يزور الصالحين المشهورين.[85]

5 2- *محمد عبد السلام بن ناصر*، (1239-1824).

حج مرتين، كان يلقى العلماء واقتنى المخطوطات في إسطامبول ونقل العادات والتقاليد وبعرض الوقائع بكيفية موضوعية ويبحث عن الأسباب، دراساته مهمة ومفيدة حول عصره وما سبقه[86] وله رحلة صغرى (1211-1776).

5 3- *ابن عمرو الرباطي*،1243-1827.

حجازية علمية، إلى مراكش وتونس والحرمين، أحب ملازمة الأسفار إلى الخارج لأنه وجد فيها سلوى لما أصابه من نوائب الدهر.[87]

5 4- *أبو القاسم الزياني*. أكبر مؤرخ مغربي. (1147- 1249) (1735- 1833). في رحلاته التاريخ والجغرافيا، وهي كشكول، عامة وأشهر رحلاته الترجمانة الكبرى.[88] وله رحلة الحذاق بمشاهدة البلدان والآفاق إلخ.[89]

5 5- *عبد القادر الكوهن*1254-1838.

انضم إلى الطريقة الدرقاوية وجاور في الحجاز.[90]

5 6- *الرئيس أعشماش عبد القادر بن محمد*.

له رحلة سفارية مع جماعة. وصف فيها باريس، والبروتوكول والزخارف والعلاقات بين المغرب وفرنسا.[91]

85- مؤرخو الشرفاء10251-146 والحياة الأدبية358.

86- دليل مؤرخ 2/350-1511، والحياة الأدبية368.

87- الحياة الأدبية،384.

88- الحياة الأدبية 398 وقد طبعت، وحي البينة 78.

89- دليل مؤرخ 2/350 عدد 1514 و 2/338 عدد 1451.

90- مؤرخو الشرفاء244.

91- التاريخ الديبلوماسي 17/10، أنظر دعوة الحق ع.263 رجب1407 مارس87 ص19.

57- **محمد عبد الله الصفار** الكاتب الوزير، وقد ذهب بمعية القائد أعشعاش إلى ملك فرنسا لويس 18، 1261-1847 وفي رحلته وصف للبلاد العربية ومظاهر المدنية الحديثة في باريس والرحلة مهمة جدا.(92)

58- **أحمد بن علي بن محمد دينية الرباطي**

رحلته حجازية سنة 1267.(93)

59- **أحمد بن العربي حسون الوزاني**. له الرحلة الوزانية الممزوجة بالمناسك المالكية. حج بصحبة أبي محمد عبد السلام بن العربي وابن محمد ابن الطيب(94)

60- **محمد الطاهر الفاسي**، (1246-1285) (1830-1868)

رحلته سفارية 1276-1860، وقد وصف الحضارة الأروبية والمهرجانات(95). ورحلته في نفس السنة التي توجه فيها ابن إدريس العمراوي والرحلة إلى بلاد الإنجليز(96)

61- **ابو العلاء إدريس بن القاضي الأعلى عبد الهادي العلوي الشاكري الحسني**، رحل 1288-1871 من فاس إلى الرباط(97)

62- **أبو حامد العربي المشرقي**: له

الرحلة العريضة في أداء الفريضة، وله رحلتان: إلى تمكشت والجزائر.(98)

63- **أبو عبد الله محمد بن الكماب الأودي**

أحد أفراد البعثة العلمية إلى فرنسا زمن السلطان مولاي الحسن.

سافر سنة 1292-1875.(99)

92- وحي البينة 79.

93- دليل مؤرخ 351 عدد 1517.

94- دليل مؤرخ 351 عدد 1518-1519.

95- الحياة الأدبية 227.

96- دليل مؤرخ 351/2 عدد 1520.

97- دليل مؤرخ 355/2 عدد 1541.

98- دليل 353/2 عدد 1530-1532-1533.

99- دليل مؤرخ 352/2 عدد 1522.

4 6- أكنسوس (1294) له رحلة داخلية في الوظيفة المخزنية[100]

5 6- *إدريس بن محمد العمروي* 1296 .

له رحلة سفارية إلى فرنســـا سنة1276-1800.

تحفة الملك العزيز بمملكة باريس.

وقد وصف النظم والبرلمان ومعايش الناس وسكة الحديد والقطر..إلخ إلخ.[101]

6 6- *أبو عبد الله محمد سعيد الشريف الكثيري السوسي الهشتوكي*،

توفي أواخر ق13.[102]

7 6- *أبو عبد الله السوسي اليزيدي* (ت1300-1890)

رحلته حجازية صغيرة.[103]

8 6- رحلة الصفار1298 قد سبق ذكرها[104]

9 6- *أحمد بن العربي البلغيثي الحسني*.

تكلم فيها على رحلة السلطان مولاي الحسن من مكناسة الزيتون إلى مراكش سنة1298-1881 أطال في ذلك.[105]

0 7- *أبو عبد الله محمد المختار السوسي الإلغي*.

تكلم فيها على رحلة السلطان المولى الحسن بن محمد عبد الرحمن إلى سوس، سنة1299-1881. وله رحلة ثانية1300-1885.[106]

1 7- *أبو العباس أحمد بن عبد الواحد بن المواز الحسني*.

ألفها زمن رحلته مع المولى الحسن إلى سوس سنة1299-1881.[107]

100- أنظر الجيش العرمرم والمهام المخزنية.

101- وحي البينة 80، الحياة الأدبية448، دليل مؤرخ 336/2 عدد1446، التاريخ الدبلوماسي 19/10.

102- دليل مؤرخ 351/2 عدد1521.

103- دليل مؤرخ 352/2 1526.

104- وحي البينة 79.

105- دليل مؤرخ 352/2 عدد1524.

106- دليل 352/2 1524.

107- دليل 358/2 عدد1587.

7 2- ***أبو الفضل الطاهر بن محمد عبد السلام بن الحاج الدو.***

بقي مدة سبع سنين بأوروبا. ثم بعثت رحلته للسلطان المولى الحسن عام 1300-1882.(108)

7 3- ***أبو الحسن علي بن محمد السوسي السملالي.***

فرغ منها سنة1302-1884.

تكلم فيها على الخلاف الذي بين السلطان مولانا الحسن وبين دولة الحماية على الحدود بين المغرب والجزائر وعلى ما وقع به الإتفاق بين الدولتين لكون أحد السفراء في تلك المهمة ورحلته تسمى:

منتهى النقول ومنتهى العقول أو ما يحب أن يقال من الأقوال ولا يقال به إلا بعد التوازن في المقال توازن المثقال بالمثقال.

وذكر فيها أعلام الدولة الحسنية في وقته ومشاهير شرفاء فاس.(109)

7 4- ***الحاج المطي بن عبد الكبير المزامزي.*** أكتوبر 1889

رحلة قام بها صحبة أحمد الكردودي وموظفين سامين ولأجل العلاقات التجارية.(110)

7 5- ***أحمد بن محمد بن عبد القادر الكردودي.***(توفي سنة1318-1900م)

التحفة السنية للحضرة الشريفة الحسنية في المملكة الإصبنيولية والرحلة بأمر من السلطان مولاي الحسن إلى بلاد الإسبان مع القائد عبد الصادق بن أحمد الريفي الطنجي وذلك سنة 1302-1884.(111)

7 6- ***أبو عبد الله محمد بن محمد الفلاق الفرياوي،*** قاضي فاس الجديدة.

ت1309-1891.(112)

7 7- ***أبو عبد الله محمد بن الحسن السبعي*** رحل سنة1310-1892.(113)

108- دليل 2/358 عدد1556.

109- دليل 2/356 عدد1596.

110- التاريخ الدبلوماسي 10/28

111- دليل مؤرخ العرب 2/338 عدد1449 وانظر الرحالون العرب وحضارة الغرب ص497 للدكتورة نازك سابايارد. مؤسسة نوفل ط1.1979

112- دليل مؤرخ 2/354 عدد1535.

113- دليل مؤرخ 2/353 عدد1529.

7 8- ***أبو الفضل الفاطمي بن الحسين الصقلي الحسيني.***[114]

رحل إلى الحج. 1310-1892.

7 9- ***أبو عبد الله محمد بن الحاج محمد بن سعيد السلاوي***

ت 1310-1892

رحلته إلى فرنسا حوالي 1285-1868، بأمر من مولاي سيدي محمد بن عبد الرحمن.[115]

8 0- ***أبو محمد عبده بن عبد السلام الفاسي الفهري***، له:

النسمات الفجرية في الوجهة السجلماسية. تكلم فيها عن السلطان مولانا الحسن إلى الصحراء آخر حياته.فرغ منها سنة 1311-1893.[116]

8 1- ***أبو عبد الله محمد بن سعيد السلاوي***. كان بصحبة أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم الشرقي.

وكانا يقصان إقامتها سفيرين عند نابليون الثالث 1865.[117]

8 2- ***عبد السلام العلمي*** (1250-1313) (1834-1895)

في بعثة دراسية إلى القاهرة لدراسة الطب، وكان مؤلفا وشارحا ونموذجا حيا في تطور المغرب في الميدان العلمي.[118]

8 3- ***أبو عبد الله محمد الطيب بن أبي بكر بن الطيب بنكيران***

ت 1314-1896

إلى بلاد المطهرة ضمنها مناسك الحج، بترتيب حسن على مذهب الإمام مالك.[119].

8 4- ***أبو علي الحسن بن محمد العسال***، رحل سنة 1315-1825، حجازية.[120].

114- دليل 2/353 عدد 1528.

115- دليل 2/352 عدد 1527.

116- دليل 2/368 عدد 1607.

117-الرحالون العرب لنازك سابايارد.

118-

119- دليل 2/354 عدد 1533.

120- دليل 2/357 عدد 1549.

85- **أبو الحسن علي بن أحمد الجرجاوي**، رئيس جمعية الأزهر العلمية.

طبعت بمطبعة جريدة الشورى بمصر على الحروف سنة 1315-1897.

أخبر أن صاحبها تكلم فيها على أصل البربر وفضلهم وتاريخهم قبل الإسلام وبعده.(121)

86- **أبو عبد الله محمد بن التهامي الرباطي**،

ذكره الكتاني في فهرس الفهارس.(122)

87- **أبو عبد الله محمد بن محمد الرايس**، ت 1324-1906.

له: الرحلة المرصعة ببديع اللآلئ في ترجمة الشريف المنيف سيدي محمد الخمال ووفوده على قصره بفاس لزيارة طيب الأنفاس يتيمة الجوهر النفيس أبي العلاء سيدنا ومولانا إدريس خروج من طنجة سنة 1882.(123)

88- **أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن علي دينية الرباطي**،

ت 1325-1907

رحلته إلى إسبانيا 1294-1877. لأمر مخزني بصفة كاتبا مع البعثة المرسلة.(124)

89- **أبو عبد الله محمد بن يحيى السوسي الولاتي** ت 1329-1911

رحلته سنة (1313-1893) إلى (1318-1900)

مر على الصحراء بسوس ووصف فيها المغرب وكل ما رآه.(125).

90- **محمد بن محمد بن عبد الله** ت 1911 له:

الرحلة المراكشية أو مرآة المساوئ الوقتية.(126)

91- **أبو عبد الله محمد ن يحيى بن المختار الشنجيطي**،

ت 1330-1912.

رحل سنة 1893.(127)

121- دليل 2/360 عدد 1573.

122- دليل 2/350 عدد 1539.

124- دليل 2/354 عدد 1534.

125- دليل 2/355 عدد 1540.

126- الرحالون العرب سابايارد.

127- دليل 2/355 عدد 1538.

9-2- ***أبو إسحق إبراهيم بن صالح السوسي العروسي التازروالتي.***
ت1352-1933. رحل إلى الحج. 1305-1887.[128]

9 3- ***محمد المودع الأندلسي:*** (سبق ذكره)

وله منظومة في مشاهير مدينة فاس في 500 بيت اعتمدها الكتاني في سلوة الأنفاس.[129]

9 4- ***الحاج إدريس الجعيدي.***
له رحلة إلى لندن في سفارة الزبيدي إلى إنجلترا.[130]

9 5- ***محمد عبد السلام الضرير*** من السلطان سيدي محمد بن عبد الله.[131]

9 6- ***أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله الحضيكي.***
له رحلة حجازية.[132]

9 7- ***أحمد بن عبد العزيز الهلالي.***
له رحلة حجازية.[133]

9 8- ***محمد بن علي العياشي،*** ذكرها الزيادي في رحلته وأنه وقف عليها في خزانة رواق المغاربة بالأزهر الشريف.[134]

9 9- ***أبو حامد العربي بن يوسف الفاسي الفهري.***
رحلته إلى قبيلة بني زروال. وزاوية الدلاء.[135]

100- ***أحد الفيفائيين،*** رافق المختار السوسي، حجازية.[136]

128- دليل 2/363 عدد 1588.

129- مؤرخو الشرفاء 216.

130- وحي البينة 81.

131- دليل 2/349 عدد 1508.

132- دليل 2/348 عدد 1504.

133- دليل 2/348 عدد 1501.

134- دليل 2/347 عدد 1449.

135- دليل 2/343 عدد 1477.

136- دليل 2/352 عدد 1527.

101- محمد بن عبد القادر بن أحمد الكوهن.
(137)
له حلة حجازية، ذكرها الكردودي.

وإذا حاولنا استقراء هذه الرحلات لمعرفة مضامينها وجدنا فيها كثيرا من أخبار المغرب وتاريخه والحوادث التي وقعت فيها وبهذا يمكن أن تكون تلك الرحلات مكملة للتاريخ العام بما فيها من الإشارات اللطيفة إلى العلاقات الداخلية والخارجية بين البلدان. وشتان ما بين قراءة التواريخ الميتة التي تنقل من الخلف عن السلف وبين أولئك الذين يصنعون التاريخ بأيديهم وعقولهم مثل هؤلاء الرحالين.

137- دليل 2/1 35 عدد 1516.

موقف المغاربة من الغرب في القرن التاسع عشر من خلال الرحلات السفارية

أحمد الدويري
كلية الآداب. مكناس

العرض الذي نقدمه هنا سيلقي الضوء على أربع رحلات سفارية إلى أوروبا متتالية في الزمن، في النصف الثاني من القرن الماضي، هي رحلة أبي عبد الله الصفار [1] إلى فرنسا، قام بها ضمن وفد قائد تطوان أشعاش عام1362- 1845 أي بعد حرب إيسلي، ورحلة أبي العباس أحمد بن محمد الكردودي [2] سنة844 اورحلة أبي الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمان الفاسي للإنجليز [3] قام بها عام1287 - 1860، وأخيرا رحلة الكاتب الأديب الحاج إدريس العمراوي [4] سنة1860 كذلك، قام بها إلى فرنسا.

ومما يلاحظ أن الرحلات السفارية نشطت بالمغرب في الفترة المشار إليها، على عهد محمد الرابع بالخصوص، وبشكل أكثر نضجا [5] بعد أن آل أمر المغرب إلى حالة من الضعف في كثير من المجالات، كشفتها الهزائم المتعاقبة والتدخل المسيحي في شؤونه (احتلال الجزائر ومشكلة الحدود الشرقية والجنوبية الشرقية، حرب إيسلي، سقوط تطوان، الحماية القنصلية الخ...).

---

1 - بعنوان: "رحلة الصفار" لأبي عبد الله الصفار، وهي مخطوطة بالخزانة الحسنية، رقمها113

2- بعنوان: " التحفة السنية للحضرة الشريفة الحسنية بالمملكة الإصبنيولية" نشرها ذ. .عبد الوهاب بنمنصور بالرباط سنة1963.

3- بعنوان: " الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية "تحقيق وتعليق ذ:محمد الفاسي، نشرتها مطبعة جامعة محمد الخامس، فاس1967.

4- بعنوان : "تحفة الملك العزيز بمملكة باريز" قدم لها وعلق عليها ذ. زكي مبارك ونشرتها مؤسسة التغليف والطباعة والنشر والتوزيع للشمال (بطنجة)

5- أنظر تصنيف ذ. محمد الفاسي لهذا النوع من الكتابة توطئة ذ.مبارك لرحلة العمراوي ص 5. وأنها "حجازية وسياحية ودراسية وأثرية، واكتشافية وزيارية وسياسية ومقامية وخيالية، وفهرسية، وسفارية".

وعلى الرغم من أن المدة التي قضاها أصحاب هذه الرحلات في بعض دول أوروبا قصيرة، لا يمكن مثلا أن تقاس بمدة الإقامة التي قضاها المشارقة، كرفاعة رافع الطهطاوي (1826 - 1831) فإن المعلومات التي نقلها أصحاب الرحلة عن الأماكن التي مروا بها أو نزلوها، والمظاهر الحضارية والثقافية التي شاهدوها وسجلوها، لتدل على غزارة علمهم - مع تفاوت فيما بينهم - وعلى عمق ملاحظتهم، وتبين من ثم أهمية هذا اللون من الكتابة في تعرف حالة المغرب والدول المسيحية في هذه الفترة العصيبة من تاريخ المغرب.

ولا نزعم هنا، الإحاطة بكل محتويات هذه الرحلات [6] وإنما يهمنا منها إبراز موقف [7] أو مواقف - المغاربة من أوروبا في مجالين: حضاري وثقافي، وأسباب تلك المواقف، وأوجه التشابه والإختلاف بين رحلاتنا السفارية ورحلة الطهطاوي الدراسية باعتبارها أهم ما يشمل هذا اللون من الكتابة في الرحلة في المشرق العربي، ثم نختم بالحديث عن طبيعة الكتابة الأدبية والعلمية بالمغرب في نهاية القرن الماضي من خلال تلك الرحلات.

لكي يتسنى لنا معرفة موقف المغاربة من أوروبا والإتجاهات التي سار فيها ينبغي أن نلم أولا بمحتويات هذه الرحلات إلماما عاما. وإذ نظرنا في المطبوعة منها وجدنا مثلا أن رحلة الفاسي تضم المحتويات التالية:

ذكر دخولنا لطنجة - ذكر ركوبنا في البحر - وصف المراكب - وصف ميزان الطقس - الموسيقى بالباخرة - ذكر دخولنا لبور صموت - وصف محطة السكة الحديدية، ذكر دخولنا للندير - وصف لندن - اقتبال الملكة للسفارة المغربية - مأدبة عشاء عند الملكة بوصف عسكر المدينة

6- أشار - باقتضاب - ناشرو ومحققو مجموعة منها إلى تلك المحتويات، وإن كان التركيز على الجانب العسكري والإقتصادي بارزا في ذلك.

7- بعد الفراغ من هذا العمل، اطلعت على ثلاثة بحوث نشرت بمجلة :مكناسية" للباحثين عبد السلام حيمر "صورة الحداثة الأوروبية في الكتابات السفارية - المخزنية ع6 -1992 ص161، و "أدب الرحلة السفارية المخزنية وأثرها في انفتاح المغرب على التجارب العالمية ق "ع 5،1993، ص313، والباحث: جمال حيمر: "تصورات مغربية للمدينة الأوروبية من خلال الرحلات السفارية" نفس العدد، ص335. غير أن الباحثين ركزا على الجانب العسكري (المقال الأول) والعسكري والإقتصادي (الثاني) وعلى موقفين وجانبين هما القبول والرفض (المقال الثاني ص 345 - 47)، وهكذا لا نجد من الجانب الأدبي أي شيئ كما أن موقف المغاربة أعمق من مجرد ثنائية القبول والرفض.

بمحضر السفارة المغربية – مناورة حربية بعد الإستعراض بأمر من الملكة – وصف حديقة الحيوان – غريبة – وصف معامل السلاح – عجيبة – سبب اكتشاف الطاقة البخارية وصف معمل نشارة – وصف معرض عام – وصف تدريبات في الرماية – وصف متحف السلاح وصف حديقة النباتات – الغماسة بالتسخين الصناعي قي حضائر مسقفة – وصف البنك – وصف معمل الزجاج – وصف مكتب البرق، وصف قنطرة لندن – ذكر خروجنا من الندريز – وصف مرسى بور صموت – المدرسة البحرية ببور صموت – ذكر الإرتحال عن مرسى بور صموت. وهكذا تسير هذه الرحلات تقريبا، مع حذف هنا أو زيادة هناك، انطلاقا من خصوصية الدولة التي تتم فيها الرحلة، مع التركيز على الجانب العسكري والصناعي.

وتنقسم هذه الرحلات من حيث الموضوعات الكبرى أو النوعية إلى أربعة أقسام:

1) الديباجة أو فاتحة الرحلة 2) التأهب للرحلة 3) – وصف بلاد الرحلة 4) الإياب.

فأما الفاتحة فتمهد للرحلة وتعرف بمن قام بها، وقد تحدد الوفد وتبين الغاية من ذلك، أما أسلوبها فيختلف – تماما كما سنوضح لاحقا عن باقي أسلوب الرحلة.وأما التأهب أو الخروج ففيه وصف للثغور المغربية التي ينطلق منها الوفد [8] وتعطي صورة عن المغرب المتاخم لبلاد أوروبا، وبعض المراسي المغربية كمرسى طنجة. وطبعا فإن الموضوع الثالث هو الغرض من الرحلة كلها. أما القسم الرابع والأخير فإنه – رغم قصر حجمه وتعدد موضوعاته الفرعية كالإشارة إلى الشوق إلى الوطن، ووصف بعض الإجراءات الوقائية الطبية من بعض الأمراض التي يظن حملها أو الوقوع فيها [9].

وسلب صاحب الرحلة الاغضاء عن هفواته في تسجيل ملاحظاته، وتبيان السبب والغاية من الأطناب في الوصف [10].... فإنه في نظري، يشكل قسما مهما من الرحلة.

8– رحلة الكردودي ص 25 وما بعدها.

9– رحلة الكردودي ص 32.

10–رحلة العمراوي ص125 –126.

ولعل ما لفت أنظار المغاربة في المجال الحضاري وسائل النقل ووصف المؤسسات العصرية وأعمالها ووظائفها كالمدن والطرق ودار السلاح والسكة والبرلمان؛ أما في المجال الثقافي فإن ما شغلهم هو الإنسان الغربي بجنسيته ودور الطباعة والكتب والصحافة والمسارح.

أ- *الرفض:*

1- *المجال الحضاري وموقف الرفض:*

وقف كتاب الرحلات موقف الرفض من الخبائث، يأتي على رأسها الخمور، وكثرة وجودها بالبلدان المسيحية؛ فالصفار مثلا يذكر كثرة الخمور عندهم قائلا: "وأعظم ما تؤدى عليه المكوس عندهم هو الخمر حتى جعلوها ديوانة مخصوصة في ناحية على حدتها، فيها عدة من الخزائن والبيوت المعدة لانزال براميلة، وهو من ضروريات العيش عندهم" [الورقة 56]». وعن أول مراسي الفرنسيين (بور بندر) يقول: "ولم نر في مرساها من السلع إلا بوطات الخمر" [21] ويقول: "ولو ارتقيت خمرهم لفاضت منها البحار"[33] .

ومما يرتبط بالخمر من خبائث أيضا البخاسات، وقد كانت تجري على وجه الأرض" ومما يستقيم في مرسيليا أن مجاري أخبائها ونجاساتها تمر على وجه الأرض في وسط الشوارع، لا يخلو منها طريق، وذلك في التبول لاغير، وأما الغائط فإنه يباع بالثمن، فلا يفضل حتى يسيح على وجه الأرض، فله أهل موكلون به يطوفون عليه ببوطات كبار يملؤونها منه ويبيعونه لتزبيل الأرض والأشجار(38)وكل هذا لعدم وجود مراحيض ومهاريق للماء في بيوتها، كما عندنا، يقول: "وهم في غنية عن إهراق الماء، فلم يستعدوا له، وما يجتمع في البيت من الماء الوسخ والتبول وغيره يخرجونه في الأواني، وقضاء الحاجة.

* نشير، من الآن إلى أرقام الأوراق أو الصفحات، واضعينها بين معقوفين.

يكون عندهم في الأواني[60]. وهم أيضا "يبولون في أصول الحيطان في الزقاق، وليس ذلك عندهم عيبا"[65] فإذا انضاف إلى ذلك الماء الجاري على وجه الأرض، ورغم أنه "لايضر بالماشين"[68] فإنه يؤشر على مظهر وسخ للحضارة المادية الفرنسية في هذه الفترة، شكلا ، ومحتوى، وهذا ما يؤكده العمراوي: "فأينما توجهت شممت رائحة منتنة، وكل بلاد النصارى معروفة بهذه الشنشنة أي العادة الغالبة" ص.[63].

ثم ينتقل الصفار إلى الأرض في مجال الزراعة، فيقارن بينها وبين بلاد المغرب، فيفضل الثانية: "أرضهم على الجملة، ليست أرض خصب وكلأ كأرض المغرب"[34] ويقول:"ولم نر عندهم شيئا من

النباتات والعشب التي تكون عندنا في فصل الشتاء"(نفسها). إذن فما سر تقدمهم؟ إنه الصناعة دون شك. ولكن السفير، مع ذلك، هو يطوف بالمعامل (الفابركات) بمدينة ليون مثلا، يثيره المظهر الوسخ لتلك المعامل، يقول الصفار:"وبها كثير من ديار الصنائع التي يسمونها الفبريكات حتى إن جل حيطانها سود من دخان ديار الصنائع"[4 4].

ثم يعود إلى بيوتهم، فينتقدها كذلك، لأن المسلم عد فيها مشقة في الوضوء: "وليس في بيوتهم مهاريق للماء، فلا تجد أين ترسل شيئا من الماء ولا نقطة، وكان يشق علينا الوضوء لأجل ذلك، فكنا نحتاج أن نأتي بإناءين أحدهما فيه الماء والآخر نتوضأ فيه مع مشقة واحتيال لصغر الإناء لأن أرضهم مفروشة بالزرابي إذا قطر عليها الماء أفسدها [6 0] وفرش الأرض بالزرابي يثير استغراب المغربي المسلم إذ الناس يمشون على الزرابي دون خلع أحذيتهم كما ينتقد أو يكره أكلهم: "وكنا نكره مجيء وقت الأكل لطول الجلوس ولا نفهم كلامهم مع أن كثيرا من أطعمتهم لا توافقنا فكنا نعيى ونمل لطول المكث والجلوس"[9 0].

والحاصل أن هذه المظاهر المادية للحضارة الغربية إن كانت تخدش حياء المسلم وتؤذي حواسه، فإنها كانت تشير مع الشرع على طرفي نقيض، لذلك جاهر علماؤنا بعدائها وانتقادها.

2- أما المظاهر المعنوية فنتقي منها أكثرها تمثيلا لموقف أصحاب الرحلات ويبدو أن أبرز ما وقفوا له ا بالمرصاد هو عقيدة النصارى الفاسدة، وأيمانهم بالتثليث، وإلهية المسيح عيسى عليه السلام: "وهم يزعمون أنه - الصليب - عيسى أي صورته مصلوبا، ولا شك أنهم يعتقدون إلهيته كما أخبر عنهم القرآن العزيز. ولا شك في كذب زعمهم وبطلان معتقدهم. ما لهم به من علم... وهذا هو الصليب المنصوب في كنائسهم يعبدونه ويعظمونه ويصلون له. ويكسره عيسى عليه السلام عند نزوله تكذيبا لهم وإبطالا لما يدعونه من تعظيم ولإبطال دين النصرانية" [الورقة 0 4]: "وإذ سألت أحدا منهم عن تلك الصورة وصورة عيسى ماهي؟ فيصرح بالألوهية وبالنبوة وبالأمومة في جانب مريم حاشا هما من ذلك وتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا. وما زادتنا رؤية ذلك إلا تبصرا بكفرهم واطلاعا على إبطال معتقدتهم وسخافة عقولهم، فالحمد لله الذي هدانا للملة الحنيفية" (نفسه).

ومن انتقاد تمثيل الصلب في زعمهم، إلى انتقاد الرسوم والتماثيل في كل أنبيتهم فمثلا قصر (الوفر) يعج متحفه بالتصاوير، والصفار يعجب به، ولكنه مع ذلك يقول:؛ والحاصل هو قصر مشيد ضخم ظريف مزخرف لولا كثرة ما فيه من التصاوير فإنها تقبح حسنه"

[118]ويستغفر الله مما رآه في موضع يسمى (البنطييوذ): "ومن خرافاتهم هنا لك أن عمد قيم

ذلك الموضع إلى ثقل في ركن وله منفذ تحت الأرض فجعل فمه عليه وأخذ يسأل الأموات ويجيبه صدى من تحت الأرض فيقول ما معناه: كيف أنتم؟ ويقول بخير، فيجيبه الصدى: بخير، كأن الأموات يجيبونه وهو يجيب نفسه بنفسه" [130]. "وأستغفر الله مما سمعته أذناي من الإشراك والكفريات الفظيعة[149].

والكذب عندهم غالب عليهم، فبالإضافة إلى الكذب على الله وعلى المسيح عليه السلام فإن كذبهم على الناس كثير. واختلاف الأحداث في الجرائد "الكازيطات" ظاهر: "وليس ما فيها كله صحيح، بل ربما كان الكذب فيها أكثر من الصدق" [ورقة 79].

أما سلوك الناس، أفرادا وجماعات،فيثير الإستغراب والسمط لدى الصفار: من ذلك مثلا انتقاد معاملة ربوية بين الناس ليست مما هو متعارف عليه في مجال التجارة أو الأبناك: "ومن ذلك أيضا وجه آخر يستعمله التجار فيما بينهم فيشتري رجل من آخر سلعة، بثمن معلوم، ولا يدفع المشتري ثمنا ولا البائع سلعة، ويضربون لذلك أجلا فإذا مضى الأجل ينظر فإن زادت تلك السلعة دفع المشتري تلك الزيادة، وإن نقصت دفعها المشتري للبائع، وإن لم تزد أو تنقص فلا له ولا عليه، وحيلهم وتدبيراتهم في ذلك لا تحصى، واستنباطاتهم لا تستقصى، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون" [148]. وهو ينتقد الفرنسيين في عادة جلوسهم. يقول: "هؤلاء القوم لا يعرفون الجلوس بالأرض أصلا، ولا تطاوعهم لبستهم له تضيق سراويلهم" 22

وأما الإختلاط بين الجنسين فإنه اتخذ مظهرين مختلفين في عين علمائنا: فحين كان يجب أن يمنع أباصون فوقع، وهذا في الشوارع والأسواق والأكداش"السيارات" والمسارح [ورقة 75] وحين كان يجب أو يحسن أن يقع فإنه امتنع، وهذا مثل عادات الناس في المبيت، فإن كل فرد من أفراد العائلة كان ينام في غرفة بمفرده، بما في ذلك الزوجان، إلا في العام الأول من الزواج. يقول العمراوي: "ولا ينام الرجل في البيت إلا وحده، وإنما ينام مع زوجته في بيت واحد في العام الأول من زفافهم" [ص 59 – 60].

ويبقى أن ما ينتقده أصحاب الرحلات هو فساد العقيدة وما يرتبط بها من كل حرام أو نجاسة...

وأما قبول الجوانب الحضارية والثقافية فقد كان الغالب على أصحابنا.

II- القبول:

1) المجال الحضاري:

لعل ما لفت انتباه المغاربة كثيرا هو ما يتعلق بالمواصلات ووسائل الإتصال؛ وهم حينما كانوا يصفون، بدقة، الطرق البرية والبحرية والعربات والبابورات (البواخر والقطارات) والمحركات التي كانت تسير بالفحم والتي كانت تسير بالرفاس وهي بواخر حربية في مقابل البواخر التجارية التي تسير بناعورتين خلفيتين [العمراوي: 37-38]، فإن كل ذلك وغيره مما يبرهن على مدى إعجابهم وقبولهم لهذه الموجة الحضارية للنصارى. وإن ما نستنتجه من حديث الصفار عنها، مثلا، أنها كانت كفيلة بجعل الغرب يتقدم علينا، ويوفر من الوقت والجهد ما ينفقه في جعل عجلة التقدم تسير بسرعة مهولة. فالطرق البرية كانت ممهدة، وحركة إصلاحها لا تهدأ لحظة واحدة، والعوائق الطبيعية كالجبال والأنهار كان يتم التغلب عليها؛ وطريقة نقل البضائع والبريد لم تكن تستعمل ظهور الجياد ولا الجياد الواحدة، وإنما كانت تنقل بواسطة البر وتغيير البوسطات هي (الجياد) في كل مرحلة من مراحل الطريق، لذلك كان البريد بين مرسيليا وباريس يستغرق ثلاثة أيام أو أقل ونحوا من الشهر لقطع نفس المسافة عندنا!!

وأما الطرق البحرية - وهي الأنهار - فإنهم احتالوا عليها وجعلوا مجاريها عميقة ليسهل تنقل السفن بها، وبنوا حافاتها، وجعلوا عليها قناطر لحركة الناس والأكداش فوقها، كما أنها مضاءة.

ومن المظاهر الحضارية، كذلك، التلغراف الذي يقول فيه الطاهر الفاسي، حين وصلهم خبر الريح الأصفر بفاس، أي الكوليرا: "والحاصل أن هناك محلا عظيما متسعا مشتملا على آلة في باطنها أسباب ومسببات غائبة عن الحس، وهي مما يدق وصفها ويصعب ذكرها.

اللـه أخـر مدتـي فتأخـــرت * * حتى رأيت في ذا[11] البلاد عجائبا[37]

ولئن كانت المواصلات ووسائل الإتصال تحقق ربحا للوقت وتوفيرا للجهد...فإن مظاهر أخرى كالتجارة والجانب العسكري والعمل عموما قد برز فيها النظام، من جهة، والنظافة من جهة ثانية [الصفار:22-23- و85].

إن المسافر في بلاد النصارى لا يهتم بحمل زاده وأمتعته معه، وإنما توجد المؤن والأغطية ومتطلبات السفر، في أماكن خاصة بها. ولقد لفت انتباه الصفار ما توفر عليه كل بيت في النزل الذي أقام به مدة، من فراش نظيف، وخزانة لحفظ الأمتعة وما يعز، ومـن الثريات وحسك الشمـوع

11- كذا في الأصل

والمرآت، والساعة لضبط الوقت، وغراريف الماء، وفوطات النظافة، وما إلى ذلك من أدوات موسيقية في البيوت وكانو ن التدفئة، كما لفت انتباهه المرأة ومشاركتهاالرجل في العمل، وقبل ذلك جمالها يقول في نساء ليون:

"وغالب من يخدم في هذه الصنائع بهذه المدينة وغيرها النساء، فعليهن العمدة في ذلك" [ورقة 44]. ويقول في الباريزيات:

"ولنسائها نصيب من الجمال والبياض وخصب البدن. وسواد العين والحاجبين معدوم عندهم. والنادر لاحكم له فلذلك يزين نساءهم لبس السواد، ويواتيهن أكثر من غيره من الألوان".[ورقة 86].

2– وأما الجمال الثقافي فنكتفي منه بالمطبعة والمسارح و البرلمان.

إن المطبعة من أعاجيب الصنائع، وأعجب ما رآه الرحالون آلة الكتابة. "فهناك نوع خاص يطبع لك الكتاب بأي خط شئت عربيا كان أم أعجميا، مغربيا أم مشرقيا، وكيف شئت" [ورقة 128]، وقد أدى ذلك إلى تدوين كل كبيرة وصغيرة عند الغربيين، وإلى إفادة المتأخر من التقدم، ولأجل ذلك لا يتكلون على حفظهم في شيء من ألأشياء خوف النسيان.

ويرتبط بالمطبعة والإعجاب بها، الصحف التي يكتب النصارى فيها كل شيء ، وبحرية، إلا إذا كان سرا من الأسرار [ورقة 77] وفائدة الصحافة، بالإضافة إلى الإطلاع على ما جد من الأخبار الصحيحة طبعا حسب سفائرنا، أن "من ظهر له رأي في أمر من الأمور ولم يكن من أهله فإنه يكتبه في الكازيطة ويشتهر لسائر الناس حتى يطلع عليه نور رأيهم، فإن كان سدادا اتبعوه وإن كان صاحبه حقيرا" [ورقة 79]. ومؤدي هذا أن يتم إجماع الأمة وأن يتحقق التقدم في المجال العلمي والفكري. والأهمية الصحفية فإن الفرنسي مثلا "قد يصبر على الأكل والشرب، ولا يصبر على النظر في الكازيطة "حسب الصفار [80] وهن المسرح يكتب أيضا: "هو محل يلعب فيه بمستغربات اللعب ومضحكاته وحكاية ما وقع من حرب أو نادرة أو نحو ذلك، فهو جد في صورة هزل لأنه قد يكون في ذلك اللعب اعتبار أو تأديب أو أعجوبة أو قضية مخصوص،

ويكتسبون من ذلك علوما جمة" [ورقة 71]، وهذا موقف يلفت الإنتباه من فقيه مسلم، لكن عندما ندقق النظر نجد أن هذا الرأي هو في االواقع رأي الفرنسيين وأن الكاتب يجاريهم فيه: "ويزعمون أن في ذلك تأديبا للنفوس وتهذيبا للأخلاق" [ورقة 76]. ولتبرير حضوره المسرح يعتمد الصفار على نصوص من سيرة النبي «ص» وصحابته تبيح الضحك ورقة [76]. وحديثه عن المسرح استغرق ورقات كثيرة: من 71 إلى 77 !

وأما البرلمان فيصف الصفار مقره قائلا: "ذهبنا للقمرتين الكبيرة والصغيرة. والغمرة دار يجتمعون فيها لتدبير قوانينهم، والكلام في أمورهم "[132]. ويصف كيفية بنائها وشكلها ولوازمها ونشاط النواب: "فالمتكلم يتكلم وهذا يكتب حتى يذهب ويحلو ويتأمل في ذلك الكلام فيوافق عليه أو يرده بحجته وإن ظهر لأحد من الجالسين أن يعارض ذلك المتكلم بمعارضة قريبة قام عن كرسيه وتكلم معه، وإن كانت المعارضة طويلة، فحتى تصل نوبته للتكلم، ويصعد ذلك المنبر، ويقول ما بدا له"[132].

ويشير إلى التصويت والحكم بأغلبية الأصوات، وشروط الإنتخابات وفتح دورة للمداولات وسلطة الملك عليه. وينهي كلامه عن الجاهزين دون الإشارة إلى أهميتها وحاجة المغرب إلى الإقتداء بتجربتها، ولو ببعض من ذلك.

يتجلى إذن أن المغاربة كانوا أكثر ميلا إلى الحضارة الأوروبية في أكثرمن مجالاتها، وإذ استثنينا جانب العقيدة وبعض المظاهر المختلفة في الحياة المعاصرة كالضجيج ليلا والرّوائح الخبيثة كرائحة الخمر والبول بالشوارع ودخان المصانع، وبعض السلوكات الربوية فإن الحضارة الغربية كانت تأسر سفراءنا، على الجانب المادي من تلك الحضارة كان له بريق في أعينهم.

III **موقف بين *القبول والرفض*:** وفوق كل ذلك، وما سبق الحديث عنه، لا يستطيع القارئ لتلك الرحلات إلا الخروج بموقف غير واضح لهؤلاء السفراء من مجموعة من القضايا أو هو موقف بين بين. ونعرض هنا للموقف من أهم مظاهر التقدم المادي، أعني الصناعة الحربية، فقد اتفق بهذا العدد الكردودي والطاهر الفاسي.

يقول الكردودي في جيش الإسبان: "وأين ذلك من ترتيبنا العجيب الذي لا يزدريه إلا خائن في دينه مريب فإنك ترى خيولنا العربية متى أخرجت من أماكنها وبرزت عن مكامنها واصطفت صفوفا وصارت ببسط الأرض وقوفا عليها فرسان لا يدرك شأوهم في الفروسية، رجال ليس منهم إلا من يختار لنفسه الظفر أو النية، ما رآهم من وصف بالاقدام إلا انفض عرقا وفقد عقله فرقا، أو جبانا إلا خر لوقته صريعا أو ولى منقلبا على وجهه سريعا، ذوو نفوس أدبية وقلوب على اكتساب المعالي منطوية، إن زحفوا لمواطن الحروب لا يعوزهم شيء عن الظفر بالمطلوب، أو برزوا لملاقات العسكر لا تجد منهم إلا من هو بقرنه ظافر ولعدوه قاهر أو ركبوا وأرهبوا، أو قاتلوا وغلبوا، أولائك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون" [85 – 86]

وقد وصف السفير عسكر المغرب وفضله على عسكر الإسبان، فهي غمرة وصفه لمظاهر القوة

عندهم وإعجابه بها، كوصف مصنع المدافع، مباشرة بعد ذلك الوصف!

ومما يؤكد أن السفير لا يمدح في وصف جندنا من واقع بل من خيال أو يملي من ذاكرة كثرة التنميق الأسلوبي في الفقرة بالإجماع والمزاوجة. حتى إننا نجد أن الحقيقة الضائعة بخصوص عسكرنا قد غطتها تلك التنميات أو أفصحت عنها.

ويقول الطاهر الفاسي في ذلك: "والحاصل أنهم اتبعوا لأنفسهم أولا في إدراك المسائل النظريات وكادوا على تحصيلها حتى صارت عندهم ضروريات، ولا زالوا يستنبطون بعقولهم أشياء كثيرة كما أحدثوا البابور وغيره"؛ غير أنه، بعد هذا المدح لهم سرعان ما ينتقدهم: ....لأن العقل على قسمين:ظلماني ونوراني؛ فالظلماني به يدركون هذه الأشياء الظلمانية، ويزيدهم ذلك توغلا في كفرهم، والنوراني به يدرك المؤمن المسائل المعنوية كالإيمان بالله وبملائكته ورسله وكل ما يقربنا من رضى الله. ومن هذا الباب وصفهم الله في غير ما آية بعدم العقل التفكر وبعدم الفقه" (الرحلة الأبريزية 28)

ومن المظاهر التي يقبلها السفير ويرفضها في آن معا سفر المرأة وعفتها، فهو يرى الإختلاط غير شرعي، وأن جمال "بنات الروم يلهي ويدهي"[ورقة 98] لكنه يصفهن بالوقار والحشمة: "وليس فيهن فاجرات ولا عاهرات"! [ورقة 108].

وأخيرا مسألة الإختلاط بالفرنجة والإنفصال عنهم، والذي حصل الإتفاق حوله هو المداراة، يقول الصفار عن الكلمةالتي ألقاها رئيس السفارة:وكل ذلك من المدارات(12) الواجبة في مثل ذلك المقام، ودارهم ما دمت في دارهم" [ورقة 100]، ثم يستشهد بأبيات في المعنى نفسه.

وهكذا يتجلى أن أسبابا كثيرة دفعت إلى هذه الرحلات السفارية، كتوثيق الصلات بين المغرب ودول أوروبا، وعقد الصفقات التجارية، ومراقبة ما وصلت إليه الحضارة المادية الغربية التي بدأ خطرها يداهم المغرب.

وقد كان ضعف الدولة المغربية في المقابل، وفي كثير من المناحي المادية، على رأس هذه الأسباب.

وقد كان يحدو السفراء رغبة في اقتناء ما يلزم الدولة المغربية من مظاهر التقدم العسكري والإداري خاصة. لهذا حرص السفراء على زيادة مصانع السلاح، وربما كان هذا هو الهدف الرئيسي لرحلاتهم؛ أما ما عداه، كالصحافة والأبناك مثلا، وكثير من المظاهر الشائنة فإن السفير

12- كذا في المخطوط.

كان يغمض عنها عينيه، بل إن كثيرا منها لم يوافق عليه من قبل مستقبلي السفراء. وينبغي أن لا نغفل أن الفرنسيين والإنجليز خاصة كانوا يتنافسون في كسب المغرب. وهذا ما جعل التنافس بين الدولتين قويا مما قضى بمزيد العناية برحلة الفاسي والعمراوي اللتين انطلقتا من المغرب في وقت واحد (13).

ولعل هذا هو ما جعل مؤرخ المغرب في القرن التاسع عشر، الناصري، لا يغتر بالحرية في دول أوروبا على المستوى الإجتماعي، أسرة كانت أم مجتمعا، يقول:

"واعلم أن هذه الحرية التي أحدثها الفرنجة في هذه السنين هي من وضع الزنادقة قطعا، لأنها تستلزم إسقاط حقوق الله وحقوق الوالدين وحقوق وحقوق الإنسانية رأسا، أما إسقاط حقوق الله فإن الله تعالى أوجب على تارك الصلاة والصوم وعلى شارب الخمر وعلى الزاني طائعا، حدودا معلومة، والحرية تقتضي إسقاط ذلك كما لا يخفى؛ وأما إسقاطها لحقوق الوالدين فلأنهم خذلهم الله، يقولون إن الولد الحدث إذا وصل إلى حد البلوغ البنت البكر أذا بلغت سن العشرين مثلا يفعلان بأنفسهما ما شاء، ولا كلام للوالدين فضلا عن الأقارب، فضلا عن الحاكم. ونحن نعلم أن الأب يسخطه ما يرى من ولده أو بنته من الأمور التي تهتك المروءة وتزري بالعرض سيما إذا كان من ذوي البيوتات..وأما إسقاطها لحقوق الإنسانية فإن الله تعالى لما خلق الإنسان كرمه وشرفه بالعقل الذي يعقله عن الوقوع في الرذائل ويبعثه على الإتصاف بالفضائل وبذلك تميز عما عداه من الحيوان. وضابط الحرية عندهم لا يوجب مراعاة هذه الأمور..." (14).

لقد دفع إلى كتابة هذه الرحلات السفارية إذن، ما كان عليه المغرب بعد حرب تطوان خاصة، من ضعف، وما كان يستشعره من ضرورة الحفاظ على سيادته ووحدته اتجاه الأطماع الإستعمارية؛ وربما اختلفت الرحلات المغربية السفارية عن مثيلتها الدراسية في المشرق العربي في هذا السبب بالذات، إذ أن مصر مثلا، كانت قوية نسبيا على عهد محمد علي الذي بعث الطهطاوي في بعثة طلابية إلى فرنسا.

ومع ذلك فإن رحالينا لم ينسوا الإشارة إلى رحلة الطهطاوي، واستفادتهم منها بل ونجد العمراوي يتقيد برحلته، عنوانا ومنهجا.

13- أنظرها متن 31 من رحلة العمراوي.

14 - الاستقصا 9/114.

ولعل أولى الإشارات إلى رحلة الطهطاوي عندنا هي التي نجدها عند الصفار الذي يقول: "جماتهم نحو ستين أرسلهم محمد بن علي لهنالك لتعلم العلوم التي لا توجد إلا عند هؤلاء القوم" [103].

أما العمراوي فإن عنوان رحلته "تحفة الملك العزيز بمملكة باريز" يشبه عنوان رحلة الطهطاوي "تلخيص الإبريز في تلخيص باريز".(15)

كما أن الرحلتين تتشابهان محتوى: فهما معا تعرضان لكل مظاهر الحياة العصرية في باريس، بقلم ناقد مسلم، طموح إلى نقل ما هو ضروري لحياة المسلمين اقتداءا بالسلف الصالح. يقول ابن إدريس، مثلا:

"فمقصودي أن أزين منها ما وافق الشرع وسلمه العقل والطبع ، ولعلهم قلدوا في بعض ذلك سلفنا الصالح الذين كانوا على السبيل الواضح"(ص:26 من المقدمة).

ويقول الطهطاوي: "وأنطقتها بحث ديار الإسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنائع فإن كمال ذلك ببلاد الإفرنجة أمر ثابت شائع. والحق أن يتبع" (ص:141).

بل ويتفق الرجلان في العبارة أحيانا: "فما قصرت في أن قيدت في سفري رحلة صغيرة نزهتها عن خلل التساهل والتحامل وبرأتها عن زلل التكاسل والتفاضل، ووشحتها ببعض استطرادات نافعة" كما يقول الطهطاوي [141] ويقول بن إدريس: "ونعتذر لأولي النقد والإعلام عما زادت به الأقلام وجلبته من فضول الكلام...وليظنوا بي الظن الجميل. فمما زغت عن الحق ولا عنه أميل" [ص 26 من المقدمة.

بقي أن نشير إلى أن أسلوب الرحلة هو في الواقع أسلوبان: فني في القسم الأول من الرحلة، وأسلوب علمي مرسل في باقي الأقسام الأخرى.

15- أنظر د. محمود فهمي حجازي، أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي مع النص الكامل لكتابة تخليص الابريز..." دراسة وتعليق، الهيئة المصرية العامة للكتاب1974. بل ويتفق الرجلان في العبارة أحيانا: "فما قصرت في أن قيدت في سفرى رحلة صغيرة نزهتها عن خلل التساهل والتحامل وبرأتها عن زلل التكاسل والتفاضل، ووشحتها ببعض استطرادات نافعة" كما يقول الطهاوي[141] ويقول ابن إدريس: "ونعتذر لأولي النقد والإعلام عما زادت به الأقلام وجلبته من فضول الكلام.... وليظنوا بي الظن الجميل، فمما زغت عن الحق ولا عنه أميل" [ص:26 من المقدمة].

فأما الأسلوب الفني فينمقه صاحبه إلى أقصى جد، ويضمنه كالعادة، أبياتا شعرية، وهو بذلك يدل على باعه في الإنشاء. وربما كانت الغاية هي أن يبين السفير أن المهمة التي انتدب لها هو أهل لها.

يقول الصفار مثلا: "الحمد لله مسير الخلائق في البر والبحر وميسر الطرائق والأسباب لمن شاء أن يسوقه إلى ما أراد من عمران أو قف. وقف بفضله ممن سبقت له العناية من خلقه فكانت تجارتها رابحة ولسعيهم أفضل فائدة، وأضل بعدله من كتب عليه الشقاوة فكانت صفقتهم خاسرة ووجهتهم عن صوب الصواب حائدة. ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة" [ورقة 11].

وهذه العناية بالعبارة نجدها حتى عند سفير من درجة أدبية وعلمية دون درجة الصفار أو ابن إدريس كأبي الجمال الطاهر الفاسي يقول: "أما بعد، فإنه لما من إليه على هذه الأقطار المغربية والديار الإدريسية لولاية السلطان الأصعد، المظفر الأسعد، المحفوف بالنصر المؤيد، سيدنا ومولانا محمد الذي به دافع الله عن الدين والأمة وكشف به عن الملة الإسلامية كل غمة، وأقام به معالم الإيمان بعد طموسها فتهللت أسرة الأيام بعد عبوسها...."(ص: 1).

إن هذا الأسلوب يخالف الأسلوب المرسل الذي يسجل به ما يراه السفير في رحلته، وهو أسلوب مليء بالمصطلحات وأسماء الإختراعات والأسماء الأعجمية، والأسماء الدارجة المغربية: "فأخبرنا الباشادور أن ركوبنا يكون في (بابور البر) بالتوجه فيه لمدريد الذي هو قاعدة ملكهم في الساعة الخامسة... وفي الوقت المذكور خرجنا لمحل (البابور) في (أكداش) أعدت لركوبنا و (كروصات) لحمل حوائجنا" [الكردودي، ص:39 – 40].

ويضيف الكردودي: " وبباطن هذه المدافع شرطات، وعمارة كل واحد منها عمارة متوسطة قنطارا واحدا من البارود فأكثر، ووزن كورته ثلاثة قناطير وستون رطلا وليست كعمل الكور القديم بل هي مستطيلة كهيئة قالب السكر... تقطع مسافة قدرها ستة آلاف يرضه رستمائة وعشرون يرضه وهو نحو أربعة أميال" (ص:26)

على أن الكتابة بهذين الأسلوبين المختلطين شكلت ظاهرة أدبية في الأدب العربي والمغربي بخاصة حتى في عصور القوة[16] و ربما كان الفارق بين العهدين هو أن الدارجة برزت في الكتابات العلمية[17] – كالرحلات مثلا وإن كانت دون طغيانها في نظيرتها بالمشرق العربي[18] وهكذا نجد أن الرحلات السفارية وإن كان ما هو موجود منها مخطوطا كان أم مطبوعا – قليلا بالنسبة إلى ما كتب في هذا الفن فإن القارئ يستطيع أن يأخذ فكرة عن المجتمع المغربي والغرب. وهي فكرة توضح موقف المغاربة من الآخر، وفي المجالات تقريبا على الرغم من أن الهدف من تلك الرحلات كان ربط الصلات بيننا وبين النصارى على الأقل، وإذ لم نقل أنه كان يهدف إلى تبني الأساليب المعاصرة في الحياة المدنية بالخصوص.

وإ ن القارئ ليلفت انتباهه أن تلك الرحلات – رغم التفاوت بينهما – تركز على مظاهر بقوة عند الآخر، وهي: النظام والنظافة بوجه عام والسرعة في إنجاز المهام وإتقان العمل والتعاون بين الأفراد والأجناس والأخذ بالرأي الصالح. وما عدا هذه الأور – كالعقيدة خاصة – فإن السفير المسلم لم يكن يهمه فيها شيء، بل أننا نجد الإستنكار والإستغفار هو ما يرشح به تقرير السفر. وطبعا فإن القراءة العكسية لما سبق تعطي صورة ناطقة بما كان يرزح تحته مجتمعنا في نهاية القرن الماضي.

16– أنظر مثلا في أدبنا المغربي ديباجة اليوسي لكتابة (زهر الأكم في الأمثال والحكم)المنمقة وأسلوبه المخفف من الصناعة فيما عدا ذلك من أبواب الكتاب.

17– لعل هذا ما جعل ذ.عبد الله كنون يصدر حكما نهضة الشعر وتقدمه على النثر في نهاية القرن الماضي، أنظر كتابة "أحاديث عن الأدب المغربي الحديث) نجز النبضة.

18– أنظر نماذج لذلك في كتاب عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ذ. حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي وإبراهيم سالم.

المصادر والمراجع:

1- المصـــــادر:

1- رحلة أبي عبد الله محمد بن عبد الله الصفار، مخطوط خ.ج رقم 113.

2- التحفة السنية للحضرة الشريفة الحسنية بالمملكة الإصبنيولية لأبي العباس أحمد بن محمد الكردودي، شرح عبد الوهاب بن منصور المطبعة الملكية 1963.

3- الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية لأبي الجمال محمد الطاهر بن عبدالرحمن الفاسي،تحقيق وتعليق ذ.محمد الفاسي مط.جامعة محمد الخامس فاس 1967.

4- تحفة الملك العزيز بمملكة باريز للكاتب الأديب الحاج إدريس بن إدريس العمراوي، تقديم وتعليق ذ.زكي مبارك، مؤسسة الطبع والنشر والتوزيع للشمال طنجة سلا 1989.

2- المراجـــــع:

2- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، لأحمد بن خالد الناصري جـ 9 دار الكتاب 1956.

3- أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي مع النص الكامل لكتاب تلخيص الابريزا، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1974.

5- مظاهر يقضة المغرب الحديث، للأستاذ محمد المنوني ط 1. 1973.

1- أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، ذ. عبد الله كنون، دار الثقافة ط 2 1978.

4- زهر الأكم في الأمثال ،الحكم، لليوسي تحقيق د.محمد حجي الأخضر. دار الثقافة ط1، 3 جـــ. 1981.

الإتجاه المذهبي للسلطان سيدي محمد بن عبدالله

أحمد علمي
كلية الأداب مكناس

لم يكن ارث السلطان سيدي محمد بن عبدالله هو فقط صراعات من أجل الوصول الى السلطة وانتفاضات مختلف فرق الجيش مستغلة تلك الصراعات ، بل أخطر من ذلك إنعكاسات تلك التطاحنات السياسية العسكرية على الحياة اليومية للمغاربة. فالمؤكد أن الأوضاع الإجتماعية نزلت إلى مستوى متدني ، وعرفت المؤسسات الإجتماعية ترديا خطيرا مثل مؤسسة العدل بمكوناتها المختلفة قصاة ، مفتون وعدول ، وإذا كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله قد استطاع إعادة الهدوء للمغرب بإخماده لفتن مختلف فصائل الجيش وردعه لبعض القبائل المنتفضة، فإن تردي الأوضاع الإجتماعية استمر بمدة خلال فترة حكمه مما اضطره الى فرض تشريعات إلزامية خاصة لضبط سلوك القضاة في تعاملهم مع القضايا التي تطرح عليهم، كما حدد من خلال تلك التشريعات مرجعيات رجال الفتوى وقنن مهنة العدول إبعادا لشهادة الزور التي استفحلت في أوساطهم مستندا في ذلك إلى أحكام الشريعة وسيرة السلف الصالح والعمل" بمقاصد الشريعة " أي قياس احكام الشريعة بمنطلق المصلحة خاصة فيما يخص المعاملات. وإلزم رجال التدريس بمقرراتارتكزت على القرآن والسنة ودراسة المساند وعدم الإكتفاء بالمختصرات بالنسبة لكتب الفقه. وسنقوم في هذا العرض بقراءة في بعض تلك الظهائر والرسائل[1]. التي أصدرها السلطان سيدي محمد بن عبدالله مبرزين إتجاهه المذهبي وفي الوقت نفسه الأوضاع الإجتماعية التي حاول صلاحها.

ورد في رسالة موجهة من السلطان سيدي محمد بن عبدالله إلى القضاة ما يلي: " كان القضاة والمفتون المنقدون يأخذون الفتاوي من كتب الأدمين المقبولين ، واليوم والعياذ بالله يأخذون الفتاوى من كتب المتأخرين ... الذين ليسوا المقبولين ولم يبلغ سندهم إلى الأئمة الأقدمين فلا عمل

1- عبد الرحمن بن زيدان: الاتحاف ، ج3 ، ط 1990.2. ص 188 وما بعدها

عليها ولا يحكم ولا يفتي بها مفت ولا يعمل بهـا قـاض ، فـإذا لـم يبلغ سندها إلـى فتـوى الأقدمين فسندها باطل... والمفتون اليوم والعياذ بالله قد مزجوا فتاوي المرضيين بالفتاوي الواهية غير مرضية ويحكم القاضي بتلك الفتوى الواهية ويمشي المحكوم عليه مغلوبا إلى المفتي فيفتي له أيضا بفتوى واهية ويغلبه على صاحبه، واشتغلوا بتغليب هذا على هذا بالفتاوى الواهية، فالقاضي وأصحابه يأكلون المال من الخصمين ... والمفتي كذلك يأكل بفتاويه الواهية اموال المسلمين .." (1).

يظهر من خلال ما ورد في هذه الرسالة أن السلطان كان سليفا أصوليا حيث يؤكد على الرجوع إلى الأصول كما تعكس الرسالة مستوى الفساد الذي وصلت إليه مؤسسة القضاء وانعكاس ذلك على المتقاضين الذين كانوا يتعرضون لأحكان جائرة، لذلك يذكر السلطان القضاة بمصادر الأحكام انطلاقا من المذهب المالكي والتي هي وفاقا، واختلافا على خمسة: المتفق على ثبات الحكم فيه والمشهور أو الراجع وما اختلف فيه على قولين متساويين إثباتا ونفيا والمرجوح والشاذ، إن إثارة السلطان لهذه المصادر تدفعنا إلى طرح التساؤلين التاليين: هل كان القضاة يجهلون المصادر الأساسية لا لأحكام وبالتالي كيف وصلوا الى مرتبة القضاء؟ ثانيا. هل هدف السلطان من رسالته للقضاة تذكيرهم فقط بتلك الأسس ، معنى ذلك أنهم كانوا على دراية بها إلا أنهم لم يكونوا يطيفونها ويصدرون الأحكام حسب أهوائهم. واذا كنا لم نطلع على مصادر يرجح من خلالها حالة على اخرى. فإن الفتنة التي عمت المغرب مدة ثلاثين سنة منذ وفاة السلطان مولاي إسماعيل تجعلنا نقول بوجود المالتين معا. إذ وجد من القضاة من كان جاهلا لتلك المبادىء ومن كان يتجاهلها في الوقت نفسه، فخلال الإضطرابات غالبا ما تعم الفوضى وتسند الأمور الى غير أهلها.

ثم يوضح السلطان كيفية التعامل مع مصادر الأحكام في العبادات والمعاملات فيقول:

" فالأقسام الأربعة ما عدا الأخير نعمل بها كلها في عبادتنا والقسم الخامس وهو الشاد لا نعمل به فيها. وأما غير العبادات مما يتعلق به حقوق العباد كالنكاح والطلاق والعتق والمعاملات الجارية بين الناس فالعمل عندي فيها بالأقسام الثلاثة، وهو المتفق عليه والمشهور وما تساوى فيه الطرفان، وأما القسمان الباقيان وهما مقابل المشهور والشاذ فلا" اعمل بهما في حقوق العبـــاد

---

1 – : عبد الرحمن بن زيدان: الاتحاف ، ج 3 ، ط 2 / 1990، ص 206–207

خوفا من المحذور – كذا – فخلاف العبادة فأعمل بمقابل المشهور دون الشاذ لأن العبادة بيني وبين ربي ودين الله يسر [1]".

فيلاحظ أن سيدي محمد بن عبد الله كان يميز بين العبادات والمعاملات في الأحكام، فبالنسبة للعبادات أكد على الأخذ بالمصادر الأربعة في الأحكام أي المتفق عليه والراجح وما تساوى فين قولات والمرجوح" لأن دين الله يسر كما قال تعالى وما جعل عليكم في الدين من حرج .."[2] أما جانب المعاملات فكان متشددا فيه حيث امربالإعتماد على المصادر الثلاثة الأولى في الأحكام أي المتفق عليه والراجح وما تساوى فيه قولان.

ولا شك أن تشدد السلطان فيما يخص المعاملات راجع إلى حالة التسيب التي عرفها مجال القضاء والفتوى والظلم الذي لحق بالناس من جراء ذلك ، مع العلم أن المرجع الأساسي كان هو المذهب المالكي، فيذكر سيذ محمد بن عبد الله :"والرجال الذين ذكرت يعتبر اتفاقهم واختلافهم فإني اعني بهم أصحاب الإمام مالك الدين حملوا عنه المذهب.." [3] اما غير أولئك فلا يؤخذ بفتواهم إلا إذا وافقت فتوى الأوائل.

« ... وإنما نظر القضاة اليوم إلى صاحب المال لماله وصاحب الجاه لجاهه فيحكمون لهم ويغلبونهم على المساكين بالقول الشاذ والعياد بالله ...» [4]

ومن الممارسات الشادة التي شاعت بين القضاة تحرير رسوم البيع دون وجود البائع، وقد كان ذلك سببا في حدوث النزاعات بين الناس وضياع حقوقهم واحداث خلل في توازن العلاقات الإجتماعية و بين الفئات داخل المجتمع. فأصدر السلطان سيدي محمد بن عبد الله رسالة يحث فيها القضاة على أن لا يحرروا عقود البيع إلا بحضور البائع أو المحجور:« ليعلم جميع من يتلوى خطة القضاء أنا أمرنا أن لا يباع على غائب أو محجور ذكرا أو أنثا فيما يستقبل من تاريخ كتابنا هذا عقارأوريع، فإن اطلعنا على رسم يتضمن ذلك فإنها تعاقب القاضي عليه

1- عبد الرحمن بن زيدان الاتحاف ، ج 3 ، ط 2 / 1990: ص 190

2- نفسه : ص 190

3- نفسه: ص 190

4- نفسه : ص 192

بالعقوبة الشديدة ويفسخ ذلك ولا يمضي منه شيء، ويبقى الغائب على حقه إلى أن يتقدم المحجور...»[1]

وقد خاض القضاة بتواطئ مع العدول وأصحاب الفتوى في كل أنواع التلاعب مناصرة للقوي« على المسكين صاحب الحق بالمال والرشوة حتى ينزعه منه ويشهد له العدول والقاضي يعمل له خاطره ويطيح حق ذلك المسكين، وبعض القضاة يحكمون لذلك الظالم بالفتاوي الواهية ...»[2]

ولوضع حد لتلاعب أصحاب الفتوى واستغلالهم لموقعهم لكسب المال الحرام وعرقلة مسيرة القضاء ألزمهم السلطان بأن لا يفتوا بحكم مشهور عند إصدار القاضي حكما استنادا الى مشهور آخر وأن حكم المفتي في تلك الحالة بصبح لاغيا، وإن أفتى في ذلك فإنه يتعرض للعقوبة لأنه ساهم في تكريس الخصام وأكل أموال الناس ، ولا يصبح حكم المفتي مقبولا إلا إذا كان مشهورا في مقابل حكم ضعيف أصدره القاضي ، وفي تلك الحالة يعيد القاضي النظر في حكمه بل يلغيه ويعمل بالمشهور وإلا تعرض للعقوبة والنزع [3].

وكان العدول الذين يشكلون جانبا أساسيا من مؤسسة القضاء قد وصلوا إلى مستوى من إشهاد الزور جعل السلطان محمد بن عبد الله يحاول تهميشهم جهد الإمكان، فقد ورد في احدى رسائله:« إذا اتى رجل بشهادة عدلين للقاضي على رجل أنه طلق زوجته وأنكر الزوج ذلك فلا يعمل بشهادتهما »[4]

ويعلق ابن زيدان على ذلك بقوله:" ارحم الله بعض شيوخنا فقد كان كثيرا ما يقول كل الناس عدول إلا العـــدول »[5] .

1- عبد الرحمن بن زيدان: الاتحاف ، ج 3 ، ط 2 / 1990 : ص 200

2- نفسه: ص 196

3- انظر الرسالة المتعلق بالموضوع في الإتحاف ج3 ص 197

4- نفسه ، ص 204

5- الإتحاف : ج3. هامش ص 204.

وقد سار السلطان إلى ابعد حد في نهميش العدول عندما أمر أن يعقد الزواج والطلاق سوافي البوادي أو المدن بتهييء الولائم قدر المستطاع واستدعاء الجيران والأقارب وإخبارهم بالحدث زواج أو طلاق ، لأن العدول كما يقول سيد ي محمد بن عبدالله:« الذين يشهدون على التزوير وعلى الطلاق فلا يعمل بشهادتهم .. إن تلك الشهادة باطلة لا يعمل بها ولا يحكي بها، وإنما العمل في التزوير والطلاق هو ما ذكرناه وبيناه ، قال عبدالله أمير المؤمنين محمد بن عبدالله عدول هذا الوقت لا أثبت شهادتهم ولا أجوزها على حمار غائب لا فائدة فيه أخرى على ترويح مسامة..»[1].

وفي إطار إعادة تنظيم المجتمع والعلاقات الإجتماعية بما في ذلك علاقة الزواج حدد السلطان سيدي محمد بن عبدالله قيمة الصداق وجعلها كما يلي : إذا كان الزوجان غيبان والزوجة بكرا فقيمة الصداق أربعين مثقالا ، وإذا كانت الزوجة ثيبا فعشرين مثقالا فقط وإذا كان الزوجان فقيرين فصداق البكر عشر مثاقيل وصداق الثيب خمسة فقط .« ولا يكون في الصداق لا مقدم ولا مؤخر وإنما يكون الصداق هو ما دفع ...»[2].

ويأتي بأحاديث الرسول (ص) وسير الصحابة تبريرا لمواقفه تلك فيقول: قال رسول الله (ص) « من يمن المرأة قلة مهرها» وقالت مولاتنا عائشة:« من شئوم المرأة كثر صداقها، ثم يذكر ان عمركلما بلغه ان شخصا دفع في صداق امرأة اكثر مما دفعه رسول الله (ص) أخذ الفائض ووضعه في بيت مال المسلمين ، وأن المغالاة في الصداق مكروه في المذهب المالكي[3].

كما اصدر عدة قوانين ترتبط بجوانب متعددة من الحياة الإجتماعية والإقتصادية كلها تنم عن الإجتهاد في إطار الشريعة أو ما يمكن تسميته" بالسياسة الشرعية» وكل تلك القوانين كان الهدف منها إعادة الهدوء والطمأنينة للمجتمع بعد ثلاثين سنة من الإضطرابات التي انعكست على مختلف المؤسسات الإجتماعية واثرت بشكل كبير على أخلاق الناس وسلوكهم وعقيدتهم إلى درجة أن

1-الإتحاف : ج3. هامش : ص 210

2- نفسه : ص 208

3- نفسه

الدارس من حقه أن يتساءل – وهو يحلل تلك القوانين والتشريعات – عن الحالة التي اصبح عليها فهم الذين من طرف عامة المغاربة خلال تلك الفترة المضطربة، فقد ورد في إحدى رسائل السلطان سيدي محمد بن عبدالله:«و قد بلغنا ما حدث في العامة من عموم الجهل بالتوحيد وأصول الشريعة وفروعها حتى ارتكبوا أمورا تقارب الكفرا وهي الكفر بعينه» [1] ثم يقول في الرسالة نفسها:«..وهذا أخر الزمان الذي اخر الصادق المصدوق بفساده وعموم الفتن والأهواء والبدع الدالة على اقتراب الساعة نسأل الله سبحانه حسن الخاتمة » [2] ويرى أنه من بين اسباب تلك الوضعية المتردية ضياع العلم «... وذلك من خلو القبائل من طلبة العلم. العاملين وقلة المرشد المعنين حتى تجد في القرية الكبيرة عالما يرجعون إليه في مسائل دينهم ونوازأحكامهم...، وذلك من تفريط العمال وقلة اعتنائهم بالدين ...» [3].

وواضح أن العلم الذي يقصده السلطان هو العلم المرتبط بالجانب الديني أساسا، ويظهر ذلك جليا من منشور وجهه الى مدرسي فاس ينامرهم فيه أن يركزوا على القرآن والتفسير:« ... المدرسين في مساجد فاس فإنا أمرناهم أن لا يدرسوا إلا كتاب الله تعالى بتفسيره وكتاب دلائل الخيرات والصلاة على رسول الله ...»[4] ولا نعتقد أن سيدي محمد بن عبدالله قد نهج نهجا جديدا في المبادىء الأساسية للتدريس بحثه على تلقين كتاب الله ورسوله بالاساس ، بل ذلك هو ما سارت عليه عملية التدريس خلال تاريخ المغرب و إلى عهد قريب جدا ، لذلك فإن رسالة السلطان إلى المدرسين هي من قبيل التأكيد على شيء كان معمولا به من قبل كما ذكرنا، وأهمية الرسالة هي أنهاتؤكد على ما ينبغي تدريسه من علوم لضبط الأوضاع الإجتماعية ولا يمكن أن تقوم تلك العلوم الا علوما دينية حسب قناة السلطان وهو يؤكد أيضا على صحاح كتب الحديث وعلى مدونة للحنون في الفقه ودراسة مقدمة ابن رشيد والرسالة لإبن ابي زيد وغير ذلك من كتب الأقدمين. كما يحدد الشروح التي ينبغي أن يدرس بها خليل ، فمثلا من يدريس خليـــل

1- الإتحاف : ج3. هامش ص 216

2- نفسه . ص 217

3- نفسه.ص 216

4- نفسه . ص 211

« بالزرقاني وأمقاله من شراح خليل فإنه يكون كما أهرق الماء واتبع السراب... » [1]

وحدد أيضا كتب السير مؤكدا على كتاب ابن سيد الناس اليعمري ؛ كما ألزم المدرسين بتلقين كتب النحو والألفية« والتصريف وديوان الشعراء الست ومقامات الحريري والقاموس ولسان العرب وأمثالهما» مؤكدا أن الغاية من تلك المصادر هي فهم اللغة العربية التي بها يمكن فهم القرآن والحديث وهي أسماء ما يمكن أن يصل إليه الدارس. فيقول:«..تعين على فهم كلام العرب لأنها وسيلة إلى فهم كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وناهيك بها نتيجة» [2]

وخصص لدارسي الأسطرلاب وعلم الحساب ميزانية من الأحباس« لما في ذلك من المنفعة العظيمة والفائدة الكبيرة لأوقات الصلاة والميراث» [3]. أما علم الأصول فقد نهى عن الخوض فيه« لأن دواوينه قد دونت ولم يبق إجتهاد » [4]، كما منع تدريس علم الكلام والمنطق والفلسفة والقصص ، وما أراد أن يقرأ ذلك فليقرأه« في داره مع أصحابه الذين لا يدرون بأنهم لا يدرون ، ومن تعاطى ما ذكرنا في المساجد ونالته عقوبة فلا يلوم إلا نفسه ...» [5]

فالمقررات المخصصة للتدريس هي تلك التي وقفنا عليها وهي كما يلاحظ تنقسم إلى قسمين ، قسم مرتبط بالجانب الديني مباشرة وقسم مرتبط بالدين عن طريق اللغة والنحو، فالغاية هي إذا التفقه في الدين، واللغة ، والنحو وسيلة أساسية لذلك، ثم إن دراسة الأسطرلاب والحساب ضروريان لضبط مواقيت الصلاة وتحديد المواريث. فإذا كان لابد من تحديد الأهداف لوضع البرامج التعليمية فإن السلطان سيدي محمد بن عبدالله قد حدد فعلا الأهداف وألزم المدرسين بمقررات معينة لبلوغ تلك الأهداف/ المردي.

1- الإتحاف : ج3. هامش. ص 212

2- نفسه ، ص 213

3- نفسه

4- نفسه

5- نفسه

وإذا كانت تلك المواد التي وقفنا عليها هي التي حددت رسميا للتدريس فمعنى ذلك أن علوما ومعارف أخرى كانت مطروحة في سوق المعرفة، إلا أنها استثنت من المقرر التعليمي ، وأكيد أنه كان من الطلبة من يهتم بها ويدرسها[1] ولو في داره، ومن تلك المواد المنطق والفلسفة وعلم الكلام.

ويعتبر السلطان سيدي محمد بن عبد الله الطلبة الذين يدرسون تلك العلوم التي نهى عنها « ما مرادهم بتعاطيها إلا الظهور والرياء والسمعة ويظلون طلبة البادية...»[2] وهذا يعني أن تحبه من الطلبة قد برزت في بعض المدن ذات الإشعاع العلمي مثل فاس وجهت اهتمامها إلى دراسة تلك المعارف العقلية بما يتطلبه ذلك من إستعمال أدوات تحليلية عميقة،الا أنها منعت خشية الإنحراف عن العقيدة، ولاشك أن علوم العقل شكلت في كثير من فترات التاريخ الإسلامي - خاصة فترات الإنحطاط - بالنسبة للسلطات الحاكمة هاجسا جعلها تتعامل مع من يتعاطاها بحذر.

والخلاصة أن السلطان سيدي محمد بن عبدالله جعل من الدين وبشكل خاص من الأصولية الدينية اداة إصلاحية للأوضاع المتردية التي عرفتها البلاد، مع اجتهادات في إطار مقاصد الشريعة، ولاشك أن ذلك النهج الأصولي كان واردا بالنظر الى مستوى التراجع الذي عرفه المغرب وعلى مختلف الأصعدة طيلة فترة الثلاثين سنة (1727-1757) فعندما تصل الأوضاع - في مجتمع إلى مستوى معين من التردي تبرز الأصولية محاولة تجاوز الأوضاع إذا ما استطاعت تطبيق مبادئها. وقد تمكن فعلا السلطان من إعادة الهدوء إلى البلاد بإعادة هيكلة مختلف مؤسسات المجتمع انطلاقا من المرجعيات التي ذكرناها.

إلا أن الهدوء لا يعني التطور ، وكل ما قام السلطان بتحقيقه هو إعادة انتاج أوضاع ما قبل أزمة الثلاثين سنة، أي ضبط الوضع الداخلي وهو الإمكان والبروز على الساحة الدولية بعقد اتفاقيات مع دول أوربا والإعتراف بالولايات المتحدة الأمريكية.

1- كان التداوي بن سردة يدرس المنطق بفاس بالإضافة الى مواد علمية ممنوعة.

2- الإتحاف ، ج3 . ص 213

الكلمة الختامية للسيد قيدوم كلية الآداب والعلوم الإنسانية

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسوله الكريم

زملائـــي الأســـاتذة
إخوانـــي الطلبـــة
أيها الحضور الكريـــم

ها نحن نختتم بحمد الله وعونه ندوة *"الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية إلى أواخر القرن 19"* التي نظمتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الأول بوجدة تحت الرعاية السامية لصاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، وقد كانت جلساتها الست حافلة بالعطاء العلمي والنقاش المغني الذي أسهم فيه ضيوفنا الأعزاء الذين قدموا من مختلف الجامعات الوطنية، إلى جانب زملائهم من مدينة وجدة.

أيها الســـادة

إن محاور الموضوع الذي أثارته عروض ومداخلات السادة الأساتذة الباحثين قد ساهم دون شك في تسليط المزيد من الأضواء على جوانب من الحركة الفكرية والثقافية التي شهدتها تلك الحقبة المجيدة من تاريخ الدولة العلوية الشريفة. وقد كان من علامات نجاح ندوتنا إقبال جمهور الطلبة والمثقفين على تتبع أعمالها والمشاركة البناءة في مناقشتها، وعسى أن تكون قد وطدت مكانة كليتنا من جديد في القيام بدورها في ميدان ربط ماضينا بحاضرنا من جهة وضمان مزيد من الإشعاع الثقافي لكليتنا من جهة أخرى.

ولا أريد أن تفوتني مناسبة هذا الحفل الإختتامي دون التوجه بالشكر والتقدير لزملائي وإخواني الأساتذة الذين تجشموا عناء السفر رغم مشاغلهم الجامعية العديدة، وقد أضفى

حضورهم على لقائنا صفة الجدية والعطاء وأتاحوا لنا جميعا فرصة أخرى للإعتزاز بما يكنونه لكليتنا من التقدير والإعتبار.

وأغتنم الفرصة المتجددة لأعبر لسعادة عامل صاحب الجلالة على إقليم وجدة على مشاعر التقدير وعبارات الشكر والإمتنان على ما أحاط به الندوة والمشاركين فيها من دعم وعناية، كما أتقدم بجزيل شكري لكل من السيد رئيس المجموعة الحضرية والسيد رئيس المجلس العلمي لإقليمي وجدة وفجيج والسيد عميد جامعة محمد الأول وإلى كل الذين ساعدونا على إنجاح هذه الندوة المباركة من فعاليات المدينة ووسائل الإعلام. واسمحوا لي أيها السادة الكرام بأن أهنئ وأشكر إخواني أساتذة الكلية على ما بذلوه من مجهودات في هذه الندوة وأخص من بينهم أعضاء اللجنة المنظمة الذين تجندوا منذ شهور لإعداد البرنامج العلمي المقترح والتفكير في جميع الترتيبات الكفيلة بضمان نجاح أيامنا الدراسية هاته. أما الموظفون الإداريون بالكلية فقد أخذوا على عاتقهم مرة أخرى المساهمة الإيجابية في تهيئ وتوفير الظروف المادية لانعقاد الندوة الأمر الذي يستحقون عليه التنويه والشكر.

وفي الأخير أتمنى أن نسعد مرة أخرى بالإجتماع إليكم في أقرب المناسبات العلمية، وفقنا الله إلى ما فيه خير أمتنا تحت ظل راعي العلم والعلماء صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الكلمة الختامية للجنة المنظمة

عبد الإله بلمليح
كليـة الآداب. وجـــدة

باسم الله الرحمان الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

زملائـــي الأساتـــذة
إخوانـــي الطلبـــة
ايهـا الحضـور الكريم

ها نحن قد أنهينا بحمد الله وحسن عونه أعمال ندوة "الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية إلى أواخر القرن 19"، التي شدت إليها زمرة من الباحثين الأجلاء من مختلف كليات ومعاهد المملكة. فإليهم جميعا نتوجه بخالص شكرنا وامتناننا على ما بذلوه من مجهودات قيمة ساهمت في إثراء وإنجاح هذا الملتقى العلمي الكبير.

ايها الســـــادة

يحق لنا أن نهنئ أنفسنا على الحصيلة العلمية التي أبرزتها هذه الندوة من خلال إحدى وعشرين مداخلة، تركزت حول المحاور التالية:

- سمات وخصائص المرحلة التاريخية الممتدة من القرن 17 إلى أواخر القرن 19، سواء من الناحية الأدبية أو الفكرية أو التاريخية.
- تحديد طبيعة العلاقة الثلاثية الأبعاد بين العلماء والسلطة والمجتمع خلال نفس الفترة.
- صدى هذه الحركة العلمية خارج المغرب سواء في المشرق الإسلامي أو أوروبا أو إفريقيا ... وذلك عبر الوثائق والرحلات وغيرها من أدوات التواصل الحضاري.

وأملنا كبير أن تفتح هذه المحاور آفاقا جديدة للبحث في هذه الفترة التاريخية الهامة.

ولنا اليقين أن هذه الندوة حققت ماكان يرجى منها، بفضل تكاثف جهودكم وجهودنا جميعا: أساتذة وباحثين وأطر إدارية وأعوان. وتجلى هذا النجاح في ما كان يعقب كل جلسة من جلسات الندوة الست من مناقشات وتساؤلات وتعقيبات جادة وعميقة. كما نود أن نتوجه بشكرنا الجزيل الى رجال الصحافة المسموعة والمرئية والمكتوبة الذين واكبوا أشغال ندوتنا هاته.

أيها السـادة

ارتأت اللجنة المنظمة انطلاقا مما ساد جلسات هذه التظاهرة العلمية أن تقترح عليكم عددا من التوصيات، آملين أن تعملوا معنا على إثرائها:

1 – إسهاما في اللجنة في إشراك جمهور واسع من الأساتذة والطلبة والمهتمين بموضوعات هذه الندوة، توصي بطبع أعمالها، وتهيب بالأساتذة المشاركين الذين لم تتوصل بمداخلاتهم بعد، أن يوافوها بها عما قريب، كما تهيب اللجنة في هذا الصدد بالسيد قيدوم الكلية أن يعمل على طبع أعمال الندوة في ـ أقرب الأجال، كما نأمل أن تساهم فعاليات أخرى من داخل مدينة وجدة في هذا المشروع الهام.

2 – توصي اللجنة بجمع ما أمكن من مخطوطات ووثائق ترجع إلى هذه الفترة، وذلك قصد جعلها في متناول الباحثين تحقيقا ودراسة...

3 – تطلب اللجنة المنظمة أن تعقد اتفاقية بين كلية الأداب والعلوم الإنسانية بوجدة ومركز الدراسات والبحوث العلوية بالريصاني تتويجا لأعمال هذا الملتقى، وتسطير برنامج علمي مشترك بينهما، يهدف الى تنظيم لقاءات علمية مشتركة وتبادل ثقافي هادف، حتى يتسنى لأساتذة هذه الكلية الإستفادة مما تزخر به خزانة المركز الفتية.

4 – توجه اللجنة المنظمة نداء إلى كافة الفعاليات الثقافية بمدينة وجدة، قصد تظافر الجهود من أجل النهوض بالعلم والعلماء في المنطقة، وتوجيه الإهتمام إلى الكشف عن جوانب هامة من تاريخ هذهالجهـــــة.

5 – تدعواللجنة المنظمة ذوي الإختصاص من سلطات محلية ومجالس منتخبة إلى الإهتمام بضريح أو مقام المولى امحمد بن الشريف، وذلك بفتح طريق توصل إليه، وإيلائه ما يستحق من عناية.

6 - بناء على أهداف الندوة التي تسعى إلى التعريف بالسلطان امحمد الأول الذي تحمل الجامعة إسمه، ثم الإطلاع على الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية، ونزولا عند رغبة المشاركين في الندوة من أساتذة وإداريين وجمهور الطلبة، وتفاديا لوقوع حوادث مؤسفة من جراء ضيق طريق الجامعة وغياب الإنارة بها، تلتمس اللجنة المنظمة من السيد رئيس المجموعة الحضرية المساهمة في تكريم العلم والعلماء بالعمل على ترصيف وتعبيد وإنارة هذه الطريق، تسهيلا من المجموعة الحضرية لمأمورية رجال البحث العلمي ومجموع الطلبة الذين يقبلون بالآلاف يوميا على الجامعة.

وفي الختام اجدد شكر اللجنة المنظمة وامتنانها العميق لكل من ساهم في انجاح هذا الملتقى العلمي الهام مشاركة ومناقشة وتنظيما.

نضرب لكم موعدا قريبا في لقاء علمي آخر.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

منشورات الكلية

ا - مجلة كلية الآداب.

- العدد الأول / 1990
- العدد الثاني / 1991
- العدد الثالث / (أعمال ندوة:
"حاضرة المغرب الشرقي: مدينة وجدة من التأسيس إلى الوقت الحاضر"
11 - 12 - 13 أبريل 1988)
- العدد الرابع/ (أعمال ندوة:
"الإنتاج الأدبي الحديث بالمغرب العربي بين المحلية العالمية"
23 - 24 فبراير 1989)

ا ا- سلسلة ندوات.

1- "جوانب من الأدب في المغرب الأقصى"
12-13- 14 أبريل 1984.

2- "المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر"
13- 14 - 15 مارس 1986.

3- "الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية إلى أواخر القرن 19"
09 -10-11 نونبر 1993.

ROYAUME DU MAROC

Université Mohamed Premier

Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines
OUJDA - N° 8 -

Série : Colloques et Séminaires - N° 3 -

Directeur Responsable:
Mohamed LAAMIRI Doyen de la Faculté

Rédacteur en chef:
Abdelilah BENMLIH

Traitement technique:
Mehdi HAMZAOUI

Comité de rédaction:

Abderrahmane EL HARRADJI
Said MENTAK
Mohamed KEMBOUCHE
Moulay Ahmed EL GAMOUNE
MohamMed EL KOUCHE
El houssine RAHMOUNE
Hrou AZZI
Miloud ZERROUKI
Mohammed MSALI
Mustapha RAMDANI
Cheikh SAADA
El Hassan EL MRANI
Mohamed HABBANI
Amar SELLAM
Mostafa BEN HAMZA
Mohamed RABBAOUI
Mohammed AMMEZIAN
Abdelaziz FAREH
Mohammed MENFAA
Abdeslam KCHIKECH

Colloque:

"Activité Intellectuelle sous le règne de la Dynastie Alaouite (17Siècle - 19 Siècle)"

Adresse
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines
B.P 457 60001 OUJDA
Tél : (6) 74 47 77 / 58
Fax: (6) 74 47 41

SOMMAIRE

- **La recuperation de territorios marroquies en la literatura española del XVII.**

Miguel A. MORETA 7

- **Le livre dans les négociations des Sultans Alaouites avec les puissances étrangères au XVII et XVIII siécle.**

Mohammed SADID 17

- **Moulay Ismail et l'Europe**

Baba SAHBI 25

LA RECUPERACIÒN DE TERRITORIOS MARROQUÌES EN LA LITTERATURA ESPAÑOLA DEL XVII

MIGUEL A. MORETA
Faculté des lettres

"Los mitos integrados de la conciencia cultural y social de un paìs tienen la piel muy dura".

(*Juan Goytisolo*)

En la maraña de géneros que cultiva la dramaturgia barroca española hay un grupo de obras denominado convencionalmente comedias de moros y cristianos,culminaciòn en cierta forma de una sostenida moda literaria: La maurofilia.(1) Esta idealizaciòn del moro podemos considerada como un final feliz (falso, como muchos pretendidos happy end, porque sabemos que ese final fue todo lo que se quiera menos feliz) de la larga y asendereada convivencia entre musulmanes y cristianos: Dicha maurofilia vino a manifestarse en pintorescos romances fronterizos y en estilizadas novelitas moriscas que daban vida -sobre el papel- a una imagen muy poetizada del otro(2), del moro que, bien avanzado el siglo XV, estaba dejando de ser considerado como un adversario peligroso.

Esta tendecia embellecedora sufrirìa una inflexiòn a partir del siglo XVI, determinada, tras la caìda de Granada, por el cambio de fronteras que supone de un lado la pajunte pirateria turco-berberisca en el Mediterràneo y, de otros, los esfuerzos de las monarquìas occidentales por mantener una serie de plazas en las costas del Magreb o por penetrar en territorio africano. Haciéndose eco de esta durìsima realidad, la producciòn literaria española darà génesis al subgénero del tema norteafricano.(3)

Durante todo el siglo XVII asistiremos a la floraciòn de una serie de tìtulos que agavillan, unos màs y otros menos, realidad norteafri-

cana y ficcion maurofila. Si hemos de creer a Camamis (citado en la nota anterior), el autor de la Topographia general e historia de Argel (Valladolid, 1612) y Miguel de Cervantes con su novela El capitàn cautivo (inserta en el Quijote), son los fundadores del relato de cautivos, seguidos después por otros novelistas tales como Alonso de Castillo Solòrzano, Marìa de Zayas Sotomayor o Lope de Vega (con sus novelas la desdicha por la honra y Guzmàn el bravo), sin olvidar a los autores de autobiografìas y prosa històrica. Sin embargo, es el género teatral quien ofrece mayores frutos; en un ràpido repaso recordemos al mismo cervantes (el trato de Argel, los baños de Argel, la gran sultana), otra vez a Lope de Vega (Argel fingido y renegado de amor, los cautivos de Argel, la mayor desgrcia de Carlos V y hechicerias de Argel, El cerco de Oràn, la tragedia del rey D. Sebastiàn y el bautismo del princìpe de Marruecos), a Juan de Gra jales (El bastardo de Ceuta)[4], a Guillén de castro (cerco de Tremén), a luis Vélez de Guevara (El cerco del Peñon deVélez), a Àlvaro Cubillode Aragòn (Entre los sueltos caballos), a Pedra Calderòn de la Barca (El gran prìncipe de Fez, El princìpe constante) y a Miguel de Barrios (El español de Oran). El muestreo, como se ve, va del màs veterano cevantes (1547-1616) al màs joven Barrios (1625-1701). La poesia tampoco es ajena a estos motivos; por solo citar a un autor, el poeta Luis de Gongora actualiza el romance morisco (servia enOran al rey, entre los sueltos caballos) o acoge las nuevas y tragicas experiencias en sus romances de cautivos (amarrado al duro banco, la desgracia del forzado) y, cuando no, se mofa descaradamente de la poco gloriosa toma de larache en en un notable soneto burlesco.[5]

Al conjuto de comedias mencionadas en el pàrrafo anterior pertenece la manganilla de Melilla[6] de guan ruiz de Alarcon (1580-1639), obra en la que elementos de una drama historico funcionan como soporte argumental de una comedia donde se dan cita numerosos motivos religiosos y efectistas que la convierten, en definitiva, en un espectàculo de magia, muy convecional y algo confuso. En esta pieza no escasean los ingredientes tipicamente barrocos, muy caros a Alarcon, como son los temas de la mentira, el amor violento y lo lo sobrenatural. Uno de los nucleos estructurales de la manganilla de

Melilla[7] es el asunto historico de trama que gira en torno al intento de conquistar la plaza norteafricana, entonces al mando del alcaide Pedro Vanegas de Còrdoba, por parte de un morabito que exhorta a los habitantes de la zona para que, sin armas, marchen sobre la fortaleza:

yo os exhorto y amonesto
que mis consejos sigais,
pues con mi ciencia a poneros
sin estépito marcial
dentro en Melilla me ofresco.
Abiertos tendéis sus muros
y a los cristianos en ellos
sin armas, y de tal suerte
sus bélicos instrumentos,
que aunque den fuego a las piezas,
las balas no impela el fuego
(vv. 2347-2357)

Ruiz de Alarcon hace Literatura de acontecimiento acaecido en 1564 y ampliamente comentado por la historiografia europea al uso.[8] Además, uno de los protagonistas, el alcaide Vanegas, escribiò una relacion de los hechos dirigida al rey Felipe II[9] en la que hace la crònica de las dos marchas pacificas (22 de abril y 19 de gunio) sobre Melilla. Compàrense los versos de antes con este fragmento de la carta de Vanegas, en la que se basaria Ruiz de Alarcon:

Y para ello decia enfriaria nuestro fuego, que no emprendiese en la polvora, para que artilleria y arcabuzeria no le diesen hacer mal; y las ballestas y toda otras armas encantaria, que no los hiriesen; y a todos los Christianos haria estar atònitos y modorros |....|

No està de màs que fijemos nuestra atencin en el retarto que del morabito[10] dibuja la relacion de Vanegas. Segun ella, es un hombre santo, con fama de milagroso, curandero ("devia de ser buen erbolario") y que goza de gran crebilidad entre los letrados:

Y concurrieron otros muchos moravitos y alfaquies a juntarse con estotro y a darle obediencia diciendo que, en sus profecìas, hallavan como este | morabito | havia de ganar a Melilla, que se havia de perder en este tiempo, y despues de Oran, y pasar a España, y la primera cosa que havia de ganar en ella havia de ser Màlaga | ... |

El texto se impregna de ideas de la época. Como ha estudiado Louis Cardillac[11], profetismo y el mesianismo era una de las manifestaciones del antagonismo entr moriscos y cristianos, al mismo tiempo que surgìa como expresiòn de la esperanza morisca en un destino mejor. Entre otros ejemplos, cita éste:

En 1569, à Grenade, c'est un certain Zacharìas qui confesse à l'Inquistation que les mores ont le ferme espoir d'une revanche: "Tenìan por sus libros y cuentos que esta tierra se avìa de tornar a perder y que la avìan de ganar los moros de Berberia". Le salut est proche et il viendra d'Afrique du nord: Bougie, Oran et Ceuta seront d'abord reconquis, ensuite une nouvelle invasion de l'Espagne aura lieu, en suivant la route de Tariq, miraculeusement ouverte: "Y que se havìa de apareceer en el estrecho de Gibraltar una puente de almbre, y que por ella havìan de pasar los Moros y tomar a toda España hasta Galicia". | B.N.M.,ms 4944,f 54r |

un par de notas màs nos interesa de la narraciòn del alcaide Vanegas, en las que se manifiesta la creencia en la provedencia divina, comùn a las dos religiones, y el dato històrico de otras funciones bélicas semejantes a las que él viviò:

Y vuelvo a dezir que estos dos suzeros se deven de atribuyr a milagro particular que Dios a querido mostar | ... | ha sido provisiòn divina | ... | porque batallas, sitos y combates de tierra prosperos y adversos vense cada dìa, mas pretender tomar una fortaleza y tan principal por encantamiento, y entrarse tan ciego y bestialemente por las puertas, creyendo que todo suyo, no lo he visto ni oydo dezir; aunque a Oran y

Buzia dizen que, en tiempo pasado, vino un morativo a encantar la artilleria | ... |

De esta forma, Vanegas nos pone en la pista de otros ataques parecidos, en lugares y fechas diferentes. El de Bugìa (1510-1511) lo refiere el cronista Pedro Màrtir de Angleria en una de sus epìstolas (la 448):

De Bugìa se dice que en un hàbil celada nuestras guarniciones causaron a los africanos un gran destrozo. Exito entre la gente de Africa una clase de hombres fanàticos llamados morabitos. Persuadidos por ellos todos los vicinos de que podrìan contener la victoria de nuestros cañones y que procurarìan que de ellos no pudieran salir disparos | ... |, reunidos un gran peloton de Moros, atacaron en cuña a Bugìa. Enterados los nuestros por medio de los observadores, esperan en silencio el resultado. Aprestaron barriles de pòlvora en las galerias subterràneas abiertas a mano con este objeto fuera de las murallas, trasladando al interior de las galerìas làmparas con fuego ardiente. Cuando los Moros se dieron cuenta de que todo estaba en silencio, imaginàndose era verdad todo cuanto los morabitos les habìan explicado, acercaron las tropas hasta las murallas dispuestos a ganarlas. | ... |[12]

Todavìa hay màs; Contra la Mamora (15 de agosto de 1614) otro morabito dirige un ataque, dando seguridad a quienes le siguen de encontrar dormidos y desarmados a los españoles.[13]

Aunque nuestro rastreo no ha sido, ni mucho menos, exhautivo (es de todo punto necesario conocer las fuentes documentales magrebìes), resulta evidente que todos estos sucesos presentan una estructura comùn: Un hombre santo, que dice poder actuar sobrenaturalmente sobre el adversario europeo y sus armas, convence a sus paisanos para (re) conquistar determinado lugar. Sospechamos que todos estos elementos son integradores de un mito, de un arquetipo[14], que tiene varios niveles de significado y que planteamos aquì, con cierta cautela, a modo de hipòtesis:

Desde un punto de vista polìtico-religioso, hay que entender estos hechos dentro del contexto de la competencia por la supremacìa de ciertos movimientos religiosos (marabutismo), coincidentes con vacìo de poder central y vinculados en el tiempo a la decadencia de

la dinastia saadita.[15] A veces, por tanto, los objetivos de estas ofensivas no son territorios detentados por extranjeros; asi, Ernest Mercier, tras mencionar a estos "marabouts...saints habités de l'effluve sacré (baraka), à la fois guérisseurs et thaumaturges...prédicateurs de jihad...", relata còmo uno de ellos, Abou Mahalli (que seìa muerto por Yahia ben-Abd-el-Mounaam Daoudi) exhorta a sus seguidores "auquels il avait persuadé que les balles ne perceraient pas leur peau et tomberaient mortes en les touchant" a marchar sobre el oasis de sidjilmassa.[16]

En el plano polìtico-històrico habìa que constatar que en el perìodo que qe inicia con la dinastìa alaouita, parece que se olvida esta forma de recuperar territorios. y es normal que asì haya sido, si tenemos en cuenta los cuidadosos planes que los diferntes monarcas alaouitas de los siglos XVIII y XIX diseñan para conseguir la integridad territorial.[17]

El nivel polìtico-cultural, el de su significado mitopoético, es el màs importante para nosotros. La (re) conquista de las plazas norteafriccanas nos lleva a la frontera, pero una frontera no sòlo especial, sino y sobre todo temporal: Ceuta y Melilla (como antes Oràn, Bujìa, la Mamora, etc.) son, como decìa un poeta marroquì, "hermanas de Al-Àndalus"[18] y Al-Àndlus es un "signo tanto de la mayor gloria y grandeza, del mayor orgullo también, de los àrabes, como de su mayor miseria y pequeñez, de su mayor vergüenza".[19] Decìa, ahondado en lo mismo, Nizar Qabbani que "España, para un àrabe, es un dolor històrico imposible".[20] En los ataques de los morabitos y en la espernza de los moriscos, en su discurso profético, palpita el mito -hasta hoy- de la recuperciòn de un tiempo y esplendor ya idos.[21]

NOTAS

1- Véase un estudio de conjunto en MARÌA SOLEDAD CARRASCO URGOITI (1956), El moro de Granada en la Literatura (del siglo XV al XIX), Madrid, Revista de Occidente. La Universidad de Granada ha publicado en 1989 una ediciòn facsìmil.

2- A "la continua oscilaciòn entr el desprecio al moro real y la fascinaciòn por su imagen idealizada" le ha dedicado atinadas pàginas JUAN GOYTISOLO (1982), "Cara y cruz del moro en nuestra literatura", pàgs. 7-25, en Cronicas sarracinas, Barcelona, Ruedo Ibérico.

3- Clave en este tipo de obras serà el tratamiento del cautiverio, al que ha atendido GEORGES CAMAMIS (1977), Estudios sobre el cautivoerio en el siglo de Oro, Madrid, Gredos, estudiando con detenimiento una obra fundacional: La topographia de Diego de Haedo.

4- A esta, y a otra comedia de Ruiz de Alarcòn, de la que luego trataremos, prestò su atenciòn DORA BACAICOA ARNÀIZ (1955), Notas hispano-marroquìes en dos comedias del siglo de oro, Tetuàn, Imprenta del Majzén.

5- Puede verse LEONARDO ROMERO TOBAAR (1978), "Sobre los poemas gongorinos dedicados a la toma de Larache", pàgs. 47-69, en revista de Literatura, LX.

6) Hay ediciòn reciente, JUAN RUIZ DE ALARCÒN (1993), la manganilla de Melilla, Màlaga, Algazara, con estudio històrico de Jesùs F. Salafranca y estudio crìtico-literario de Miguel A. Moreta.

7- Me permitiré, no màs que esta vez, una ligera nota lexicogràfica sobre la palabra manganilla, que ya acogé SEBASTIÀN DE COVARRUBIAS (1611) en su Tesoro de la lengua castellana: "es una manera de engaño artificioso y pronto, como suelen hacer los del juego de maesecoral", es decir, cosa propia de charlantes y embaucadores. El Diccionario de autoridades (1726-1739) insiste en el mismo sentido de "treta o sutileza de manos". Que estuvo vivo este vocable en el esspañol de América lo confirma el cubano ESTEBAN PICHARDO (1836), Diccionario provincial casi razonado de voces y frases cubanas: "trampa, ardir disimulado". JOAN CORMINAS (1954) recoge la primera documentaciòn, hacia 1300, con el significado de "cierta màquina de guerra lanzapiedras". Y, en fin, el Diccionario de la REAL

ACADEMIA ESPAÑOLA (19ª ed.,1970) resume: "Engaño; treta, ardir de guerra, sutileza de manos". Estimològicamente, deriva de mangana, "lazo que se arroja a las manos de un caballo o toro cuando va corriendo, para hacerle caer y sujetarlo" (de la que también deriva manganeta, "red para cazar pàjaros"); a su vez, mangana prviene del latìn, manganum, que lo habìa tomado prestado del griego, maggánon, "màquina de guerra, embrujo, sortilegio".

8- Véanse, entre otros: JUAN DE ESTRADA (1768), poblaciòn General de España, Madrid, Andrés Ramirez. JUAN DE MARINA (1852), Historia General de España, tomo III, Madrid, Gaspar y Roig. LEÒN GALINDO Y VERA (1884), Memoria històrica de las posesiones hispano-africanas, Madrid, Tello. GABRIEL DE MORALES (1909), Datos para la historia de Melilla, Melilla, Telegrama del Rif. ANTONIO CANOVAS DEL CASTILLO (1913), Apuntes para la historia de Marruecos, Madrid, Suàrez. JERÒNIMO BÉKER (1915), Historia de Marrucos, Madrid, Rates. MNUEL CASTLLANOS (1946), Historia de Marruecos, Madrid, Ministerio de AA.EE. FRANCISCO MIR BERLANGA

(1977), Melilla en los pasados siglos y otras historias, Madrid, Nacional.

9- El documento està en el MUSEO BRITÀNICO, Sucesos de Melilla, 23 de junio 1564, Manuscrito adicional 28.708,f 8. Lo reproduce HENRY DE CASTRIES (1918), Sources inédites pour l'histoire du Maroc, Pris.

10-Las denominaciones del personaje en cuestiòn varìan con cada historiador. Hemos podido leer Ademahamet Bualat, Mohamed Ben Alar, Mohamed ben A-lal, Ade Mahamet Buhalat, Sidi Maamet Ben Açus, Adi Mahamet Bu Balac y Amet Bichalìn (éste ùltimo, en la comedia de Ruiz de Alarcòn). Esta mente o no, a borrar la concreciòn de antropònimo, es comparable a lo que las mismas fuentes operan con los topònimos. A esto ùltimo se ha referido MAGLYI MORSOY (1978), "comment décrire l'histoire du Maroc", pàgs. 121-143, en Actes de Durham. Recherches recentes sur le Maroc moderne, Rabat, publication du Bulletin Economique et Social du Maroc.

11- LOUIS CARDILLAC (1977), Morisques et chrétiens. Un affrontement polémique (1492-1640), Paris, Klincksieck. Para la cita que viene a continuaciòn en el texto, véase la pàg.51. (Hay traducciòn espñola en la editorial Fondo de Cultura Econòmica , Madrid,1979).
12- Reproducido en EMILIO SOLA (1988), Un Mediterràneo de piratas: Corsarios, renegados y cautivos, pàgs. 182-183, Madrid, Tecnos.
13- Véase LEÒN GALINDO Y VERA, op. cit. supra nota 8, pàgs. 235-236. También enTOMÀS GARCÌA FIGUERAS (1973), Larache. Datos para su historia en el siglo XVII, pàg. 120, Madrid, c.S.I.C.
14- Dice JUAN COYTISOLO, op. cit. , pàg. 21: "identificar el origen de los mitos y leyendas que llegan hasta nosotros es casi siempre una empresa llena de imponderables azares. La escasez de documentos y pruebas fidedignos, la dificultad de rastrear la verdad en perìodos remotos, las frecuentes transferecias y préstamos culturales, los feòmenos de rechazo o adaptciòn de los hechos segùn las conveniencias sociales de la comunidad receptora vuelven sumamente aleatoria toda tentativa rigurosa de indagaciòn y rastreo. Los mitos se acumulan como capas geològicas sobre los elementos que originariamente los suscitan y la tarea del historiador deviene aventurada y fortuita como la del arqueòlogo: desenterrar las ruinas de los hechos, esforzarse en reconstruirlas, remontarse a sus cimientos y fundaciones, elaborar una teorìa plausible que establezca las diferentes fases de su trasformaciòn".
15- Esto es algo màs que una hipòtesis, segùn varios historidores. Véanse, por ejemplo, ABDALLAH LAROUI (1975), l'histoire du Magreb, Paris, Maspero, o ERNEST MERCIER (1891), Histoire de l'Afrique septentrional, Paris.
16- ERNEST MERCIER, op. cit., pàg. 193.
17- Asì se desprende del pormenorizado estudio de RAMÒN LOURIDO DÌAZ (1989), Marruecos y el mundo exterior en la segunda mitad del siglo XVIII, Madrid, instituo de cooperaciòn con el Mundo Àrabe.
18- La referencia en PEDRO MARTÌNEZ MONTÀVEZ (1992), Al-Àndalus, España, en la Literatura àrabe contemporànea (la casa del pasado), pàg. 281, Màlaga, Arguval.
19- PEDRO MARTINEZ MONTÀVEZ, op. cit., pàg. 138.
20- Frase que pertenece a su libro Qissati ma a-l-si r, Beirut, 1973.

La referencia en PEDRO MARTÌNEZ MONTÀVEZ, op. cit., pàg. 153.

21- Este sìmbolo de la casa del pasado es asumido, estética e ideològicamente, por la literatura española. Por ser muy conocido el caso de Juan Goytisolo (sobre todo a partir de Reivindicaciòn del conde don Juliàn), quiero señalar otro ejemplo; éste, de la novela Muertes de perro (1959) del escritor grandino Francisco Ayala. Cito por la ediciòn de Alianza, pàg. 89, Madrid, 1968: "Bajo la forma de un sueño, pretendìa camarasa ver sus anhelos de patriota almeriense (pues nuestro hombre era natural de esa desamparada, seca y resentidìsima provencia andaluza, cuyos hijos, obligados por la miseria a emigrar, suelen buscarse el pan en el norte africano), fingiendo que, a raìz de un supuesto incidente con Marruecos suscitado por la cuestiòn de la soberanìa sobre Ceuta y Melilla, se habìa producido un desembargo musulmàn en las costas de Almerìa, seguido por la declarciòn de independencia de este antiguo reino de taifas, que ahora volvìa a afirmarse como un estado libre frente a España.

Le livre dans la négociation des Sultans alaouites avec l'Europe au XVII siècle.

Mohamed SADID
Faculté des Lettres Rabat

Le livre est le support de civilisation par excellence. Les savoirs non écrits connaissent un développement limité et périssent avec le temps. La civilisation de l'écriture défie le facteur spatio-temporel et connaît un développement sans commune mesure avec les civilisations orales.

Depuis la naissance de l'écriture, le savoir humain a connu une évolution rapide. Le livre en est le support, le vecteur, le témoin et le symbole. Les techniques graphiques du tracé scriptural à la dernière découverte de saisie et de reproduction du texte traduisent, toutes, le degré scientifique de leur temps et le souci de l'Homme face à son être et à son devenir. Les incunables, les encyclopédies et le livre de poche traduisent, à leur manière, des étapes de l'évolution humaine.

En raison de cette importance majeure du livre les souverains et les monarques de tous les temps lui ont accordé un intérêt singulier. En égypte, le papyrus qui pouvait servir à la fabrication des livres était placé sous le contrôle de l'Etat et son exportation était soumise à l'autorisation préalable d'un haut fonctionnaire. La rivalité entre la bibliothèque d'Alexandrie et celle de Pergame a poussé le roi Ptolémé VIII à interdire l'exportation du papyrus vers le royaume d'Attal II, la Grèce. Cette affaire, et surtout les négociations qui l'ont suivie sont déterminantes dans l'évolution technique du livre. Elles constituent un tournant dans son histoire.

La civilisation arabe, pour sa part, est basée sur le livre. Du début de l'Islam à la moitié du premier siècle de l'hégire cette société est passée de 17 personnes sachant lire à une société de lettrés et de bibliophiles avec ses copistes, ses calligraphes, ses rubricateurs,ses relieurs et ses nombreuses bibliothèques. On vit alors la naissance d'une vraie industrie du livre.

Au Maghreb, le livre était le premier outil des conquérants arabes, ce qui lui a conféré une importance sans égale à travers les siècles et jusqu'à nos jours. Les Dynasties qui s'y sont succédées avaient une estime particulière pour les artisants du livre.

Cet amour pour le livre et le souci de le protéger a caractérisé le comportement des Dynasties qui ont gouverné le Maroc. Bien avant la chute de Grenade, les Sultans marocains rappatriaient des manuscrits pour enrichir leurs bibliothèques et alimenter le courant scientifique et culturel national. Les annales nous relatent tant de faits relatifs à ce souci digne de toutes les louanges.

A partir de la chute de Grenade et surtout à partir du début du XVI siècle, nous assistons à une véritable ruée vers les manuscrits au Maroc. L'Europe latine, après avoir pris possession des bibliothèques andalouses dotent ses anciens élèves de Tolède et de Grenade d'importantes sommes d'argent pour suivre les traces de leurs maîtres à la recherche de livres que ces derniers auraient pu emporter dans leurs bagages. L'Italie, la France, la Hollande etc... étaient le point de départ de tant d'expéditions à la recherche des manuscrits. Louis XIV envoie, en 1667, son ambassadeur DE MONCEAUX, à la recherche de manuscrits à Fès. Il récidive en ordonnant à son ambassadeur auprès de My Ismaïl de faciliter la tâche de son interprète dans la recherche des manuscrits à Fès. Ces actes se sont prolongés et reproduits avec le début de la colonisation française et continuent de nos jours. Les anciens

contrôleurs civils et les arabisants qui possèdent actuellement des bibliothèques en Europe ne sont plus à citer. Le courrier d'Oran nous rapporte qu'en 1885, quatre mille manuscrits soustraits aux bibliothèques marocaines sont acheminés vers la France à dos de mules.

Conscients du pillage des bibliothèques nationales, les Sultans alaouites s'efforcaient à récupérer les livres arabes en possession des chrètiens en utilisant toutes les forces et le pouvoir dont ils disposaient. Pour illustrer ces efforts qu'on trouve à travers l'histoire diplomatique marocaine, nous étudierons deux faits importants: les ambassades et les correspondances.

Les ambassadeurs marocains en Europe.

Toutes les ambassades adressées par les Souverains alaouites en Europe avaient pour mission de traiter, entre autres, les questions culturelles, dont le livre. Si nous suivons leurs pas et l'intérêt qu'elles ont manifesté ou accordé à la civilisation occidentale, nous remarquons que les livres faisaient partie de leur mission.

- La première ambassade de My Ismaïl

Le Sultan My Ismaïl accrédite El Haj Mohammed Tamime pour se rendre en France, auprès du roi Louis XIV, pour négocier la paix. Cette négociation aboutira à la signature du traité de Saint-germain de 1682. Or l'application de l'article 7 de ce traité ou plutôt l'interprétation et l'étendue qui lui seront données nous semble, en quelque sorte, avoir été influencée par les résultats de la visite d'El Haj Tamime à Paris.

Si on suit les pas de cet ambassadeur marocain on relève que les deux moments les plus importants de sa visite en France étaient l'audience que lui a accordée Louis XIV et ses différentes visites

dans les bibliothèques.

El Haj Tamime commence ses activités bibliologiques par une visite à la bibliothèque royale où il relève le grand nombre de livres arabes. Il demande ensuite à visiter la bibliothèque du collège de la Sorbonne où il prend également connaissance du fond arabe.

Enfin, il se rend à la bibliothèque du collège des quatre-Nations où la richesse du fond arabe lui fait dire qu'il y avait plus de livres arabes en France qu'au Maroc.

Mais avant de quitter Paris, El Haj Tamime visite deux imprimeries. Il demande à voir travailler les typographes et examine les caractères arabes avec émerveillement.

La période qui suit le retour d'El Haj Tamime au Maroc nous semble présenter une importance particulière pour le livre en tant qu'enjeu politique entre les Sultans alaouites et l'Europe.

Le roi de France, ayant certainement appris l'intérêt qu'accordait El Haj Tamime aux livres, et ayant été informé de la richesse du Maroc en manuscrits, envoie son interprète personnel à la recherche de livres à Fès dans le cadre de l'ambassade du baron Saint-Amans. Pétis de la Croix, l'interprète royal, débarque au Maroc avec de fortes sommes d'argent qu'il commence à distribuer à des nationaux pour rechercher, acquérir et faire copier des manuscrits arabes. Pour contrecarrer cette entreprise la personne de Tamime réapparaît, certainement sur ordre du Souverain alaouite, avec énergie et efficacité. L'intervention est faite par le makhzen avec diplomatie et méthode. C'est le Cadi de Salé qui saisit les manuscrits achetés par de la Croix et les soumet au contrôle. Une partie est retenue par les autorités et 30 seulement arrivent à Paris. Les raisons avancées par le makhzen traduisent également un savoir faire indéniable. La raison avancée est la suivante: les livres ont été copiés par les copistes non confirmés et ils contiennent des erreurs sur la religion. De ce fait, leur exportation

n'est pas souhaitable. L'ambassadeur français Saint-Amans, en date du 11 Juin 1683, rappelle dans ses correspondances, sans les citer, l'article 10 du traité de paix établi avec My Ismaïl qui garantit la liberté du commerce aux Français et conseille à son Souverain une précaution supplémentaire si la France désire avoir plus de livres du Maroc en soulignant que sur ce point les Marocains sont plus scrupuleux que les autres.

Cet incident étant clos, l'intérêt du Souverain alaouite se dirige vers les bibliothèques andalouses en Espagne et après de nombreuses négociations, My Ismaïl établit un traité avec l'Espagne pour l'échange de cent officiers contre cinq cents Marocains et cinq mille manuscrits arabes de la bibliothèque de l'Escurial. My Ismaïl envoie à cet effet Mohamed El Ouazir El Hassani, lettré et fin bibliophile, qui arrive à Madrid le 09 décembre 1690. Mais, sous l'influence des inquisiteurs, le roi d'Espagne Charles II confirme une décision de son conseil spécifiant que les livres arabes ne doivent pas être rendus au Maroc et qu'ils convient de les remplacer par des esclaves ou de l'argent. L'ambassadeur dépêche alors à My Ismaïl qu'il n'a trouvé à Madrid aucun manuscrit arabe.

Les négociations entre la France et le Sultan alaouite auteur du traité de paix de 1699 continuent. Le registre diplomatique s'est enrichi de quelques noms: Ben Aïcha, Saint-Olore, ... et bien d'autres. Mais c'est l'article 7 relatif à l'achat et à l'échange des prisonniers qui faisait échouer toutes les discussions. Chacune des parties entendait donner le sens qui servait le mieux ses intérêts. Le Sultan alaouite souhaitait récupérer tous les manuscrits et obtenir des armes. Alors que Louis XIV espérait ouvrir les ports marocains aux négociants français et avoir plus de manuscrits arabes qu'il en possédait déjà. La défiance et la méfiance continuèrent jusqu'à la fin du règne du Sultan alaouite.

Après le grand Sultan My Ismaïl l'intérêt pour le livre continue chez les Sultans alaouites. Les indications historiques à ce sujet

sont nombreuses. Une, cependant, nous paraît significative. elle nous est livrée par El Haj Driss El Amraoui, l'ambassadeur de sidi Mohammed ben Abderrahmane à Paris, en 1859, pour négocier et acheter des armes.

L'analyse du séjour d'El Amraoui, d'après sa rihla, nous révèle la préoccupation du Sultan. L'envoyé du Souverain a visité l'imprimerie royale (l'actuelle Imprimerie Nationale) dont il nous livre une description détaillée avec les différentes étapes de la réalisation d'une imprimerie. Ensuite, il se rend à la bibliothèque royale où on lui confirme l'existence de livres qu'il connaissait sans les avoir jamais vus et d'autres dont il ignorait l'existence. Enfin, il se rend à une maison de journal qu'il décrit avec soin.

Ces trois visites programmées dans le séjour d'un ambassadeur en mission témoignent de l'intérêt que porte l'émissaire à ce sujet.

El Amraoui nous donne une indication à laquelle il faut accorder une importance particulière. Il nous signale qu'il a déjà consulté, dans la bibliothèque de Sidi Mohammed Ben Abderrahmane, un ouvrage de grand format contenant tous les types de caractères qui se trouvent dans l'imprimerie royale française. Il s'agit du catalogue qui continu à paraître et qui constitue un véritable livre d'érudition. Un catalogue d'une imprimerie aussi importante que l'imprimerie royale française n'est pas une curiosité. C'est un outil de travail et de référence acquis par un Sultan qui envoie des émissaires à la recherche d'ouvrages arabes dans des bobliothèques étrangères. Quelques années après, le Maroc de Sidi Mohammd Ben Abderrahmane connaît l'introduction de l'imprimerie qu'El Amraoui souhaitait pour son pays mais celle-ci est venue par un autre chemin, celui de la Mecque, importée par un autre ambassadeur, El Haj Tayeb Roudani. Très vite, animé par le même souci, le Sultan la prend à la charge de l'Etat et inclut la formation des futurs imprimeurs dans ses conventions culturelles avec les

Etats.

En matière de livre, l'affaire qui reste célèbre dans les annales diplomatiques marocaines est celle de la bibliothèque de My Zidane. Elle se résume ainsi:
Contraint de se retirer devant Ali Mahalhi, My Zidane affrète, en 1612, un navire pour transporter sa bibliothèque de Safi à Agadir. Devant l'impossibilité de payer dans l'immédiat les 3000 Ducats de fret, le capitaine français Castalane prend la fuite la nuit. Des corsaires espagnoles l'arraisonnent au large de Salé et offrent leur butin au roi d'Espagne Philippe III qui met les 4000 livres à l'Escurial.

My Zidane n'a ménagé aucun effort pour récupérer sa bibliothèque. La lettre au roi de France Louis XIII reste célèbre dans l'histoire de la diplomatie maroco-française. My Zidane écrivait d'un ton ferme: "vous êtes responsable des forfaits de vos agents". Car le capitaine Castelane agissait en tant de consul français. Et le Sultan d'ajouter: "Si vous négligiez de vous employer à cette restitution et si vous ne teniez pas compte de notre avis, ce ne sera pas faute d'avoir été averti". La lettre de My Zidane témoigne de l'importance des livres chez le Souverain marocain et du rapport de force qui existait entre les deux nations.

La suite des négociations, malgré leur intensité, n'aboutit pas. Parallèlement à sa lettre à Louis XIII, My Zidane adresse une autre correspondance aux Etas-Généraux des Pays-Bas le 27 Juin 1612 leur demandant d'appuyer sa demande auprès du roi de France pour la restitution de sa bibliothèque. L'intervention hollandaise ne s'est pas faite attendre. Leur lettre parvient à la reine régente, Marie de Médicis, le 24 Mars 1614, lui précisant que Castelane, lors du vol, naviguait sous pavillon français et qu'il convient à la France donc de réclamer le contenu du chargement et de le restituer à son propriétaire. La lettre précise: "si l'on pouvait rendre au moins les

livres". L'intervention française s'opposait au refus catégorique de l'inquisiteur et du conseil d'Etat.

L'affaire de la bibliothèque de My Zidane altère pendant longtemps les relations entre le Maroc, la France et l'Espagne.

Depuis, les Sultans Alaouites n'ont cessé d'intégrer la récupération des livres de My Zidane dans leurs négociations avec l'Europe.

L'intervention de My El Ouardi ben Zidane, en 1631, ne donne aucun résultat. Vingt ans après, My Mohammed offre, en 1651, en échange de ces livres la construction d'une église à Marrakech mais se heurte, une fois de plus, au refus de l'inquisition.

A travers ces quelques exemples, nous avons voulu mettre la lumière, même rapidement, sur un aspect de l'histoire culturelle du Maroc sous la Dynastie Alaouite. Le sujet est riche et mérite plus d'approfondissement. Nous y reviendrons ultérieurement.

Moulay Ismaïl et l'Europe

BABA Sahbi
Faculté des Lettres Oujda

Parmi les éminents Souverains Chérifiens Alaouites qui ont marqué l'histoire en général et le XVII°siècle en particulier, Moulay Ismaïl fait figure de proue; en effet, Moulay Ismaïl s'impose comme le fondateur de l'Etat du Maroc et le promoteur d'une activité intellectuelle florissante.

Dans notre communication, nous traiterons des rapports qui ont régi le Royaume Chérifien et l'Europe sous le règne de Moulay Ismaïl.

En effet, des relations économiques, culturelles et diplomatiques s'établirent tout au long du règne de Moulay Ismaïl entre le Royaume Alaouite et les pays européens (notamment la France, l'Angleterre et l'Espagne), et des traités d'amitié, de paix, de non agression et de coopération furent signés.

Grâce à ce grand Monarque, la réputation d'un Royaume du Maroc fort, stable et prospère a connu un réel retentissement à travers toute l'Europe.

Dans la mémoire collective universelle, Moulay Ismaïl s'inscrit comme un Souverain légendaire. Et à ce propos, M. Brahim Boutaleb écrit ces lignes très révélatrices et ô combien judicieuses:

"Il faut interpréter comme un des signes de la grandeur de Moulay Ismaïl le fait que la légende se soit emparée de lui, et que certains aspects de détails de sa personnalité aient été avec le temps démesurément grossis (...). Grand Prince, Moulay Ismaïl l'est d'abord par ses qualités personnelles" (Histoire du Maroc, Hatier, 1967, pp. 240-241)

Grand Monarque et personnage de légende donc, Moulay Ismaïl l'est surtout grâce à sa foi inébranlable en Dieu et à son œuvre, car en effet, dès qu'il succéda à son frère Moulay Rachid -décédé accidentellement à Marrakech- le 16 Avril 1672 (Moulay Ismaïl n'avait alors que 26 ans étant né en 1646), il régna sur le Maroc et le gouverna de façon équitable mais déterminée, 55 ans durant. Il pacifia le Maroc, soumit les tribus dissidentes et débarrassa le Royaume de tous les hors-la-loi, le parcourant à cheval 24 ans durant, de la méditerrannée au fleuve Sénégal et de l'océan atlantique à l'Oranie (il campa à Oujda deux fois, en 1676 et en 1679). Il organisa de manière fort judicieuse la première armée moderne d'Afrique, assura la sécurité à tous ses sujets sans distinction de race ou de religion, libéra les ports de Méhdiya, de Tanger, de Larache et d'Assilah occupés par les puissances européennes, et construisit villes, villages, palais de gouverneurs, mosquées, écoles, hôpitaux, routes; ... bref, il renforça son pouvoir temporel et religieux, étant bien entendu l'Emir des Croyants, et fonda les prémices d'un Etat moderne voué à la pérennité.

S'inspirant des descriptions et des portraits fait de Moulay Ismaïl par Georges Mouette en 1681, par J.B. Estelle en 1690, par Pidou de Saint-Olon en 1693, et enfin par le diplomate John Winders en 1721, M. Younès Nékrouf retint les caractéristiques suivantes, formulées avec beaucoup de finesse:

"De taille moyenne, Moulay Ismaïl était svelte et élancé. Il le restera toute sa vie grâce 'à une pratique permanente des exercices du corps', telles les fantasias, la chasse, les passes d'armes, les joutes et une sobriété exemplaire. De teint mat, son visage est beau, caractérisé par un front haut, des yeux noirs au regard vif, un nez aquilin aux narines bien ourlées, des lèvres à la fois sensuelles et dédaigneuses, le tout souligné d'une barbe taillée avec soin.

Il s'habillait simplement, comme l'un quelconque de ses sujets (...). Sa simplicité était telle qu'il dédaignait le luxe et, même,

le confort (...). Il mangeait peu, se contentant le plus souvent, et pour la journée, d'un plat de couscous aux pigeons qu'il aimait bien (...)". (Y. Nékrouf, Moulay Ismaïl et Louis XIV, Paris, Albin Michel, 1987, pp. 240-242)

Ajoutons à cela le fait que Moulay Ismaïl fut un souverain pieux et docte; il assurait personnellement les prêches et sermons du vendredi et des fêtes religieuses, exhortant les croyants à plus de religiosité et de droiture.

Toutefois, étant un Grand Monarque et un Prince de légende, Moulay Ismaïl ne manqua point de se faire des détracteurs qui propagèrent de sa sainte personne une image négative. Ce furent en fait les captifs chrétiens et leurs moines rédempteurs qui donnèrent de lui une image dépréciative colportée par des auteurs égarés tels Pidou de Saint-Olon et le Père Busnot.

S'exprimant à ce sujet et réfutant objectivement toutes les fausses allégations, l'éminent historien et professeur M. Mohammed El-Fâsi écrit à la page 6 de sa brillante étude intitulée "Moulay Ismaïl" (1962):

"Ce qui poussait ces auteurs à lui prêter cette image, c'est qu'ils ajoutaient foi aux dires des captifs européens qui, naturellement, étaient traités à la manière de l'époque, c'est-à-dire par la violence, à titre de représailles. Mais cette violence ne dépassait guère celle que subissaient les prisonniers musulmans en captivité dans les pays chrétiens... Chacun de ces prisonniers, remis en liberté et de retour dans sa patrie, se mettait à décrire, avec exagération, les épreuves qu'il avait endurées (...)".

En plus de l'étude de M. Mohammed El-Fâsi, d'autres historiens occidentaux, non moins éminents, s'attachèrent dans leurs travaux spécialisés à rendre justice à ce grand souverain, et notamment le

Comte Henry de Castries, le Père Henry Koehler, Budget Meakin, Charles-André Julien, Magali-Morsy, Defontin-Maxange, Jacques Berque, Anne Thompson et beaucoup d'autres. Ainsi, le Comte Henry de Castries écrit aux pp.12 et 16 de sa très fameuse étude intitulée Moulay Ismaïl et Jacques II, éditée à Paris en 1903:

"Pour trouver un Souverain auquel ce sultan du XVII siècle puisse être comparé, il faut remonter dans le passé (...) au règne de Salomon (...) ; les voyageurs et les agents chrétiens ont (...) tracé de Moulay Ismaïl des portraits poussés au noir (...). Ce prince que l'historien El-Ifrâni regarde comme "le médaillon du collier précieux qu'ont formé les illustres enfants de Moulay Ech-Chérif", ce prince dont la mémoire est encore aujourd'hui vénérée au Maroc où il est appelé le grand et le pieux Sultan..."

Et ainsi Anne Thompson, qui en substance insiste sur l'impact fructueux laissé par le règne de Moulay Ismaïl outre-Méditerranée: [permettez-moi de citer le texte original encore non-traduit et édité en 1987]:

"North Africa was not in 'civilised' European eyes in the early Eighteenth century, a savage region; it was not an area to which European travelled in search of marvels and mysteries (...). It was not, in short, a land for exploration (...). It was instead a region with wich Europe had numerous and continuous contacts throughout history and was an integral part of mediterranean civilisation." (A. Th. Barbary and Enlightenment, vol. 2, E.J. Brill, New-York, 1987, pp. 1-2).

Ces esquisses de portrait du Moulay Ismaïl seraient injustement succinctes si nous n'y porterions quelques traits soulignant sa grande tolérance religieuse relevés par le Comte Henry de Castries qui écrit à la page 31 de Moulay Ismaïl et Jacques II:

"S'il voulait amener ses interlocuteurs chrétiens à reconnaître et à proclamer la vérité de l'Islâm, c'est par le raisonnement et non par la violence",

et par Jacques Berque aussi, qui note à la page 257 de son ouvrage: Ulémas, fondateurs, insurgés du Maghreb (1982):

"Un Juif passant dans la rue, s'il est menacé, n'a qu'à invoquer le visage du Roi, et le bras menaçant retombe, aussitôt inerte..."

Certes, les rapports entre le Souverain Alaouite et les monarques des pays d'Europe, et notamment l'Espagne, la France, la Hollande et l'Angleterre, furent traditionnels, empreints tantôt d'amitié, tantôt de discorde, voire de bellicisme; à cet effet, il y eut certes des accords et des traités signés entre le Royaume Chérifien et ces pays, accompagnés d'envois mutuels d'ambassadeurs et de présents; aussi tenterons-nous de brosser à grands traits les esquisses de ces rapports diplomatiques tumultueux, voire passionels.

Notons au préalable que déjà sous le règne de Moulay Rachid, l'Angleterre, la Hollande et la France entreprirent des tentatives ayant pour objet de contracter des traités de paix et de commerce avec leRoyaume Chérifien. Par ailleurs, Moulay Ismaïl, au lendemain de son accession au trône alaouite s'informa

amplement et méticuleusement de la situation en Europe et s'assigna comme objectifs diplomatiques l'établissement de rapports amicaux entre le Royaume et l'Europe.

Toutefois, la libération inexorable des ports marocains occupés par l'Angleterre et l'Espagne constituait pour Moulay Ismaïl la priorité des priorités; ainsi dès 1679, le Souverain amorça judicieusement le processus de libération de ces territoires; il reprit en effet la Maâmora aux Espagnols qu'il baptisa Méhdiya le 30 avril 1681, et Tanger aux Anglais de Charles II, le 16 février 1684; de plus, il récupéra Larache le 1er novembre 1689 et Assilah l'année suivante, occupées par les Espagnols.

A côté de ces rapports belliqueux, le Maroc et l'Europe connurent des périodes d'accalmie, d'amitié, de paix et de commerce et des accords furent négociés avec la France en avril 1681 et en janvier 1682 (il s'agit du fameux traité de Saint-Germain signé, le 29 janvier 1682 par l'ambassadeur marocain El-Hajj Mohamed Temim, discrètement, sans même en aviser le Souverain du Maroc); en outre un accord fut signé avec Guillaume III, Roi d'Angleterre, au début de 1700; puis, en 1702, un traité de paix fut signé avec la Reine d'Angleterre, Anne Stuart.

Ces accords et ces traités, ratifiés ou pas, furent décidément suivis d'envois mutuels d'émissaires, de consuls et d'ambassadeurs conformément à la bonne tradition diplomatique.

Cependant, c'est bien avec la France de louis XIV que le Souverain Chérifien souhaitait renouer des liens indéfectibles, car il connaissait bien "ce grand Roi des Roums" comme il aimait à le nommer, l'appréciait et admirait en lui son absolutisme, sa politique de "prestige et de gloire", sa victoire retentissante sur les Espagnols en Flandre et surtout son alliance avec l'Empire Ottoman. Toutefois, et monobstant le régulier échange épistolaire et les multiples

tentatives d'établissement de relations diplomatiques stables et prospères, les deux monarques n'arrivèrent que rarement à s'entendre, à communiquer convenablement. George Hardy résume fort admirablement le malentendu diplomatico-personnel entre ces deux Souverains dans son étude intitulée "les Relations de la France et du Maroc sous Louis XIV":

"Il est clair, en fin de compte, que si la diplomatie de Louis XIV s'est distinguée dans ses rapports avec le Maroc, c'est bien par sa maladresse, son incompréhension des gens et des choses au Maroc, son manque d'égards et de précautions élémentaires. On a le sentiment qu'il y avait là une belle partie à jouer, et que l'orgueil du Grand Roi (entendez Louis XIV) et de ses agents a tout fait manquer".

Ces relations diplomatiques furent d'autant plus précaires qu'elles ne résistèrent point à la controverse et à l'alliance franco-espagnole, elles furent rompues en 1718, et ce 3 ans après la mort de Louis XIV (la France était régentée alors par Philippe d'Orléans); ce qui favorisa ipso facto une florissante activité commerciale anglo-hollandaise avec leRoyaume alaouite.

Les rapports entre Moulay Ismaïl et Louis XIV étaient passionnels et manquèrent, à cause de tant d'orgueil et de fierté, de faire de leurs deux pays des alliés respectables.

Leur échange épistolaire nous révèle fort judicieusement le malentendu récalcitrant qui caractérisait leurs relations, aussi nous permettons-nous, en guise de conclusion à cette modeste communication-inspirée principalement du superbe ouvrage de M. Younès Nékrouf (intitulé, Une amitié orageuse-Moulay Ismaïl et Louis XIV, Paris, Albin Michel, 1987), de vous entretenir de trois lettres adressées par le Monarque alaouite à Louis XIV: la première soulignait l'attachement indéfectible du Souverain Chérifien aux Marocains détenus en France, elle date du 14 décembre 1682 et dit

en substance:

"Les grandes âmes seules connaissent le mérite des grandes âmes, et ceux qui ne possèdent point cette véritable grandeur ne connaissent pas ce qui est dû à ceux qui la possèdent... Si votre ambassadeur et ceux qui l'ont accompagné à notre sublime Cour eussent amené avec eux quelques-uns des captifs Marocains qui souffrent sur les galères de France, nous aurions été plus satisfait que de toutes choses du monde, parce que une de nos plus grandes joies est la liberté d'un captif...".

La deuxième, elle, fut envoyée à la mi-novembre 1699 et corrobore parfaitement l'attachement du Souverain alaouite aux valeurs de l'esprit, aux livres et au patrimoine culturel arabo-islamique marocain; dans cette lettre, Moulay Ismaïl proposa en substance à Louis XIV un échange: la libération de tous les Français prisonniers à Meknès, contre la remise au Maroc des livres arabes se trouvant dans la bibliothèque Royale et dans les bibliothèques de la Sorbonne et du Collège de France (Anciennement Collège des Quatre-Nations).

La troisième, enfin, fut envoyée beaucoup plus tôt, le 15 septembre 1681 notamment; elle fit couler beaucoup d'encre et dit en substance:

"Au nom du Dieu Clément et miséricordieux!
De la part du serviteur de Dieu Tout-Puissant, Ismaïl, fils du Chérif le Hassani.
A Louis, Roi de France, Empereur des 'Roums'. La paix soit sur celui qui a suivi la vraie religion!
Après tous les compliments. Nous avons lu dans l'un de nos livres, où nous avons trouvé entre autres une lettre de notre Prophète et Seigneur Mohammed -à qui Dieu fasse paix- qu'il avait écrite à votre grand, grand et antigrand bisayeul Héraclius, par laquelle il

l'incitait à embrasser la religion de Mohammed (...).

Je vous invite à vous rendre à notre religion, pour laquelle vous a incité notre aimable Prophète, Seigneur de la vraie direction et véritable chemin. C'est que je suis obligé de vous le dire. Si vous le faites ou non, c'est à vous d'y songer. Cela étant, vous méritez tout ce qui est écrit dans la lettre de notre Prophéte, à qui Dieu fasse paix!

Il n'y a autre chose que cela, et la paix vous soit donnée. Cette lettre a été signée par la propre main du Roi du Maroc et datée le 2ème du mois sacré de Ramadan, l'an de l'Hégire 1092, qui est de Jésus-Christ le 15 septembre 1681. Elle a été traduite par Pierre Dipy, d'Alep, secrétaire et interprète du Roi."

Une lettre similaire sera envoyée par le Chérif à Jacques II, ex-Roi d'Angleterre, datée du 26 février 1698 (Jacques II fut destitué par Guillaume III en 1688 et se réfugia à Paris).

Cette troisième lettre, pour le moins surprenante, connote certainement l'attachement indéfectible du Souverain alaouite aux valeurs de l'Islam et sa foi inébranlable en Dieu.

Aussi terminons-nous sur une citation remarquable, celle de M. Younès Nékrouf (p. 244) qui a su exprimer ce qui demeure mystérieusement enfoui dans les aclôves de l'histoire:

"Si les auteurs européens se sont accordés pour souligner l'habileté politique de Moulay Ismaïl, ils ne se sont jamais préoccupés d'en déceler les ressorts. C'est qu'elle procédait de la foi religieuse profonde du Chérif. Cette foi ardente dont le dogme principal, tant de fois répété dans le Coran, "interdire le mal et ordonner le bien", guida ses pas et fut à la base de tous ses comportements et de toutes ses entreprises".

Université Mohamed Premier
Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines
OUJDA - N° 8 -
Série : Colloques et Séminaires - N° 3 -

Colloque :

ACTIVITE INTELLECTUELLE SOUS LE REGNE DE LA DYNASTIE ALAOUITE

(17 siècle - 19 siècle)